جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بالمنوفية
قسم الأدب والنقد

أسس بناء القصة من القرآن الكريم

دراسة أدبية ونقدية

رسالة مقدمة لنيل درجة العالمية (الدكتوراه)

في الأدب والنقد

إعداد الباحث

محمد عبد اللاه عبده دبور

المدرس المساعد بقسم الأدب والنقد بالكلية

إشراف

الأستاذ الدكتور

فتحي محمد أبو عيسى

أستاذ الأدب والنقد وعميد الكلية

١٤١٧ هـ - ١٩٩٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

"سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم"

قرآن كريم

إهداء

إلى والدىّ الرحيمين اللذين وهبانى سبب الحياة وربيانى صغيرا

إليهما معا أهدى هذه الرسالة ، داعيا الله – سبحانه– أن يجعل لهما من ثوابها نصيبا موفورا

محمد دبور

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين

أما بعد

فلم يحظ كتاب من الكتب المقدسة أو غير المقدسة بمثل ماحظى به القرآن الكريم من دراسات ، حيث نال عناية طوائف عديدة من العلماء منذ نزوله حتى اليوم، وسيبقى محل عناية الدارسين واهتمامهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

هذه العناية وذلك الاهتمام ليسا بالأمر الغريب ، فلم يعرف على مدى التاريخ كتاب كان سببا مباشراً في بناء حضارة، وتأسيس ثقافة مميزة غير القرآن الكريم، وقد شاء الله – سبحانه – أن يكون القرآن معجزة الإسلام الخالدة، وأن يحتوى كثيراً من القيم التاريخية والعلمية والأدبية، وهذه القيم تمثل نوعا من الأسرار، شاء الله – سبحانه – أن يكشف في كل عصر بعضها على يد بعض من عباده ، ولعل ذلك هو السر في تدفق سيل المؤلفات والدراسات التي تخرجها أفواه المطابع في كل يوم من الأيام، فكل يؤمل أن ينفحه الله بعض نفحاته عن هذا الكتاب المعجز .

ولكن الملحوظ أن كل من يتصدى للكتابة عن القرآن يبدأ وينتهي باعتذار عن التقصير، ويختم دائما يرد العلم إلى – سبحانه – وليس ذلك من قبيل تواضع العلماء، بقدر ماهو راجع إلى إحساس حقيقي بنوع من التقصير أو العجز عن فهم أسرار هذا الكتاب .

وحسب المرء أن يتطلع إلى دراسة قرآنية يجلو بها بعض غوامض القرآن، أو يكشف بعض أسراره، وإن باب القصص القرآني لفسيح، وساحته لرحبة، تتسع لعشرات الدارسين والباحثين، فما على المرء إن ولجه وحط بساحته، مادام يملك أدوات الدخول، ويعرف الطريق إلى الساحة، ومادام يستشرف نبل المقصد، وطهارة الغاية، فامتلاك الأداة، وحسن النية، ونبل القصد، كلها كفيله ببلوغ المراد كله أو بعضه على الأقل .

وثمة بواعث حفزت الباحث إلى دراسة القصص القرآني هي :

١ – أن القصة الفنية شاعت في العصر الحديث، بما تحمل من مباذل ومفاسد كادت تهدم الأخلاق وتقوضها من أساسها، وأن شيوعها أو شك أن يوارى وجه الشعر العربي

الذى اعتزبه العرب على مدار العصور، وتعاقب الدهور، حتى رفع كثير من دعاة الأدب عقيرتهم منادين أو متفاخرين : بأننا أصبحنا نعيش عصر الرواية، أى أن الشعر قد ولى زمنه ، وتراجعت مكانته بين الفنون القولية .

٢ – أن من أهم القضايا المثارة فى الساحة الأدبية مايسمى : الأدب الإسلامى، وهى قضية شائكة ، والخوض فيها يشبه المشى على الشوك، يدمى الأقدام، ويجعل بلوغ الغاية أمراً جد عسير، ومن أهم جوانب هذه القضية أن بعض المتحمسين لها يريد أن يبدأ التنظير لها من يومنا الحاضر، دون أدنى التفاتة إلى تراث أسلامنا الأ ماجد .

وهذه النظرة – التى تقطع الرحم بين الماضى والحاضر – تأتى فى وقت يرى فيه أحد المستشرقين خلاف مايرى الدارس العرب المسلم، إذ يقول : «إذا أراد الناقد أو المنظر العربى أن يقتبس من الفكر الغربى فإن عليه – فى البداية – أن يرجع إلى أصله العربى، وأن يفهمه فهما بنائيا ، أن يعى مسئوليته الخاصة فيما يتعلق بالموازنة بين عبء الماضى وقلق الحداثة، وهذا هو منهج المنظر والناقد الغربى فى نفس الوقت ، فالوعى بين الثقافة الأصيلة وتيار التجديد مسئولية كبيرة يتحملها الناقد والمنظر العربى " (١)

٣– الرغبة فى الإسهام فى وضع تصور لمنهج أدبى يحكم فن القصة إبداعا ونقدا، ولا يخفى أن أهم وجوه الإعجاز القرآنى بلاغته، التى تتقاصر دونها قدرات المبدعين من البشر مهما أوتوا من فصاحة وبيان ، والقرآن هو المثل الأعلى لفنون القول المتعددة، ومنها القصة بطبيعة الحال، ولم لا يكون تميز القصص القرآنى أدبيا استمرارا لإعجاز القرآن ، خاصة أن علماء الإعجاز نصوا على أن التحدى بالقرآن مستمر فى كل العصور وليس مقصورا على زمن النبوة وحده ؟

٤– أن بعض كتاب القصة فى الأدب العربى الحديث قد انعطفوا ناحية القصص القرآنى ، يستوحونه ويتمثلونه، وينسجون على منواله، فكان أحدهم يأخذ القصة القرآنية، ويصوغها فى قالب عصرى ويغير من أحداثه، وأسماء شخوصه، وربما يخرج بها عن المنهج القرآنى فى الغاية والبناء الفنى على السواء .

---

(١) من حوار مع المستشرق الأمريكى ياور سلاف ستيتكفيتش أستاذ الأدب العربى بجامعة "شيكاجو" الأمريكية، أجرته : سلوى العنانى ، وعنونت له : " الاستشراق الأمريكى والأدب العربى " مع عنوان جانبى :"الأصل فى النقد هو العودة إلى الجذور وموازنتها بالجديد" < محق أهرام الجمعة بتاريخ ١٩٩٦/٨/١٣، ص : ٣ .

٥- أن بعض الذين درسوا القصص القرآني قد انحرف عن طريق الجادة ، وسار على غير هدى فقال فى القرآن مالا يصح قوله، لذا كان من عناية هذا البحث تفنيد بعض المزاعم الفاسدة التى لم تحظ بعناية الدارسين عناية مستحقة .

وكانت هذه البواعث - مجتمعة- وراء التوجه إلى جعل هذه الدراسة عن القصص القرآني دراسة فنية فى معظمها ، ولعل عنوانها يوضح الهدف منها، وأنه هدف فنى فى المقام الأول و فالهدف الرئيس منها يتمثل فى : استخلاص الأسس الفنية للقصة من القرآن الكريم، وذلك من خلال :

أ - استعراض القصص القرآني فى توافق بنائه وأساليبه مع مضامينه ومراميه .

ب- عرض القواعد التي وضعها النقاد للقصة على القصص القرآني ، وبيان ما يستقيم منها معه ومالا يستقيم ، وبيان ما يتضمنه من القواعد التى يمكن إضافتها إلى فن القصة.

وللوصول إلى هذا الهدف الأساسى تستعين الدراسة بعرض بعض عناصر القصة على القصص القرآني- من الناحية التطبيقية - وبعض الأجناس الأدبية ، لبيان دور القرآن الكريم فى التأصيل لهذه العناصر.

كما تعنى الدراسة - أيضا - ببيان المقاصد والأهداف التى ورد القصص القرآني من أجلها بما يوضح : تناسب الهدف من القصص القرآني مع الغاية من القرآن ، وانتخاب الأحداث فى القصة القرآنية، وتكرارها، مجملة أحيانا، ومفصلة أحيان أخر .

ومن الطبعى أن يكون المنهج الفنى هو المتبع فى هذه الدراسة ، غالبا، فلابد أن يكون بين الوسيلة والغاية تناغم واتساق، وليس معنى هذا أن ننظرإلى القرآن بوصفه نصا أدبيا فقط، يعرض على مناهج الدراسة الأدبية كما لو كان نصا أدبيا من صنع البشر.

إن القرن الكريم كتاب دين وتشريع فى المقام الأول ، وقيمه الدينية والتشريعية هى المقدمة على كل ما عداها، ولكن ينبغى أن نذكرأن النظرة إلى القرآن الكريم قد انفسحت- فى العصر الحديث - فصارت تشمل القيم التاريخية والعلمية والأدبية ، بالإضافة إلى القيم الأساسية ،أعنى القيم الدينية والتشريعية ، ومن هنا رأينا كثيرا من

الدراسين يربطون بين القرآن الكريم والعلوم الطبعية، بل إن بعض المفسرين يقيم تفسيره على الناحية العلمية وحدها. كما يربط الدراسون- أيضا - بين القرآن الكريم والدراسات الأدبية الفنية، فكلمتا:"العلم" و"الفن" أصبحنا مستعملتين فى الدراسات الخاصة بالقرآن الكريم .

ومع ذلك ينبغى أن نفهم كلمة"الفن" على وجهها الصحيح،المصفى من الأكدار والشوائب ، لا على الوجه المشوب بالرتق والمباذل ، إن الشعر فن ، والخطابة فن، وكتابة الرسالة فن، والمقال فن ، والقصة فن، هذه كلها فنون قولية لها قواعد وأصول، أماما يصافح أسماعنا، ويقتحم أبصارنا من خلاعة ومجون فلا مجل لأن يسمى فنا، ومن أسف أن كلمة "الفن" إذا أطلقت اليوم انصرفت لدى كثير من الناس إلى ما يرونه على يد ممثل خليع، أو امرأة مستهترة، أو غير ذلك، مما لا يدخل - بحال- فى باب الفنون الجادة .

إن التوجه إلى القصص القرآنى بوصفه موردا نستقى منه أسس فن القصة لا يعنى أن نتعامل مع القرآن على أنه كتاب قصص و تسلية، ولكن لا ينبغى أن ننسى " أن معجزة القرآن معجزة بيانية أساسا، ولهذ لا ينبغى أن ننكر عليه أن يكون من مقاصده الإتيان بفنون وألوان من فن القصة ، ولا نستبعدها عليه، بل المنتظر أن يكون ما يأتى به منها ليس كمثله شئ ، ولا يطاوله فن (١) "

ومن صدق التوجه، بل من سلامة المنهج أن ننبه إلى أمر فى غاية الأهمية وهو: أن القيمة الدينية مقدمة دائما على القيمة الفنية ، فى دراستنا للقصة القرآنية ، بل كان السعى إلى إثبات تسخير الفن فى خدمة الدين والعقيدة فى قصص القرآن أساسا قويا من أساسيات منهج هذه الدراسة، ولو كان العكس لفسد المنهج ، وشاهت النتائج تبعا لفساد المنهج .

وقد اعترضت طريق البحث صعوبات منها :

١- أن البحث فى القرآن الكريم ودراسته أمر يكتنفه صعوبة بالغة، فالكلمة عن القرآن الكريم لها حسابها فى الدراسة، فهى محسوبة على الباحث دائما، ولا يجوز لدارس القرآن أن يلقى الكلام على عواهنه، دون سند من آراء العلماء والمفسرين، بل لا يجوز أن

---

(١) بدائع الإضمار القصص فى القرآن الكريم ، د: كاظم الطواهرى، ط: دار الصابونى، ودار الهداية، الطبعة الأولى ، ١٩٩١م ، ١٤١٢هـ ، ص ٧٤ .

يسترسل في فهمه الشخصي لآيات القرآن دون أن يقف على مدلولات اللغة، خشية أن يصادم حقيقة من الحقائق المقررة عن القرآن .

٢- كثرة المراجع والدراسات التي تناولت القرآن الكريم، وجلها يميل إلى الدراسة الموضوعية ، التي تعنى ببيان الجانب الموضوعي في القصص ، قليل جدا من هذه المراجع والدراسات هو الذي تناول أصحابه القصص القرآني بالدراسة الفنية، وهذا القليل كان أمامي دائما استهدى به ، وأعود إليه على نحو ما هو واضح في صفحات البحث .

٣- أن دراسة القصة في الأزهر مازالت محدودة إلى حد كبير ، ، والتصدى لمثل هذه الدراسة يستدعي ألماما واسعا بالقواعد الفنية لكل من القصة والمسرحية، وهذا أمر تطلب كثيرا من الوقت والجهد في بداية التسجيل لهذا البحث .

وبالتغلب على هذه الصعوبات - بعون الله وتوفيقه- خرج هذا البحث في ثلاثة أبواب يسبقها مقدمة تمهيد ، وتليها خاتمة البحث ونتائجه.

وجاء التمهيد ذا شقين :

أ- عن فن القصة تاريخا وبناء ، تناوت فيه فن القصة في الأدب العربي ، في عصوره المختلفة ، من الناحيتين التاريخية والفنية .

ب- القصص القرآني في دراسات السابقين، وهم : المفسرون، والمؤرخون، والبلاغيون وعلماء الإعجاز، وأخيرا الدارسون المحدثون.

وجاء الباب الأول : تحت عنوان : دراسة القصص القرآني ، وفيه مبحث واحد يقوم على عدة محاور :

أولها: عني ببيان تناسب القصص القراني وغايات التنزيل .

ثانيها: عني بالبحث عن أسرار انتقاء الأحداث في القصة القرآنية .

ثالثها: عني ببيان أوجه التكرار في القصص القرآني ، وبيان الغرض منه .

رابعها: عني بالبحث في خصيصة الإجمال والتفصيل .

وجاء الباب الثاني تحت عنوان البناء الفني للقصة القرآنية.

ويندرج تحت هذا الباب ثلاثة مباحث:

المبحـــث الأول : المشاهد والمواقف والأحداث.

المبحث الثاني : الشخوص والنماذج البشرية .

المبحث الثالث : الحوار والسرد .

ويعتمد هذا الباب بمباحثه الثلاثة على التحليل المبسوط لكثير من القصص القرآني، مع التركيز على بيان القاعدة الفنية من خلال عدد من المواقف القصصية ، وبيان موقف القرآن الكريم في استخدام القاعدة، وما إذا كان يتفق مع القصة الفنية في هذا الاستخدام أولا. ومن الطبعي أن كل مبحث يمثل محورا مستقلا في الدراسة .

وجاء الباب الثالث بعنوان : تطبيقات ، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحـــث الأول : طبيعة المشهد في القصة القرآنيةونظيره في الأجناس الأدبية .

المبحث الثاني : طبيعة الحوار في المشهد القصصي في القرآن ونظيره في الأجناس الأدبية .

المبحث الثالث: الحوار والسرد في القرآن الكريم والفن القصصي .

ولم أرد – من هذه التطبيقات– الموازنة بين القصص القرآني وغيره من الأجناس الأدبية فبدهي أن الموازنة هنا غير واردة، وأين الثرى من الثريا ؟؟، وينبغي أن ينزه القرآن عنها. وإنما أردت أن أعرض القاعدة القصصية على القصص القرآني وغيره من الأجناس الأدبية، لأن ذلك يوضح فضل القرآن في التأصيل لهذه القاعدة أو تلك.

وأخيرا تأتي خاتمة البحث متضمنة أهم النتائج التي توصلت إليها الدرسة .

ومن فضل الله – سبحانه – أن من علي بوجود عدد من المعاونين المخلصين، الذين كانت لهم على اليدالطولى في إخراج هذا البحث، أخص منهم أساتذتي الأفاضل في قسم الأدب والنقد بالكلية، وكم كانت الحلقات العلمية التي عقدت في القسم فرصة طيبة لإسداء النصائح الموجهة، الهادية إلى طريق البحث الصحيح وأخص من هؤلاء الأساتذة:

أستاذى الفاضل العالم الجليل، الأستاذ الدكتور: فتحى محمد أبو عيسى، عميد الكلية، والمشرف على هذا البحث ، وإنى لأعد إشرافه على بحثى نعمة أسبغها على ، وفضلا تفضل به ، كما أخص منهم أيضا، الأستاذ الدكتور كاظم الظواهرى، الذى بسط لى فكرة هذا البحث فى البداية ، وعاوننى فى إعداده بكثير من الكتب والمراجع التى أفدت منها كثيرا .

وبعد

فأرجو أن أكون قد وفقت فى إخراج هذا البحث على وجه قريب من الصحة، يساوى ما أنفق فيه من وقت وجهد .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

الباحث

محمد عبد اللاه عبده دبور

تمهيد

أ – فن القصة تاريخاً وبناء

ب – القصص القرآنى فى دراسات السابقين

اختلف دارسو الأدب حول وجود القصة فى الأدب العربى قبل العصر الحديث اختلافا يصل إلى حد التناقض ، فمنهم من ينكر وجودها إنكاراً تاماً ومن هؤلاء : الدكتور محمد غنيمى هلال (١) ، والأستاذ أحمد حسن الزيات (٢) ، وأحمد أمين(٣) ، ومنهم من يؤكد وجودها ويرفعها إلى مستوى قصصى راق، ومن هؤلاء الأستاذ محمود تيمور(٤) ، والدكتور على عبد الحليم محمود (٥)، والدكتور عبد الحميد إبراهيم محمد(٦)، والأستاذ محمد مفيد الشوباشى(٧) والدكتور الطاهر أحمد مكى (٨)، ومنهم بعض المستشرقين مثل كارل بروكلمان(٩) .

ولست بصدد مناقشة آراء هؤلاء وأولئك ، ولكنى أشير إلى بعض الأمور المهمة

الأمر الأول :

أن المنكرين لوجود القصة فى الأدب العربى القديم متأثرون إلى حد كبير – بنظرية العالم الفرنسى (تين) التى تقوم على أساس "أن هناك عوامل نفسية وطبعية ترجع إليها خصائص كل شعب فى أدبه وفنه ، وهذه العوامل هى : الجنس ، والبيئة والقوة الموجهة للعصر والمكتسبة فيه، والجنس هو أهم هذه العوامل ، إذ هو الاستعدادات الفطرية التى تميز مجموعة من الناس انحدروا من أصل واحد (١٠).

وطبقاً لهذه النظرية فإن التفاوت بين الأجناس تفاوت شاسع ، «فهذا جنس آرى ممتاز وذلك جنس سام أقل منه ، هذا جنس آرى قد منحه الله الدهشة نحو العالم ،

---

(١) انظر : الأدب المقارن ط دار نهضة مصر ، الطبعة الثالثة ص ٢١٤ .
(٢) انظر : تاريخ الأدب العربى ، مطبعة الرسالة ، الطبعة الحادية عشرة ص ٣٧٩ .
(٣) انظر : النقد الأدبى ، مطبعة المعرفة، الطبعة الرابعة ١٩٧٢م ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ .
(٤) انظر : القصص فى أدب العرب ماضيه وحاضره، المطبعة الكمالية ١٩٥٨ م ص ٢٦ ، ٢٧ .
(٥) انظر : القصة العربية فى العصر الجاهلى ، ط دار المعارف ط الثانية ١٩٧٩ ص ٦١ وما بعدها .
(٦) انظر : قصص العشاق النثرية فى العصر الأموى دار المعارف ١٩٨٧ م ص ٩ وما بعدها .
(٧) انظر : القصة العربية القديمة ، ط دار القلم القاهرة ١٩٦٤ ص ٣ .
(٨) انظر : القصة القصيرة دارسة ومختارات ، ط دار المعارف ، ط الأولى ١٩٧٧ م ص ١٨ .
(٩) انظر : تاريخ الأدب العربى ، ترجمة ، د. عبد الحليم النجار، ط دار المعارف ١٩٦١ م ط ١٢٨ وما بعدها .
(١٠) الأدب المقارن د. غنيمى هلال ص ٦٠ ، ٦١ بتصرف .

وأفاض عليه العاطفة المشبوبة ، والخيال الواسع فأخرج للإنسانية القصص الرائعة ، والمسرحيات الذائعة، وذاك جنس سام لم يوسع الله عليه ، فحرمه الخيال المبتكر ، والعاطفة الخلاقة، فلم يبتكر قصة ولم يخلق مسرحية» (١).

وعلى الرغم من خطل هذه النظرية التى تفترض وجود جنس بشرى صاف لم يختلط بغيره من الأجناس الأخرى – وهو مالا يقره عقل – أجد باحثاً عربياً كبيراً هو الدكتور "محمد غنيمي هلال" يشايع "تين" إذ يقول "ويمكن أن نفيد من نظرية "تين" فى النقد العربى فيما يخص تأثير الجنس، ذلك أن الجنس السامى – والعربى منه بخاصة – لم يهتم بالأدب الموضوعى أدب القصص ، ثم أدب المسرحيات والملاحم" (٢).

الأمر الثانى :

أن القرآن الكريم – كتاب العربية الخالد – فيه ما يبدد هذه المزاعم ، ويثبت فى الوقت ذاته أن العرب الأوائل كانوا يعرفون القصص ، وإلا ما جاءت آية تأمر الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يقص على مسامع قومه القصص البناءة ، التى تحرك العقل من رقدته ، والفكر من سباته(٣) فى قوله – سبحانه : ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِءَايَٰتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ (٤).

وكذلك كان العرب يعرفون أهمية القصة فى التأثير على النفوس ، والسيطرة على الأفئدة ، وأنها تشكل عاملاً مهماً فى إنجاح أية دعوة من الدعوات التى يراد بثها فى أفئدة الناس، وتأتى دلالة القرآن – أيضاً – من أنه استخدام القصة بوصفها سلاحا من أسلحة الدعوة الإسلامية ، ولو لم يكن للقصة تأثيرها لما إستخدمها القرآن على هذا النحو .

جاء فى أسباب النزول (٥): "قال عون بن عبد الله : مل أصحاب رسول الله ملة

(١) قصص العشاق النثرية فى العصر الأموى ص ٢٢ .

(٢) النقد الأدبى الحديث ، د. محمد غنيمى هلال ، ط دار نهضة مصر، الطبعة الثالثة ، ص ٦٤ .

(٣) قراءة فى الأدب العربى المعاصر ، أ.د. فتحى محمد أبو عيسى ، محاضرات مطبوعة على الآلة الكاتبة ، ١٩٧٩ م ، ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٤) الأعراف الآيتان ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٥) أسباب النزول ، أبو الحسن على بن أحمد النيسابورى ، ط مطبعة الأنوار المحمدية ١٩٨٤م ، ص : ٢٠١ .

فقالوا : يارسول الله حدثنا ، فأنزل الله تعالى : الله نزل أحسن الحديث . الآية ، قال : ثم إنهم ملوا ملة أخرى ،فقالوا : يارسول الله ، فوق الحديث ودون القرآن ، يعنون القصص، فأنزل الله تعالى : نحن نقص عليك أحسن القصص ، فأرادوا الحديث فدلهم على أحسن الحديث ، وأرادوا القصص فدلهم على أحسن القصص"

فهل كان الصحابة سيطلبون من الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يقص عليهم لو لم يكونوا على علم بالقصص وبتأثيره فى النفوس ؟

ثم أنهم رغبوا فى ذلك دفعاً للملل الذى كان يصيبهم أحياناً ، وثقة منهم أنهم سيستمعون إلى أحسن القصص ... وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على أن العرب كانوا على علم ببعض أحداث القصص الذى جاء به القرآن ، وأن هناك شواهد قائمة تدل على هذه الأحداث (١)، كقوله تعالى :﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) ﴾ (٢) وقوله تعالى : عن قرى قوم لوط :﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾(٣).

الأمر الثالث :

أن من الخطأ بل من الظلم البين أن يحاكم الباحثون القصة العربية القديمة إلى مقاييس القصة الحديثة وقواعدها ، وهى مقاييس لم توضع إلا فى القرن الثامن عشر فى أوربة فالقصة الحديثة عمرها حوالى مائتى عام، ولا ذنب للأدب العربى القديم فى أنه لم ينتج من القصص ما يتفق وهذه القواعد التى كانت فى ضمير الغيب قبل خمسة عشر قرناً من الزمان.إن للعرب القدامى قصصهم التى تختلف – قليلاً أو كثيراً – عن القصة الفنية الحديثة ، غاية الأمر أن هذه القصص كانت تعبر عن المجتمع الذى نشأت فيه إلى حد كبير ، تعبر عن عاداته وقيمه ، وسلوك أفراده نوعاً من التعبير، ولا شأن للباحثين – بعد ذلك – فيما إذا كانت تتفق مع القصة الحديثة أو تختلف (٤).

ويلاحظ أن اختلاف الدراسين حول وجود القصة العربية القديمة مرجعه إلى لختلاف نظرتهم إليها ، فمن نظر إلى عنصر الحكاية وحده قرر-مطمئنا- وجودها ، ومن

---

(١) انظر : القصة العربية فى العصر الجاهلى ، ص ٧١ ، ٧٣ .

(٢) هود : ١٠

(٣) الصافات : ١٣٦ ، ١٣٨ .

(٤) انظر : دراسات فى القصة والمسرح ، أ. محمود يتمور ، ط المطبعة النموذجية ، ص ٦٧ .

نظر إلى مقاييس القصة الأدبية الحديثة وقواعدها الفنية من الأحداث ، والشخصيات ، والحوار والسرد، والعقدة ، والحل ، والصراع إلى آخره نفى وجودها على النحو المشار إليه سابقاً ولكن إلى أى حد كانت تتوافر عناصر البناء القصصى فى القصة العربية القديمة ؟

إن البحث عن الفن القصصى فى القصة العربية القديمة يستدعى نوعا من الترتيب التاريخى فكتب الأدب والتاريخ تضم بين دفاتها كثيراً من القصص المنسوبة إلى عصور الأدب العربى المتعددة ، وكثير من هذه القصص يكاد يكون خلواً من عناصر الفن القصصى ، وقليل منها خاضع لهذه العناصر بنسب متفاوتة .

وتبدو بعض عناصر الفن القصصى واضحة فى هذه القصة التى تنسب إلى العصر الجاهلى : قال ابن هشام :"إن النعمان بن المنذر من ولد ساطرون ، ملك الحضر ، والحضر حصن عظيم كالمدينة على شاطئ الفرات ... وكان كسرى سابور ذو الأكتاف غزا ساطرون ملك الحضر ، فحصره سنتين ، فأشرفت بنت ساطرون يوماً ، فنظرت إلى سابور ، وعليه ثياب ديباج ، وعلى رأسه تاج من ذهب مكلل بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ ، وكان جميلاً فدست إليه : أتتزوجنى إن فتحت لك باب الحصن ؟ فقال : نعم ، فلما أمسى ساطرون شرب حتى سكر ، وكان لا يبيت إلا سكران ، فأخذت مفاتيح باب الحضر من تحت رأسه، فبعثت بها مع مولى لها ، ففتح الباب ، فدخل سابور ، فقتل ساطرون ، واستباح الحضر وخربه، وساربها فتزوجها، فبينا هى نائمة على فراشها ليلاً إذ جعلت تتململ لاتنام فدعا لها بشمع ، ففتش فراشها ، فوجد عليه ورقة آس ، فقال لها سابور : أهذا الذى أسهرك ؟ فقالت : نعم ، قال : فما كان أبوك يصنع بك ؟ قالت : كان يفرش لى الديباج ، ويلبسنى الحرير ، ويطعمنى المخ، ويسقينى الخمر ، قال : أفكان جزاء أبيك ماصنعت به ؟ أنت إلى بذلك أسرع ، ثم أمر بها فربطت قرون رأسها بذنب فرس ثم ركض الفرس حتى قتلها "(١).

هذه هى القصة كما رواها ابن هشام ، وقد توافر فيها بعض العناصر الفنية اللازمة لها منها :

١ - الحدث :

---

(١) السيرة النبوية لأبى محمد عبد الملك بن هشام ، ت د.أحمد حجازى السقا ، ط دار التراث العربى جـ ١ ص ٤٦: ٤٧ .

شرب الخمر ، والسكر حتى الاغلاق .

كما وصفت بعض مظاهر الحياة الاجتماعية كالترف والنعيم الذى عاش فيه ملوك العرب هم وأبناؤهم : كان يفرش لى الديباج ، ويلبسنى الحرير الخ .

٦ - الفكرة :

فى هذه القصة فكرتان أساسيتان :

أولاهما : إظهار العداء المتأصل بين الممالك المتناثرة فى أنحاء الجزيرة العربية والعداء بين هذه الممالك وغيرها من الدول المجاورة .

ثانيهما : التنفير من الغدر والخيانة ، وخاصة إذا كانت موجهة إلى أقرب الناس من الخائن ، ولذلك انتهت القصة بمقتل المرأة الخائنة جزاء خيانتها وغدرها .

♥♥♥

وظلت القصة تعتمد على عنصر الحكاية فى عصر صدر الإسلام اعتماداً كبيراً ، وكانت عناصر الفن القصصى خافتة إلى حد كبير ، وعلى الرغم من أن القرآن الكريم صنع نهضة عظيمة فى باب القصص لم يستثمرها العرب فى إنشاء قصص أدبى راق ، بل اتجهوا فى تأثيرهم بالقصص القرآنى إلى الناحية الموضوعية البحتة ، ولو أنهم أولوه عناية أدبية كما أولوه عناية موضوعيه لكان للقصة فى الأدب العربى شأن آخر تطاول بل تبذ به غيرها من الآداب العالمية .

إن وجود عناصر الفن القصصى فى ذلك العصر يمكن أن يلتمس بوضوح فى قصيدة الحطيئة "وطاوى ثلاث"(١) ففى هذه القصيدة كثير من مقومات القصة القصيرة فهى تحكى موقفا مركزاً عاشه بدوى جائع فى صحراء غير ممهدة وغير مطروقة للسالكين،، وقد ترك فى شعب من شعابها امرأته وحولها ثلاثة أشباح لأطفال ، لم يذوقوا الخبز فى حياتهم ، وفى ليلة ظلماء رأى شبحا مقبلا فخاف منه، فلما عرف أنه ضيف تشمر له واهتم به، ولكنه تذكر ماهو فيه من عدم ، فتوجه إلى ربه بالدعاء ألا يحرمه اللحم فى هذه الليلة .

ويتصاعد الموقف إلى قمته حين يطلب إليه ابنه أن يذبحه لقرى هذا الضيف، وألا يعتذر بالعدم مخافة أن يظن به الضيف الظنون فيذمه ويطلق لسانه فيه .

---

(١) ديوان الحطيئة ، شرح أبى سعيد السكرى ط . دار صادر بيروت ، ط ص ٢٧ .

وبينما الأب غارق فى الحيرة ، إذ بقطيع من حمر الوحش يتسلل إلى الماء ، فتركها الأب حتى شربت ، ثم أرسل سهمه فى كبد أحدها ، فأنضج لحمة ، وأطعم ضيفه، وبات كريما لما قضى حق ضيفة عليه

ويلاحظ أن الحدث فى القصة يتطور وينمو نموا طبعياً دون مبالغة أو افتعال، فالشاعر القاص يعلل لحياة العدم التى يحياها بعلة صادقة كل الصدق ، فهو يعيش فى صحراء شديدة الوعورة، وقد بلغ من شدة وطأتها على نفسه أن اكتسب كثيراً من شدتها فصارت فيه وحشة من الإنس حين يراهم :

وطاوى ثلاث عاصب البطن مرمـــل ببيداء لم يعرف بها ساكن رسمـــا
أخى جفوة فيه من الإنس وحشـــة يرى البؤس فيها من شراسته نعمى

ومع هذه الوحشة التى اكتسبها من البيئة يرى شبحا فيفزع منه، ولكنه عرف أنه ضيف فتغيرت مشاعره طبقا لعادة العرب فى إكرام الضيف والاهتمام به، ثم يرينا الشاعر صورة الأب رافعا بصره إلى السماء ، وصورة ولده وقد تعلق به راجيا أن يذبحه ويقدم لحمه طعاماً لضيفه ، وليس فى ذلك أدنى افتعال فى بناء الحدث . فالعربى يسعى إلى دفع المذمة ولو جاد بنفسه فى سبيل ذلك :

رأى شبحاِ وسط الظلام فراعه فلما رأى ضيفاً تشمر واهتمـــا
وقال : هيا رباه ضيف ولا قرى بحقك لا تحرمه تاالليلة اللحمـــا
فقال ابنه لمـــا رآه بحيـــرة: أيا أبت اذبحنى ويسر لهم طعمـــا
ولا تعتذر بالعدم عل الذى طـرا يظن لنا مـالا فيوسعنـــا ذمـــا

ثم ينمو الحدث أكثر فيرسم الشاعر صورة الأب وقد اصطرعت فى نفسه ثورات الهموم ، فصار ينوى ذبح ولده ثم يتراجع مرة بعد مرة ، حتى جاء الحل ، أو لحظة التنوير – كما يسميها النقاد – حين رأى قطيعا من حمر الوحش ، فلم يتردد الأب فى إصابة واحد منها بسهمة فخر صريعاً ، ليكون فيه المخرج له ولأهل بيته من المأزق الذى عاشه .

فروى قليلاً ثم أحجم برهـــــة وإن هو لم يذبح فتاه فقد همـــــا
فبيناهما عنت على البعد عانـــة قد انتظمت من خلف مسحلها نظما
عطاشاً تريد الماء فانساب نحوها على أنه منها إلى دمها أظمـــــا

فأمهاها حتى تروى عطاشهـــــا فأرسل فيها من كنانته سهمـــــا
فخرت نحوص ذات جحش سمينة قد اكتنزت لحماً وقد طبقت شحماً
فيابشره إذ جرها نحو قومـــــه ويابشرهم لما رأ واكلمها يدمـــى

وبالنسبة إلى الشخوص فى القصة يظهر الشاعر براعته فى الوصف حين يرسم صورة أولاده الثلاثة حفاة عراة و تخالهم – لفرط هزالهم – من صغار ولد الضأن، ويصور حياتهم المجدبة بقوله إنهم لم يذوقوا الخبز الذى يصنع من البر ولم يعرفوا له طعماً :

وأفرد فى شعب عجوز إزاء هـــا ثلاثة أشباح تخالهم بهمـــــــا
حفاة عراة ما اغتذوا خبز ملـــة ولا عرفوا للبر مذخلقوا طعمـــــاً

وهو خبير فى وصف نفوس شخصياته أيضاً ، فالأب حريص على المحمدة وإكرام الضيف؛ ولذلك فهو شديد التعلق بقطيع الحمر، فانساب نحوها لأنه أظمأ إلى دمها منها إلى الماء .

عطاشا تريد الماء فانساب نحوها على أنه منها إلى دمها أظما

ويبالغ الشاعر فى تصوير فرحة الأب وبشاشته حين أكرم ضيفه وقضى حقه ، فيصور الأب حين استراحت نفسه بأنه أضفى حنانه على ضيفه حتى صار يشعر كأنه واحد من أبنائه وكذلك شعرت الأم أيضاً .

★★★

وفى العصر الأموى ازدهر لونان من القصص هما : القصص الوعظى ، وقصص العشق ، وصار لكل منهما أعلام مشهورون ، ولكن جانب الفن فيهما كان خافتا ،كما حكم بذلك أحد المتخصصين فى دراسة قصص ذلك العصر إذ يقول: "فكثير من هذا القصص مجرد أخبار وأحاديث لا قيمة لها من الناحية الفنية ، أو مجرد مجموعة مواقف ، أو مجموعة حالات ليس بينها رابط إلا إدماجها تحت اسم واحد وفيها أشياء كثيرة من الممكن الاستغناء عنها إذ لا فائدة منها» (١).

غير أن البحث عن مقومات الفن القصصى يلجئ الباحث إلى محاولة التماسها عند شاعر من شعراء ذلك العصر – على نحو ما كان عند الحطيئة – ذلك الشاعر هو عمر ابن أبى ربيعة ، فإن له "قصائد نجد فيها القصة تكاد تكون مستكملة الهيكل من تمهيد

(١) قصص العشاق النثرية فى العصر الأموى د. عبد الحميد إبراهيم ص ١٦٤ .

وعقدة وحل طبعى، على ما يتخللها من حوار لذيذ يشترك فيه أشخاصها ، حتى ليخيل إليك أنك تقرأ قطعة تمثيلية تطالعك بأحاديث الحب ولغة المرأة فى صدر الإسلام ، وقد وسع عمر نطاق الحوار ، ولم يقصره على شخصين ، وأكثر منه فى غزله، وراعى فيه ذهنية المرأة وتعابيرها ، ففاق به من تقدمه وأحرز السبق على معاصريه» (١).

وأوضح مثل لشعر عمر القصصى رائيته الشهيرة ومطلعها :(٢).

أمن آل نعم أنت غاد فمبكـــــــر غداة غد أم رائح فمهجـــــــر

وهى «تجمع الكثير من عناصر القصة الحديثة : قصيرة وذات حدث، وبسيطة وتعرض لجانب من الحياة ، فى لحظة محددة ، وذات دلالة ، ولكن دون أن يعنى ذلك بالطبيعة أن لها نفس الإحكام والبناء والدقة» (٣).

وفى العصر العباسى أتيح للقصة كاتب بارع ، يعد – بحق – علامة مضيئة فى العربية إلى اليوم، كما يعد معلما بارزاً على طريق القصة ، التى كتبت بأسلوب عذب يقطر روعة ويفيض متعه وإشراقاً ، وأوتى اقتداراً وضلاعة فى مجال الصوغ القصصى لأحاديثه التى تتراوح بين الطول والقصر فى كثير من كتبه ومنها كتاب "النجلاء"(٤) كما أن فى أسلوبه القدرة الفائقة على إيراد اللمحة الخاطفة التى تغنى عن كثير من التفاصيل(٥).

" برع الجاحظ فى ألوان من الأدب عديدة ، كالمناظرة ، والرسائل ، والنثر الفنى، ومما يحسب له فى مجال القصة أنه كان بارعاً فى تصوير الشخصيات والنفوس إلى حد كبير، ولو أنه عرف الأدب التمثيلى لأسعفته ملكته فى الحوار والمناظرة بقصص تمثيلية كثيرة ، وهو – بحق – لا يبارى فى وصف الحركات الجسدية والمشاعر النفسية ،(٦)" ومن خير ما يمثل نزعته القصصية قصة بعنوان "القاضى والذباب" (٧). يصف فيها

---

(١) مقدمة ديوان عمر بن أبى ربيعة ط . دار صادر بيروت ص ٨ .

(٢) ديوان عمر ابن أبى ربيعة ص ١٢٠ ومابعدها .

(٣) القصة القصيرة دراسة ومختارات د. الطاهر أحمد مكى ص ٢٢

و : أنشودة للبساطة ، مقالات فى فن القصة ، أ. يحيى حقى ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧ م ، ص ١٣٦ ، ١٤٠ .

(٤) انظر : البخلاء ، ت، د. طه الحاجرى ، ط دار المعارف ، الطبعة الخامسة ، ص ٧٩ ، ٨٠ ، ٩٤ .

(٥) انظر : قراءة فى الأدب العربى المعاصر ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٦) تاريخ الأدب العربى – العصر العباسى الثانى ، د. شوقى ضيف ، ط دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، ص ٥ ، ٦ .

(٧) انظر : الحيوان ، للجاحظ ، ت، عبد السلام هارون ، ط مصطفى البابى الحلبى ١٩٤٥ م حـ٣ ، ص ٣٤٣ .

القاضي "عبد الله بن سوار" وهي تتألف من ثلاثة أجزاء :(١).

الجزء الأول : يصف فيه الجاحظ وقار القاضي ، وتزمته ، وما بلغه من سيطرته الشديدة على نفسه وحركته ، وهي سيطرة كانت تلازمه طوال يومه، فكان يجلس في مجلس العلم محتبيا لا ينتصب إلا للصلاة ، ثم يعود إلى مجلسه ، وكان ذلك شأنه في طوال الأيام وفي قصارها ، وكان لا يحرك يده ولا يشير برأسه ، فإذا تكلم أوجز في الكلام وبلغ بالكلام اليسير المعاني الكثيرة .

الجزء الثاني : يصور فيه "الجاحظ" تهافت الذباب على أنف القاضي ، ثم تحوله إلى مؤق عينيه، والقاضي صابر لا يحرك ساكنا ، فلما طال مكث الذباب في مؤقه، شغله وأوجعه وأحرقه، فأطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل ، فلم ينهض الذباب فوالى بين الإطباق والفتح، والذباب لا يتخلى عن مؤقه إلا يسيراً ، ثم عاد الذباب فغمس خرطومه في مكان كان قد أوهاه قبل ذلك، ومازال كذلك حتى استفرغ جهده وصبره ، ثم لم يجد بداً من أن يذب عن عينيه بيده ، ثم ألجأه الذباب إلى أن يذب عن وجهه بطرف كمه ، وتابع بين ذلك .

الجزء الثالث : وفيه يصور الجاحظ تعلق أعين الجالسين الذين شهدوا المنظر بالقاضي ، فلما نظروا إليه قال : ما أكثر من أعجبته نفسه فأراد الله – عز وجل – أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً

"والجاحظ" يعد أول مؤلف معروف للقصص على هذا النحو الثابت في كتبه ، فقد كان القصص من قبله غير منسوب إلى مبدع بعينه ، ولهذا كان عرضة للتغيير ، وربما للزيادة والنقص ، على عكس قصص "الجاحظ" الذي وصل إلينا كما أبدعه صاحبه ، بالإضافة إلى صحة نسبته إليه .

وإذا كان "الجاحظ" قد دفع بالقصة العربية خطوة كبيرة نحو منهجية الفن فماذلك إلا لسببين :

الأول : أنه كان يتمتع بدقة متناهية في وصف شخصيات قصصه من الناحية الجسدية الظاهرة ، ومن الناحية النفسية الداخلية أيضاً ، وهو في هذا الجانب الأخير يعد سابقا لغيره في مجال التحليل النفسي لأبطال القصص .

---

(١) أنظر: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني ، ص ٦٠٧ .

الثانى : أنه كان يختار موضوعات قصصه من المجتمع بعناية واضحة ، فهبط بالقصة إلى عالم الواقع ، وجعل السخرية جزءاً منها ، ومزج فيها بين المتعة والجمال .

ولعل نزعة "الجاحظ "القصصية كانت واحداً من جملة أسباب أدت إلى ظهور فن قصصى جديد فى أدب العربية ، يعد بذرة من البذور التى نتجت منها القصة الحديثة ، ذلك الفن هو المقامة .

وأول من اخترع هذا الفن فى العربية "بديع الزمان الهمذانى (ت ٣٩٨ هـ) وتبعه الحريرى (ت ٥١٦ هـ) ، ولكن الهمذانى هو الذى أقام هيكل المقامة الذى عاشت فيه حوالى ألف سنة من يوم نشأتها ... ونستطيع أن نعرفها بأنها قصة قصيرة تروى خبراً نامياً فى ذاته عن بطل محتال فى لحظة من لحظات حياته" (١).

والمقامة – من ناحية البناء الفنى – لها عدة أضلاع لاتستغنى عن واحد منها :

الأول : يمثل الراوية والبطل معا .

الثانى : يمثل السجع والمحسنات البديعية

الثالث : يمثل معالجة المشكلات الطبقية والاقتصادية ، والفقهية واللغوية ، والأدبية .

الرابع : يمثل الموضوع ، وهذا الضلع الأخير هو الذى يتغير ، فمرة يكون الموضوع عن الكدية كما فى مقامات "الهمذانى" "والحريرى" ، ومرة يكون خيالياً كما فى مقامات "أحمد عبد اللطيف البربير" (ت ٩١١م)و"عبد الله فكرى"، ومرة يكون الموضوع وعظياً كما فى مقامات "الزمخشرى" (٧٧٤ هـ) (٢)."

وكانت المقامات تمثل روح العصر والمجتمع الذى نشأت فيه إذ فيها وصف العادات والتقاليد التى تسود الطبقات الوسطى والدنيا فى كثير من المجتمعات الإسلامية ، وكان هذا الجنس يمكن أن يصبح أخصب جنس أدبى فى العربية ، وأن يقوم مقام القصة والمسرحية فى الآداب العربية لولا أنه انحرف عن نقد العادات والقيم والقضايا العامة إلى المماحكات اللفظية والألغاز اللغوية» (٣).

إن دور المقامة فى ميلاد القصة الحديثة لم يقف عند حدود القصة العربية ، بل تعداها إلى القصة الأوربية ، فبعد اتصال العرب بأوربة فى العصور الوسطى كان

---

(١) أثر المقامة فى نشأة القصة المصرية الحديثة د. محمد رشدى حسن ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م ص ١٣ ، ١٤ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨ .

(٣) الأدب المقارن د. محمد غنيمى هلال ص ٢١٨ .

للمقامات تأثيرها الواسع متنوع الدلالة فى الآداب الأوربية ، "فقد غذت قصص الشطار الأسبانية بنواحيها الفنية ، وعناصرها ذات الطابع الواقعى ، ثم انتقل التأثير من الأدب الأسبانى إلى سواه من الآداب الأوربية ، فساعد على موت قصص الرعاة وعلى تقريب القصة من واقع الحياة، ثم على ميلاد قصص العادات والتقاليد فى معناها الحديث ، وهى التى تطورت فكانت هى قصص القضايا الاجتماعية فيما بعد» (١).

ومع هذا التأثير الفعال فإن كثيراً من الدراسين نظروا إلى القصة الحديثة على أنها خلق أوربى بحت، واختراع غربى المولد والنشأة والنمو، استورده العرب وحاكوه دون أن يكون لهم دور فى بنائه .

وعلى أية حال صار للعرب عالمهم القصصى الرحب المتنوع ، وصار للقصة العربية مقوماتها الفنية الواضحة التى يسير عليها المبدعون والنقاد فى إبداعهم ونقدهم ، وإن كان من الملاحظ أن بعض هذه المقومات مازال محل أخذ ورد إلى يومنا هذا ، إلا أن هناك مقومات أساسية لا يستغنى عنها أى نوع من الأنواع الشكلية للفن القصصى من أقصوصة ، وقصة قصيرة ، وقصة ، ورواية ، هذه المقومات الأساسية هى :

الشخصية : وهى أهم المقومات ، إذ تعتمد عليها المقومات الأخرى إلى حد كبير ، ولابد أن تكون الشخصيات فى العمل القصصى مقنعة فنياً ، وكلما كانت الشخصية القصصية متفردة كانت أدخل إلى عالم الفن .

الحدث : وهو مرتبط بالشخصيات إلى حد كبير ، فالشخصيات هى المحرك للأحداث ، وهى المنفعلة بها فى الوقت نفسه، ويتميز كاتب من آخر بطريقة عرضه للأحداث وتطويرها .

الأسلوب : وهو الوسيلة اللغوية التى يدير بها الكاتب حركة الشخصيات، ويرسم ملامحها الداخلية والخارجية ، كما يعرض بها أحداث عمله القصصى ويتنوع الأسلوب فى القصة بين الحوار والسرد، يزاوج بينهما الكاتب على ألا يطغى أحدهما على الآخر . وهناك بعض المقومات الأخرى مثل : الزمان ، والمكان ، والبيئة ، والحبكة القصصية والعقدة، والحل ، وغيرها ، ولكل منها ضوابطها التى وضعها النقاد .

---

(١) النقد الأدبى الحديث ص ٤٩٦ .

ب – القصص القرآنى فى دراسات السابقين

فى هذه الصفحات بيان لجهود العلماء الذين درسوا القصص القرآنى فى القديم والحديث ، وهم المفسرون ، والمؤرخون ، والبلاغيون وعلماء الإعجاز القرآنى ، وأخيراً العلماء المحدثون الذين كتبوا عن القرآن وقصصه فى العصر الحديث .

أولاً : المفسرون :

نزل القرآن الكريم فى قوم مشهورين بالفصاحة وسحر البيان ، فآمن منهم من آمن ، وكفر منهم من كفر ، وهؤلاء جميعاً كانوا يفهمون القرآن على تفاوت بينهم ، وكان الصحابة إذا غاب عنهم معنى من المعانى التمسوه فى موضع آخر من القرآن ، وكان النبى – صلى الله عليه وسلم – يبين لإصحابه ما استغلق عليهم فهمه من آى القرآن الكريم ومعانيه . كما اشتهر بالتفسير مجموعة من الصحابة منهم : على بن أبى طالب ، وعبد الله بن عباس ، وزيد بن ثابت وغيرهم (١) .

وفى عهد التابعين قامت على تفسير القرآن مدارس متعددة ، منها مدرسة مكة ، ومدرسة المدينة المنورة ، ومدرسة العراق ، ولكل منها أعلامها المعروفون (٢).

ثم خطا التفسير بعد ذلك خطوات واسعة ، ودخل مرحلة جديدة هى مرحلة التدوين ، وذلك فى أواخر القرن الثانى الهجرى .

وقد عرض الدكتور محمد حسين الذهبى فى كتابة "التفسير والمفسرون" كثيراً من كتب التفسير التى تنوعت مشارب أصحابها ، وتعددت مناهجهم واختلفت مذاهبهم إلى حد كبير ، وهؤلاء – على كثرة أعدادهم – يمكن تصنيفهم فى دراستهم للقصص القرآنى إلى عدة اتجاهات .

الاتجاه الأول : وكل أصحابة من المفسرين القدماء(٣) ويعنى هؤلاء باستقصاء ظروف القصة ، وتتبع جزئياتها ، وما يتصل بها من مواقف وأحداث ، مع الحرص الشديد على تحديد زمانها ومكانها ، وتعيين أسماء أشخاصها ، وكثير من أصحاب هذا الاتجاه انساقوا إلى الاستقصاء والإحاطة "رغبة فى إشباع نهم المتطلعين إلى هذا

---

(١) التفسير والمفسرون د. محمد حسين الذهبى المطبعة الفنية، الطبعة الرابعة ١٩٨٩ جـ١ ص ٣٨ .

(٢) المرجع السابق جـ١ ص ١٠١ وما بعدها .

(٣) ومن أشهرهم : محمد بن جرير الطبرى فى كتابه "جامع البيان فى تفسير القرآن"

و : علاء الدين بن محمد الخازن فى تفسيره "كتاب التأويل فى معانى التنزيل" .

و : أحمد بن إبراهيم الثعلبى فى تفسيره "الكشف والبيان عن تفسير القرآن"

وهذا الأخيران أكثرا من ذكر الإسرائيليات فى تفسيريهما – ولم ينبها – فى أحيان كثيرة – إليها . أنظر : التفسير والمفسرون جـ ١ ص ٢٢١ ، ١٩٦ .

القصص الديني ، وخاصة ما يتعلق منه بتاريخ بدء الخلق، والأنبياء ، والأمم الغابرة ، ولم يتحرهؤلاء فيما رووا من أخبار امتزجت في كثير من الأحيان بالخرافات والأساطير والإسرائيليات (١).

ويعلل ابن خلدون هذا المسلك بقوله : والسبب في ذلك "أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم ، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية ، وإذا ما تشوقوا إلى معرفة شئ مما تتشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات ، وبدء الخليقة ، وأسرار الوجود ، فإنما يسألون عن أهل لكتاب قبلهم .. وهم بادون مثل العرب يومئذ ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامه من أهل الكتاب ، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية ، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية .(٢)

بل إن من المفسرين الذين ينتمون إلى طائفة الإمامية الإثنا عشرية(٣) من ذهب إلى أن القصص القرآني ، وما ورد في شروحه من الروايات ، على اختلافها وتضاربها ، ليس المقصود به ظاهره الذي يتبادر إلى الذهن ، بل هو من الرموزات التي رمزوا بها لأشياء يعلمونها ، ويريدونها وأن من يريد حملها على الظاهر فلابد أن يحار فيها، ولايمكن له أن يصل إلى حقيقتها ، والمقصود منها بقوته البشرية ، ولا تدرك حقائق هذه الأشياء إلا بالقوة الروحية التي تستلهم المعارف من الله تعالى .

الاتجاه الثاني : ومعظم أصحابه من المفسرين القدماء(٤) ويتبع هؤلاء طريقة التحليل مع الإلتزام بحدود النص القرآني ، ويعنون بتوضيح ما تحتوى القصة القرآنية من إشارات وعبر ، والاجابة على ما أثير فيها من شبهات ، وتجلية بعض عوامل التأثير في أسلوبها البياني أو حججها العقلية .

وإلتزام هؤلاء بالنص تابع من اتباعهم طريقة تفسير القرآن بالقرآن وبالسنة والأثر الصحيح ، وإذا أورد أحدهم بعض الإسرائيليات فإنما للتنبيه إليه والرد عليه بما يثبت،

---

(١) انظر سيكلوجية القصة في القرآن د. التهامي نقرة، ط الشركة التونسية ١٩٧١ م ص ٢٩ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، ط دار العلم بيروت ص ٤٣٩ بتصرف .

(٣) المراد : سلطان محمد الخرساني في تفسيره "بيان السعادة في مقامات العبادة" انظر : "التفسير والمفسرون" جـ٢ ص ٢٠٩ .

(٤) ومن أشهر أصحاب هذه الطريقة : إسماعيل بن كثير في تفسيره "تفسير القرآن العظيم"

و : محمد فخر الدين الرازي في تفسيره :"مفاتيح الغيب"

و : ناصر الدين بن عبد الله البيضاوي في تفسيره "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" .

و : أبو القاسم محمود الزمخشري في تفسيره "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل"

بطلانه ، كما كان من ابن كثير فى قوله تعالى " وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة"(١) إلى أخر آيات القصة، إذ أورد قصة طويلة مبسوطة عن البقرة وكيف وجدوها ، وثمنها الذى بلغ ملء جلدها ذهباً ، ثم يقول "وهذه السياقات عن عبيدة وأبى العالية ، والسدى وغيرهم فيها اختلاف ، والظاهر أنها مأخوذة من كتب بنى إسرائيل ، وهى مما يجوز نقلها ، ولكن لا تصدق ولا تكذب ، فلهذا لا يعقد عليها ، إلا ما وافق الحق عندنا ، والله أعلم» (٢)

ويتفرد الزمخشرى من بين هؤلاء بأنه كان يقع له بين الحين والحين شئ من التوفيق ، فى إدراك بعض مواضع الجمال الفنى فى القرآن ، وذلك كقوله فى تفسير قول الله تعالى فى قصة موسى – عليه السلام :﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤) ﴾(٣):"هذا مثل ، كأن الغضب كان يغريه على مافعل ، ويقول له : قل لقومك كذا ، وألق الألواح ، وجر رأس أخيك إليك ، فترك النطق بذلك ، وقطع الإغراء ، ولم يستحسن هذه الكلمة ، ولم يستفصحها كل ذى طبع سليم وذوق صحيح إلا لذلك»(٤)

إن أجمل ما فى هذا التعبير هو «تشخيص الغضب ، كأنه إنسان ، يقول ويسكت ، ويغرى ويصمت ، فهذا التشخيص هو الذى جعل للتعبير جماله» .(٥)

وكان لتفرد الزمخشرى أثر بعيد جدا فى نشأة التفسير الأدبى فى العصر الحديث

الاتجاه الثالث : ومعظم أصحابه من المفسرين المحدثين (٦)، الذين تأثروا بالزمخشرى – كما قلت – واهتم هؤلاء بمعالجة النصوص القرآنية معالجة تقوم على إظهار مواضع الدقة فى التعبير القرآنى ، ثم بعد ذلك تصاغ المعانى التى يهدف القرآن إليها فى أسلوب شائق أخاذ ، يستهوى القارئ ويحبب إليه النظر فى كتاب الله تعالى.(٧)

---

(١) سورة البقرة من الآية ٦٧ .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ط دار الفكر العربى جـ١ ص ١٠٨ .

(٣) سورة الأعراف الآية ١٥٤ .

(٤) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل ، محمود بن عمر الزمخشرى دار الريان للتراث ودار الكتاب اللبنانى بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٨٧ جـ٢ ص ١٦٣ .

(٥) التصوير الفنى فى القرآن ، سيد قطب ، ط ، دار الشروق ، الطبعة الحادية عشرة ١٩٨٩ ص ٢٨ .

(٦) ومن أبرز هؤلاء الإمام محمد عبده والشيخ رشيد رضا فى تفسيرهما المسمى : تفسير المنار والأستاذ : سيد قطب فى تفسيره : فى ظلال القرآن .

(٧) انظر :التفسير والمفسرون جـ٢ ص ٢٣ ، ٢٤ .

وقد تفرد الأستاذ سيد قطب من بين أصحاب هذه الاتجاه إذ عرض القصص القرآني عرضاً أدبياً ، يهتم بإبراز الصور والقيم الجمالية ، مع الاهتمام بربط القصة بموضوع السورة ربطاً معجباً ، على نحو ما فعل في سورة "آل عمران" في قصة ولادة "مريم" وقصة "موسى" عليهما السلام (١).

ثانياً : المؤرخون :

لا يختلف المؤرخون كثيراً في تناولهم للقصص القرآني عن المفسرين ومن ثم يمكن تصنيفهم إلى مدرستين .

الأولى : يتبع أصحابها (٢) طريقة البحث والتحليل التي سلف الكلام عنها عند المفسرين ، وهؤلاء اهتموا اهتماماً بالغاً بالأسماء ، والأماكن والأزمنة في القصص القرآني ونقلوا كثيراً من الإسرائيليات والرويات المضطربة .

وقارئ الجزء الأول – مثلاً – من تاريخ الطبري يعجب لما تحدث عنه المؤرخ من أحاديث في بدء الخلق ، وما خلق الله في كل يوم من الأيام الستة التي ذكر الله في كتابه أنه خلق فيهن السموات والأرض وما بينهما (٣) ويعجب أيضاً للرويات التي ينقلها وفيها – أحياناً – ما يتنافى مع عصمة الأنبياء – عليهم السلام – مثل ما رواه عن يوسف – عليه السلام –(٤) في شرح قوله تعالى : "﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ(٢٤) ﴾"

الثانية : وتسير في اتجاه عام تلتزم فيه طريقة التحليل مع الالتزام بالنص القرآني وعدم الخوض في الإسرائيليات(٥) .

ومن خير ما يمثل منهج هؤلاء المتقدمين في دراستهم للقصص القرآني ابن كثير

---

(١) انظر : في ظلال القرآن ط . دار الشروق . بيروت جـ١ ص ٣٤٨ وما بعدها .

(٢) ومن أشهرهم : محمد بن جرير الطبري في كتابه "تاريخ الرسل والملوك"

و : شهاب الدين أحمد في كتابه " نهاية الأرب في فنون الأدب"

(٣) تاريخ الرسل والملوك للطبري ت : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط دار المعارف الطبعة السادسة ، جـ١ ص ٣٢ ، ٤٧ .

(٤) المرجع السابق جـ ١ ص ٣٣٧ .

(٥) ومن أشهر هؤلاء : ابن كثير في كتابيه"البداية والنهاية" و "قصص الأنبياء"

و : عماد الدين اسماعيل أبو الفدا في كتابه : «المختصر في أخبار البشر»

و : محمد بن عبد الله الكسائي في كتابه "قصص الأنبياء"

فى دراسته لقصة "يعقوب" – عليه السلام – إذ اكتفى بما ذكر عنه فى قصة أبيه "إسحاق" وولده "يوسف" – عليهما السلام – ثم ذكر بعض الأخبار اليسيرة التى تواترت فى كتب العهد القديم ولم تتعرض لها المصادر الإسلامية (١).

ولما جاء العصر الحديث سالت أقلام المؤرخين (٢) بكثير من الكتابات حول القصص القرآنى ، وقد تناول هؤلاء قصص القرآن بالدراسة الموضوعية ، التى تهتم بسرد الأحداث القصصية ، والتعليق عليها ، مع الاهتمام من بعضهم أحياناً بتحديد الزمان والمكان ، ولكن فى غير إسراف كما كان يفعل السابقون ، كل ذلك مع بساطة فى التعبير والعرض ، وسهولة فى لغة الحكاية القصصية ، حتى يكون المؤلف قريب التناول ، سهل المأخذ ، واسع الانتشار ، وسمة أخرى حافظ عليها الكاتبون وهى :

عدم الخوض فى الأمور الغيبية التى حرص عليها السابقون كبدء الخلق ، والبعد عن الإسرائيليات التى كثرت فى كتب المتقدين .

ويتفرد الأستاذ عبد الوهاب النجار من بين هؤلاء المؤرخين بأنه صاحب منهج منظم إلى حد كبير ، ويتلخص هذا المنهج فى أنه كان يبدأ باسم النبى الذى يراد ذكره ويبين كم مرة ورد ذكره فى القرآن الكريم ، مع ذكر أرقام الآيات من السور المختلفة ، ثم يقسم قصة هذا النبى إلى عدة مواقف يستوفى فى كل موقف شأنه فيها ، ويتبع ذلك بالآيات التى تدل عليه من كتاب الله ، وأحياناً يأتى بنصوص من كتب العهدين القديم والجديد ، ويبين ما إذا كانت توافق القرآن أو تخالفه ، ثم يختم القصة ببيان أوجه العظة والعبرة منها (٣).

وقد آثار هذا المنهج – رغم سلامته – على المؤلف ثائرة كثير من الناس، وكتب جماعة من العلماء نقداً لهذا الكتاب ، أثبته المؤلف فى طبعات كتابه التالية ، مع ردوده عليها ، ليكون ذلك كله أمام القراء ، وعلى الرغم بما وجه إلى المؤلف من نقد يعد بحق أول من راد الطريق لدراسة القصص القرآنى فى العصر الحديث واقتفى أثره كثير من

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ، ط دار نهر النيل ، الطبعة الأولى ص ٢٢٣ .

(٢) ومنهم : عبد الوهاب النجار فى كتابه "قصص الأنبياء"

و : محمد أحمد جاد المولى وآخرون فى كتابهم "قصص القرآن" .

و : محمد الطيب النجار فى كتابه "تاريخ الأنبياء فى ضوء الكتاب والسنة"

و : محمد على الصابونى فى كتابه " النبوة والأنبياء فى القرآن "

و : محمود الشرقاوى فى كتابه " الأنبياء فى القرآن" وغيرهم كثيرون .

(٣) انظر : قصص الأنبياء : عبد الوهاب النجار . مطبعة المختار الإسلامى ١٩٨٥ م ص ٤ .

المؤرخين والكتاب .

ثالثاً : البلاغيون وعلماء الإعجاز :

يمكن القول إن البلاغيين القدامى – فى معظم دراساتهم – شغلوا أنفسهم بمباحث بعيدة عن روح القرآن الكريم ، وعن جماله الأسلوبى ، كما يرى الأستاذ سيد قطب ، مثل اختلافهم حول اللفظ والمعنى ، أيهما تكمن فيه البلاغة ، وكان من المنتظر أن يصلوا إلى مالم يصل إليه المفسرون ، خصوصاً أنهم عملوا فى صميم العمل الفنى للقرآن ، وغلب على بعضهم روح القواعد ، ومنهم من انصرف إلى التقسيم والتبويب (١)

وقد اشتهر من علماء الإعجاز قديماً من كان ذا اتجاه لا يعدو الآيات المفردة(٢) ، ومن ذلك حديثهم عن تكرار بعض آيات القصة القرآنية بأساليب مختلفة ، وأن هذا التكرار دليل على جودة النظم فى القرآن الكريم ، ومن أمثلة ذلك ما ذكره "الباقلانى" حين مثل ببعض آيات من قصة "موسى" – عليه السلام – وقوله لأهله فى آيه ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) ﴾(٣) وفى آية أخرى قال : ﴿ "إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) ﴾"(٤) وفى موضع آخر قال : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) ﴾(٥) وقال الباقلانى : "إنه قد تصرف فى وجوه ، واتى بذكر القصة على ضروب ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك ... ليكون أبلغ فى تعجيزهم ، وأظهر للحجة عليهم ، وكل كلمة من هذه الكلمات ، وإن أنبأت عن قصة فهى بليغة بنفسها تامة فى معناها "(٦).

وتوجد مثل هذه الأشارات مثبوثة عند علماء الإعجاز، ولكنها لم تتجاوز الآيات

---

(١) انظر : التصوير الفنى فى القرآن ص ٢٩ .

(٢) ومنهم : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فى رسالة بعنوان "حجج النبوة"

و : أبو سليمان محمد الخطابى فى رسالة بعنوان "بيان إعجاز القرآن" .

و : الإمام عبد القاهر الجرجانى فى كتابه "دلائل الإعجاز"

(٣) النمل من الآية ٧ .

(٤) طه من الآية ١٠ .

(٥) القصص من الآية ٢٩ .

(٦) إعجاز القرآن للباقلانى ، ط دار عالم المعرفة ص ٦٥ بهامش كتاب الإتقان للسيوطى.

المفردة لتشكل منهجاً عاماً ينتظم قصة أو مجموعة من القصص القرآني .

كما اشتهر من كتاب الإعجاز حديثاً(١) من كان ذا رؤية مختلفة تنظر إلى مواطن الإعجاز في القصص القرآني نظرة متسعة ، وقد أفاض الله – سبحانه – على بعض هؤلاء وهو الشيخ "الشعراوي" فيوضات كثيرة، ومن عليه بأسلوب في التفسير يستهوي العامة والمتعلمين على حد سواء ، والاستطراد سمة بارزه في تفسيره، ولا يختلف منهجه في كتبه "معجزة القرآن" عن منهجه في التفسير كثيراً ، وهو في كتبه عن الإعجاز ينتقل من معنى إلى معنى دون أن يكون هناك رابط بين المعاني في الفصول المتعددة .

والذي يتتبع ما يذكره فضيلته يلحظ ما يتخلل تفسيره من لفتات معجبة فيما يخص القصص القرآني وصلته بإعجاز القرآن ، ومن ذلك قوله تحت عنوان "قصص القرآن" : القصص في القرآن الكريم لا يتناول أشخاصاً بذواتهم ، وقصص القرآن كله إنما هو عبرة عامة، وموعظة تتكرر في كل عصر ، ماعدا قصة مريم – عليها السلام – ولذلك فإن الله – سبحانه وتعالى – لم يذكر أبطال هذا القصص بأسمائهم الكاملة لنعرف أشخاصهم ، بل اكتفى باسم واحد عام ، ففرعون – مثلا . هو : كل شخص يريد أن يجعل من نفسه إلهاً يعبد في الأرض ، وصاحب الجنتين – في سورة الكهف – هو كل من ينسى فينسب الفضل إلى نفسه ... إن الهدف ليس الشخص ولكنه العبرة ، ولذلك سمى الله – سبحانه – مريم فقال مريم ابنة عمران ، لأن المقصود في هذه الحالة مريم أبنة عمران بالذات ، وأن هذه القصة لن تحدث لغيرها – والمقصود في قصة عيسى هو عيسى ابن مريم بالذات (٢).

وفي العصر الحديث وجد اتجاه متفرد تمام التفرد(٣) ، اتجه أصحابه إلى دراسة

---

(١) من أشهر هؤلاء : مصطفى صادق الرافعي في كتابه إعجاز القرآن .

و : الشيخ محمد متولي الشعراوي في خمسة كتب تقع جميعها تحت عنوان "معجزة القرآن"

وانظرا: الإعجاز في دراسات السابقين ، عبد الكريم الخطيب ، ط دار الفكر العربي، الطبعة الأولى ص ١٥٧ ، ١٧٩ ، ١٩٤ ، ٢٤٤ ، ٣٢٦ .

(٢) معجزة القرآن ط مكتبة التراث الإسلامي جـ ٢ ص ٢١٩ بتصرف .

(٣) ومن أبرز أصحاب هذا الاتجاه :د. محمد أحمد خلف الله في كتابه "الفن القصصي في القرآن الكريم".

و : عبد الكريم الخطيب في كتابه "القصص القرآني في منطوقه ومفهومه" .

و : د/ التهامي نقره في كتابه "سيكلوجية القصة في القرآن الكريم" .

و : ثروت أباظة في كتابه "السرد القصصي في القرآن الكريم" .

و : سيد قطب في فصل بعنوان القصة في القرآن من كتاب "التصوير الفني في القرآن"

د/ كاظم الظواهري في كتابه "بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم"

القصص القرآني من الناحية الفنية ، فعنوا بالبحث عن الجمال الفني في هذا القصص ، فمنهم من أصاب بعض مواضع هذا الجمال ، فأصبحت دراساتهم نماذج تحتذى ، ومنهم من أخطأ الطريق ، فقال في القرآن مالم يقله مسلم من قبل .

والدكتور خلف الله يعد من أوائل الذين تناولوا القصص القرآني بالدراسة الفنية ، واعتمدت دراسته – كما يرى – على المنهج الفني البياني، وهذا المنهج له مدلوله الخاص عنده ، إذ يقوم على أساس أن الفن الأدبي هو الأساس الوحيد في الدراسة ، ومن ثم أهمل الباحث الجوانب التاريخية والدينية إهمالاً تاماً ، على عكس ما فعل المؤرخون والمفسرون قديماً ، ونعى عليهم صنيعهم هذا بقوله :"ونحن مع احترامنا لكل من اللغويين والمفسرين لا نستطيع – ونحن ندرس القصص الفني – أن نقف عند هذه الحدود – يقصد الحقائق التاريخية – ذلك لأنا حين نذكر لفظ قصة إنما نقصد شيئاً آخر أهم من متابعة الخبر أو الحديث ، نقصد ذلك العمل الأدبي ، الذي يكون نتيجة تخيل القاص لحوادث وقعت من بطل لا وجود له ، أو لبطل له وجود ، ولكن الأحداث التي دارت حوله في القصة لم تقع ، أو وقعت للبطل ، ولكنها نظمت في القصة على أساس فني بلاغي ، فقدم بعضها وأخر آخر ، وذكر بعضها وحذف آخر ، أو أضيف إلى بعض مالم يقع ، أو بولغ في تصويره إلى الحد الذي يخرج بالشخصية التاريخية عن أن تكون من الحقائق العادية والمألوفة ، ويجعلها من الأشخاص الخياليين، وذلك هو ما نقصد إليه من درسنا للقصص الفني في القرآن الكريم (١).

وكان الاعتماد على المنهج الفني وحده هو أكبر خطأ وقع فيه الباحث اذ تمخض هذا المنهج عن مجموعة من الآراء التي أنكر فيها المؤلف كثيراً من الحقائق التاريخية الواردة في القصص القرآني (٢). كما ادعى الباحث وجود القصة الأسطورية في القرآن الكريم (٣) ، وغير ذلك من الآراء التي فندها العلماء في مؤلفاتهم (٤).

وإذا كان الباحث قد جانب الصواب في كثير مما أبداه في كتابة آنف الذكر فإن باحثاً آخر قد أصاب كثيراً من مواضع الجمال الفني في القصص القرآني ، وهو

---

(١) الفن القصصي في القرآن الكريم د/ محمد أحمد خلف الله ط المطبعة الفنية الحديثة ١٩٧٢ ص ١١٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٠ وما بعدها ، و ص ١٢١ وما بعدها

(٣) المرجع السابق ص ١٧١ وما بعدها .

(٤) ومن أخصب الردود عليه كتاب الأستاذ عبد الكريم الخطيب سالف الذكر .

الأستاذ سيد قطب الذى عرض فى كتابه بعض المباحث الفنية على النحو التالى (١)القصة القرآنية تساق لأغراض دينية بحتة ، وترتب على الخضوع للغرض الدينى اختلاف فى عرض القصة من ناحية الأحداث ، وتكرارها بطريقة معينة فى أكثر من سورة قرآنية .

وقد ترتب على اجتماع الدين والفن فى القصة آثار وخصائص فنية بارزة ، وهذه الخصائص تشمل طريقة عرض الأحداث ، والتصوير ، ورسم الشخصيات مع التمثيل لكل هذه الخصائص بمثال من القصص القرآنى .

وبعد هذا العرض للدراسات السابقة لا أدعى أنه كان محيطاً مستقصياً فما أردت الإحاطة ولا الاستقصاء ، ولكن أردت الوصول إلى حقيقة مهمة أعرف من خلالها أين يقف السابقون فى دراساتهم لكى أبدأ حيث انتهوا مع الإفادة منهم جميعاً ، عسى أن أستطيع وضع لبنة فى صرح الدراسات القرآنية الشامخ .

---

(١) انظر : التصوير الفنى فى القرآن ص ١٤٤ وما بعدها .

الباب الأول

دراسة القصص القرآنى

المبحث الأول

مقاصد القصص القرآنى

أ - تناسب القصص القرآني وغايات التنزيل .

ب -من أسرار انتقاء الأحداث في القصة القرآنية .

جـ - التكرار .

د - التفصيل والاجمال .

(أ)

تناسب القصص القرآني وغايات التنزيل

يحتل القصص حيزاً كبيراً من القرآن الكريم ، وتمتزج موضوعاته بموضوعات القرآن امتزاجاً معجباً لا يمكن معه الفصل بين هذه الموضوعات وتلك ؛ لأن القرآن كله – بمافيه من قصص – يمثل كلاً واحداً ، في موضوعاته وأسلوبه ومقاصده ، غاية الأمر أن القصة تتناول الموضوع القرآني تناولاً فنيا ، ولا يعني هذا أن الفن هو المراد الأول من القصة القرآنية ، فالقرآن كتاب دعوة ودين قبل أي شئ آخر، والقصة فيه مسخرة لتحقيق هذا الهدف السامي ، بل هي إحدى وسائل القرآن لتحقيق مبادئ الدعوة والتمكين لتعاليم الدين في النفوس .

والقصة تأتي متفقة مع موضوع أو موضوعات السورة التي وردت فيها ، ومن ثم تتفق مع السورة في المقصد الذي تقصد إليه ، فالقصة تدعم موضوع السورة وتؤكده بل تأتي شاهدة عليه في أحيان كثيرة ، وهي – بذلك – تمثل جزءاً من النسيج القوي للسورة القرآنية .

والغايات من القرآن الكريم كثيرة متعددة منها :

إثبات صدق الوحي المنزل على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وإثبات وحدانية الله سبحانه وتعالى – ، وإثبات إعجاز القرآن الكريم ليكون دليلاً صادقاً على صدق الرسول – صلى الله عليه وسلم – .

وهناك غايات فرعية أخرى كإثبات قدرة الله – سبحانه – وأن الدين كله من عند الله ، وأن الأنبياء جميعاً جاءوا بالإسلام ، ومنها بيان عاقبة الإيمان والصلاح وعاقبة الكفر والإفساد .

وتتعدد أساليب القرآن الكريم لتحقيق هذه الغايات وتأكيدها،وتحتل القصة مكانا بارزاً بين هذه الأساليب القرآنية ، وذلك هو المعنيّ بالتناسب بين القصص القرآني وغايات التنزيل ، ويمكن بيان وجوه هذا التناسب على النحو التالي :

من وجوه التناسب:إثبات القصص صدق الوحي المنزل على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الذي بعث، وأوحي إليه القرآن، وكان من مقاصده أن يغير عبادة العرب وعاداتهم ، ويهذب ما انحرف من أخلاقهم وطبائعهم ، ولكن أكثرهم أنكروا أن يكون هذا القرآن وحياً من عند الله فلم يؤمنوا به :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً

وزُورًا وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾(١).

إن الواقع يؤكد أن محمداً – صلى الله عليه وسلم – لم يكن كاتباً ولا قارئاً ولم يجلس إلى معلم ، فكيف أتى بهذا القصص الذى يحمل أخبار الماضين ؟ لا بد أنه الوحى ؛ ومما يؤكد ذلك هذا القصص الذى يخبر العرب بكثير مما لا يعرفون عن الأمم السابقة ، وبعض هذا القصص جاء بكثير من أخبار أنبياء بنى إسرائيل "كموسى" "وداود" "وسليمان" – عليهم السلام – وكان أحبار اليهود والنصارى على علم بهذه الأخبار التى وردت فى القرآن عن أنبيائهم وإن دخلها كثير من التحريف والتزييف .

وفى كثير من آيات القرآن الكريم نصوص صريحة تؤكد صحة الوحى الذى أوحى إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم – وذلك فى افتتاح بعض القصص أو فى التعقيب عليه :

جاء فى التعقيب على قصة مريم :

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾(٢)

وجاء فى التعقيب على قصة نوح :

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(٣)

وجاء فى التمهيد لقصة يوسف :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾(٤)

وجاء فى التعقيب على القصة نفسها :

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾(٥)

---

(١) الفرقان : الآيتان ٤ ، ٥
(٢) آل عمران : الآية ٤٤ .
(٣) هود : الآية ٤٩ .
(٤) يوسف : الآية ٣
(٥) يوسف : الآية ١٠٢ .

وجاء فى بداية قصة موسى

﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(١)

وجاء فى التعقيب عليها :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾(٢)

★★★

ومن وجوه التناسب التأكيد على وحدانية الله – سبحانه –وتحقيق هذه الغاية مما يتفق فيه القصص مع القرآن الكريم ، بل إن بعض القصص قد يأتى فى السورة القرآنية مرتباً على طريقة معينة ليؤكد أن دعوات الرسل السابقين كانت تدعو إلى كلمة التوحيد، وإلى الحرص على تأكيد العقيدة الأساسية وهى الإيمان بالله الواحد، ففى سورة "الأعراف" موكب من مواكب الرسل الذين رددوا على أسماع أقوامهم كلمة التوحيد التى جاءوا بها ، وجاء بها محمد – صلى الله عليه وسلم – من بعدهم .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ (٣)

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾(٤)

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾(٥)

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾(٦)

وتحكى سورة "هود"كلمة التوحيد التى بلغها هؤلاء الرسل أنفسهم وبالألفاظ نفسها ، وذلك لأنها جوهر رسالات الأنبياء جميعاً :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾(٧)

---

(١) القصص : الآية ٣ .
(٢) القصص : الآيات ٤٤، ٤٦
(٣) الأعراف : من الآية ٥٩ .
(٤) الأعراف من الآية ٦٥ .
(٥) الأعراف : من الآية ٧٣ .
(٦) الأعراف : من الآية ٨٥ .
(٧) الأنبياء : الآية ٢٥ .

ووجه تأكيد القصص القرآني على عقيدة الوحدانية يأتي من أن كفار مكة قد ارتاعوا حين دعاهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى عبادة إله واحد ، وكان موطن العجب فيما زعموا أنه جعل الآلهة إلها واحدا :

﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾(١).

ومعنى زعمهم أنه قد أتاهم بعقيدة جديدة عليهم فأراد القرآن أن يؤكد لهم أن الدعوة إلى توحيد الله أمر لايدعو إلى العجب ، بل المنطقى أن يكون الإ له واحداً ، وهذا موكب الرسل يؤكد ذلك .

★★★

ومن وجوه التناسب:بيان قدرة الله – تعالى – وذلك فى القصص الذى يحكى بعض مظاهر القدرة الإلهية الخارقة كقوله تعالى :

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾(٢)، وقصة "إبراهيم" – عليه السلام – حين طلب من ربه دليلاً على كيفية البعث فقال :

﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾(٣)، وقصته حين ألقى فى النار ولكنه نجا بقدرة الله – سبحانه – وقصة مولد "عيسى بن مريم" – عليهما السلام – وقصة مولد "يحيى". ويستوى فى هذا النوع من القصص ما يتعلق بالأمور الغيبية كإثبات البعث فى طير "إبراهيم" ، وفى قصة الذى بعث بعد موته مائة عام، وما يتعلق بعالم الشهادة كمولد "يحيى" و "عيسى" ونجاة "إبراهيم" من النار .

ومن وجوه التناسب:ما جاء فى قصة "آدم" وإبليس لبيان العداوة المتأصلة فى نفس إبليس ، والتى أعلنها القرآن صراحة :

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾(٤)

---

(١) ص : الآيتان ٤ ، ٥
(٢) البقرة : من الآية ٢٥٩ .
(٣) البقرة : من الآية ٢٦٠ .
(٤) فاطر : الآية ٦ .

إن إبراز هذه العدواة في ثوب قصصي يحكي تجربة واقعية بين "آدم" أبي البشر وإبليس «يكون أوقع في نفوس بني آدم وأقوى أثرا وأدعى إلى الحذر الشديد من كل هاجسة في النفس تدعو إلى الشر، وإسنادها إلى هذا العدو الذى لا يريد بالناس إلا شراً»(١) ولذلك ركز القرآن كثيراً على بيان هذه العدواة وخاصة في سورة "الأعراف" التي أسهبت في بيان المكيدة التي كادها إبليس لآدم، وأسهبت كذلك في بيان حالة آدم بعد استجابته لغواية إبليس وأكله من الشجرة ، ولذا ختمت القصة بهذا التحذير القوى الذى ينبه أبناء آدم إلى عدم تكرار المعصية التي سبقهم إليها أبوهم :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾(٢)

★★★

ومن وجوه التناسب:التسرية عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – ودفع ما قد يتسرب إلى نفسه من ضيق لما يقابله به قومه من تكذيب،وما ناله من أذى وصل إلى حد اتهامه بالسحر والجنون ، ويأتي قصص الأنبياء السابقين ليؤكد له – صلى الله عليه وسلم – أن هؤلاء الأنبياء أُوذُوا كما أُوذيت ونالهم مثل ماناك من تعريض وسخرية وأنهم صبروا حتى جاءهم نصر الله :

﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾(٣)

وليس في القصص تسرية عن النبي وحده ، فإلى ذلك فيه طمأنة لقلوب أصحابه أيضاً بأن لهم الغلبة على أعدائهم ، وأنهم سيملكون مشارق الأرض ومغاربها إن هم صبروا كما صبر المؤمنون من قبلهم الذين تحملوا مع أنبيائهم تبعات الرسالات وحملوا أماناتها في أعناقهم، وتبرز – في هذا الموقف – قصة المستضعفين من بني إسرائيل الذين سامهم فرعون أنواع العذاب ، وأذاقهم الخزى ، وأعمل فيهم القتل حتى هتفوا

---

(١) التصوير الفني في القرآن ، ص ١٥٤ .

(٢) الأعراف : الآية ٢٧ (٣) الذاريات : الآيتان ٥٢ ، ٥٣ .

بموسى – عليه السلام : ﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ ولكنه طمأنهم : ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾(١)

وكانت النتيجة الحاسمة هى ما أخبر به الله – سبحانه:–

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ (٢).

إن الفئة المؤمنة بمحمد – صلى الله عليه وسلم – هم العمد الأساسية للدين الإسلامى بعد نبيهم ، ولذلك استحقوا أن يقص عليهم القرآن أخبار أمثالهم من تابعى الرسل السابقين؛فقصة موسى – أيضاً-تبدأ هذه البداية التى يتوجه فيها الخطاب للنبى وللمؤمنين به :

﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾(٣)

والمستضعفون من أتباع محمد يعلمون تماماً أن هذا الوعد ليس خاصا ببنى إسرائيل وحدهم؛وإنما هو عام لكل الصابرين على البلاء وفيهم المؤمنون بمحمد .

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾(٤)

وإذا كان القرآن يؤكد غلبة الفئة المؤمنة فإنه يؤكد – أيضاً –المعنى الذى يقابل هذه الغلبة وهو اندحار الفئة المكذبة، ولذلك جاء القصص القرآنى بأخبار العذاب الذى

---

(١) الأعراف : الآية ١٢٩
(٢) الأعراف : الآية ١٣٧ .
(٣) القصص : الآيات ٣ ، ٦
(٤) غافر : الآية ٥١ .

أصاب المكذبين بالأنبياء السابقين، وفي ذلك اطمئنان للرسول – صلى الله عليه وسلم – ولأصحابه – أيضاً – كما أن فيه تخويفاً لمشركي مكة وتحذيرا لهم أن ينالهم ماناال المكذبين قبلهم إن لم يؤمنوا ، ففي سورة "القمر" قص القرآن ما كان من تكذيب أقوام بعض الأنبياء ثم توجه إلى المكذبين من قريش بالخطاب :

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَائِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ (١)

وسنة إنزال العذاب بالمكذبين لم تتخلف سوى مرة واحدة مع قوم "يونس" ، ولم يكن تخلفها لعجز عن إنزال العذاب ، ولكن لأن القوم آمنوا بعد كفرهم ، ولذلك استحقوا أن يكشف العذاب عنهم :

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾(٢).

والقرآن يريد أن ينبه كفار مكة إلى أن الفرصة مازالت مهيأة أمامهم ، فبإمكانهم أن يؤمنوا كما آمن قوم "يونس" فينجوا من العذاب كما نجوا .

★★★

لقد لاحظ علماء القرآن أن هناك اختلافاً في المقاصد بين القرآن المكي والمدني، وذلك لاختلاف الموضوعات المتناولة في كل من القسمين، فالقرآن المكي يتناول العقيدة، وهي مقصده الأسمى ؛العقيدة بما تشتمل عليه من إيمان بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة والرسل السابقين ، ويبدو ذلك واضحاً في القصص الوارد في السور المكية ، إذ جل قصص الأنبياء بما فيه من دعوة إلى عبادة الله وحده، والتحذير من الشرك وارد في سور مكية ، ويظهر ذلك في سور : الأنعام والأعراف ويونس وهود ويوسف وإبراهيم ومريم والأنبياء والشعراء والنمل والقصص وغيرها .

أما القسم المدني أو السور المدنية فتعالج جانب التشريع الذي لابد أن ينتظم المجتمع الناشئ الجديد في المدينة المنورة ، فلابد لهذا المجتمع من قيم يسير على

---

(١) القمر : الآيات ٤٣ ، ٤٦ . (٢) يونس : الآية ٩٨ .

هديها ، ولابد له من قوانين تنظم حركة حياته الاجتماعية والاقتصادية .

إن تحديد مقاصد بعينها للقرآن المكي وأخرى للقرآن المدني ليس أمراً قاطعاً ، ولكنه من قبيل الحكم على الأغلب الأعم من سور كل من القسمين ، وإلا فإن آخر آيات القرآن نزولاً بالمدينة ، بل آخر آياته نزولاً على الإطلاق(١) آية تمس شغاف العقيدة في صميمها وهي قوله تعالى :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾(٢).

ومن هنا فقد استمر التأصيل للعقيدة في السور المدنية، فالمبادئ الأساسية والأصول الكلية واحدة في القرآن كله .

وتتجلى خصيصة التناسب بين القصص القرآني وغايات التزيل تجليا واضحاً في سور كل من القسمين المكي والمدني ، فالتوافق كامل بين السورة – مكية أو مدنية – والقصص الوارد فيها بحيث تشكل السورة وحدة متكاملة وذلك واضح لمن يتأمل سور القرآن الكريم .

ومن السور المكية التي تتضح فيها خصيصة التناسب:سورة الشعراء .

نزلت هذه السورة في وقت احتدمت فيه معركة المعجزات التي أثارها مشركو مكة، وكان لهذه المعركة أثرها في نفس النبي – صلى الله عليه وسلم – فالقرآن قص على أسماع المشركين كثيراً من المعجزات وخوارق العادات التي أيد الله بها أنبياءه ورسله فطالب المشركون رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يأتيهم ببعض المعجزات وعلقوا إيمانهم على ذلك :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣).

وبلغت معركة المعجزات مداها حتى عانى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من إعنات المشركين له عناءً شديداً ، وتمنى لو آمنوا حتى تسير الدعوة في سبيلها آمنة

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي ط عالم المعرفة : ١/٣٥ / ٣٦ دون تاريخ .
(٢) البقرة : الآية ٢٨١ . (٣) الأنعام : الآية ١٠٩ .

مطمئنة ، ولكن الله – سبحانه – يعلم أن المعجزة ليست هي الفيصل في إيمان قريش ؛ فكم من آية خارقة طالب بها أقوام الرسل السابقين فلما نزلت أعرضوا عنها وكفروا بها ، فذاقوا وبال أمرهم ، ولذلك يقطع القرآن على هؤلاء المشركين كل سبيل في هذا المجال ، بل يقطع على رسول الله أمانيه في إيمان هؤلاء القوم عن طريق المعجزات فيخاطبه بقوله :

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾(١).

وقد نزلت سورة "الشعراء" لتعالج موضوع العقيده(٢) بكل ما يتصل به من توحيد الله ، وبعث ، ووحي ، ووحدة الرسالة، والتخويف من عاقبة التكذيب ، إلا أن موضوع الآيات والمعجزات هو موضوعها الرئيس .

تبدأ السورة بمقدمة تلخص موضوعها تلخيصاً وافياً ، وهو موضوع المعجزات الحية ، وخوارق العادات ، وأنه غير مجد في إيمان المشركين ، وهذه المقدمة تهيئ الجو للقصص ، وتوجه القلوب إلى العظة والعبرة المطلوبة من هذا القصص .

وفي هذه المقدمة بعض الحقائق هي :

(١) إذا كان المشركون يطالبون بمعجزة فإنهم غافلون عن أكبر معجزة تصافح أسماعهم صباحاً ومساءً وهي القرآن الكريم ، وهذه البداية بالأحرف المقطعة تلفت إلى إعجاز القرآن الماثل بين أيديهم ، فهو مؤلف من جنس الحروف التي يؤلفون بها كلامهم ، ومع ذلك لا يستطيعون أن يأتوا بشيء من مثله وهم أئمة البلاغة وأرباب الفصاحة .

﴿ طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾(٢)

(٢) ثم يأتي بعد ذلك ما يشبه العتاب لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – الذي يهمه أمر المشركين ويؤرقه إعراضهم عنه وتكذيبهم بالقرآن، ولو شاء الله لقسرهم على

---

(١) الأنعام : الآية ٣٥ .

(٢) انظر : في ظلال القرآن ، ص ٢٥٨٣ . و :منهج القصة القرآنية ، محمد شديد ، ط شركة مكتبات عكاظ ، السعودية ، الطبعة الأولى ، ص ٦٥ .

(٣) الشعراء: الآيتان ١ ،٢.

الإيمان قسرا ، فالآيات عند الله ، وهو قادر على إنزالها وإخضاع أعناقهم لها فلا يستطيعون فكاكاً ، ولكنه يريد قلوباً تخشع لا أعناقاً تخضع :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾(١)

(٣) ثم تلفت مقدمة السورة إلى موقف هؤلاء المشركين من معجزة القرآن، وهو موقف الإعراض والتكذيب، وأنه كلما جدد لهم القرآن موعظة وتذكيراً جددوا هم إعراضاً واستهزاءً وسخرية، حتى أوشك العذاب أن ينزل بهم .

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾(٢).

(٤) إذا كان المشركون جادين فى طلب المعجزة ليؤمنوا فحسبهم آيات الله فى الأرض

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾(٣)

وفى ختام مقدمة السورة تأتى هذه اللازمة :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾(٤)

وقد تكررت هذه اللازمة بعد كل قصة من القصص الوارد فى السورة،وهو تكرار يؤكد أن هؤلاء المشركين الذين لا يعتبرون بكل هذه الآيات التى تعرضها السورة لن تجدى معهم المعجزات الحسية لأنهم جبلوا على الإعراض والتكذيب .

وبعد هذه المقدمة تأتى مجموعة من القصص تستغرق معظم السورة ، ويغلب على هذه القصص موضوع المعجزات ، وتعرضها السورة على النحو التالى :

أولاً : قصة موسى فيها ذكر لمعجزة العصا واليد :

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ (٥).

وفيها إيمان السحرة وهو إيمان فيه ما يشبه المعجزة ؛ إذ إن التحول فى العقيدة من الكفر إلى الإيمان المطلق على هذا النحو أمر غير مألوف فى الإنسان الذى دأب

---

(١) الشعراء : الآيتان ٣ ، ٤ .
(٢) الشعراء : الآيتان ٥ ، ٦ .
(٣) الشعراء : الآية ٧ .
(٤) الشعراء : الآيتان ٨ ، ٩
(٥) الشعراء : الآيتان ٣٢ ، ٣٣ .

على إعمال عقله وفكره قبل أن يتحول مثل هذه التحولات الكبرى ، وخاصة إذا كانت متصلة بالعقيدة التي يعتقدها ، وفيها معجزة انشقاق البحر ونجاة موسى وبني إسرائيل ، وهلاك فرعون وجنوده .

ثانياً : قصة إبراهيم قد خلت من ذكر المعجزات الحسية ، ولكنها استعاضت عن ذلك ببعض الأمور :

(أ) الهجوم على الوثنية والبراءة من قومه الوثنيين الذين يعبدون أصناما لا تسمع،بل لا تنفع ولا تضر .

﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾(١).

وكأنه بهذا الهجوم يخاطب مشركي مكة الذين يزعمون أنهم على دينه ، وهم في الحقيقة يعبدون الأمور الخارقة ، كما كان قومه يعبدون الأصنام .

(ب) يفيض إبراهيم في بيان صلته بربه ، وكأنما يلقن المؤمنين درساً في حقيقة الإيمان بالله والصلة به، وكأنه يؤكد شطط طالبي المعجزات الذين أعرضوا عن مظاهر قدرة الله وآياته التي تعمهم أنفسهم :

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾(٢) .

(جـ) القفز إلى مشهد القيامة :

﴿ وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣).

---

(١) الشعراء : الآيات ٧١ ، ٧٣ .

(٢) الشعراء : الآيات ٧٧ ، ٨١ .

(٣) الشعراء : الآيات ٨٧ ، ٩٨ .

وهو مشهد يصور نتيجة الصراع وخاتمة المطاف بحيث يعد بديلاً عن مصارع المكذبين في الدنيا في بقية قصص السورة .

ثالثاً : تأتي قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، وهي تخلو من المعجزات الحسية باستثناء ناقة صالح التي لم يتعظ بها قومه فعقروها ، وفي هذه القصص ما يؤكد للرسول – صلى الله عليه وسلم – أن المعجزات ليست دافعاً إلى الإيمان دائماً .

وهناك اتفاق بين دعوات هؤلاء الرسل في أمرين :

أولهما : بدأت القصص كلها بالإفصاح عن تكذيب هؤلاء الرسل من قومهم :

(كذبت قوم نوح المرسلين . كذبت عاد المرسلين . كذبت ثمود المرسلين) .. الخ

ثانيهما : أن كل رسول دعا قومه بمثل ما دعا به غيره من الرسل :

(إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون . إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون).. الخ ، وهذا التماثل بين دعوات الرسل ، والتماثل بين إجابة الأقوام يوحي بأن هذه القصص كأنها قصة واحدة ، واحدة في مضمونها ، واحدة في نتيجتها وهي التكذيب، ويبرز هذه الوحدة التعبير الذي تبدأ به كل قصة (كذبت ،،، المرسلين) ، والواقع أن كل أمة كذبت رسولها فقط، ولكن لأن السورة تريد أن تبرز وحدة الرسالة ووحدة الرسل ، ووحدة الدعوة ، ووحدة المصير جاء التعبير على هذا النسق الذي يعبر عن المراد أحسن تعبير . وإذا كانت دعوة محمد – صلى الله عليه وسلم – امتداداً لدعوة هؤلاء الرسل فإن في هذه القصص إيحاءً بأن تكذيب مشركي مكة إنما كان لأمر آخر غير المعجزات وخوارق الأمور .

وبعد سرد هذا القصص تعقب السورة ببيان معجزة محمد – صلى الله عليه وسلم – الكبرى وهي القرآن الكريم ، ويستغرق التعقيب معظم مابقي من السورة ليرد على ما يثيره المشركون حول القرآن من شبهات رغم أنه نزل على واحد منهم يعرفونه جيداً ونزل باللغة العربية التي يعرفونها ويتحدثون بها :

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ (١).

ومن التناسب المعجب ما جاء في سورة الكهف من قصص يتناسب مع مطلع

---

(١) الشعراء : الآيات ١٩٢ ، ١٩٥ .

السورة وختامها ، والسورة لها محور موضوعى تدور حوله وتؤكده ، وهو يتمثل فى تصحيح العقيدة وتأكيد قدرة الله على البعث والحساب .

وهى تبدأ بالحديث عن يوم القيامة وما أعد الله فيه من بأس شديد للكافرين ، وأجر حسن للذين يعملون الصالحات :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾(١).

وختمت السورة بالتأكيد على كثير من أمور العقيدة ، فأكدت صحة الوحى الذى أوحى إلى محمد – صلى الله عليه وسلم – وأن الله إله واحد ، وأنه قادر على البعث ، وحذرت من الشرك :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) ﴾ (٢).

وهكذا يتلاقى أول السورة وآخرها : أولها يتحدث عن الآخرة بطريق التقرير لها ، وبيان مهمة القرآن فى إثبات ما يكون فيها من الجزاء إنذاراً وتبشيراً ، وآخرها يتحدث عن هذه الحقيقة التى تقررت ويحاكم إليها الناس فى الإيمان والعمل الصالح .

ونلحظ أن آيات البدء "قد ذكر فيها أمر الذين قالوا اتخذ الله ولدا من إنذارهم وبيان كذبهم وتخليطهم وجهلهم على الله، وذلك هو قول الذين يشركون بالله ويعتقدون ما ينافى وحدانيته وتنزيهه ، وأن آية الختام قررت (إنما إلهكم إله واحد) وأن على من يؤمن به ويرجو لقاءه ألا يشرك به أحدا ، فتطابق الأول والآخر فى إثبات وحدانية الله – جل وعلا – كما تطابقا فى أمر البعث والجزاء فى الدار الآخرة"(٣) وما بين مطلع السورة وختامها جاء عدد من القصص الذى ذكر فيه أمر البعث عدة مرات :

أولاً : جاء فى مقدمة قصة أصحاب الكهف التى سيقت دليلاً على قدرة الله ، وتنظيراً لما

---

(١) الكهف : الآيات ١ : ٣ .

(٢) الكهف : الآية ١١ .

(٣) أهداف كل سورة ومقاصدها فى القرآن الكريم ، د. عبد الله محمود شحاتة ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثالثة ١٩٨٦ م : ١ / ٢٠٨ .

ينكره الكافرون من أمر البعث والنشور :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ (١).

وجاء فى أثناء القصة :

﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا ﴾ (٢).

ثانياً : وجاء أمر البعث فى المثل الذى ضرب لصاحب الجنتين وصاحبه،وقد أنكر صاحب الجنتين قدرة الله ، وشك فى الساعة ، وقد نصحه صاحبه وحذره أن يحيل الله الجنتين صعيداً زلقا فلما لم ينتصح وحدث ما حذر منه صاحبه قال :

﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾(٣)

ثالثاً : وفى قصة موسى والعبد الصالح كثير من المعانى الدقيقة ، إذ يجرى الحديث فيها على نحو يحس معه القارئ والسامع أن علم الله – سبحانه – يفوق علم البشر جميعاً ، وأن تصريفه للكون يجرى على« سنن منها ماهو معروف وما هو خفى ، «فإذا آمن الناس بهذا واطمأنوا إليه لم يعد هناك مجال للعجب من أمر الساعة ، فماهى إلا تغيير يحدثه خالق الكون ومالك ناصيته، فإذا السنن المعروفة تحل محلها سنن أخرى ، ومن قدر على إنشاء السنن قدر على تغييرها ، وبهذا يؤمن كل عاقل بصدق ما أخبر به المعصوم من كل أمر يبدو أمام العقول عجيباً وهو فى قدرة الله غير عجيب» . (٤)

رابعاً : جاء فى ختام قصة "ذى القرنين" حديث عن البعث – أيضاً – وأنه وعد الله الحق الذى لا يتخلف، كما جاء فيه الحديث عن النفخ فى الصور ، وعرض جهنم للكافرين عرضا ، وأنهم يبصرون وكانت أعينهم فى غطاء ، ويسمعون وكانوا من قبل لا يستطيعون سمعاً .

وبذلك يتضح اتصال هذا القصص بموضوعات السورة اتصالاً وثيقا ، وتتضح مناسبته لمراميها وغاياتها، ونهوضه لتأكيد هذه المرامى والغايات فى وحدة موضوعية

---

(١) الكهف : الآية ٩ . (٢) الكهف : من الآية ٢١ .

(٣) الكهف : من الآية ٤٢ .

(٤) أهداف كل سورة ومقاصدها فى القرآن الكريم : ١ / ٢١١ .

وفكرية لاتشذ فى أية جزئية من جزئياتها على مدى السورة كلها، مع ملاحظة أن القصص استغرق ما يقرب من ثلثى السورة ، وأما ما تبقى منها فهو تمهيد للقصص أو تعقيب عليه .

وتظهر خصيصة التناسب بين القصص القرآنى وغايات التنزيل فى السور المدنية أيضاً، ومن ذلك هذا الخبر الوارد عن إبراهيم – عليه السلام – فى سورة الممتحنة .

تهتم هذه السورة بتنظيم العلاقة بين المسلمين وغيرهم من أهل الديانات الأخرى ، وخاصة كفار مكة الذين كان بينهم وبين بعض المهاجرين أواصر قربى ورحم انقطعت بسبب الهجرة إلى المدينة ،، وكان أحد المهاجرين – وهو حاطب بن أبى بلتعة – قد غلبه خوفه على أهله وماله بمكة ، فأفشى إلى قريش سر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وكتب إليهم أنه جهز جيشاً لفتح مكة بعد أن نقضت قريش صلح الحديبية ، وأ راد حاطب أن تكون له عند قريش يد يدفع الله بها عن أهله ، فأخبر الله نبيه بتدبير هذا الصحابى ، وأبطله الله تعالى،(١) فنزل قول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾(٢)

فالقضية هنا تتلخص فى أن العقيدة الإيمانية هى الفيصل فى العلاقة بين المسلمين وغيرهم ، وأن من كان خارجاً عن العقيدة فلا يصح أن يكون وليا لأحد من المسلمين ، لأنه عدو الله وعدو المسلمين فى آن واحد .

وإذا كان الرجل المهاجرى قد اتخذ من وجود أهله فى مكة ستاراً لمودته قريشاً وسببا لوصلهم فإن السورة تبين له خطأه، لأن قضية الأرحام والأولاد التى تهفون إليها أيها المهاجرون وتضطركم إلى موادة أعداء الله وأعدائكم وقاية لها، هذه القضية ليست

---

(١) لتفصيل هذه الحادثة ينظر : أسباب النزول للنيسابورى ص ٣١٣، الكشاف للزمخشرى : ٥١١/٤ ، فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، للحافظ أحمد بن على حجر العسقلانى ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، وآخرين ، ط دار الريان للتراث، الطبعة الأولى ١٩٨٦م : ٧/ ٥٩٢ .

(٢) سورة الممتحنة : الآية ١ .

داخلة فى إطار العلاقة بينكم وبين الكفار : ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١)

وبعد ذلك يأتى الخبر الوارد عن "إبراهيم" – عليه السلام – ويحكى علاقته بأبيه الذى لم يكن مسلماً ، وهو موقف المسلم الذى يتبرأ من المشركين ولو كانوا أقرب الناس إليه ، ولو كانوا آباءه ، بل إن السياق القرآنى يجعل هذا الموقف عاماً ، إذ يجعله موقفاً جماعياً من إبراهيم والمؤمنين به جميعاً تجاه قومهم ، فالقرآن إنما قص هذا الخبر عن إبراهيم مع أبيه ليبين للرجل المهاجرى ، ويبين لمن تجيش فى نفوسهم الخواطر تجاه أرحامهم ، وأولادهم فى مكة : أن لهم جميعاً أسوة حسنة فى أبيهم إبراهيم ، ليست فى عقيدته فحسب ، ولكن فى تجاربه التى عاناها أيضاً ، فيشعرون أن لهم رصيداً من التجارب أكبر من رصيدهم الشخصى وأكبر من رصيد جيلهم الذى يعيشون فيه، لقد مر إبراهيم والذين معه بالتجربة التى يعانيها المسلمون المهاجرون اليوم فكان فيهم الأسوة الحسنة .(٢)

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣)

ومن التناسب أيضاً موقع الخبر عن "موسى" "وعيسى" – عليهما السلام – فى سورة "الصف" التى تحدثت عن أمرين واضحين :

أولهما : عتاب الله للمؤمنين الذين تخاذلوا عن نصرة رسول الله – صلى الله عليه

---

(١) سورة الممتحنة : الآية ٣ .

(١) فى ظلال القرآن : ٦/ ٣٥٤٢ .

(٣) سورة الممتحنة : الآيتان ٤ ، ٥ .

وسلم – يوم أحد : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ (١)

وقد تأذى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من سلوك بعض أصحابه يوم فروا عنه فنزل القرآن الكريم يعاتبهم على سلوكهم .

ثانيهما : الدعوة إلى الجهاد والثبات فى القتال فى سبيل الله، وبعد ذلك يأتى الخبر الوارد عن موسى عليه السلام :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾(٢)

ونلحظ على هذا الخبر أنه جاء قصيراً جداً ، وأنه اختار من حياة موسى –الحافلة بالأحداث – لقطة واحدة ، ولكنها معبرة ومناسبة للموقف الذى تعالجه السورة ، فإيذاء بعض المسلمين لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – بفرارهم عنه يكاد يشبه إيذاء بنى إسرائيل لموسى – عليه السلام – وتخليهم عنه فى كثير من المواقف ، ويحذر القرآن أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من أن يصيبهم مثل ما أصاب بنى إسرائيل الذين زاغوا بعد ما بذلت لهم كل أسباب الاستقامة فأزاغ الله قلوبهم ، وزادهم زيغاً على زيغ ، فكأن الأسلوب القرآنى يريد أن ينبه المسلمين إلى أنهم قد يكونون خطراً على الرسالة إذا سلكوا مثل مسلك بنى إسرائيل مع نبيهم موسى .

ثم يأتى الخبر عن عيسى بن مريم – عليه السلام :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٣)

---

(١) سورة الصف : الآيتان ٢ ، ٣ وانظر : أسباب النزول ، للنيسابورى ، ص ٣١٦ ، وتفسير القرطبى : لأبى عبد الله محمد بن أحمد القرطبى ، ط دار الريان للتراث ، جـ٩ ص ٦٥٥٦ .

(٢) سورة الصف : الآية ٥ .

(٣) سورة الصف : الآية ٦ .

ولا تخفى هاتان الإشارتان اللافتتان في كلام عيسى بن مريم – عليهما السلام :

أولهما : أنه جاء مصدقاً لما بين يديه من التوارة .

ثانيتهما : أنه جاء مبشرا برسول يأتى من بعده اسمه أحمد .

فالإشارة الأولى تلفت إلى أن بنى إسرائيل – الذين ضرب بهم المثل للمسلمين – قد ضيعوا معالم رسالة نبيهم موسى، وأنهم استمروا فى إيذائه بعد موته بتحريف جوهر رسالته ، ولذا جاء عيسى بن مريم إليهم وبعث فيهم هم أنفسهم حتى إنه ليناديهم ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

والإشارة الثانية تلفت إلى صدق النبى الذى بين أظهركم أيها العرب ، وأنكم تعرفون أن رسالته خاتمة الرسالات ، فلم الفرار عنه والتخلى عن نصرة دعوته ؟! .

وقد جاء فى آخر السورة حديث الجهاد متصلاً بحديث عيسى – عليه السلام – مع الحواريين ، ولهذا جاءت طريقة الإخبار به فى صورة أمر صريح إلى التأسى بهم موجها إلى المؤمنين أتباع النبى – صلى الله عليه وسلم – فى قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤) ﴾(١)

فالعبرة المستفادة إذن هى استنهاض همم المؤمنين بالدين الأخير (٢)

ومن التناسب فى القرآن المدنى أيضاً ما جاء فى صدر سورة "التحريم" عن تظاهر بعض أزواج النبى – صلى الله عليه وسلم – عليه ، واتفاقه مع ما جاء فى نهاية السورة من المثل المضروب لنساء كافرات فى بيوت أنبياء، والمثل المضروب لنساء مؤمنات فى بيوت كفار عتاة .

أما الخبر فى صدر السورة فتحكيه عائشة – رضى الله عنها– إذ قالت :

"كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يشرب عسلاً عند زينب ابنةجحش ويمكث عندها فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له : أكلت مغافير ؟ إنى

---

(١) سورة الصف : الآية ١٤ .

(٢) انظر : فى ظلال القرآن : ٣٥٦١/٦ ، وبدائع الإضمار القصصى فى القرآن الكريم، ص ٣٦ ، ٣٧ .

أجد منك ريح مغافير ، قال : لا، ولكنى كنت أشرب عسلا عند زينب إبنة جحش ، فلن أعود له ، وقد حلفت ، لا تخبرى بذلك أحداً" (١)

ويروى أيضاً عن "عمر بن الخطاب" قال : دخل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بأم ولده مارية ؟ فى بيت حفصة ، فوجدته معها ، فقالت : لم تدخلها بيتى ؟ ماصنعت بى هذا من بين نسائك إلا من هوانى عليك ، فقال لها : "لا تذكرى هذا لعائشة ، هى على حرام إن قربتها ، قالت حفصة : وكيف تحرم عليك وهى جاريتك ؟ فحلف لها لا يقربها ، وقال لها : لا تذكريه لأحد فذكرته لعائشة ، فأبى أن يدخل على نسائه شهرا واعتزلهن تسعاً وعشرين ليلة ، فأنزل الله تعالى "(٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾(٣) .

وفى بيان سبب النزول توضيح كاف لمعانى الآيات ، غير أن المعنى من ذلك كله هو سلوك حفصة زوج النبى – صلى الله عليه وسلم – وكان الأجدر بها أن تحفظ سره وتكتمه عليه ، لا أن تسارع إلى إفشائه وإذاعته بين أزواج النبى ، حتى أدى ذلك إلى غضبه عليهمن وحلفة ألا يقربهن .

ويأتى ختام السورة متساوقاً مع أولها ، فيضرب القرآن الكريم المثل لأمهات المؤمنين ببعض نساء الأنبياء السابقين ، اللاتى تظاهرن على أزواجهم ، وخيانتهم فى دعواتهم ، وأن هذه الخيانة عداوة للمؤمنين ، وأن لحمة النسب ، وصلة الصهر لن تنفع هؤلاء النساء الخائنات ، لأن هذه الخيانه والعداوة والكفر قطع للعلائق ، وبث للوصل، ولو كن نساء أنبياء ، فامرأة نوح وامرأة لوط لما نافقتا وخانتا الرسولين لم يغن الرسولان عنهما بحق ما بينهما وبينهما من صلة الزواج إغناءً مامن عذاب الله .

---

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى : ٥٢٤/٨ ، تفسير القرطبى : ١٠ /٦٦٥٦ .
(٢) أسباب النزول ، ص ٣١٩ .
(٣) سورة التحريم : الآيات ١ ، ٢

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾(١) .

وخيانة هاتين المرأتين كانت «خيانة فى الدعوة ، ولم تكن خيانة الفاحشة ، كانت أمرأة نوح تسخر منه مع الساخرين من قومه ، وكانت أمرأة لوط تدل القوم على ضيوفه وهى تعلم شأنهم مع ضيوفه »(٢) .

ثم يضرب الله مثلاً آخر لأمهات المؤمنين فيمثل لهن حال المؤمنين – وأن صلة الكافرين لا تضرهم ولا تنقص شيئاً من ثوابهم وزلفاهم عند الله – بحال امرأة فرعون ومنزلتها عند الله تعالى ، مع كونها زوجة أعدى أعداء الله الناطق بالكلمة العظمى ، ومريم ابنة عمران وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين مع أن قومها كانوا كفاراً :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢) ﴾(٣) .

وفى طى هذين التمثيلين "تعريض بأمى المؤمنين المذكورتين فى أول السورة ، وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بما كرهه وأغضبه ، وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشده ، لما فى التمثيل من ذكر الكفر ، وإشارة إلى أن من حقهما أن تكونا فى الإخلاص والكمال فيه كمثل هاتين المؤمنتين ، وألا تتكلا على أنهما زوجا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فإن ذلك الفضل لا ينفعهما إلا مع كونهما مخلصتين، والتعريض بحفصة أرجح، لأن امرأة لوط أفشت عليه كما أفشت حفصة على

---

(١) سورة التحريم : الآية ١٠ .
(٢) فى ظلال القرآن : ٦ / ٣٦٢١ .
(٣) سورة التحريم : الآيتان ١١، ١٢ .

رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إن أسرار التنزيل ورموزه فى كل باب بالغة من اللطف والخفاء حداً يدق عن تفطن العالم ويزل عن تبصره "(١) .

وهكذا تتضح خصيصة التناسب بين القصص القرآنى وغايات التنزيل فى القرآن بقسميه – المكى والمدنى – وأن القصة تمثل جزءاً أصلياً من نسيج القرآن المحكم ، تأتى فى مكانها المقدر لها وتؤدى الغرض المراد منها على أكمل وجه وبأوضح بيان، وهو نفسه الغرض المراد من القرآن الكريم ، عقيدة وخلقا أو عبادة وتشريعاً ، أو غير ذلك من الغايات التى تتصل بالعقيدة والتشريع .

---

(١) الكشاف : ٤ / ٥٧١ .

ب

من أســـرار

انتقاء الأحـــداث فى القصـــة القـــرآنية

يتصل بخصيصة التناسب السابقة خصيصة أخرى واضحة فى القصص القرآنى وهى خصيصة الانتقاء فى أحداث القصة، وكلتا الخصيصتين – التناسب والانتقاء – مردهما إلى علة واحدة هى علة خضوع القصة القرآنية للغرض الدينى(١)، فالقرآن كتاب دعوة لا كتاب تاريخ حتى تأتى القصة فيه جملة واحدة فى مكان واحد، بحيث تستخلص منها حوادث التاريخ مرتبة حسب وقوعها، ولكن للقصة هدفاً آخر غير الفن والتاريخ، وإن تحقيق هذا الهدف يقتضى عدم الاستغراق فى القصة بما يزيد عن الحاجة، وأن يركز من أحداثها على ما جئ بها شاهدا عليه ولأجله(٢)، ولذلك تكرر كثير من القصص فى مواضع متعددة من القرآن الكريم كقصة سيدنا موسى، وقصة إبراهيم، وقصة بدء الخلق، وقصة نوح وقصص هود وصالح وشعيب، وغيرها من القصص، وهناك قصص لم يذكر إلا مرة واحدة كالقصص الوارد فى سورة الكهف : قصة أصحاب الكهف، وقصة صاحب الجنتين وصاحبه، وقصة موسى مع العبد الصالح، وقصة ذى القرنين(٣)، ومنه قصة قارون(٤).

وخصيصة الانتقاء فى الأحداث وذكر ما يناسب السياق ظاهرة فى معظم القصص القرآنى، ما جاء مكرراً وما ورد مرة واحدة فقط، وإن كانت علة الانتقاء أوضح فى القصص المكرر منها فى القصص غير المكرر.

وفى الحديث الخاص بالتناسب يظهر سر الانتقاء فى الحدث القصصى، وذكر ما يوافقه السياق، فى الخبر الوارد عن إبراهيم – عليه السلام – وعلاقته بأبيه فى سورة الممتحنة، كذا تظهر علة الانتقاء فى سورة التحريم وحديثها عن امرأة نوح وامرأة لوط وخيانتهما لهذين النبيين، وكيف جاء هذا الحديث متفقا مع مطلع السورة التى تتحدث عن علاقة بعض أزواج النبى ﷺ به، ويضاف إلى هذين الموضعين اللذين تظهر فيها علة الانتقاء مواضع أخرى منها :

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن ، صـ ١٥٥ .

(٢) بدائع الإضمار القصصى فى القرآن الكريم ، صـ ٤١ .

(٣) استغرق هذا القصص معظم سورة الكهف.

(٤) القصص الآيات : ٧٦ : ٨٢ .

ماورد من أحداث فى قصة آدم – عليه السلام –:

إن حياة آدم-عليه السلام – حافلة بكثير من الأحداث، بوصفها حياة عريضة ممتدة، وإن كان الله – سبحانه وتعالى – لم يحدد مدة حياته على هذه الأرض، وكيف تفاعل مع الموجودات فيها بعد أن أهبط إليها وترك حياة الترف والنعيم والراحة التى عاشها فى الجنة التى أُسكنها بعد خلقة؛ فما بال القرآن يقتصر من هذه الحياة على جانب يعد ضئيلاً إذا ما قورن بما بقى من حياة آدم وأحداثها؟.

إن القرآن لم يذكر مما يتصل بحياة آدم إلا أمر خلقه، ونفخ الروح فيه، وتعليم الله له الأسماء كلها، وأمره – سبحانه – الملائكة بالسجود له، وامتثالهم لهذا الأمر، وامتناع إبليس عن السجود بدعوى أنه أفضل من آدم، إذ خلق من نار وخلق آدم من طين، ثم يذكر القرآن الأمر الصادر لآدم بسكنى الجنة، وإباحة كل ما فيها له إلا شجرة واحدة نهى عن الأكل منها، ووسوسة إبليس له بالأكل من هذه الشجرة، واستجابته لهذه الوسوسة، وخروجه من الجنة، وإهباطه إلى الأرض وتختم القصة باستغفار آدم، وتوبة الله عليه، والإفصاح عن العداوة المتأصلة بينه وبين إبليس.

هذا هو مجمل ما ذكر من قصة آدم فى القرآن، فلماذا اقتصر على ذكر هذه الأحداث دون أن يذكر شيئاً مما حدث له بعد إهباطه إلى الأرض؟.

إن القرآن الكريم لا يعنى بتسجيل الأحداث إلا إذا كانت ذات أهمية بالغة فى الدلالة على قضية من القضايا التى يطرحها ويناقشها، أما ما وراء ذلك من الأحداث التى تنعدم أهميتها أو تقل فلا شأن للقرآن بها؛ فخلق آد على هذه الكيفية التى ذكرتها القصة ليس هناك أبلغ منها فى الدلالة على قدرة الله – سبحانه – كذلك أراد الله أن يظهر مدى تكريمه للإنسان فنسب فعل الخلق إلى نفسه فقال :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) ﴾(١)

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) ﴾(٢)

واستمراراً لمظاهر التكريم أمر الله ملائكته بالسجود لهذا المخلوق الذى

---

(١) صورة ص الآية : ٧١ .

(٢) سورة الحجر : الآيتان : ٢٨ .

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ﴾(١)

وهذا التكريم ينسحب على أولاد آدم بتكريم الله لأبيهم، وهو ليس تكريماً خاصاً بجانبى الجسم والروح فقط، وإنما هناك الجانب الفكرى والعقلى الذى منحه الله لآدم حين علمه الأسماء كلها ففضل به على الملائكة(٢).

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ..... ﴾(٢).

وهناك قضية أخرى تثيرها القصة، وهى خلافة الإنسان فى الأرض، وما تميز به هذا الإنسان من مميزات وخصائص تجعله مهيأً لهذا الاستخلاف، وما فيه من غرائز تهيأت له تجذبه إلى الجانب الطينى فيه، أو تسموا به سمو الرح، وإذا كانت هذه طبيعة آدم فليس من الغريب أن ينسى عهد الله إليه ويستجيب لنداء عدوه إبليس الذى أغراه بالأكل من الشجرة مستغلاً إحدى هذه الغرائز التى أودعت فيه، وهى غريزة حب البقاء والرغبة فى الخلد :

﴿ ... وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) ﴾(٣).

هيأ الله آدم وبنيه للخلافة فى الأرض وزوده بكثير من الاستعدادات الفطرية التى تساعده على استقامة الحياة بعد ذلك، " ولعل أهم هذه الاستعدادات هو ما طبع عليه الإنسان من التدين الذى يضبط الغرائز فلا يجور بعضها على بعض ولا يلغى بعضها بعضاً، وهذا ضرورى فى مواجهة العدو اللدود الذى يجابهه الإنسان فى حياته وهو إبليس"(٤) فليس من العجيب أن يلجأ آدم وبنوه من بعده إلى الله – سبحانه – إذا ارتكب أحدهم مخالفة من المخالفات :

---

(١) سورة الحجر : الآية : ٢٩ .

(٢) البقرة : الأيات : ٣١ : ٣٣.

(٣) الأعراف : من الآية ٢٠.

(٤) القصص القرآنى إيحاؤه ونفحاته، د. فضل حسن عباس، ط دارالفرقان ، عمّان ، الطبعة الثانية ١٩٩٢، صـ٦٠.

﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) ﴾(١)

هذه بعض معطيات قصة آدم ، وهي غاية ما يود الإنسان معرفته فى رحلته علي وجه الأرض، وهى رحلة شاقة إن لم يلتزم فيها بهذه المعطيات ويتفاعل مع الوجود من خلالها ويعرفها معرفة يقينية تيسر عليه أمر وجوده واستخلافه.

إن إدراك الإنسان هذه المعطيات يؤدى به إلى عدم الزيغ عن منهج الله الذى يحكم حياة الإنسان المخلوق، لأن الزيغ عن المنهج هو – فى الحقيقة – رفض للتكريم الذى تفضل به الخالق على الإنسان، وانحطاط عن مستوى الإنسانية إلى درك الحيوانية:

﴿ ... وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾(٢)

والزيغ عن المنج – أيضاً – تعطيل لعملية الاستخلاف فى الأرض، وإهدار لمقومات الإنسان التى تهيأت له فى هذه العملية، وتدبير لتلك الاستعدادات التى زود بها، وتقوية لغرائزه الشريرة على غرائزه الخيرة، وذلك كله إفساد للعملية من بدايتها، فتصبح حياة الإنسان بلا معنى ولا هدف، ويصبح وجوده كلا وجود.

إن الغرض الدينى هو الذى وقف بأحداث قصة آدم عند هذا الحد فلم تزد عليه، وماذا يريد الإنسان أن يعرف من القصة أكثر مما عرف؟ إن الزيادة على ذلك مما لا يفيد الإنسان إذاعرف أن آدم اشتغل بالزراعة أو بالصناعة أو بالتجارة بعد أن أهبط إلى الأرض؟ إن الواقع يؤكد أن الإنسان اهتدى إلى مقومات حياته، وعرف كيف يحافظ على هذه المقومات، وكيف ينميها ويطورها بما يتلاءم مع متطلبات حياته وبما يستجيب إلى رغباته واحتياجاته فيها.

وذلك مثل لاختيار أحداث القصة القرآنية، وهناك أمثلة أخرى منها :

ذكر القرآن الكريم قصة نبى الله سليمان – عليه السلام – فى أربع سور(٣)، وتركز هذه السور على تكريم الله لسليمان، وما وهبه من الملك الذى لا ينبغى لأحد من بعده، وما منحه الله من النعم كنعمة تسخير الريح له تنقله من مكان إلى مكان، ونعمة تسخير الشياطين يعملون له مايشاء من الأبنية العظيمة والتماثيل والجفان والقدور الكبيرة، كذلك

(١) الأعراف : الآية ٢٣ .

(٢) محمد : من الآية ١٢.

(٣) هى بترتيب النزول : سورة ص : الآيات ٣٠ : ٤٠ ، النمل : ١٥ :٤٤ ، سبأ : ١٢ : ١٤ ، الأنبياء : ٧٨ : ٨٢

نعمة الفهم لمسائل القضاء، وفهمه لغة الطير والحيوان والحشرات، وتفصل سورة "النمل" ماكان بينه وبين ملكة سبأ وكيف خضعت له وأسلمت معه لله رب العالمين.

هذا مجمل ما جاء من قصة سليمان – عليه السلام – فى القرآن الكريم وقد انفردت سورة سبأ بالحديث عن موته بهذه الكيفية العجيبة :

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) ﴾(١)

فلماذا اختار القرآن حدث موت نبى الله سليمان – عليه السلام – ليقصه فى سورة "سبأ" دون غيرها من السور الثلاث الأخرى؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تستدعى النظر المتأمل فى السور الأربع التى وردت القصة فيها، وأولها سورة "ص" التى بدأت بالحديث عن الكفار الذين اتهموا الرسول ﷺ بالسحر والكذب، وعجبوا لأنه يدعو إلى عبادة إله واحد، ثم انتقلت السورة إلى ذكر أقوام كذبوا رسلهم، وأن المكذبين بمحمد ﷺ ليسوا بدعاً بين هؤلاء المكذبين، ثم يأتى هذا الأمر الإلهى لمحمد ﷺ أن يصبر كما صبر داود فأسبغ الله عليه النعم وأجزل له العطاء:

﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ (١٨) ﴾(٢)

ثم تعدد بعض نعم الله على داود، وآخرها غفران الله له مخالفة ارتكبها، لم تذكرها القصة وتزيَّد فيها المفسرون كثيراً، وبعد تعقيب قصير على قصة داود تنتقل السورة إلى قصة سليمان وتعدد بعض نعم الله عليه، ومنها الملك العريض، وتسخير الريح والشياطين له، وتختتم القصة بهذه الآية التى تشير إلى عطاء الله له :

﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) ﴾(٣)

فسورة "ص" فى جانب كبير منها تمثل العطاء الإلهى للأنبياء والرسل ومنهم داود وسليمان، وأبرز العطاء فيها هو الرحمة أو الغفران الذى من الله به على كل منهما،

---

(١) سبأ : الآية ١٤ .

(٢) ص : الآيتان : ١٧ ، ١٨ .

(٣) ص : الآية ٣٩ .

والحديث عن العطاء والرحمة لا يناسبه الحديث عن سلب نعمة الحياة فى ظل هذا العطاء المتدفق والنعم الغامرة، فلذلك لم يرد ذكر الموت فى هذه السورة.

ويتجلى العطاء فى السورة أيضاً – فى قصة أيوب – عليه السلام –؛ إذ عافاه الله مما ابتلاه به فى جسده وماله وولده(١)، فأنبع الله له عيناً من تحت قدميه يغتسل من مائها:

﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) ﴾(٢)

وكذلك تجمل بعض آيات السورة عطاء الله لعدد من الأنبياء على هذا النحو :

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ (٤٧) وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ (٤٨) ﴾(٣)

وعلى هذا النحو يأتى قصص سورة " الأنبياء" فجانب العطاء ظاهر ملحوظ فى قصص الأنبياء الذين ذكرتهم السورة، ابتداءً من إبراهيم – عليه السلام – الذى نجاه الله من النار :

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾(٤)

فكان تعطيل ناموس الإحراق فى النار وسلبها خاصيتها جانبا من العطاء الذى ركزت عليه السورة. ولوط آتاه الله حكماً وعلماً ونجاه من أذى قومه، وهذا عطاء، ثم :

﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) ﴾(٥)

ونوح أيضاً استجاب الله له ونجاه وأهله من الكرب العظيم.

ثم تذكر السورة نعم الله على داود وسليمان فى غير تفصيل كالتفصيل فى سورة "سبأ" . ويلاحظ العطاء – أيضاً – المتمثل فى الرحمة التى أنعم الله بها على أنبيائه :

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٤ / ٣٩ .

(٢) سورة ص : الآية : ٤٢ .

(٣) سورة ص : الآيات : ٤٥ : ٤٨ .

(٤) الأنبياء : الآية : ٦٩ .

(٥) الأنبياء : الآية ٧٥

أيوب وإسماعيل وإدريس وذى الكفل، ثم تستكمل السورة موكب الرسل، فتذكر عطاء الله - سبحانه وتعالى - لذى النون - يونس عليه السلام - وزكريا، ثم يختم القصص بإشارة مجملة إلى مريم :

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (٩١) ﴾(١)

ولعل التركيز على نعم الله وعطائه لأنبيائه هو الذى جعل قصص هذه السورة خالياً من الإشارة إلى معايير المكذبين بالرسل سوى هذه الإشارة إلى تكذيب قوم نوح وإغراقهم فى قوله تعالى :

﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧) ﴾(٢)

فإذا كان قصص هذه السورة خالياً أو يكاد يكون خالياً من ذكر ما يقطع تسلسل النعم التى أنعم الله بها على أنبيائه ورسله، حتى وإن كان هذا القطع بذكر مصاير المكذبين فأولى به ألا يقطع هذا التسلسل بشئ يصيب نبيا من الأنبياء أنفسهم الذين تتنزل عليهم النعم ويعمهم العطاء، ومن ثم لم يذكر حدث موت سليمان - عليه السلام - فى هذه السورة أيضاً.

أما فى سورة " النمل" فيلاحظ أمران :

- **أولهما** : أن ذكر داود - عليه السلام - يأتى فى بداية القصة فقط دون أن يذكر عنه شئ، وتحتشد الآيات بعد ذلك لسليمان - عليه السلام - وحده بعكس السور الثلاث الأخرى؛ إذ كانت تأتى فيها قصة داود أولاً ببعض تفصيلاتها ثم تأتى بعدها قصة سليمان.
- **الأمر الثانى** : أن سورة "النمل" بسطت الحديث عن سليمان كما لم يبسط فى سورة أخرى، ومهدت لهذا الحديث الطويل بمقدمة تنبئ عن الملك العريض الذى أصابه هذا النبى، وأن سيطرته امتدت لتشمل الجن والإنس والطير وغيرها من المخلوقات.

---

(١) الأنبياء : الآية ٩١ .

(٢) الأنبياء : الآية ٧٧ .

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) ﴾(١)

ثم تأخذ السورة فى بيان حدود هذه المملكةوانقياد عناصرها وأفرادها لسليمان بحيث لا يخرج عن سيطرته فرد من أفرادها، من الحشرات والطير والإنس والجن، حتى أعضاء الممالك الأخرى البعيدة كمملكة سبأ التي أرغمت على الانطواء تحت جناح سليمان والدخول معه فى دين الله.

وهذا الموطن ليس مناسبا – أيضاً – لذكر حدث الموت لا فى أثناء القصة ولا فى نهايتها؛ فذكره فى أثناء القصة يقطع التسلسل الطبعى للأحداث، ويفقد هذا الملك سيطرته عل أفراد مملكته وسطوته عليهم، بل يحيل أمر هذه المملكة فوضى. وقد انتهت القصة نهاية سعيدة؛ إذ دخلت المملكة فى دين الله رب العالمين، وذكر الموت مع هذه النهاية يفسدها ويمحوا أثرها الطيب من نفوس المتلقين.

وتبقى سورة "سبأ" وهى أنسب موضع يذكر فيه حدث موت سليمان – عليه السلام – والقصة لم تذكر حدث الموت مجرداًوإنما صورته على هيئة خاصة عجيبة، وخلاصة ذلك – كما ذكره المفسرون – أن سليمان قام يصلى متكئاً على عصاه فقبض روحه وهو متكئ عليها فعمى الله موته على الجان المسخرين له فى الأعمال الشاقة نحواً من سنه، فلما أكلت دابة الأرض عصاه ضعفت وسقط إلى الأرض، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة، وتبينت الجن والإنس – أيضا – أن الجن لا يعلمون الغيب كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك(٢).

ونفى علم الغيب عن الجن هو أهم ما يستفاد من الآية الكريمة أعنى قوله تعالى :﴿ فلما قضينا عليه الموت . . . ﴾ الخ، إذ إن هذه المسألة مازالت تنوء بها عقول كثير من الناس حتى مع حسم القرآن الكريم لها بتأكيده أن الجن لا يعلمون من أمور الغيب شيئاً وإلا لأدركوا موت سليمان منذ أولى لحظات موته، ولما لبثوا فى الأعمال الشاقة نحواً

---

(١) النمل : الآيتان : ١٦ : ١٧ .

(٢) الكشاف للزمخشرى : ٣/ ٥٧٤ بتصرف.

من سنة.

إن الله – سبحانه – يعلم أن كثيراً من ضعاف الإيمان ضعاف العقول يصيبهم الانبهار ويأخذهم الدهش لأمر من الأمور التى تُلَبِّس الجن بها على بنى آدم، فيتجهون إليهم بالعبادة من دون الله، وقد أخبرت سورة "سبأ" نفسها عن هذا الفريق من الناس :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١) ﴾[1]

كما ركزت السورة نفسها على أن علم الغيب لله وحده، وأنه – وحده – الذى يعلم ما فى السماوات والأرض ولا يغيب عنه شيئ مهما دق وخفى:

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣) ﴾[2]

وأكدت السورة هذا الأمر قبيل نهايتها :

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (٤٨) ﴾[3]

لذلك كان ذكر حدث موت سليمان – عليه السلام – بهذه الكيفية العجيبة التى تنفى علم الغيب عن الجن مناسباً فى هذا الموضع بالذات من قصة سليمان.

ومن أمثلة انتخاب الأحداث فى القصة القرآنية أن قصة يعقوب – عليه السلام – ذكرت من خلال قصة ولده يوسف فى السورة التى تحمل اسمه، وقد ركزت القصة – على طولها – على الجانب الذاتى الإنسانى فى حياة هذين النبيين، أما مايخص الدعوة

---

(١) سبأ : الآيتان : ٤٠ : ٤١.

(٢) سبأ : الآيتان : ٢ : ٣ .

(٣) سبأ : الآيـة : ٤٨ .

فنصيبه ضئيل فى القصة، ويخص يوسف[١] – عليه السلام – وذكر مايخص يعقوب فى آية أخرى من سورة «البقرة»، تحكى هذه الآية آخر مشهد من حياة «يعقوب» فى الدنيا، وهو يمثل جانب الدعوة عنده يقول تعالى :

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) ﴾[٢]

وهذا الخبر عن يعقوب جاء فى مكانه المناسب تماماً من آيات سورة "البقرة"، إذ تسبقه مباشرة قصة "إبراهيم" – عليه السلام – وبنائه – مع ولده إسماعيل – البيت الحرام، وبنائه فى الوقت نفسه صرح الإسلام وعقيدة التوحيد الصحيحة :

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) ﴾[٣]

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) ﴾[٤]

وليس إسلامه فقط ولكنه مكلف أن يلقن هذه العقيدة الصحيحة بنيه من بعده، كما أن يعقوب مكلف بذلك أيضا :

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) ﴾[٥]

فالعقيدة ممتدة من قبل "إبراهيم" ومن بعده إلى نبيه، ثم إلى يعقوب وبنيه، ثم إلى من بعدهم إلى خاتم الأنبياء محمد ﷺ . وليست مقصورة على أنبياء بنى إسرائيل كما يزعم المرجفون منهم :

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ

---

(١) يرى الدكتور كاظم الظواهرى أن سورة يوسف لم تتضمن خبراً واحداً عن نبوة يوسف، وهو رأى عليه بعض المحاذير. ينظر : بدائع الإضمار القصصى فى القرآن الكريم، صـ ٤٥ وما بعدها .

(٢) البقرة : الآية : ١٣٣ .

(٣) البقرة : الآية : ١٢٨ .

(٤) البقرة : الآية : ١٣١ .

(٥) البقرة : الآية : ١٣٢ .

الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) ﴾[١]

فمشهد يعقوب ووصاته نبيه يمثل حلقة وسطى من حلقات العقيدة الإسلامية الصحيحة فى وسط هذه الآيات من سورة البقرة، ولذلك ذكر فيها ولم يذكر فى سورة يوسف التى ضمت بعض حياة يعقوب ولكنها ركزت على الجانب الإنسانى فيها.

ومن الأمثلة – أيضا – ما ذكر فى سورة "يونس" من إعلان فرعون إيمانه بإله بنى إسرائيل، وذلك عندما رأى الموت محيطاً به من كل جانب وذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾[٢]

لقد قطع فرعون فى الكفر والعناد شوطاً بعيداً ، شوطاً لم يبلغه أحد قبله ولا أحد بعده؛ فالتاريخ يحدث عن بعض الناس – رجالاً ونساءً – ادعوا النبوة ولكنه لم يحدث عن أحد ادعى الألوهية غير فرعون لا من قبله ولا من بعده، ولذلك كان أشد الناس كفراً:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي... (٣٨) ﴾[٣]

ولكن ما باله يزول كفره وجبروته وعناده فى لحظة واحدة كما ذكرت آية سورة "يونس"! فالكفر تحول إلى إيمان، وهو إيمان ماكان يعلن عنه فرعون لولا ما يلاقيه من هول الموت الذى يطبق على نفسه من أقطارها، وهو إيمان فيه كثير من الزيف والتضليل؛ إذ هو لم يعلن إيمانه بالله الواحد القادر صراحة، وإنما هو يحوم حول كلمة الإيمان ويصل إليها بعد جهد شاق : ﴿ لا إله إلا الذى آمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ إنه يكثر من الكلمات التى يعلن بها إيمانه لعل حياته تمتد حتى ينطق بها وبأكثر منها لو قدر لهذه الحياة أن تمتد وتطول، ولكن أنى له؟ فهذه هى النهاية، فهلا آمن من قبل! فليس الوقت وقت إيمان :

---

(١) البقرة : الآية : ١٣٥ .

(٢) يونس : الآية ٩٠.

(٣) القصص : من الآية ٣٨.

﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) ﴾[١]

وليكن فى نجاته ببدنه عبرة وعظة لمن يأتى بعده من المتكبرين والمتجبرين :

﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢) ﴾[٢]

إن حكاية إيمان فرعون على هذا النحو الذى يكاد يكون مضحكاً يؤكد خصلة من خصال الإنسان ويصور سجية من سجاياه التى لا تتخلف إلا قليلاً؛ فمن طبيعة الإنسان أن يطغى ويتكبر - على تفاوت فى ذلك - ماكان فى رخاء وسعة من العيش، فإذا أحيط به وأدركته الشدائد لم يجد ملجأ من الله إلا إليه، فإذا نجاه الله وكشف عنه ما به من شدة عاد سيرته الأولى فى الطغيان والتكبر.

وقد صورت السورة نفسها مشهدين من المشاهد التى تؤكد هذه الطبيعة الإنسانية:

الأول : فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) ﴾[٣]

الثانى : وهو أطول نسبياً فى قوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) ﴾[٤]

هذه طبيعة المسرفين على أنفسهم من الناس؛ كبر وعناد ونسيان الخالق فى وقت

---

(١) يونس : الآية ٩١.

(٢) يونس : الآية ٩٢.

(٣) يونس : الآية ١٢.

(٤) يونس : الآيتان : ٢٢ : ٢٣ .

الرخاء والسعة، ثم ذل وانكسار وخضوع فى وقت الشدة، ووعد بالاستقامة على المنهج، ثم عود إلى التمرد والكفر بعد الخلاص والنجاة، فأية واقعة حقيقية وأى شاهد على هذه الطبيعة البشرية أبلغ مما قصته السورة عن فرعون؟ ثم أليس من الجائز أن يدعى فرعون بطولة فردية لو نجاه الله من الغرق؟ بلى، إنه لو نجا لعاد سيرته الأولى فى الكفر والعناد، بل عاد أشد ما كان عليه، وأى شئ وأى دعوى أشد مما ادعاه ؟!.

لقد مرت به وبقومه بعض الشدائد فاستجاروا بموسى لكى يدعو ربه أن يكشف عنهم العذاب، وقطعوا على أنفسهم عهداً بالإيمان، فلما انكشف عنهم العذاب نكثوا عهدهم وأخلفوا وعدهم لموسى :

﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (٥٠) ﴾[1]

ومن أمثلة انتخاب الأحداث فى القصة القرآنية ما ذكر فى سورة "الزخرف" من تعيير فرعون لموسى بالمهانة والضعف وعدم الإبانة فى الكلام ما جاء على لسان فرعون مخاطباً قومه :

﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) ﴾[2]

والقارئ لهذه الحلقة من حلقات قصة موسى مع فرعون يلاحظ أن غوغائية الباطل الذى عليه فرعون وقومه هى الغالبة؛ فآيات السورة لم تحك على لسان موسى إلا كلمة واحدة أخبر فيها قوم فرعون بأنه رسول رب العالمين:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) ﴾[3]

لم يجر على لسان موسى أى كلام آخر، ولكن ترك الموقف لفرعون وعصابته تعلو

---

(١) الزخرف : الآيات : ٤٨ : ٥٠.

(٢) الزخرف : الآية : ٥٢ .

(٣) الزخرف : الآية ٤٦.

ضحكاتهم، وتشتد سخريتهم بموسى وبما جاء به من الآيات العجيبة:

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) ﴾(١)

استخفوا بآيات القدرة كاليد والعصا، فهناك آيات أخرى تلوى أعناقهم وتجعلهم يجأرون من العذاب كالجراد والقمل والضفادع والدم ونقص الزروع والأنفس والثمرات،(٢) فلم يجدوا بداً من التودد إلى موسى، فلما كشف الله عنهم العذاب نكثوا بما وعدوا به من الإيمان.

إن كشف العذاب عن فرعون وقومه كان كفيلاً بإعادتهم إلى جادة الصواب وأن يدخلهم إلى حظيرة الإيمان، ولكن على العكس من ذلك، ازدادت سخريتهم بموسى فوقف فرعون فى قومه مزهواً بما يملك من أرض مصر، فخوراً بمظاهر النعمة المتمثلة فى الأنهار التى تجرى من تحته، ثم يفاجئهم بهذه الموازنة العجيبة بينه وبين موسى ، بين من يملك من أسباب القوة ومن لا يملك شيئاً، بين من يملك القدرة على الكلام فهما ونطقاً ومن لا يقدر على الفهم ولا يستطيع الإبانة عما فى نفسه لحصره وعيه ﴿ أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولايكاد يبين ﴾ وهو يعنى أن فى لسان موسى شيئاًمن أثرالجمرة حين وضعها فى لسانه وهو صغير(٣).

إن السيادة والغلبة هنا لغوغائية الباطل على منطق الحق، ولعلها سيادة مقصودة من ناحية بناء القصة، وقد ساعد على ظهورها سكوت الحق منذ البداية، فموسى ألقى إليهم بمهمته مجملة ثم مضى ولم يعقب، ولكن كان لكلمته [إنى رسول رب العالمين]وقعها الأليم فى نفوس أصحاب الباطل فارتفعت أصواتهم فى مواجهتها، حتى ظنوا أن لهم الغلبة إلى مالا نهاية، فأخلدوا إلى الأرض والتفوا حول زعيمهم صاحب الصوت العالي بعد أن أرهبهم فأطاعوه فى كل ما يأمر وما ينهى، فاستحقوا غضب الله وانتقامه:

﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا

---

(١) الزخرف : الآية ٤٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير : ١٢٩/٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير : ١٣٠/٣.

مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) ﴾[١]

وهكذا تتضح خصيصة الانتقاء فى القصص القرآنى، وأن أحداث هذا القصص ليست موزعة توزيعا عشوائيا، وإنما هى موزعة فى دقة وروعة وإعجاز بحيث لاينبو حدث بمكانه من القصة أو السورة، وتلك هى القمة التى ينشدها الكتّاب فى قصصهم وما هم ببالغيها إن لم يتأملوها فى كتاب الله تعالى.

---

(١) الزخرف : الآيتان:٤٥ : ٥٥ .

جـ

التـــــــكرار

التكرار ظاهرة كثيرة الدوران في القرآن الكريم، وقد تحدث عنها كثير من العلماء والدارسين قديماً وحديثاً، وتباينت نظراتهم فمنهم من أقر بها وحاول التعليل لها(١)، ومنهم من وقف منها موقف الإنكار، وخاصة حين يتعلق الأمر بتكرار المعاني والموضوعات ومنها القصص .

والقارئ للقرآن يلحظ – دون معاناة – أنه قد تتكرر آية بألفاظها عدة مرات في سور متعددة كقوله تعالى :﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) ﴾(٢) .

وقد تتكرر الآية مرات عديدة في سورة واحدة كقوله تعالى :﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) ﴾التي تكررت إحدى وثلاثين مرة في سورة "الرحمن" ، وتكرر قوله تعالى :﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٥) ﴾ عشر مرات في سورة "المرسلات" . وقد علل العلماء والبلاغيون لهذا التكرار وأمثاله في كتبهم(٣) .

وقد تتكرر الآية في موضعين من سورتين مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ كقوله تعالى في سورة «البقرة» : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) ﴾(٤)، وجاءت الآية في سورة آل عمران على هذا النحو :﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) ﴾ (٥)

والتكرار فيهما واضح ، والاختلاف اليسير بينهما يكشف عن بعض الأسرار

---

(١) ومن أهم الكتب التي حاول أصحابها التعليل للمكرر والمتشابه في القرآن الكريم كتاب : البرهان في توجيه متشابه القرآن ، محمود بن حمزة الكرماني، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، ط دار الكتب العلمية– بيروت ١٩٨٦م.

(٢) يونس : ٤٨ الأنبياء : ٣٨. النمل : ٧١. سبأ: ٢٩. يس: ٤٨. الملك: ٢٥.

(٣) ومن هؤلاء : بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي في كتابه : البرهان في علوم القرآن تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، ط عيسى البابي الحلبي : ١٨/٣ ومابعدها، والكرماني في كتابه : البرهان في توجيه متشابه في القرآن ، ص ١٧٩.

(٤) سورة البقرة ، الآية : ١٣٦.

(٥) سورة آل عمران ، الآية : ٨٤ .

البلاغية المعجبة التي نبه إليها« الكرماني» عندما تعرض للآية الأولى منها فقال:قوله : (وما أنزل إلينا) في هذه السورة وفي آل عمران:(علينا) لأن (إلى) للانتهاء إلى الشئ من أي جهة كانت، والكتب منتهية إلى الأنبياء وإلى أممهم جمعياً، والخطاب في البقرة لهذه الأمة لقوله تعالى : (قولوا) فلم يصح إلا (إلى)و (على) مختص بجانب الفوق وهو مختص بالأنبياء، لأن الكتب منزلة عليهم لا شركة للأمة فيها، وفي آل عمران:(قل) وهو مختص بالنبي – صلى الله عليه وسلم – دون أمته فكان الذي يليق به (على) .

وزاد في "البقرة" (وماأوتي) وحذف من "آل عمران" لأن في "آل عمران" قد تقدم ذكر الأنبياء حيث قال : (وإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَٰقَ النَّبِيِّينَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ)(١) .

وقد تتكرر آية أو آيتان في سورة واحدة مرات متعددة ، وذلك كقوله تعالى :﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧) ﴾(٢) وقد كررت أربع مرات عقب القصص الوارد في سورة القمر، ومن ذلك أيضا قوله تعالى :﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩) ﴾(٣).

وكررت الآيتان ثمان مرات إحداها في مقدمة السورة، والباقي في أعقاب القصص الوارد في السورة، وهذه الآية المكررة أو الآيتان المكررتان، تكون بمنزلة اللازمة التي تأتي في نهايةالقصة لتلمس موطن العبرة منها .

هذه أمثلة قليلة توضح بعض مظاهر التكرار في القرآن الكريم، والحق أن التماثل اللفظي واضح فيها ، ومع ذلك تبقى لكل آية دلالتها الخاصة التي اكتسبتها من السياق الذي وردت فيه .

وقبل الاسترسال في الحديث عن التكرار في القصة القرآنية ينبغي الوقوف مع مظاهر التكرار اللفظي السابقة وعلاقتها بأساليب العرب القدامى في تأليف أشعارهم، ومن المعلوم أن القرآن الكريم إنما نزل بلغة العرب،وجرى على سننهم في التأليف ، فليس بعيداً أن تكون ثمة علاقة بين التكرار فيه والتكرار عندهم، وخاصة في أشعارهم التي هي أحسن مظاهر الفصاحة لديهم وأقدمها ، ولعل هذه الوقفة تقوى الظن "بأن من مقاصد

---

(١) البرهان في توجيه متشابه القرآن ، ص ٣٥ .

(٢) سورة القمر : الآية ١٧ . (٣) الشعراء : الآيتان ٨، ٩ .

القرآن أن يواجه التكرار فى الشعر" (١).

فى الشعر المعاصر كثيراً مايعيد الشاعر بيتا كاملاً أو بيتين للفصل بين أقسام القصيدة الواحدة، والتماس الأمثلة لهذا التكرار سهل ميسور، "ويبدو أن اللغة العربية قد عرفت هذا اللون من الإعادة فى دهرها الأول حين لم تكن أوزانها وقوافيها قد بلغت مرحلة النضج والقوة والاستواء التى بلغتها فى العصر الجاهلى» (٢).

والذى يدل على ذلك أمران :

أولهما : أن نحواً منه قد وجد فى القرآن الكريم، وتقدمت أمثلته، «ولا أحسب أن القرآن الكريم قد فاجأ العرب بضرب جديد من التأليف إذ التزم هذا التكرار، ولو كان هذا ضرباً جديداً من التأيف لكانوا قد طعنوا فيه، ولكننا لم يبلغنا أنهم فعلوا ذلك .

ولعل قائلا يقول : إن القرآن نثر فكيف نتخذ من أسلوبه أدلة نتحدث بها عن الشعر؟

وهذا الاعتراض فى ظاهره مقبول، ولكننا قد أسلفنا بدءاً أن نظام الوزن والتقفية لابد أن تكون قد سبقتهما أجيال من التجربة، وأن أسلوب السجع لابد أن قد كان شئ مشابه له هو الأسلوب الشعرى عند العرب البائدين الأولين، يدل على ذلك محاكاة الكهان له، والصلة بين الكهانة والشعر قوية، ولما جاء الإسلام كان أسلوب الشعر العربى قد استقر على أسلوب سجع الكهان، والخطباء والحكماء والقصاص، وهؤلاء كانواهم المقصودين بالتحدى من جانب القرآن ، وقد جرىعلى أساليبهم ومنهجهم،فكونه نثراً لاينافى أن فى أسلوبه مظاهر وصيغا كان يتصف بها المنهج الشعرى القديم»(٣) .

والأمر الثانى الذى يدل على أن اللغة العربية قد عرفت أسلوب إعادة البيت فى أجزاء القصيدة هو مانجده من رواسب هذا الأسلوب وأسآره فى بعض الأشعار التى بأيدينا من تراث الجاهليين، وحتى فى بعض الأشعار الإسلامية، خذ مثلاً قول امرئ القيس :

---

(١) العبارة بنصها لأستاذى الفاضل الأستاذ الدكتور/ فتحى أبوعيسى المشرف على الرسالة وقد لفتنى سيادته – مشكوراً – إلى كتاب الدكتور/ عبد الله الطيب الآتى بعد .

(٢) المرشد إلى فهم أشعار العرب، د/ عبد الله الطيب ، ط دار الفكر للطباعة والنشر، الطبعة الثانية – بيروت ١٩٧٠م : ٢/٢٥٩

(٣) المرجع السابق : ٢/٤٩٦ .

وتحسب سلمى لاتزال كعهدنـــا بذات الخزامى أو على رأس أو عال

وتحسب سلمى لاتزال ترى طلا من الوحش أو بيضا بميثاء محـــلال (١) .

فالشبه بين هذا التكرار وبين أسلوب إعادة الأبيات قوى واضح (٢).

وأدل على القصد وأصدق فى التمثيل من هذا المثال ماجاءت فيه الصدور مكررة فى عدة أبيات من الشعر القديم، ومثال ذلك قول المهلهل بن ربيعة :-

على أن ليس عدلاً من كلـــيب إذا طرد اليتيم عن الجـــذور

على أن ليس عدلاً من كلـــيب إذا رجف العضاه من الدبـــور

على أن ليس عدلاً من كلـــيب إذا ماضيم جيران المجـير

على أن ليس عدلاً من كلـــيب إذا خيف المخوف من الثغـــور

على أن ليس عدلاً من كلـــيب غداة بلابل الأمـــــــر الكبير

على أن ليس عدلاً من كلـــيب إذا برزت مخبأة الخـــــدور

على أن ليس عدلاً من كلـــيب إذا علنت نجيات الأمـــــور (٣)

فهذا التكرار يدل على نهج من القول كان مألوفا فى القصص المخلوط بالشعر، ولعل هذا المثال – وغيره كثير – يدل على أن هذا النهج من التكرار كان حينئذ كثيراً شائعاً(٤)، هذه الكثرة وذلك الشيوع يحملان على الاعتقاد بأن أسلوب التكرار اللفظى فى القرآن ليس بمنأى عن أسلوب العرب فى تكرار الألفاظ فى قصائدهم .

ومما يقوى هذا الاعتقاد ما صنعه الناقد النواقة «ضياء الدين بن الأثير» حين تصدى لدراسة ظاهرة التكرار في الأساليب العربية شعراً ونثراً، إذا كان لايأتى بالمثال الشعرى أو النثرى لنوع من التكرار إلا شفعه بما يؤيده من القرآن الكريم، بما يدل على العلاقة الوثيقة بين أسلوب التكرار فى القرآن وأسلوب التكرار عند العرب، ومن ذلك :

أن التكرار قد يكون في اللفظ والمعنى، كقول الشاعر :

ألا ياسلمى ثم اسلمى ثمت اسلمى ثلاث تحيات وإن لم تكلمى(٥) .

---

(١) ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، ط دار المعارف، الطبعة الخامسة، ص٢٨ .

(٢) المرشد إلى فهم أشعار العرب " ٢/٤٩٦، ٤٩٧ .

(٣) الأمالى، لأبى على القالى، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥م، جـ: ٢، ص ١٤٨ .

(٤) المرشد إلى فهم أشعار العرب : ٢/٤٩٩ : ٥٠١ .

(٥) شرح ديوان الحماسة، للخطيب التبريزى، ط عالم الكتب، بيروت، جـ٣، ص ١٥٣، والبيت غير منسوب .

وهذا مبالغة فى الدعاء لها بالسلامة، وهذا يجاء به لتقرير المعنىوإثباته .

وعليه ورد الحديث النبوى، وذاك أن النبى – صلى الله عليه وسلم– قال : « إن بنى هشام ابن المغيرة استأذنونى أن ينكحوا بنتهم عليا، فلا آذن، ثم لا آذن ، ثم لا آذن، إلا أن يطلق على ابنتى وينكح ابنتهم» .

فقوله «لا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن» من التكرير الذى هو أشد موقعاً من الإيجاز، لانصباب العناية إلى تأكيد القول فى منع على – رضى الله عنه – من التزويج بابنة أبى جهل بن هشام،

وهذا مثل قوله تعالى : (فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر)(١) فالتكرير دلالة على التعجب من تقديره،وإصابته الغرض، والتكرير فى مثل هذا المقام أبلغ من الإيجاز، وأحسن وأشد موقعاً (٢).

ومن التكرار فى اللفظ والمعنى أن تعاد «إن» مع خبرها فى نهاية الكلام إذاكان بين اسمها وخبرها فسحة طويلة من الكلام كقول الشاعر :

أسجنا وقيدا واشتياقا وغـــربة ونأى حبيب ؟ إن ذا لعظيم
وإن امرأ دامت مواثيق عهـــده على مثل هذا إنه لكـــريم (٣)

فلما طال الكلام بين اسم إن وخبرها أعيدت «إن» مرة ثانية، لأن تقدير الكلام : وإن امرأدامت مواثيق عهده، على مثل هذا لكريم، فإعادة «إن» أحسن فى حكم الفصاحة والبلاغة . ومنه قوله تعالى :﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٩) ﴾(٤) فلما تكرر «إن ربك» مرتين علم أن ذلك أدل على المغفرة (٥).

وقد يكون التكرار فى المعنى دون اللفظ، وفى الأمثلة التى أوردها ابن الأثير لهذا

---

(١) المدثر : الآيتان ١٩، ٢٠ .

(٢) المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق د/ أحمد الحوفى، د/بدوى طبانة ، ط دار نهضة مصر للطبع والنشر : ٣/٩ :١١ .

(٣) شرح ديوان الحماسة، جـ :٣، ص : ١٥٣، والبيتان غير منسوبان .

(٣) النحل : الآية ١١٩ .

(٥) المثل السائر : ٣/١٧ : ١٨

النوع مايدل على ذوقه البارع فى إدراك مواطن الجمال فى أسلوب التكرار فى القرآن وفى كلام العرب على حد سواء .

فمن هذا النوع قوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) ﴾(١) .

فإن الأمر بالمعروف خير، وليس كل خير أمراً بالمعروف؛ وذاك أن الخير أنواع كثيرة من جملتها الأمر بالمعروف، فالتكرار هنا أفاد معنيين : أحدهما خاص ، والآخر عام(٢).

ومما جاء من هذا النوع من أساليب العرب حديث "حاطب بن أبى بلتعة"، وذاك أنه كتب إلى قريش يخبرها أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد جهز جيشا لفتح مكة، فأرسل النبى – صلى الله عليه وسلم – "على بن أبى طالب" فأتى بالكتاب من امرأة كانت تحمله، فقال : ماهذا ياحاطب ؟ فقال : يارسول الله أحببت – إذ فاتنى النسب فى قريش – أن اتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتى، وما فعلت ذلك كفراً، ولا ارتداداً عن دينى، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله : إنه قد صدقكم(٣) .

فقوله : «مافعلت ذلك كفرا، ولا ارتداداً عن دينى، ولارضاً بالكفر بعد الإسلام» من التكرار الحسن؛ إذ معناه : إنى لم أفعل ذلك وأناكافر، أى باق على الكفر، ولامر تداً أى أنى كفرت بعد إسلامى، ولارضا بالكفر بعد الإسلام، أى ولا إيثاراً لجانب الكفار على جانب المسلمين ، وهذا حسن فى مكانه واقع فى موقعة ، فالمقام هو مقام اعتذار وتنصل عمارمى به من تلك القارعة العظيمة التى هى نفاق وكفر، فكرر المعنى فى اعتذاره قصداً للتأكيد والتقرير لما ينفى عنه ما رمى به (٤).

إن التكرار القرآنى– بوصفه طريقة أسلوبية – وثيق الصلة إذا بأساليب العرب فى تأليفهم شعراً ونثراً، أمابوصفه وسيلة لغاية معينة فهو ظاهرة لايمكن نفيها عن القرآن الكريم، «لأن كل ما فى القرآن، بل كل ما فى الدين يؤكد فى غير مواربة ولاخفاء أن

---

(١) آل عمران : من آية ١٠٤ .

(٢) المثل السائر : ٢٧/٣ .

(٣) ينظر : فتح البارى : ٥٠٢/٨، تفسير القرطبى : ٦٥٢٩/٩ .

(٤) المثل السائر : ٢٦/٣، ٢٧

التكرارمطلوب ، لأن القرآن دعوة، والنفس الإنسانية – لما فيها من ضعف ، ولما طبعت عليه من النسيان – فى حاجة إلى التذكير ثم التأكيد، ثم إعادة التذكير، والتنبيه والتخويف من السهو والإهمال والغفلة، وقد قضى الرسول – صلى الله عليه وسلم- حياته يدعو أصحابه وأعداءه على السواء إلى دين التوحيد، مكرراً الدعوة بنفس الألفاظ حينا، وبكل أسلوب وعبارة ومثل، وبقى يكرر ويبدى ويعيد فى معانى هذا التوحيد وآثاره دون أن تهدأله نفس وأن يفترله عزم» (١). كما قضى نوح – عليه السلام – عمراً مديداً يكرر دعوته على أسماع قومه، فكان يدعوهم ليلاً ونهاراً، سراً وإعلاناً، وكان يعدهم بالرزق الوافر والأموال والبنين إن هم آمنوا، ولم يمنعه استكبارهم وإعراضهم عن تكرير دعوته عليهم حتى ملواهم هذه الدعوة وسئموا سماعها، فصرخوا فى وجهه :﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) ﴾(٢)

إن كثيراً من شئون الحياة اليومية عند البشر تستدعى التكرار بل توجبه، فالخطيب حين يريد تأكيد فكرة معينة يلجأ إلى تكرارها مرة ومرات عديدة، وربما فى الخطبة الواحدة، وذلك لما للتكرار من أثر نفسى لدى المتلقى، وكذلك الأمر بالنسبة إلى المعلم؛ إذ يلجأ إلى تكرار أفكاره على مسامع تلاميذه مرات كثيرة حتى ترسخ هذه الأفكار فى عقولهم وتستقر فى نفوسهم،كما يعتمد أسلوب الدعاية فى العصر الحديث على أسلوب التكرار، فكثيراً مايلجأ المعلنون عن السلع إلى تكرار الإعلان عنها، "ومع أن البضاعة التى يدعون إليها، وينادون عليها كثيراً ما تكون بضاعة كاسدة أو فاسدة، والأصوات المنطلقة بالدعاية لها كثيراً ما تكون أصواتاً كاذبة منافقة، ومع هذا فإن هذا الأسلوب يحقق دائما بعض النتائج التى يهدف إليها ، وإن كانت نتائج مؤقتة لايكتب لها البقاء طويلاً، فكيف إذا كانت الدعوة قائمة على الحق والخير، والدعاة الذين يدعون لها لايريدون إلا وجه الحق والخير . إن أسلوب التكرار هنا يثمر أطيب الثمرات ويأتى بأعظم الآثار»(٣)

والدعوة التى يدعو إليها القرآن الكريم هى دعوة عامة وشاملة ليست كدعوة المعلم

(١) القصة القرآنية ، أ/ فتحى رضوان، سلسلة كتاب الهلال عدد ٣٣٢ أغسطس ١٩٧٨م، ص ٩٨ .

(٢) هود : الآية ٣٢ .

(٣) الإعجاز فى دراسا ت السابقين ، ص ٤١٤، ٤١٥ .

أو الخطيب، إذ هي دعوة لكل الناس إلى التوحيد وعبادة الله وحده لاشريك له، القرآن يدعو كل الناس عربهم وعجمهم وهؤلاء ليسوا متساويين جميعاً في العقول والأفهام والثقافات والأمزجة والحالات النفسية، فمنهم من يحمل في نفسه كثيراً من الخير، لكن هذا الخير يتوارى وراء بعض الأعراف والتقاليد المنحرفة فيكفيه لفتة يسيرة إلى طريق الحق والخير، ومنهم من يغرق حتى أذنيه في بحار الهوى والضلالة، ويتلاشى ما بنفسه من بقايا الخير، ومثل هذا لاتكفيه إشارة ولا إشارتان، بل لابد من تكرار الدعوة وبيان طريقها وآثارها وعواقب الإعراض عنها، ولابد من ضرب الأمثلة وتقليب صحفات التاريخ أمام عينيه لكي يعرف ما أصاب المكذبين بالدعوات السابقة .

نزل القرآن الكريم في قوم انطوت نفوسهم على كثير من العقائد الفاسدة، وليس من اللائق أن يدعو القرآن هؤلاء الذين يعبدون الأصنام إلى عبادة إله واحد مرة أو مرتين، بل اللائق والواجب أن يكرر عليهم الدعوة ويلح في تكرارها وينوع في الأساليب التي تحمل هذه الدعوة إليهم مابين وعد ووعيد، وترغيب وترهيب ، وبيان العواقب والآثار المترتبة على حسن استقبالهم للدعوة أو رفضها، مع توضيح ذلك كله بضرب المثل، وحكاية ما جرى للأمم السابقة مع أنبيائهم، حتى يزداد الأمر إيضاحاً في نفوسهم، ولذلك كرر القرآن الكريم كثيراً من القصص .

وقد أثار تكرار القصص القرآني اختلافاً بين العلماء قدامى ومحدثين ، وكثير من القدماء حاولوا أن يعللوا له بوصفه ملمحاً من ملامح الإعجاز القرآني وآية على صدق محمد – صلى الله عليه وسلم – ومنهم "ابن فارس" الذي يقول عن تكرار الأنباء والقصص : «وأصح مايقال فيه : إن الله – جل ثناؤه – جعل هذا القرآن وعجز العرب عن الإتيان بمثله آية لصحة نبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – ثم بين وأوضح الأمر في عجزهم بأن كرر ذكر القصة في مواضع إعلاما بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثلة بأي نظم جاء وبأي عبارة عبر عنه»(١) كما أن إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معنى واحداً من الأمر الصعب الذي تظهر فيه الفصاحة وتتبين فيه البلاغة"(٢) .

---

(١) الصاحبي في فقة اللغة العربية وسنن العرب في كلامها، تحقيق السيد أحمد صقر ط عيسى البابي الحلبي ١٩٧٧م، ص ٣٤٣ .

(٢) إعجاز القرآن، لأبي بكر الباقلاني : ١١٦/١، وينظر : تأويل مشكل القرآن، عبد الله بن قتيبة ، تحقيق السيد أحمد صقر ط دار التراث، الطبعة الثانية ١٩٧١م، ص ٢٣٤، ٢٣٥ .

وقد شايع المتقدمين فى آرائهم لفيف من المحدثين يرى أحدهم : أن التكرار فى القصص من غايات القرآن الكريم وأغراضه، وأنه نزل به .

ونزل له ، وأنه لايجوز لنا أن ننكره، ولاينبغى أن نعتذر عنه؟فهو من خصائصه ومزاياه، إذ بقى مع هذا التكرار جديد كلما قرأناه لايبعث سأما فى النفوس ولاتفترله همة الباحث أو القارئ» (١) .

ويذهب آخر إلى جعل التكرار جزءاً من المنهج القصصى للقرآن(٢)، ويرى ثالث أن مستوى القصة القرآنية يظل فى الذروة رغم تكرارها، ويتغير إيحاؤها بكلمة تضاف أو جزء يحذف أو عبارة جديدة، أو جملة لم تكن موجودة، أو مجرد ظل لخاطر نفسى لم يقدم قبل ذلك .. وهذه معجزة فى فن الكتابة لاترى له مثيلاً فى أى كتاب على الأرض غير هذا الكتاب الكريم الذى أسلمه لنا محمد – صلى الله عليه وسلم – ،وهو رجل لم يكن يكتب ولم يكن يقرأ(٣) .

ومن المحدثين من حاول نفى وجود التكرار فى القصص القرآنى والاعتذار عنه بأنه ليس تكراراً مطلقاً بقدر ماهو تكامل بين أجزاء القصة الواحدة(٤) .أو أنه التنويع فى عرض حلقات القصة(٥) ، وقد أصاب الاضطراب آراء بعض الذين اعتذروا عن وجود التكرار فى القصة القرآنية، فأقر بوجوده مرة(٦)، وعلله مرة ثانية بأنه تكرار تكاملى وتنويع فى العرض(٧)، ومرة ثالثة رأى أنه بالنظر إلى كثرة معارض الشخصيات فى القصة القرآنية فإنه يعد تكراراً، وبالنظر إلى الحادثة فإنه لا يعد من التكرار(٨) .

ولعل هذه النظرة إلى التكرار وأنه عيب يجب دفعه عن القرآن الكريم جاءت متأخرة

---

(١) القصة القرآنية ، أ/ فتحى رضوان ص ١٠٠ .

(٢) سيكلوجية القصة فى القرآن، ص ١١٥ .

(٣) أنبياء الله، أ/ أحمد بهجت ، ط دار الشروق الطبعة الثامنة عشرة ١٩٩٠م ص ٢١ ,٢٢ بتصرف

(٤) التصوير الفنى أ/ سيد قطب ص ١٦٢ .

(٥) دراسات قرآنية أ/ محمد قطب ط دار الشروق، الطبعة السابعة ١٩٩٣م ص ٢٥٤ .

(٦) القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه أ/ عبد الكريم الخطيب، ط دار المعرفة،بيروت،دون تاريخ ص٦٤ .

(٧) المرجع السابق ص ٢٤١، ١٤٥، ٢٧٣، ٢٧٤ .

(٨) المرجع السابق ٤٢، ٤٣ .

نسبياً بفعل آراء المستشرقين وتلامذتهم(١) .

إن المبالغة فى نفى التكرار عن القصص القرآنى خطأ لامرية فيه، كما أن التطرف فى إثباته على سبيل الإطلاق من خلال ما كرر منه خطأ أيضا، ولكن النظرة المتأنية تؤكد أن فى القصص القرآنى تكراراً قد يكون الغرض منه التكميل،كما فى قصة "آدم" "ونوح" "وإبراهيم" "وموسى"، عليه السلام – وأن هناك تكراراً يصل التشابه فيه إلى قريب من التماثل أحياناً، كما فى بعض المشاهد من قصة موسى، وأن هناك تكراراً يقتضيه الغرض الذى سيقت من أجله القصة كما فى قصة "آدم" – عليه السلام –. وقد تكرر القصة ضمن مجموعة من القصص للتدليل على فكرة بعينها وتأكيدها،كقصص قوم "نوح" "وهود" "وصالح" "ولوط" "وشعيب" عليهم السلام التى تكررت مجتمعة فى أكثر من سورة من سور القرآن الكريم .

ومن أبرز مايمثل التكرار الذى سيق بغرض التكميل ما جاء فى قصة "إبراهيم" – عليه السلام – فى سور "مريم والشعراء والأنعام" ، فالمشاهد التى وردت فى هذه السور تمثل جانب الدعوة فى حياة "إبراهيم"، وينفرد كل مشهد فيها بإضافة تزيد هذا الجانب وضوحاً وتقريراً .

أما السورة الأولى فتحكى عن دعوة "إبراهيم" لأبيه وما كان بينهما من جدل ومناقشة، يقول الله تعالى:﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي

---

(١) يتضح ذلك فى ردود الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه:القصص القرآنى،على الدكتور محمد خلف الله أحمد ص٢٧٥، وفى كتابه الإعجاز فى دراسات السابقين ص ٢٩٤، ٤٠٥، ٤٢٥، كما يتضح أيضا عند الأستاذ محمد قطب فى كتابه : دراسات قرآنية ص ٢٥٣ .

حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠) ﴾(١)

ويلاحظ أن سورة "مريم" يسيطر عليها جو العلاقة بين الأبناء وبين الأباء والأمهات، ففى بدايتها حديث عن "زكريا" الأب "ويحيى" الابن، ثم حديث عن "مريم" الأم "وعيسى" الإبن البار بوالدته ، فليس من العجيب أن تركز السورة – فى المقطع الخاص بإبراهيم عليه السلام– على علاقته بأبيه ، وعلى دعوته هذا الأب إلى ترك عبادة الأصنام وترك عبادة الشيطان أيضا .

وقد تدرج إبراهيم فى دعوة أبيه فكان يلقى إليه بالدعوة إثر الدعوة بما يدل على الحرص الذى يكنه، وعلى العطف والمودة تجاه هذا الأب، فيناديه أولا:يا أبت لم تعبد أصناماً لاتنفع ولاتضر، ولا تملك من أمر نفسها شيئاً، وثانيا : ياأبت إنى قد جاءنى من الله الهداية والعلم النافع فاتبعنى ، وثالثا : يعظه بل ينهاه عن عبادة الشيطان، ورابعاً : يعلن خوفه على أبيه، ثم ينطلق الحوار بينهما كاشفا عن قوة الأب الذى يهدد ولده بالرجم، ويطلب منه أن يهجره ، وكاشفا أيضا عن حنان الابن، ورحمته بأبيه، ولم يجد "إبراهيم" بداً من أن يعتزل أباه وقومه ويلجأ إلى جناب ربه .

واعتزال "إبراهيم" ليس دليلاً على سلبية الداعية الذى ينفض يديه ممن يدعوهم حينما يبدون الصدعن دعوته، ولكن فليكرر "إبراهيم دعوته"، وليوسع من دائرتها؛ كما تنطق بذلك سورة "الشعراء"، يقول تعالى:﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا

---

(١) سورة مريم الآية: ٤١ : ٥٠ .

مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) ﴾(١)

إذا كانت دعوة "إبراهيم" قد اقتصرت على أبيه فقط فى سورة "مريم" فإن هذا المقطع من القصة يظهر مدى اتساع الدعوة التى حملها لتشمل أباه وقومه جميعاً، عسى أن يجد من بينهم من تنعطف إليه نفسه، ولايصد عنه كما صد عنه أبوه وتوعده ، ويلاحظ أن قضية العبادة هى محور هذه الحلقة من القصة، وأن تحديد المعبود المستحق للعبادة هو المسيطر علي الحوار الدائر بين "إبراهيم" وأبيه وقومه، فهم يصرحون بأنهم يعبدون الأصنام، ويحاول هو أن يكشف عن زيف معبوداتهم ببيان أنها حجارة لاتسمع ولا تضر ولاتنفع،ويبين لهم أن الله وحده هو المستحق للعبادة، لأنه الخالق الرازق، وهو الذى يحيى ويميت .

«وما أحسن مارتب "إبراهيم" – عليه السلام – كلامه مع المشركين حين سألهم أولا عما يعبدون سؤال مقرر لامستفهم، ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لاتضر ولاتنفع ولاتبصر ولاتسمع ، كما نعى عليهم تقليد آبائهم الأقدمين، فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة فضلاً عن أن يكون حجة ، ثم صور المسألة فى نفسه دونهم حتى تخلص منها إلى ذكر الله – عز وعلا–، فعظم شأنه وعدد نعمه من لدن خلقه وإنشائه إلى حين وفاته، مع مايرجى فى الآخرة من رحمته ، ثم أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين، وابتهل اليه ابتهال الأوابين، ثم وصله بذكر يوم القيامة، وثواب الله وعقابه، وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمنى الكرة إلى الدنيا ليؤمنوا(٢)»

ثم يأتى مقطع آخر من مقاطع قصة "إبراهيم" يضيف إلى جانب الدعوة بعدا آخر وذلك فى سورة "الأنعام" يقول تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ وَكَذَالِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا

---

(٢) الشعراء ٦٩ : ٨٢ .

(١) الكشاف، للزمخشرى جـ٣ ص ٣٢١، وقد نقل ابن الأثير كلام الزمخشرى فى حديثه عن حسن التخلص ، وزاد عليه،انظر : المثل السائر، جـ٣، ص ١٢٩، ١٣٠ .

أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَءَا الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾(١)

وهذا المقطع من القصة يركز على ما أعطيه "إبراهيم" – عليه السلام – فى معركة الدعوة، فقد أراه الله ملكوت السموات والأرض، كما رزقه اليقين الثابت إزاء ما كان يعبد أ بوه وقومه من الأصنام، كما أوتى البصيرة النافذة فى إقامة الحجج والأدلة التى تندك لها أعناق المكابرين الذين يحاجونه .

أراد إبراهيم أن ينفى الإلهية عن الكواكب،«فبدأ ببعض النجوم ثم القمر ثم الشمس، ولو أنه بدأ بالأكبر منها وهى الشمس ما أمكنه أن يتحدث عن القمر والنجوم، ولكنه بدأ بالأصغر إلى الأكبر، وهذا من حسن الاستدلال ودلالة الرشد، ثم استدل على عدم إلهية هذه الكواكب بالأفول دون الطلوع،ثم يعلن براءته من الشرك حينما أثبت أن أكبر الكواكب وهى الشمس لاتصلح لأن تعبد، ثم يعلن أنه وجه وجهه للذى فطر السموات والأرض حنيفا» (٢).

هذه مقاطع ثلاثة من قصة "إبراهيم" يكمل بعضها بعضا؛ إذ إنها تخدم فكرة واحدة وتجليها، تلك هى فكرة الدعوة التى مارسها "إبراهيم"، فالمقطع الأول يظهر دعوته لأبيه ومدى حرصه وحنانه وخوفه عليه، والمقطع الثانى يظهر دعوته لأبيه و قومه عامة وإلحاحه عليهم فى قبولها، وترك مايعبدون من أصنام لن تجديهم فتيلا حين يقفون بين يدى الله – سبحانه-والمقطع الثالث يبين قوة العقيدة فى نفس "إبراهيم"، ويظهر براعته فى الدعوة إليها واستمالة أفئدة قومه جميعا نحوها، بما يعرض عيهم من حجج تدل على فساد معتقداتهم وتوجهاتهم نحو الأصنام والكواكب التى يعبدونها ، وما كان لجانب الدعوة فى حياة "إبراهيم" أن يتجلى واضحاً لو لم تأت هذه المقاطع الثلاثة فى أثناء القصة ، ولو لم تتظاهر على تجليته وتوضيحه على هذا النحو البديع .

---

(١) الأنعام ، ٧٤ : ٧٩ .

(٢) القصص القرآنى إيحاؤه ونفحاته، ص ١٤٥ .

وإذا كان كل مقطع من المقاطع الثلاثة السابقة ينزع منزعا بعيداً نسبياً عن المقطعين الآخرين رغم اتفاقها جميعا على هدف واحد فإن المقطع من القصة القرآنية قد يكرر فى سورتين مع التشابه الشديد بينهما، ومن خير مايمثل ذلك تصوير مشهد "موسى" عليه السلام وهو فى طور سيناء حين رأى النار، روى هذا المشهد فى سورة "النمل" على هذا النحو:﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) ﴾(١)

وروى فى سورة القصص على هذا النحو:﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢) ﴾(٢)

ولايخفى مابين المشهدين من اختلافات وفروق فى التعبير، فالفرق يكون أحيانا فى حرف، أو فى لفظ، وربما فى جملة زيدت هنا أو حذفت هناك، وهناك اختلاف جوهرى بين

(١) سورة النمل: الآيات ٧ : ١٢

(٢) القصص: ٢٩ : ٣٢

المشهدين يتمثل فى السياق الذى ورد فيه كل منهما، فالمشهد فى سورة "النمل" هو كل ماروى من قصة "موسى" في هذه السورة مع آيتين اثنتين وردتا بعد انتهاء هذا المشهد، أما مشهد سورة "القصص" فهو يمثل جزءاً من قصة "موسى" التى وردت بكثير من تفصيلاتها قبل هذا المشهد وبعده .

ومن المقاطع المكرره المتشابهة تشابها شديداً أيضا مشهد المبارزة بين "موسى" والسحرة، فقد ورد فى سورة الأعراف(١) وسورة الشعراء(٢)، ويمكن أن يقال فيهما ماقيل فى المشهدين السابقين؛ من حيث الاختلافات والفروق فى التعبير ومن حيث اختلاف سياق كل منهما(٣) .

وقد تكرر القصة لاختلاف الغرض الذى سيقت من أجله، ومن أبرز ما يمثل هذا النوع من التكرار قصة "آدم" عليه السلام – التى وردت فى القرآن الكريم فى سبعة مواضع، وقد يشتمل الموضع الواحد على أكثر من غاية وهدف .

سيقت هذه القصة للتدليل على قدرة الله – سبحانه –وبيان نعمه على الإنسان:﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً . . . ﴾(٤) ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (١٠) وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١) ﴾ (٥)

وتساق للتدليل على صدق المعاد:﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ(٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) ﴾(٦).

---

(١) الآيات:١٠٧ : ١٢٦ .

(٢) الآيات:٣٢ : ٥١ .

(٣) ينظر : دراسات قرآنية، محمد قطب (ص٣٦٣،٢٦٤) .

(٤) البقرة:٣٠ : ٣١

(٥) الأعراف:١٠ : ١١ .

(٦) الحجر:٢٣ : ٢٦

كما سيقت للتدليل على صدق نبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – الذى يأتيه خبر السماء وهو الأمى الذى لايقرأ ولا يكتب :﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلأِ الأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ (٧١) ﴾(١) .

وسيقت القصة لتأكيد صفة من صفات بنى آدم وهى النسيان، نسيان تفضيل الله تعالى – له على سائر الخلق، ونسيان العهد له بالخلافة فى الأرض، ونسيان نعمة الله تعالى :﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤) وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) ﴾ (٢).

وسيقت للتبكيت على اتباع عدو الله إبليس واتخاذه وليا من دون الله :﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (٥٠) ﴾ (٣).

ولعل هناك غرضاً عاماً وراء تكرار قصة "آدم" يتمثل في التنبيه على العناية بأمر الإنسان، وأنه إنما خلق ليكون خليفة فى هذه الأرض، بعد أن اكتسب العلم والمعرفة من الله – سبحانه –، وأن هذا الإنسان جدير بأن يذكر القرآن قصة خلقه،وأن يكررها ويكشف عن الملابسات التى أحاطت بها،وأدت إلى إحداث عداوة متأصلة بين الإنسان وإبليس،هذه العداوة لم يكن الإنسان هو المسئول عنها، وإنما افتعلها إبليس وتوعد الإنسان بها:﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ

---

(١) ص : ٦٩ : ٧١

(٢) طه : ١١٣ : ١١٦ .

(٣) الكهف : ٥٠

شَاكِرِينَ(١٧) ﴾ (٤).

والذى يتأمل المواطن السبعة التى وردت فيها قصة "آدم" يجد أنها قد تكررت فى صور عديدة مختلفة من ناحية السياق الذى وردت فيه فى كل موطن، ومن حيث القدر الذى سبق في كل موطن، ومن حيث الأداء الذى يفيد أمراً جديدا فى كل مرة تذكر فيها القصة، بما يؤكد نوع التكرار التكاملى فى القصص القرآنى .

ومن ألوان التكرار فى القصة القرآنية: أن تأتى مجموعة من قصص الأنبياء فى سورة من السور لهدف معين ولتأكيد فكرة بعينها، ثم تأتى هذه المجموعة نفسها فى سورة أخرى لهدف آخر ولتأكيد فكرة أخرى، ويختلف السياق فى كل من السورتين عن الأخرى، مع اختلاف طريقة العرض للقصة بل لمجموعة القصص، بحيث يتم التركيز على معنى معين فى كل مرة، ومن أمثلة ذلك قصص أنبياء الله "نوح" "وهود" "وصالح" "ولوط" "وشعيب" وقد ورد فى سورتى "الأعراف" "والشعراء"، وتتضافر مجموعة القصص فى "الأعراف" على بيان فكرة أن الأديان جميعها تقوم على التوحيد ، ولذلك ركزت القصص على دعوة هؤلاء الأنبياء لأقوامهم وتذكر مانطق به كل نبى منهم، فورد على لسان معظم الرسل : (يقوم اعبدوا اله مالكم من إله غيره)، «وإنك لتسمع إليهم واحداً بعد الآخر فتجد كلاماً منسقاً وهدياً منسجماً .. صدر عن مشكاة واحدة، وانساق إلى هدف واحد، يمهد أوله لآخره، وتصدق نهاياته بداياته، وكأنهم خطباء فى حفل واحد ، اجتمعوا فى أمسية موعودة، أوليلة مشهودة، وليسوا رجالاً توزعتهم أكناف القرون المتطاولة» (٢).

أما مجموعة القصص نفسها فى سورة "الشعراء" فتركز على معنى آخر هو تكذيب الأقوام للرسل، وتتحد الصيغ فى التعبير عن هذا المعنى؛ فكل قصة تبدأ بقوله تعالى : (كذبت .. المرسلين)، فإذا كان هؤلاء الأقوام قد وجهت إليهم دعوة واحدة فإن استقبالهم لهذه الدعوة كان واحداً أيضا، ولذلك جمعهم مصير واحد هو الهلاك والتدمير، ويلاحظ أن السياق جمع من وقع عليهم التكذيب فقال : (المرسلين) مع أن قوم كل بنى كذبوه هو

---

(٤) الأعراف : ١٦ : ١٧ .

(١) نظرات في القرآن الشيخ محمد الغزالى، ط دار التوفيق النموذجية، الطبعة السادسة ١٩٨٦م ص ١٠١

خاصة؛ ليدل على أن فارق الزمن بين هؤلاء الأقوام لم يكن له أى تأثير عليهم .

وهكذا يبدو أن التكرار فى القصة القرآنية له وظيفته المحددة، فهو وسيلة من وسائل القرآن لغرس القصة فى نفوس أصحابها، ولترهيب الخارجين عليها، وتخويفهم من مغبة تكذيبهم وعنادهم، وبذلك تتناسب القصة مع الغايات العامة من القرآن الكريم، والتكرار من الناحية الفنية له قيمته؛فهو ليس تكراراً آلياً مملاً حتى فى أشد الأجزاء المكررة تشابهاً، فالحقيقة التى تطالع القارئ أن القصة تعرض فى معارض كثيرة متنوعة، وفى أثواب جديدة تضيف أحياناً إلى جوهر القصة، وتكتفى بتوضيح موقف وتجليته أحيانا أخرى بما تسكبه من ظلال وأضواء، والتكرار فى القصة القرآنية لم يكن ليصيب جسم القصة كله، وإنما كان يرد فى بعض أجزائها فقط، ونادراً ما كان القرآن يسترسل فى سرد أحداث القصة كلها فى موطن واحد، بل إن ذلك لم يحدث إلا فى قصة واحدة هى قصة "يوسف" (عليه السلام) .

د

الإجمال والتفصيل

التفصيل والإجمال ظاهرة واضحة تمام الوضوح فى القصص القرآنى، وهما لونان من التصريف البيانى الذي يمتاز به القرآن الكريم؛ فقد يأتى بعض القصص مجملاً مقتضباً كما هو الشأن فى قصة "يعقوب" التى ترد فى سياق قصة "يوسف"، وكذا قصة "إسماعيل" التى اقتصر القرآن على حلقات قليلة منها، وكذلك قصص هود وصالح ولوط وشعيب"، إذ اكتفى القرآن الكريم بحلقة الرسالة فقط من هذه القصص. ويقابل هذا النوع نوع آخر يأتى مبسوطاً مطولاً، ومن أبرز ما يمثله قصتا يوسف وموسى – عليهما السلام – ففيهما أتى القرآن على كثير من الأحداث والمواقف التى حدثت لكل منهما.

وثمة لون آخر من التفصيل والإجمال يوجدفى القصة الواحدة، إذ تبسط فى موضع وتجمل إجمالاً فى موضع آخر، ويغلب هذا اللون فى القصص المكرر، فقصة نوح مثلاً تأتى مبسوطة فى سورة «هود» وسورة « نوح» ثم تأتى مجملة فى آيتين فقط هذا الإجمال العجيب : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٥) ﴾(١).

والعلة من هذين اللونين من التفصيل والإجمال تتعلق بالغرض الذى سيقت من أجله القصة، كما تتعلق بمقاصد السورة التى وردت فيها القصة، أو بمقاصد القرآن على العموم.

وهناك ألوان أخرى من الإجمال والتفصيل تتصل بالفن القصصى وأساليب بناء القصة فنياً، والتماس هذه الألوان سهل ميسور فى كثير من القصص القرآنى، غير أن العلة من الإجمال والتفصيل قد تتضح بعد نظر وتأمل وقد تخفى أو تستغلق على القارئ والمتلقى.

<u>وأبرز هذه الألوان ثلاثة :</u>

١ – قد تجمل القصة أولاً ثم تأتى مفصلة.

٢ – يأتى بعض القصة مجملاً وبعضها مفصلاً فى السورة الواحدة.

---

(١) العنكبوت ، الآيتان ١٤ : ١٥.

٣ – الإجمال بالحذف والإيجاز، والتفصيل بالإطناب.

واللونان الأخيران أشد التصاقاً بالفن القصصى وأدخل إلى حرفية القص من اللون الأول، برغم مافيه من مواضع تظهر جانب الإعجاز القرآنى الذى لا يدانيه جهد البشر مهما أوتوا من قدرة فنية على القص المحبوك.

أما بالنسبة إلى اللون الأول ففى القرآن أمثلة متعددة منه، وتغلب على القصص المطول، ومن ذلك ما جاء فى بداية سورة القصص مقدمة لقصة "موسى" – عليه السلام –: ﴿ طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) ﴾(١).

وهذه الآيات تمثل مقدمة للقصة التى تأتى بكثير من تفصيلاتها، وتمثل هذه المقدمة مرحلة العرض والتعريف بالقصة، لكى تهيئ المتلقين لما يأتى من تفصيلات الأحداث، وقد يقصد منها إلى بيان الحكمة من إيراد القصة على هذا النحو وفى هذا الموضع.

وهذه المقدمة لا يمكن الاستغناء عنها؛ فهى تضيف كثيراً إلى أحداث القصة وذلك بما تفصح عنه من بيان الأحوال والملابسات التى أحاطت بمولد "موسى" – بطل القصة –، وتتمثل هذه الأحوال فى وجود ملك مفسد، قلب أوضاع المجتمع الذى يحكمه، وجعل أفراده فرقاً وطبقات يعلو بعضها بعضاً، ونظر إلى طبقة بنى إسرائيل بعينين ملء إحداهما السخرية والاستهزاء، وملء الثانية الخوف والترقب والحذر من أن يخرج منهم صبى يكون زوال ملكه على يديه كما أوعز إليه بذلك العلماء، وأنها نبوءة إبراهيم(٢) التى ستتحقق فى هذا الزمان، وامتزجت السخرية بالخوف فى نفس "فرعون" فأمر أن يذبح كل

---

(١) القصص، الآيات ١ : ٦.

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٣ صـ ٣٧٩ : ٣٨٠.

صبى يولد لبنى إسرائيل، وأمر باستحياء النساء ليضمن بالأعمال التى كانت موكلة إلى الرجال.

وبذلك توحى مقدمة القصة بالصراع الذى كان دائراً والذى سيستمر بعد ذلك، كما تنبئ المقدمة أيضاً بتغيير فى مجريات الصراع، وتشير إلى أن الغلبة بعد ستكون للجانب المستضعف المقهور، بنى إسرائيل، وأنهم سيصيرون الأئمة المقدمين فى النهاية وسيصير لهم ملك الأرض من بعد هلاك ذلك الفرعون الجبار، بعد أن يرى على أيديهم ما كان يخافه ويحذره هو وجنوده وحاشيته.

إن هذه المقدمة أفادت المتلقى علم بعض الأحداث المهمة فى القصة. بل أوحت إليه بنهايتها، ولكن تطلعه إلى معرفة التفاصيل لم يفتر، وتشوقه إلى إدراك كيفية النهاية قد زاد، وتهيأت نفسه تماماً لاستقبال الأحداث المفصلة التى ستطرق سمعه، وتخترق حواجز الحس لتتلبد فى شعوره ومكامنه. ويلاحظ أن الخطاب فى هذه المقدمة موجه إلى النبى صلى الله عليه وسلم فكأن القصة موجهة إليه بكل ما فيها من أحداث، وبكل ما تحوى من عبر وتوجيهات ليتثبت من صدق وعد الله له بالغلبة والظهور على أعدائه، ولينتفع بها أصحابه وسائر المؤمنين فى كل وقت وفى أى مكان.

ويلاحظ أن المقدمة السابقة قد طالت بعض الشئ وأنها تضمنت بعض أحداث القصة بل أوحت بنهايتها، وحددت معالم الصراع فيها وحددت نتيجته، ومثلها فى بعض الخصائص مقدمة قصة الملأ من بنى إسرائيل الذين طلبو ملكا يخرج بهم إلى الأرض المقدسة: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) ﴾(١). وتتفق هذه المقدمة مع مقدمة قصة "موسى" فى الطول النسبى، وفى أنها حددت الخطوط الرئيسة للقصة ولكنها تركت نهاية القصة ليعرفها المتلقى من قراءته للتفاصيل التى تأتى بعد ذلك، فقد أشارت إلى

---

(١) البقرة ، الآية ٢٤٦.

قعود الغالبية العظمى من بنى إسرائيل عن القتال تحت إمرة الملك الذى طلبوه ولم تشر إلى نتيجة المعركة التى خاضها الملك مع القلة التى بقيت معه.

وتتساوق المقدمة مع القصة ويتعاونان على إخفاء شخصية الملك القائد الذى بعثه الله إلى بنى إسرائيل؛ فالمقدمة اكتفت بالإشارة إلى طلب بنى إسرائيل ملكاً يولى عليهم:(ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله) ، والقصة أشارت إلى هذا الملك باسم "طالوت"، ثم تأتى نهاية القصة لتترك شخصية الملك وتفاجئ المتلقى شخصية أخرى هى شخصية "داود" – عليه السلام – لما له من دور مؤثر فى نتيجة المعركة التى خاضها تحت إمرة "طالوت" .

ومن ذلك أيضاً هذا التلخيص الإجمالى لقصة أصحاب الكهف : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) ﴾(١). وهو تلخيص يجمل القصة، ويرسم خطوطها الرئيسة العريضة؛ فنعرف أن أصحاب الكهف فتية، أووا إلى الكهف، وهم مؤمنون، وأنه ضرب على آذنهم فى الكهف – أى ناموا – سنين معدودة – لا نعلم عددها – وأنهم بعثوا من رقدتهم الطويلة، وأنه كان هناك فريقان يتجادلان فى شأنهم، وأنهم بعثوا ليتبين أى الفريقين أدق إحصاء، وأن قصتهم – على غرابتها– ليست بأعجب آيات الله؛ ففى صفحات هذا الكون من العجائب ما يفوق قصة أصحاب الكهف والرقيم(٢).

قد يكون الإجمال متمثلا فى مقدمة قصيرة – لا كالمقدمات السابقة – ولكنها تشير إلى ما يأتى فى صلب القصة من تفصيل، وتشير أيضاً إلى نوع الصراع الذى تكشف عنه القصة، كهذه المقدمة المجملة لقصة "موسى" فى سورة الأعراف : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

(١) الكهف ، الآيات : ٩ : ١٢ .

(٢) انظر فى ظلال القرآن ، جـ ٤ ، صـ ٢٢٦١.

الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) ﴾(١).

فهذه المقدمة – على قصرها – لخصت القصة تلخيصاً وافياً ، فقد حددت طرفى القصة : "موسى" فى جانب "وفرعون" وملؤه فى جانب آخر، وحددت نوع الصراع وأنه صراع الآيات والمعجزات، ولذلك تكرر ذكر لفظ (الآية) مفرداً ومجموعاً فى أثناء القصة كثيرا(٢)، كما حددت المقدمة استقبال "فرعون" ملائه لدعوة "موسى" (فظلموا بها)، وألمحت إلى النهاية ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ ففعل الأمر وأداة الاستفهام ينبهان المتلقى إلى ما فى النهاية من أحداث عجيبة تستحق أن يقرأها ويتملاها.

وقد تتضمن مقدمة القصة أمراً عجيباً يشبه الرمز كما فى مقدمة قصة يوسف : ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) ﴾(٣). فهذه الرؤيا التى رآها يوسف "مبهمة" فى مقدمة القصة، ولكن لها أثراً قوياً فى الأحداث؛ فقدكانت سبباً فى البلاء الذى أصابه من حسد إخوته له، وكانت إرهاصا بنبوته، وآية عليها بالرؤيا الصادقة، ثم هى فى نهاية القصة تتحقق على نحو يفسر هذا الرمز ويزيل الإبهام : فالشمس والقمر أبواه ، والأحد عشر كوكباً هم إخوته. وهم يسجدون له جميعاً فى نهاية القصة، على وجه التحية والتعظيم لا على وجه العبادة(٤).

ثم إن هذا التقديم يتناسق مع التعقيب على القصة فى نهايتها، وهو قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) ﴾(٥) فهناك حبكة بين مقدمة القصة والتعقيب عليها(٦).

---

(١) الأعراف ، الآية : ١٠٣ .

(٢) الأعراف ، الآيات : ١٠٦ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٤٦ ، ١٤٧ . وانظر: فى ظلال القرآن جـ ٣ صـ ١٣٤٤ .

(٣) يوسف ، الآيتان : ٤ : ٥ .

(٤) الكشاف للزمخشرى جـ ٢ صـ ٥٠٦ وانظر: الإضمار القصصى فى القرآن الكريم صـ ١٠٣

(٥) سورة يوسف ، الآية ١٠٢.

(٦) فى ظلال القرآن الكريم ، جـ ٤ ، صـ ١٩٤٩ ، ١٩٥٠.

وأما بالنسبة إلى اللون الثاني وهو الإجمال في بعض القصة والتفصيل في بعضها فإن خير ما يمثله قصة "نوح" – عليه السلام – في سورة «هود» ويتضح الإجمال والتفصيل فيها إذا قسمت إلى عدة مراحل أو أربعة مراحل على وجه التحديد:

الأولى : مرحلة الدعوة منذ بدايتها إلى نهايتها.

الثانية : اليأس من إيمان قومه وصنعه السفينة.

الثالثة : مرحلة الطوفان : بدايته وانحساره.

الرابعة : مناجاة نوح لربه في شأن ابنه.

والمراحل الثلاث الأولى تمثل الإجمال على وجه بديع لا يتأتى ولا ينظر إلا من كتاب الله (تعالى) المنزه عن اللغو والحشو، وأولى هذه المراحل أكثرها إبانة عما ادعيته، فهذه آياتها : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) ﴾(١).

(١) هود ، الآيات ٢٥ : ٣٥.

فهذه إحدى عشرة آية تمثل مرحلة الدعوة فى حياة نوح – عليه السلام – هذه الحياة التى امتدت فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، فهل تضم هذه الآيات الإحدى عشرة كل ما نطق به "نوح" وكل ما نطق به قومه، وما دار بينهما من حوار فى هذه السنوات التى تجاوز التسعمائة؟ وهل سردت هذه الآيات كل ما جرى بين "نوح" وقومه من أحداث ؟ لا شك أن القصة أجملت ذلك كله فى هذه الآيات القليلة، وفى هذا الحوار الذى لم يخل من الحذف فى كثير من المواضع.

لقد جاء الحوار مكثفا تكثيفاً شديداً، بحيث جمع كل مادار فى سنوات كثيرة العدد فى هذه الكلمات التى تعد قليلة جداً بالنسبة إلى مادار على أرض الواقع، وبالنسبة إلى المدة الزمنية التى استغرقها هذا الحوار المكثف.

نطق نوح كلمة الدعوة على مسامع قومه (إنى لكم نذير مبين أن لا تعبدوا إلا الله) فهل دعاهم بها مرة واحدة؟ لا ولكنه رددها على مسا معهم مرات لا تحصى، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ۝٥﴾(١).ابتدأ نوح الحوار فجاء الرد من الملأ الذين كفروا بأنه مدع النبوة، إذ هو بشر مثلهم؛ وكأنهم أرادوا نبياً ملكاً لا بشراً ،فلما وجدوا منه إصراراً على الدعوة، ورأوا بعض الناس قد دخلوا فى دينه تنقصوا هؤلاء الذين اتبعوه بأنهم فقراء لا يملكون شيئاً، وأنهم ليسوا أهلاً لأن يعتد بهم "نوح" وباتباعهم له، فقد صدروا فى إيمانهم عن رأى عنّ لهم دون رويّة ونظر(٢). فلن نتساوى نحن وهؤلاء فى موقف الإيمان لك . ثم جاءوا بالثالثة (وما نرى لكم علينا من فضل) لستم أفضل منا حتى تهتدوا إلى الصواب ونضل نحن عنه، وأخيراً تأتى التهمة الرابعة (بل نظنكم كاذبين) إنهم الملأ وأعيان القوم، فلابد أن يكون بينهم وبين الأراذل فرقاً واضحاً حتى فى كلامهم، فإذا كان الأراذل قد قطعوا برأيهم دون رويّة فهؤلاء ليسوا مثلهم، إنهم لا يصدرون فى آرائهم إلا عن روية ونظر ولذلك قالوا: (بل نظنكم) فلم يلقوا التهمة على سبيل القطع واليقين، مما يقطع بأن الحوار بينهم كان فى مراحله الأولى، وهو بعد لم يشتد، ولذلك يأتى رد "نوح" على قومه رداً هادئاً سمحاً : (ياقوم) فهو منهم وهم منسوبون إليه.

---

(١) نوح ، الآية : ٥.

(٢) الكشاف للزمخشرى جـ ٢ ص : ٦٠٥، تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٣٢٥٣.

ثم يرد نوح هذه الادعاءات بقوله ﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنـدِي خَزَائِنُ الـلَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِيـنَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ الـلَّهُ خَيْرًا الـلَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ﴾(١). ومعناه : لا أقول لكم عندى خزائن الله فأدعى فضلاً عليكم فى الغنى، حتى تنسبونى إلى الكذب والافتراء، أو حتى أطلع على ما فى نفوس أتباعى وضمائر قلوبهم، (ولا أقول إنى ملك) حتى تقولوا لى ما أنت إلا بشر مثلنا، ولا أحكم على من استرذلتم من المؤمنين لفقرهم إن الله لن يؤتيهم خيراً فى الدنيا والآخرة لهوانى عليه كما تقولون مساعدة لكم ونزولاً على هواكم"(٢)..

إن هذه الاعتراضات لم تُلق جملة واحدة، بل كانت تأتى متتابعة واحداً تلو الآخر، وكان كل اعتراض يعن للملأ يلقون به فى وجه "نوح"، وكانت ردوده على اعتراضاتهم تأتى متتابعة أيضاً، فكلما ألقوا باعتراض ألقى هو بالرد عليه وجاء بما يفنده، وذلك الشأن فى الدعوات جميعاً خصوصاً مع الامتداد الزمنى الطويل الذى استغرقته دعوة "نوح" فى قومه، ولكن القصة جمعت هذه الاعتراضات وأجملتها فى آية واحدة، كما جمعت ردود "نوح" عليها وأجملتها فى آية أخرى، فالحوار طويل وموضوعاته متعددة، ولكن القصة أجملته بأن اقتصرت على أهم موضوعاته التى تتعلق بصاحب الدعوة وتتعلق بأتباعه الذين آمنوا به، ومما يدل على طول الحوار بين نوح وقومه هذه الصرخة التى انطلقت على ألسنة الملأ تحمل التحدى :﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢)﴾(٣). إنهم لم يصلوا إلى هذه المرحلة إلا بعد أن استفزهم إصرار "نوح" على دعوته، وبعد أن ذهب بهم كل مذهب فى الجدل الذى بدءوه هم أنفسهم ولذلك قالوا : (جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا)

وفى القصة حذف لبعض مادار فى هذا الحوار الطويل على ألسنة الملأ من قوم

---

(١) سورة هود ، الآية : ٣١.

(٢) الكشاف للزمخشرى جـ ٢ صـ ٣٩٠.

(٣) سورة هود . الآية ٣٢.

"نوح"، ويدل كلام "نوح" على هذا المحذوف فقوله: (وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالا) يوحى بأنهم تصوروا أن "نوحاً" يبغى من وراء هذه الدعوة جمع المال من هؤلاء الأغنياء السادة لكي يرتفع إلى مستواهم الاجتماعي ويوحى بأنهم قد عرضوا عليه المال فعلاً، فنفى هذا الظن من نفوسهم، وأكد لهم أنه لا يريد من وراء دعوته مالاً ولن يكلفهم شيئاً، لأنه لا يطلب الأجر إلا من الله وحده.

كما يوحى قوله : (وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا) بأنهم طلبوا منه أن يطرد هؤلاء المؤمنين به لأنهم من الفقراء حتى لا يضمهم وإياهم مجلس واحد[1] عند نوح، ولعل هذين الأمرين قد طرحا فى ساحة الحوار الدائر واحداً تلو الآخر، وفى مرحلة من مراحل الجدال الطويل الممتد بين" نوح" وقومه، والذى أجملته القصة فى هذه الآيات الإحدى عشرة.

هذا عن المرحلة الأولى وهى مرحلة الدعوة، أما المرحلتان الثانية والثالثة فيتضح فيهما الإجمال أيضاً، إذ تحمل كل كلمة فيهما صورة أو حدثاً عظيماً من الأحداث التى انطوت عليها الآيات، بحيث تدع للتصور العقلى أن يعمل عمله فى متابعة هذه الصور وملاحقة هذه الأحداث، ويالها من صور جديدة على البشرية كلها! إنها صور السفينة وهى تتكون من الألواح والدسر لتنتهى إلى صورتها النهائية لتكون طوق النجاة للمؤمنين، ويالها من أحداث ! إنها أحداث الطوفان التى تلاحقت حتى حالت بين الابن وأبيه.

أما المرحلة الرابعة من القصة فتأتى فى مقابلة المرحلة الأولى من حيث الإجمال والتفصيل، فإذا كانت الآيات السابقة قد أجملت أحداث وحوارات وجدال مئات السنين، فإن آيات المرحلة الرابعة قد فصلت موقفاً واحداً، وأعطته من الكلمات ما يكاد يقرب من الكلمات، التى استأثرت بها المرحلة الأولى على امتدادها وكثرة أحداثها وجدالها، إنه موقف واحد وحدث واحد ولكن له فى نفس نبى الله "نوح" أثراً عظيما، إنه موقفه من ابنه حين جاء الطوفان وهذه هى الآيات :﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ

(١) انظر فى ظلال القرآن – جـ ٤ صـ ١٨٧٤.

جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) ﴾(١).

إذا كانت آيات المرحلة الأولى تمثل حياة "نوح" الداعية الذى استنفد كل وسائل الدعوة مع قومه فإن آيات المرحلة الرابعة تمثل جانباً آخر من حياة "نوح" هو جانب الأب الإنسان، وبين كل من الجانبين فرق كبير، وإذا كانت آيات المرحلة قد أجملت أحداث مئات السنين فإنها لم تنقص منها شيئاً، فالحذف والإجمال فى القصة القرآنية لا يعنى بتر المعانى والاكتفاء ببعضها دون بعض، ولكن ذكر ما يذكر من المعانى دلالة واضحة على ما حذف منها، وإذا كانت آيات المرحلة الرابعة قد فصلت موقفاً واحداً وأعطته هذه المساحة الكبيرة من القصة فإنها لم تعطه أكثر مما يستحق.

إن طبيعة الموقف الذى يعيشه "نوح" الأب هى التى تطلبت هذا التفصيل، إن الأبوة شعور لا ينكره الإنسان على أخيه الانسان، وأولى من ذلك ألا ينكره الخالق – سبحانه وتعالى – على نبيه "نوح" الأب الذى يمتحن فى ولده أقسى امتحان يتعرض له الأب فى حياته، فالمواساة هنا لازمة، وإنزال السكينة على قلب الأب أمر ضرورى، لعل "نوحاً" يأنس بحواره الطويل مع ربه(٢)، ويتسلى عن التفكير فى هذه الفجيعة التى حلّت بولده، وخلاصة هذا الحوار أن نوحا أراد أن يستنجز وعد ربه فى نجاة أهله فقال : «إنك وعدتنى بنجاة أهلى معى وابنى منهم، فأجيب بأنه ليس من أهلك الذين وعدت بنجاتهم

---

(١) هود : الآيات : ٤٢: ٤٧ .

(٢) انظر السرد القصصى فى القرآن الكريم، أ. ثروت أباظة ، ط دار نهضة مصر للطبع والنشر ، صـ ١٥.

لأنا قلنا:(وأهلك إلا من سبق عليه القول) فكان هذا ممن سبق عليه القول منهم بأنه سيغرق بكفره ولهذا ساقته الأقدار إلى أن انحاز عن أهل الإيمان فغرق مع حزبه أهل الكفر والطغيان(١)» وامتد الحوار فعاتبه ربه فى أن يسأله ما ليس له به علم « إذ كان من حق "نوح" أن يعلم أن من كان خارج السفينة فليس ممن وعده الله بنجاتهم، فاعتذر "نوح" عن ذلك، وطلب المغفرة والرحمة على ما فرط منه(٢)» .

والذى يتأمل الآيات السابقة لهذا الحوار يجد بعض اللفتات الموحية، إذ يخاطب المولى – عز وجل – عاطفة "نوح" نحو قومه عامة ، ويخاطب عاطفته نحو أهله خاصة، يخاطب عاطفتة نحو قومه فى قوله تعالى ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) ﴾(٣) فالمولى – سبحانه – يعلم أن نوحاً قد يرق قلبه لهذه الجموع الغفيرة من قومه الذين سينزل بهم العذاب، فيطلب الرحمة بهم فنهى عن ذلك. ويخاطب عاطفته المتوجهة نحو أهله خاصة فى قوله تعالى ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ فكان هذه الاستثناء هو الفيصل فى إنزال العذاب ﴿ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ فنهى "نوح" عن طلب الشفاعة فيمن كفر من أهله أيضاً، ولكن أنى لعاطفة الأبوة أن تسكن فلا تتحرك؟ وكيف للأب أن ينفى عن نفسه الإحساس بالمرارة تجاه ولده حتى ولو كان عاقاً؟ ولذلك عوتب "نوح" فى أن سأل ربه ما ليس له به علم حين سأل نجاة ولده، وبذلك تؤكد القصة أن النسب الحقيقى «إنما يكون فى الموافقة فى الدين والمذهب»(٤).

وأما اللون الثالث فهو الإجمال بالإيجاز والحذف، والتفصيل بالإطناب، وقد حظى هذا اللون بعناية علماء الإعجاز والبلاغيين حتى عقدوا له باباً خاصاً فى دراساتهم تحت عنوان : الإيجاز والإطناب والمساواة، وعدوا كل واحد منها بليغاً إذا جاء فى موطنه كما

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير صـ ٨٥.

(٢) قصص الأنبياء ، عبدالوهاب النجار صـ ٥١

(٣) هود : الآية ٣٧.

(٤) قصص الأنبياء لابن كثير صـ ٨٢.

أشار إلى ذلك "الرماني" إذ يقول" : "والإيجاز بلاغة والتقصير عيّ كما أن الإطناب بلاغة والتطويل عيّ ، والإيجاز لا إخلال فيه بالمعنى المدلول عليه، وليس كذلك التقصير، لأنه لا بد فيه من الإخلال، فأما الإطناب فإنما يكون في تفصيل المعنى وما يتعلق به في المواضع التي يحسن فيها ذكر التفصيل، فإن لكل واحد من الإيجاز والتفصيل موضعاً يكون به أولى من الآخر، لأن الحاجة إليه أشد والاهتمام به أعظم(١)».

فالرماني يقابل بين أربعة أشياء : يقابل بين الإيجاز والتقصير، الأول من البلاغة لأن فيه زيادة في المعنى مع قلة اللفظ، والثاني عيّ لأن الألفاظ ليست كافية لأداء المعاني، ويقابل بين الإطناب والتطويل، والإطناب من البلاغة لأن المعاني الكثيرة بألفاظ كثيرة ليس فيها حشو يمكن الاستغناء عنه.

ويلاحظ أن العلماء قد وجهوا جل عنايتهم إلى دراسة الإيجاز وقسموه إلى نوعين: إيجاز بالقصر وإيجاز بالحذف، ويلاحظ أيضاً أن كثيراً من الأمثلة التي يوردونها من كتاب الله تعالى لا تتعدى الألفاظ القليلة المشتملة على موضع الحذف(٢)، وقليلا ما يبين أحدهم قيمة إسقاط المحذوف من الكلام، وقلما يستشهد أحدهم بآية أو أكثر، كما فعل الإمام "عبد القاهر" في قوله تعالى ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾(٣) إذ قال : «ففيه حذف مفعول في أربعة مواضع(٤)، إذ المعنى وجد عليه أمة من الناس يسقون غنمهم أو مواشيهم، وامرأتين تذودان غنمهما، وقالتا لانسقي غنمنا، فسقى لهما غنمهما، ثم أنه لا يخفى على ذي بصر أنه ليس في ذلك كله إلا أن يترك ذكره (أي المفعول) ويؤتى بالفعل مطلقاً، وما ذاك إلاأن الغرض في أن يُعلم

(١) رسالة « النكت في إعجاز القرآن » لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن . تحقيق : محمد خلف الله أحمد ، د. محمد زغلول سلام، ط دار المعارف، الطبعة الرابعة ، ١٩٩١م صـ ٧٨ ، ٧٩.

(٢) انظر البرهان في علوم القرآن جـ ٣ صـ ١٠٤ وما بعدها،
وتأويل مشكل القرآن صـ ٢١٠ وما بعدها.

(٣) القصص ، الآيتان ٢٣ ، ٢٤،

(٤) زاد الزركشي مفعولا خامساً في قوله تعالى (حتى يصدر الرعاء) والتقدير مواشيهم، البرهان في علوم القرآن جـ٣ صـ ١٧٦.

أنه كان من الناس فى تلك الحال سقى ومن المرأتين ذود، وأنهما قالتا : لا يكون منا سقى حتى يصدر الرعاء، وأنه كان من "موسى" – عليه السلام – من بعد ذلك سقى، فأما ما كان يسقى غنماً أم إبلاً أم غير ذلك فخارج عن الغرض وموهم خلافه، وذاك أنه لو قيل : وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما جاز أن يكون لم ينكر الذود من حيث هو ذود بل من حيث هو ذود غنم حتى لو كان مكان الغنم إبل لم ينكر الذود(١).

وإذا كان الإمام "عبد القاهر" قد دل على ما فى هاتين الآيتين من إجمال الإيجاز بالحذف فإن فيهما تفصيلاً وإطناباً أيضاً، مما يدل على اختلاط الإيجاز بالإطناب فى القصة القرآنية على نحو معجب لا يتأتى إلا لمن أنعم النظر، ولا يتأتى مثله لبشر، وأن هذا الأسلوب أصل فى بناء القصص القرآنى ويبدو هذا الإطناب فى حوار "موسى" – عليه السلام – مع ابنتى شعيب: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ فهذا التفصيل فى جوابهما على سؤال "موسى" كان أمراً لا بد منه، إذ لايستطيع موسى أن يكشف عن تلك الحال التى وقفت بهما بعيداً عن مورد الماء ليسقيا حين يصدر الرعاة إلا مع هذا التفصيل الذى فى جوابهما، فقد كان يمكن أن يكون تأخرهما حياءً وابتعاداً عن موطن الاحتكاك والتزاحم والتدافع من الرجال وقد يكون لداعية غير هذا، فلما صرحا له بحالهما، وأنهما ضعيفتان، وألا رجل لهما يرفع الماء من البئر، وأن أباهما شيخ كبير عرف حقيقة الموقف، وعالجه على الوجه الذى ينبغى مما تقتضيه المروءة والرحمة معاً، وفيه إشارة أيضاً إلى أخلاق قوم "شعيب"، وإلى ما ضمت عليه قلوبهم من غلظة وقسوة، وإلى ما انطوت عليه نفوسهم من أنانية وأثرة، إذ لم يلتفتوا إلى هذين البنتين الضعيفتين(٢).

ومن مواطن التفصيل فى القصص القرآنى المواطن التى يقصد منها إظهار المناقشات التى دارت بين الأنبياء السابقين وأقوامهم، وكذا المواطن التى يظهر فيها التدافع بين أنصار الحق والإيمان وأنصار الباطل، ومنها أيضاً المناقشات التى كانت بين

---

(١) دلائل الإعجاز : الإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد رشيد رضا، ط دار الكتب العلمية، بيروت – الطبعة الأولى ، ١٩٨٨م صـ ١٢٤.

(٢) انظر القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه. صـ ١٢٦.

بنى إسرائيل وأنبيائهم، فهذه المواطن تحتاج إلى إطناب، وتحتاج إلى عبارة حيث لا تغنى عنها الإشارة، وفى هذه المواطن يغلب الحوار على السرد لأنها تحكى ما كان بين الطرفين من جدال ومناقشات.

ومن ذلك ما جاء فى قصة أصحاب القرية وما دار بين أهلها وبين الرسل الذين أرسلهم "عيسى" بن مريم – عليه السلام – والقرية كما يقول المفسرون (أنطاكية)[1] وكان أهلها وثنيين فأرسل إليهم "عيسى" بن مريم رسولين يدعونهم إلى الحق فكذبوهما فعززهما برسول ثالث، فاتهمهم القوم بالكذب والافتراء، محتجين بأنهم بشر مثلهم، ولكن الرسل لم ييأسوا فأعلنوا أنهم رسل الله حقاً وأنهم جاءوا لإبلاغهم الرسالة مؤيدة بالآيات البينات وتمادى أهل القرية فى غيهم وبغيهم، فهددوا الرسل بالعذاب والرجم لأنهم فى نظرهم شؤم، وكان فى القرية رجل مؤمن بدين هؤلاء الرسل فلما سمع بهم أتاهم وجادل عنهم أهل القرية وقد أثبتت القصة محاورته أهل القرية على هذا النحو :

﴿ وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسئلكم أجراً وهم مهتدون . وما لى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون . ءأتخذ من دونه ءالهة إن يردن الرحمن بضر لا تغنى عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون إنى إذاً لفى ضلال مبين . إنى ءامنت بربكم فاسمعون . قيل ادخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون . بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين ﴾[2]

والتفصيل فى هذا الموقف ظاهر، والسياق يظهر حال الرجل الذى جاء يحاج عن رسل "عيسى" – عليه السلام – فهو قد جاء من أقصى المدينة، حين سمع بما يدبره أهلها لهؤلاء الرسل، وعلم أن الموقف جد خطير، فعليه أن يسرع الخطا وأن يهرول إليهم قبل أن يرتكبوا جريمتهم، فلما جاء ملَكَ زمام الموقف، وأخذ يُرسل كلامه ويبذل نصحه لأهل مدينته، ويُقلب الكلام على وجوه كثيرة، وأخذوا يستمعون إليه وهم عازمون على قتله، ولذلك لم يقاطعوه، بل تركوه يُفضى إليهم بكل ما لديه من حجج وبراهين.

---

١) حكى القرطبى إجماع المفسرين على أنها أنطاكية، تفسير القرطبى جـ ٨ ، صـ ٥٤٦٠.

(٢) سورة يس : الآيات ١٣ :٢٩.

ويبدأ الرجل كلامه بتوجيه هذه النصيحة (اتبعوا المرسلين)، ولعلهم أغروه بصمتهم فأطلق هذه الكلمة الجامعة (اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون) فأنتم لا تخسرون شيئاً من دنياكم، وتربحون صحة دينكم لأنهم يدعونكم إلى الهدى، وستجمعون خيرى الدنيا والآخرة. " ثم أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم يتلطف بهم ويداريهم، ولأنه أدخل في إمحاض النصح، حيث لايريد لهم إلا ما يريد لروحه، فوضع قوله (وما لى لا أعبد الذى فطرنى)، مكان قوله: وما لكم لا تعبدون الذى فطركم، بدليل قوله (وإليه ترجعون)، ولولا أنه قصد ذلك لقال: الذى فطرنى وإليه أرجع وقد ساقه هذا المساق إلى أن قال : (آمنت بربكم فاسمعون)[1].» وهو يذكر بالمبدأ والمعاد، فهؤلاء الرسل يدعونهم إلى عبادة الله الذى خلقهم وإليه مرجعهم، وفى هذا تعريض بالأوثان التى اتخذوها آلهة، وتسفيه لعقولهم التى ارتضت هذه الآلهة، ثم يتحداهم أن تنفعهم شفاعة آلهتهم إن أرادهم الله بضر، وأن تنقذهم منه، إنكم بعبادتكم هذه الأوثان لواقعون فى ضلال ظاهر، بين لا يخفى على ذى عقل وتمييز، ثم ينهى الرجل حديثه بأن أشهد الرسل وأشهد أهل القرية على إيمانه الصحيح، ليؤكد لهم أنه لا يدعوهم إلى أمر هو منه ينجوى.

إن السر فى هذا التفصيل يكمن فى أن الرجل المؤمن قد وقف موقف الدفاع عن العقيدة وعن الرسل الذين جاءوا بها، فلابد أن يدفع كل شبهة قد تلصق بهم، وأولى هذه الشبه بالدفع شبهة طلب الأجر على تبليغ الرسالة، تلك التى رددها كثير من الأقوام الذين كذبوا الرسل، ثم لا بد من بيان هذه العقيدة وتجلية أركانها، ولمن يتوجه المؤمن بالعبادة، وأين تقع هذه الآلهة التى يعبدها هؤلاء القوم، وما مصير عابديها، كل ذلك دعا الرجل إلى الإطناب فى حديثه على هذا النحو.

وجرياً على عادة القصص القرآنى فى الإيجاز المحكم حذفت القصة حدثاً مهماً جداً من أحداثها، ودلت عليه ببعض الكلمات، فأهل المدينة قتلوا هذا الرجل المؤمن، ولكن القصة لم تذكر ذلك صراحة، بل دلت عليه بقوله تعالى (قيل ادخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون) وبذلك يؤكد السياق أن تصلب الرجل فى نصرة دين الله، وسخاءه بروحه قد

---

(١) الكشاف . للزمخشرى جـ ٤ ، صـ ١٠

ترتب عليه دخول الجنة، فالقصة حذفت الحدث، ووفرت المساحة التى يحتلها ذكره لتفضى سريعا إلى الجزاء الفورى الذى ناله بعد أن وقع عليه حدث القتل مباشرة دون تأخير. ومن ثم يظهر أن لكل كلمة فى القصة القرآنية مدلولها، وأن الحدث العظيم المؤثر ليس بالضرورة أن يذكر بل قد يجمل فى كلمات قليلة، أو يحذف تماماً ويشار إليه بما يدل عليه، لأن العبرة من القصة القرآنية هى الغاية، وليست الأحداث تساق للتسلية والمتعة وقتل الوقت كما فى القصص البشرى.

وشبيه بهذا الموقف فى دواعيه وبواعثه موقف الرجل المؤمن من آل فرعون الذى كان يكتم إيمانه عن فرعون وملائه، إذ وقف مدافعا عن "موسى" – عليه السلام – ناصحاً "فرعون" وآله، محاولاً إقناعهم بصحة العقيدة التى جاءهم بها موسى، إلا أن هذا الموقف الأخير أكثر تفصيلاً من سابقه؛ إذ ظل الرجل المؤمن يتحدث إلى فرعون وقومه على مدى ثمانى عشرة آية أو ما يقرب من صفحتين من كتاب الله تعالى ومما جاء على لسان الرجل فى هذا الموقف المفصل قوله تعالى : ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ

يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ (٣٧) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤)﴾(١)

إن فهم سر التفصيل فى قول الرجل المؤمن يستدعى النظر فى بداية هذه الحلقة من قصة "موسى"، وهى تحكى مواقف متأخرة - نسبيا - عن صراع "موسى" مع "فرعون" وقد تنامى فيها الصراع بينهما بصورة تقطع كل طريق ممكن إلى التفاهم، بل إلى الحوار المنظم، الذى يُرجى منه الاقناع، وصارت لغة القتل أو التهديد به هى السائدة بين العدوين اللذين كانا بالأمس يتجاوران ويتجادلان فى شئ من الهدوء النسبى.

تشير بداية القصة إلى أن "موسى" أُرسل إلى "فرعون" "وهامان" "وقارون"، وأنهم تواطئوا جميعاً على رأى واحد، فقالوا: (ساحر كذاب)، ثم تواطئوا أيضاً على عقوبة مغلظة فيها إذلال وخزى لبنى "اسرائيل" فقالوا: اقتلوا(٢) أبناء الذين آمنوا معه واستبقوا نسائهم للخدمة والمهانة، وهذا دليل على أن بنى إسرائيل كانو ما زالوا أذلة مستعبدين للقبط، حتى بعد أن أرسل إليهم "موسى"، ثم يستخدم "فرعون" لغة جديدة عليه إذ يطلب

---

(١) غافر ، الآيات من ٢٨ : ٤٤.

(٢) هذا قتل غير القتل الأول؛ لأن "فرعون" كان قد أمسك عن قتل الولدان بعد ولادة "موسى"، فلما بعث "موسى" أدار القتل على بنى "إسرائيل" لئلا يكثر جمعهم، أنظر تفسير القرطبى جـ ٨ ، صـ ٥٧٤٩.

من قومه أن يخلوا بينه وبين "موسى" ليقتله (ذرونى أقتل موسى) وكأنهم هم الذين يمنعونه من ذلك، مع علمه ويقينه أنه ليس بأيديهم من الأمر شئ، وهذا مكر وخداع وتلاعب بالعقول، وأعجب من ذلك ما علل به هذا القتل، وهو خوفه من أن يبدل "موسى" دينهم، أو أن يشيع الفساد فى الأرض، أما "فرعون" فهو الحريص على صلاح الأرض، ومن أجل ذلك فهو يريد قتل موسى.

ولما وصل الصراع إلى هذا الحد الذى يهدد بفناء الدعوة إذا نفذ فرعون تهديده كان لابد من فتح باب جديد للحوار والجدل، وإذاكان موسى قد استفرغ جهده واستعمل ما لديه من أدوات الحوار الذى لم يجده فتيلاً مع هذا الطاغية فقد آن للقصة أن تسلك مسلكاً جديداً ،كى يتواصل الحوار، فكان دور هذا الرجل المؤمن الذى يعد مفاجأة قصصية مذهلة ولكنها غير مفتعلة؛ فلـ ثمة ما يمنع من وجوده محملاً بهذه الطاقات الإيمانية المتفجرة، ولعله هو نفسه الرجل الذى جاء من أقصى المدينة ليخبر "موسى" بمؤامرة "فرعون" وملائه ضده ليقتلوه بعد أن قتل واحداً من القبط (١) على نحو ما حكته سورة القصص فى قوله تعالى : ﴿ **وجاء رجل من أقصا المدينة يسعى قال** ..... ﴾(٢)

وعلى أية حال فإن القصة تمهيد لموقف الرجل، حين تصفه بأنه مؤمن وكأنها تطمئن القارئ أول وهلة بأن الرجل سينتصف، لموسى ويكون عونا له فى هذا الموقف الشديد، وأنه من آل فرعون ولذلك أعطى نفسه حق الكلام على هذا النحو، فهو يحس أن له منعة من القوم، لأنه ينتمى إلى ملكهم وينحدر من سلالته العريقة، فله حصانة خاصة، ثم تصفه القصة بأنه كان يكتم إيمانه عن فرعون، ولكنه رأى أن الإيمان يوجب عليه أن يكشف عن وجهه الحقيقى فى هذا الموقف الذى يكاد يعصف بالدعوة وصاحبها.

ثم يأخذ الرجل فى تفصيل حديثه، فيبدأ النصح بهذا التطلف الذى ينم عن صدقه وإخلاصه لقومه، وينكر عليهم ارتكابهم جريمة القتل الشنعاء دون سبب غير أن "موسى"

---

(١) القصص ، الآية ٢٠.

(٢) انظر : في ظلال القرآن، جـ : ٥ ، ص : ٥٨٦٢ .

نطق كلمة الحق فقال ربى الله، مع أنه لم يُحضر لتصحيح قوله ببينة واحدة ولكن أحضر البينات العديدة العظيمة التي شهدتموها من عند من نسب إليه الربوبية، وهو ربكم لا ربه وحده، وهو يريد أن يستدرجهم إلى الاعتراف به ليلين بذلك جماحهم ويكسر سورتهم(١). ثم يقلب لهم الكلام على وجه آخر، فيحتج عليهم بأن "موسى" لا يخلو من أن يكون كاذباً أو صادقاً، فإن كان كاذبا فإن كذبه يعود عليه وحده، ولا يتخطاه ضروره، وإن يك صادقاً يصبكم بعض ما يعدكم إن تعرضتم له بأذى، ويظهر حذق الرجل حيث بدأ بافتراض الكذب قبل الصدق؛ لأنه الأقرب إلى ما يتمنون من "موسى"، مع علمه هو بأنه صادق، فلا يضره التأخير مع هذا العلم، ثم قال : بعض الذى يعدكم لا كل الذى يعدكم، « ليظهر منصفا فى كلامه غير مشتط فى قوله ليسمعوا منه ولا يردوا عليه(٢)» ثم عقب على ذلك بأن الله لا يهدى المسرفين الكاذبين، فإن كان "موسى" منهم، فلن يهدى إلى الخير.

ثم يخرج لهم النصح على وجه آخر، فيطلب منهم الاعتبار بماهم عليه من علو وظهور فى الأرض، ويحذرهم أن يتعرضوا لبأس الله وعذابه؛ لأنه لا قبل لهم به، ولا يمنعهم منه أحد، وقال (ينصرنا وجاءنا) لأنه منهم فى القرابة، وبذلك يواصل توددده إليهم ومداراته لهم، ولكن "فرعون" يقطع على الرجل حديثه، فيتوجه إلى قومه بقوله :(ما أريكم إلا ما أرى) ما أشير عليكم برأى إلا بما أرى من قتله، فهو لا يستصوب إلا قتله، إلا رأيه هو.. أما الذى يقوله هذا الرجل فهو غير صواب، أما أنا فإنى ما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب والرشاد.. وهو يريد أن يظهر بمظهر الرجل المتماسك، الذى تواطأ لسانه وقلبه على ما يقول. وهو كاذب فى اللباس الذى يرتديه، فقد كان يفرق من موسى أشد الفرق، ولولا استشعاره الخوف الشديد لم يستشر أحداً، ولم يقف الأمر على مجرد الإشارة عليهم بالقتل !!

ثم ينعطف الرجل المؤمن بهم نحو التاريخ، ويقلب لهم بعض صفحاته التى يعرفونها، فيحذرهم يوماً مثل أيام قوم "نوح" "وعاد" "وثمود" والذين من بعدهم، الذين كان تدميرهم عدلاً وقسطاً من الله – تعالى – لأنهم استوجبوه بأعمالهم.

---

(١) انظر الكشاف : جـ ٤ ، صـ ١٦٢ .

(٢) الكشاف : جـ ٤ ، صـ ١٦٣ .

ويقفز بهم إلى مشهد من مشاهد القيامة إذا لم يكن فى أحداث التاريخ لهم عبرة فيحذرهم هذا اليوم: يوم التناد يوم يهرب بعضهم من بعض، وينادى بعضهم بعضاً ويموج بعضهم فى بعض دون أن يكون لهم عاصم من الله سبحانه.

ومن مشهد القيامة إلى تقليب صفحات التاريخ مرة أخرى، تاريخ أجدادهم هم مع نبى من أنبيائهم بل أول أنبيائهم يوسف الصديق – عليه السلام – فيوبخهم على موقفهم منه إذ جاءهم بالمعجزات فشكوا فيها، ومازالوا شاكين كافرين، فلما قبض "يوسف" قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً، وأسستم أنتم على هذا الحكم الفاسد حكماً عاماً يقضى بأن تكذبوا كل رسول، وتجحدوا آياته، ولكن "فرعون" – مع ذلك – لا يذعن لمنطق الحق، وهكذا يضل الله كل مسرف كذاب ممن يجادلون فى آيات الله بغير حجة ولا برهان.

ويلاحظ أن "فرعون" حين يقطع حديث الرجل المؤمن لا يتوجه إليه بالخطاب، ولكن يتوجه إلى قومه فى المرة الأولى : ﴿ **قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى** ﴾ ويتوجه هذه المرة إلى "هامان" وزيره المخلص ﴿ **وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات والأرض فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا** ﴾ وهى التفاتة لها مغزاها، فالانصراف عن صاحب الدعوة أكبر دليل على فشله فى عرض دعواه، وبذلك يفت "فرعون" فى عضده، ويخذله أمام القوم، ويؤثر فى معنوياته، ويطفئ ثورة الحماس التى فى نفسه بعد أن كشف عن إيمانه العميق بموسى، وأظهر ألواناً من الحماس فى الدفاع عنه وعن دعوته، ثم إن "فرعون" لا يقارع الرجل حجة بحجة ولا يبادله منطقا بمنطق، بل يخرج أمره إلى "هامان" على وجه السخرية "بموسى"، وبإلهه الذى يعبده ولكن الرجل المؤمن يواصل وصاياه، فيأمر القوم باتباعه حتى يهديهم سبيل الحق والرشاد، ويبين لهم حقارة الدنيا ويفصل لهم القول، ويواصل الحديث الممتد إلى أن يصل إلى هذه الكلمة الجامعة ﴿ **فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد** ﴾ .

إن هذا التفصيل قد دعا إليه سياق القصة من جهة، ودعا إليه بناؤها الفنى من جهة أخرى، أما البناء الفنى فقد أشرت إليه من قبل، وأن ظهور هذا الرجل المؤمن يعد

مفاجأة قصصية، وقد ظهر في الوقت المناسب تماماً، وهو الوقت الذى انقطعت فيه كل سبل التواصل بين "موسى" "وفرعون" وانقطع ما بينهما من حوار وجدل، ولا بد للقصة أن تستمر، ولا بد للدعوة أن تبلغ مداها المقدر لها فى علم الله، فكان هذا الرجل يشكل استمرارية القصة، واستمرارية الدعوة فى آن واحد، وإذا كان له هذا الدور المؤثر فى القصة والدعوةمعاً، فلا بد أن يكون حديثه مهماً أهمية الدور المنوط به فى القصة، ولن يكتسب دوره هذه الأهمية فى القصة إلا إذا خرج كلامه على هذا النحو المفصل الذى يلم بالموقف من كل نواحيه وزواياه، فالماضى ركيزة من الركائز والحاضر – أيضاً– والمستقبل كذلك. المستقبل البعيد الذى يتجاهله هؤلاء القوم، أعنى : يوم القيامة، ولذلك انتهت القصة بهذه اللفتة الموحية التى تحدد المستقبل البعيد لفرعون وقومه : ﴿ **ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب** ﴾(١).

أما سياق القصة فيقتضى التفصيل أيضا، واكتفى من هذا السياق بهذه الآية الكريمة التى جاءت فى التعقيب على القصة وهى قوله تعالى: ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهد** ﴾(٢). فظهور الرجل فى هذه الحلقة من القصة يعد مظهراً من مظاهر نصر الله لرسله فى الحياة الدنيا، حيث إن القوة المناوئة لموسى محشودة بكل أعلامها " فرعون وهامان وقارون" ظهور الرجل المؤمن فى جانب موسى أعطى للموقف نوعاً من التعادلية، التى تسعى إلى بقاء الكفتين فى مستوى واحد إن لم ترجح كفة "موسى"، وتهبط كفة عدوه، وقد كان، فالقصة أشارت إلى رأى "فرعون" بقتل "موسى" مرتين دون أن تشير إلى أثر هذا الرأى فى نفوس قومه، مما يعطى انطباعاً بأن رأيه لم يجد آذاناً صاغية لدى حاشيته؛ لأنهم انصرفوا إلى حديث الرجل المؤمن الذى ألهب أسماعهم بنصائحه التى احتلت مساحة كبيرة من القصة، ولم يقاطعوه بل تركوه يواصل حديثه حتى أتى على ما فى نفسه بأسلوب يدل على أنه كان داعية موهوباً على قدر كبير من العلم والثقافة والإيمان.

---

(١) غافر – آيه : ٤٦ .

(٢) غافر – آيه : ٥١ .

هذا مظهر من مظاهر الإطناب فى القصة. قصة "موسى" – عليه السلام –؛ وهى حافلة بكثير من هذه المظاهر فى شطريها الأساسيين، الشطر الأول: الخاص بالجدل والتدافع بينه وبين "فرعون"، والشطر الثانى: الخاص بالمناوشات التى دارت بينه وبين بنى إسرائيل بعد أن نجاهم الله من كيد فرعون ،وفى هذا الشطر تظهر القصة بنى إسرائيل بمظهر القوم المتعنتين المتألبين على رسولهم دائماً عن طريق الحكاية المفصلة لكثير من المواقف التى دارت بينهم وبين "موسى"، – عليه السلام – وبين أنبيائهم عموماً ومن هذه المواقف: قصة البقرة التى أمرهم "موسى" بذبحها فى "سورةالبقرة" ، وقصة الملأ مع نبى لهم إذ طلبوا منه أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون تحت إمرته، وقصة عبادتهم للعجل، هذه وغيرها مواقف قصها القرآن عن : "بنى إسرائيل" بشئ من التفصيل ليبين لجاجهم وعنتهم ومعاندتهم، وسيتناول البحث هذه المواقف فى فصول أخرى قادمة – إن شاء الله – (تعالى) –.

البـــــاب الثانـــــــــــى

البناء الفنى للقصة القرآنية

المبحث الأول

المشاهد والمواقف والأحداث

المبحث الثانى

الشخوص والنماذج البشرية

المبحث الثالث

الحوار والسرد

المبحث الأول

المشاهد والمواقف والأحداث

المشاهد:جمع مشهد، وتفيد المادة فى المعاجم اللغوية[١] :النظر والمعاينة والاجتماع والحضور، فالمشهد: المجمع من الناس والمحضر من الناس، والمشاهد : المواطن التى يجتمعون بها.

وفى القرآن الكريم : ﴿ ... فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) ﴾[٢] أى: «من شهودهم هول الحساب والجزاء فى يوم القيامة، أو من مكان الشهود فيه وهو الموقف»[٣] أو من « حضورهم المشهد العظيم الذى اجتمعوا فيه للتشاور، فأجمعوا على الكفر بالله»[٤].

فالمادة ترتبط بالنظر والحضور والمعاينة، ولذلك يمكن الاصطلاح على أن المراد بالمشهد: «المنظر الذى يمكن شهوده وحضوره والاطلاع عليه وبصره ومعاينته»[٥].

والمشهد فى الدراما اليونانية القديمة. يجئ على شكل مقطوعات من الحوار التمثيلى الذى يدور بين الشخصيات، ليكشف للمشاهد عن أبعاد كل شخصية، وعن الصراع الدائر بينها، وعلى هذا يمكن أن يعد المشهد التمثيلى بمثابة فصل من فصول المسرحية الحديثة، وقسم الفصل بعد ذلك إلى ما يسمى بالمناظر والمشاهد. وأساس هذا التقسيم يجرى – عادة – على أساس بدء وانتهاء مرحلة محددة فى القصة العامة التى تقوم عليها المسرحية، أى على حدث مرحلى فيها[٦].

والموقف اصطلاح فنى يطلق فى عالم الفن القصصى وله مدلولان :

المدلول الأول : يطلقه بعض النقاد على المرحلة الأولى من الحدث؛ فكثير من النقاد يشترطون فى الحدث: أن يكون مكوناً من بداية ووسط ونهاية، والبداية أو الموقف هى المرحلة الأولى التى يتعرف فيها القارئ على الحدث وعلى الشخصيات وعلى

---

(١) انظر مثلا من المعاجم:لسان العرب والمصباح المنير : مادة شهد.

(٢) سورة مريم : من الآية ٣٧.

(٣) الكشاف للزمخشرى جـ ٣، صـ ١٧.

(٤) تفسير القرطبى : جـ ٦ ، صـ ٤١٤٧.

(٥) المشاهد فى القرآن الكريم. د: حامد صادق قنيبى ، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، الطبعة الأولى ١٩٨٤ م، صـ ٧

(٦) انظر : دراسة فى نظرية الدراما الإغريقية، د. محمد حمدى إبراهيم، ط دار الثقافة للطباعة والنشر، صـ ٧ ، والأدب وفنونه د. محمد مندور : ط دار نهضة مصر، ١٩٨٠م صـ ١٠٨ ، ١٠٩.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) ﴾(١).

هذا موقف وإن لم يكن موقفاً قصصياً فإنه يكاد يكون قصة كاملة بعناصرها الأساسية، وخاصة بعقدتها وما فيها من عواطف بشرية، ويبدأ هذا الموقف بمشهد تتقرر فيه القدرة المهيمنة على الحركة والسكون براً وبحراً : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾، أى يحفظكم ويكلؤكم بحراسته. ومشهد ثان يصور الفلك تتحرك رخاء، بسبب ريح طيبة مواتية لهم فى سيرهم فيفرح أهل الفلك لما يتمتعون به من الأمن والسلام ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا ﴾. ومشهد ثالث تقع فيه المفاجأة لأهل الفلك فيتبدل رجاؤهم الآمن ذعراً، وسرورهم الشامل غماً واضطراباً، ويسيطر الهول عليهم: ﴿ جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ ﴾ فتضطرب الفلك بمن فيها، ويضربها الموج، ويدور بها كالريشة الضائعة فى الخضم وهؤلاء أهلها فى فزع يظنون أنهم لابد هالكون: ﴿ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾. وتكملة لهذا المشهد يرى القارئ أهل الفلك وقد تعرت فطرتهم مما ألم بها، ونفضت قلوبهم ماران عليها من تصورات، ونبضت فطرتهم السليمة بالتوحيد والدينونة لله وحده: ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ .

وبسبب تغير ملامح المشهد – رغم ثبات عناصره ومواده – يلحظ القارئ التغير الجذرى فى عواطف شخصيات أهل الفلك، ويلحظ التغير – أيضاً فى سلوكهم وهيئاتهم؛ فكأنهم يتجهون بقلوبهم قبل أيديهم إلى السماء لحظة التضرع بالدعاء.

ومع المشهد الرابع يحدث تغير آخر فى ملامح المشهد؛ إذ تهدأ العاصفة ويطمئن الموج، وتستقر السفينة كما كانت بل تصل آمنة إلى الشاطئ، ويحدث تغير – أيضا – فى عواطف الشخصيات، فتهدأ الأنفاس وتسكن القلوب، وتستقر الأرجل على اليابسة، فيوقنون بالحياة: ﴿ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾.

---

(١) سورة يونس ، الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ .

إن هذا الموقف بمشاهده المتعددة لهو خير دليل على طريقة القرآن الكريم فى إخراج المعانى الذهنية على هيئة صورة حافلة بالحركة المتجددة والمشاهد المتتابعة.(١)

وفى هذا الموقف قوتان متصارعتان : إحداهما : قوة مسيطرة غالبة قاهرة وتتمثل فى عناصر الطبيعة؛ من الريح العاصف والموج العاتى. والثانية: قوة مستسلمة مقهورة لا تملك من عناصر المقاومة شيئاً ذا بال، وتتمثل فى أهل الفلك، الذين لم يستطيعوا إلا أن يرفعوا أكف الضراعة إلى الله لينجيهم من القوة الأخرى المقابلة؛ فالصراع فى هذا الموقف غير متكافئ، وبالرغم من ذلك انتهى لصالح القوة المقهورة المستسلمة، وذلك نتيجة لتدخل القوة الإلهية لصالحها(٢).

ومن المشاهد القرآنية التى اجتمعت فيه عناصر المشهد القصصى ولكنها لا تحتوى عناصر الموقف ما حكاه القرآن من هيئة أهل الكهف حين أووا إلى كهفهم واستغرقوا فى نومهم الطويل : ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨) ﴾(٣) .

وتصور الآيتان مشهد أهل الكهف تصويراً عجيبا، لا يستطيع الشريط السينمائى أن يصوره إلا بصعوبة بالغة؛ فالفتية فى فجوة من الكهف، والشمس تخرج لهم من المشرق يميناً، وتميل على الكهف كأنها متعمدة، ولفظة «تزاور» تصور مدلوها

(١) انظر : التصوير الفنى فى القرآن الكريم صـ ٤٨ .

و: فى ظلال القرآن الكريم جـ ٣ صـ ١٧٧٤ ، ١٧٧٥.

و: المشاهد فى القرآن الكريم صـ ٨٨ : ٩٠ .

و: تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٢ صـ ٤١٢.

و: أوضح التفاسير: محمد على الصابونى ، ط دار الرشيد سورية جـ ٥ صـ ٥٨٠ .

(٢) ليس لهذا الكلام أدنى علاقة بما كان يعرف بـ « الحل الآلى » الذى كان يحدث فى المسرحيات اليونانية تحت مصطلح « الإله القادم عن طريق الآلة » لحل العقدة حين يفلت زمام الأحداث من يدى المؤلف انظر : دراسة فى نظرية الدراما الإغريقية ص : ٩٠ ، ٩١ .

(٣) سورة الكهف : الآيتان : ١٧ ، ١٨.

وتلقى ظل الإرادة فى عملها، ثم تنحرف الشمس عنهم - إذا غربت - جهة الشمال، فالشمس والهواء يحيطان بهم، وذلك أصلح مكان؛ فأسباب الحياة الطيبة مهيأة لهم، وهم رقود، وإن كان الرائى يحسبهم أيقاظاً،والوصف القصصى للمشهد يصور المكان كأن القارئ للقرآن يراه.

ولا يترك القرآن من المكان والهيئة شيئاً إلا بينه وصوره، فهم يقلبون من جنب إلى آخر فى نومتهم الطويلة، فيحسبهم الرائى أيقاظاً وهم رقود، وكلبهم باسط ذراعيه بالفناء قريبا من باب الكهف كأنه يحرسهم.

وحتى الظلال والمشاعر النفسية - لمن يرى هذا المشهد-يصورها القرآن الكريم؛ ففى المكان رهبة وفى حالهم هيبة، بل إن هيئتهم تثير الرعب والفزع فى قلب من يراها حتى إنه لايستطيع أن يستقر فى المكان(١).

هذا التصوير القرآنى المعجز يصور مشهداً تشترك فيه شخصيات إنسانية وحيوانية، كما تبدو فيه بعض عناصر الطبيعة « الشمس »، ولا تنقصه الحركة، وإن كانت بطيئة متثاقلة؛ فحركة الشمس فى طلوعها وغروبها لاتكاد تلحظ إلا على مُدَدٍ متباعدة، وتقلبهم يميناً وشمالاً كان قليلاً - أيضا - كما يحكى المفسرون(٢).

وليس فى هذا المشهد حوار، وليس فيه صراع كذلك، ولذا لا يعد موقفاً قصصياً رغم أنه مشهد زاخر بكثير من ألوان التصوير والتناسق.

«والتصوير هو الأداة المفضلة فى أسلوب القرآن؛ فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهنى المجرد، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور ... فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر، فيردها الأسلوب القرآنى شاخصة حاضرة، فيها ا لحياة وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل، فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نُظَّارة»وحتى ينقلهم إلى مسرح الحوادث الأول الذى وقعت فيه حيث تتوالى المناظر، وتتجدد الحركات»(٣) كل ذلك يخيل للقارئ أنه

---

(١) انظر: المعجزة الكبرى القرآن، الإمام محمد أبو زهرة صـ ١٩٦.

و:فى ظلال القرآن جـ ٤ صـ ٢٢٦٣.

(٢) انظر : تفسير القرطبى جـ ٦ صـ ٣٩٨٧.

و : الكشاف جـ ٢ صـ ٧٠٩.

(٣) التصوير الفنى فى القرآن، صـ ٣٦، ٣٧ .

يرى الحياة وليس يسمع حكاية الحياة.

والأداة المستعملة فى هذا التصوير والتشخيص إنما هى الكلمات الجامدة لا الألوان المصورة ولا الشخوص المعبرة، وبذلك يظهر بعض أسرار الإعجاز فى هذا اللون من تعبير القرآن(١).

والتصوير القرآنى بالغ مدى إعجازه – وإن كان القرآن كله معجزاً – حين يشخص حادثاً مروياً، أو يرسم مشهدا قصصياً، فيحيط به من كل جوانبه، ويستقصى فى توضيح المشهد، فيضع الهيئة الجسمية بإزاء الخلجة الشعورية، ويوازى بين الحدث الجزئى والكلمة من الحوار أو الوصف.

ولأهمية التصوير فى إبراز المعنى وتصوير الحدث قد تبنى بعض الحلقات من القصص القرآنى على مجموعة من المشاهد المتتابعة، يغلب عليها الحوار، ويقل السرد والوصف إلى أقصى درجة ممكنة؛ ممايجعل هذا القصص قريبا من أسلوب المسرحيات ومن أمثلة ذلك قصة «إبراهيم» فى سورة الأنبياء وقصة «سليمان» وملكة سبأ وقصة «موسى» فى سورة الشعراء.

وهذه القصة الأخيرة يمكن تقسيمها إلى سبعة مشاهد، يطول بعضها ويقصر بعضها الآخر حسبما يقتضيه الحوار، وما تستدعيه الأحداث، وهذه المشاهد يعتمد معظمها على الحوار اعتماداً كلياً فى تصوير الحدث، وقليل منها يختلط فيه الحوار بالوصف، وللحوار فيها أثر بعيد فى إحياء المشاهد، وفى تمكينها من التأثير بالكلمة تأثيراً لا يبلغه التأثير بالصورة أو الحركة، فالحوار حقق فى المشاهد سمة الحضور حتى إن القارئ كأنه يرى ويسمع، يرى أشخاصاً يتحاورون، فتخرج الكلمة من فم صاحبها محملة بنبضه وأحاسيسه ومشاعره، أو كأنها تحمل قسمات وجهه وما انطبع عليه من آثار.

فلأسجل هذه المشاهد واحداً واحداً ليرى القارئ أطراف الحوار، ويرى هيئاتهم وربما التفات أحدهم أحياناً، وذلك من خلال الكلمات المحملة بالعواطف والانفعالات أيضاً.

يقول تعالى ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ

(١) انظر: التصوير الفنى فى القرآن : صـ ٣٦ : ٣٧ .

أَلا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) ﴾(١).

هذا هو المشهد الأول من مشاهد القصة، مشهد تكليف "موسى" – عليه السلام – بالرسالة، و يبدأ بوصف سريع خاطف:﴿ القوم الظالمين قوم فرعون ﴾ ولكن هذا الوصف يحمل سمة الحوار أيضاً، ﴿ وإذ نادى ﴾ فالنداء وضع موضع القول، فهو يحمل معناه، وبذلك تضع القصة – بأسلوبها – القارئ في قلب الأحداث مباشرة ودون تمهيد، وقد جاء هذا الوصف السريع معبراً، لأنه كشف عن إحدى القوتين كشفاً واضحاً، فهم قوم ظالمون،ظالمون حين كفروا، وظالمون حين أذلوا بني إسرائيل.

وجاءت جملة الحوار الأولى على لسان « موسى » متساوقة تماماً مع إيحاءات هذا الوصف؛ فعبر عن خوفه أن يكذبه هؤلاء الظالمون، وأن يضيق صدره ويحتبس لسانه فلا يستطيع الكلام بسبب تكذيبهم. ورتب على هذه المخاوف الثلاثة(٢) طلب إرسال الله إلى أخيه "هارون". ثم يكرر "موسى" ذكر الخوف مرة ثانية، وهو خوف معلل بما فعله هو نفسه قديماً مع واحد من شيعة فرعون يوم وكزه موسى فقضى عليه، فهو يخاف أن يقتله فرعون قَوَداً بهذا الرجل.

ويسمو الحوار القرآني إلى ذروة الإعجاز ﴿ قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا . . . ﴾ كلا هذه

---

(١) سورة الشعراء : من الآية ١٠ : ١٧ .

(٢) يرى الأستاذ سيد قطب:أن خوفه – عليه السلام – ليس من مجرد التكذيب، ولكن من حصوله في وقت يضيق فيه صدره ولا ينطلق لسانه فلا يملك أن يبين ، وأن يناقش هذا التكذيب ويفنده.

ويرى الزمخشري مثل هذا الرأي : ويرجح أن يكون التكذيب من القوم سبب ضيق الصدر، وضيق الصدر سبب حبس اللسان. ويرى القرطبي : هذا الرأي الأخير فقط.

انظر : في ظلال القرآن جـ ٥ صـ ٢٥٨٩.

و : الكشاف : جـ ٣ صـ ٣٠٢ .

و : تفسير القرطبي جـ ٧ صـ ٤٨٠٨ .

اللفظة التي تستعمل أساساً في الردع، تستعمل هنا في الطمأنينة وبث الهدوء والسكينة في نفس «موسى»، كلا لن يحدث شئ واحد مما تخافه، فلن يضيق صدرك، ولن يحتبس لسانك، ولن يقتلوك قوداً. وقد بقي طلب «موسى» في الإرسال إلى "هارون"، فكيف أجاب عنه الأسلوب القرآني؟ إنه لم يزد على أن وجه الكلام إلى "موسى" "وهارون" معاً ﴿ اذهبا ﴾ ليفيد القارئ أن طلب "موسى" قد حظي بالقبول، وفيه لفتة أخرى معجبة وهي أن الأمر بضمير المثنى فيه طمأنة لموسى إلى أن أخاه «هارون» مازال حيا بمصر، وكان «موسى» حين تلقى هذا الأمر الإلهي بطور سيناء، ويمكن أن يوحي التعبير بضمير التثنية بتغير المشهد، بمعنى انتهاء مشهد المناجاة الذي كان في سيناء، وبدأ مشهد جديد في مصر، أحد طرفيه موسى وهارون معاً، وفي ذلك عجيبة أخرى؛ إذ كيف انتهى المشهد الأول وابتداء المشهد الثاني هكذا دون تدخل أو تنبيه من السياق إلا هذا الضمير الذي زاد في الكلمة !!! وكيف طوى ما بين المشهدين من أحداث استغرقت زمناً ليس بالقليل(١)؟!

ثم يأتي التعبير ﴿ بآياتنا ﴾ ليمثل السلاح المادي لموسى بعد أن اطمأن إلى مصيره ومصير أخيه، وقد عاين «موسى »من هذه الآيات العصا واليد البيضاء، ولكن السياق يختصرهما هنا اكتفاءً بهذه المعاينة، واعتماداً على تفصيلهما، في مواضع أخرى من القصة، ولكي يدلف القارئ إلى مشهد الحوار الجدلي على بعد كلمات منه.

طلب موسى الحماية فطمأنه الله إلى أنه معه يصحبه صحبة نصر وتأييد ﴿ ...إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ فهو يرسمها في صورة الاستماع الذي هو أشد درجات الحضور والانتباه وهذا كناية عن دقة الرعاية وحضور المعونة، وذلك على طريقة القرآن في التصوير(٢).

وهناك تناسق لفظي دقيق بين قوله تعالى على لسان «موسى» ﴿ إني أخاف أن يكذبون ﴾ وقول الله تعالى ﴿ إنا معكم مستمعون ﴾؛ فالتكذيب يكون بالألفاظ والكلمات

---

(١) انظر : بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم،ص ١٤٠ ومابعدها .

(٢) انظر: في ظلال القرآن جـ ٥ صـ ٢٥٩٠.

وآلة إدراكها الأذن السامعة، ومن هنا ناسب ذلك التعبير بقوله تعالى ﴿ **مستمعون** ﴾ أى أسمع كلامهم الذى يحمل تكذيبهم دعوتك.

وبقدر تناسق هذا التعبير مع كلمات «موسى» بقدر ما يوحى أنه مقبل على جدل وحوار تتراشق فيه الكلمات كما يتراشق المحاربون بالنبال.

ويتكرر الأمر بالذهاب، بل بالإتيان؛ إذ فيه معنى القدوم والدخول على فرعون، وقد قدم الرسولان بكلمة واضحة لا لبس فيها وأمرا بقولها ﴿ **فقولا إنا رسول رب العالمين** ﴾ . ومن الواضح أنهما اثنان أرسلا برسالة واحدة فهما رسول واحد لأن غايتهما واحدة، وكانت مهمتهما تتلخص فى استنقاذ بنى اسرائيل من براثن فرعون، وإطلاقهم من قبضته.

وإلى هنا ينتهى مشهد الرسالة والوحى والتكليف ليبدأ مشهد جديد، مشهد المواجهة بين «موسى وهارون» من جهة وبين «فرعون» وملأه، من جهة ثانية وقد طوى الأسلوب القرآنى بين المشهدين كثيراً من الأحداث والمواقف؛ إذ كيف سار موسى من سيناء إلى مصر، وكيف التقى ببنى إسرائيل الذين جاء لانقاذهم، وكيف التقى بأخيه هارون، وكيف جد عزمهما على الذهاب إلى فرعون، ثم كيف كانت بداية اللقاء بينهما وبين «فرعون» كل ذلك طوته القصة لأنها تفصيلات يمكن تصورها دون إخلال ببناء القصة، ويفاجأ القارئ بأنه انتقل من مشهد المناجاة فى طور سيناء إلى مجلس فرعون فى مصر وهو يلقى «موسى» بهذا الجواب الذى يبدأ به المشهد الثانى(١).

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ

---

(١) انظر : الكشاف جـ ٣ صـ ٣٠٥

و : تفسير القرآن العظيم جـ ٣ صـ ٣٣٢.

و : فى ظلال القرآن جـ ٥ صـ ٢٥٩٠

و : القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه صـ ١٣٢

و منهج القصة فى القرآن : صـ ٤٤ ، ٤٥ .

عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) ﴾(١).

إن الفجوة بين هذا المشهد والذى قبله ليس المقصود بها طى الأحداث المعلومة للقارئ فحسب، ولكن لها أثراً عظيماً فى نفس المتلقى حين يفاجأ بهذه النقلة المكانية الزمانية التى حدثت، والتى ترتب عليها هذا الحضور الفورى المفاجئ الذى نقله من موقف إلى موقف فى لمحة خاطفة، فطوى فيها أبعاد الزمان والمكان دون أن يفتقد المرء الإحساس بهما، وإن هذا الحضور الناشئ من الفجوة بين المشهدين ليدلف بالقارئ - دون أن يشعر - إلى مسرح الحوادث، وإذا هو يرى ويسمع كل ما وقع وما قيل فى هذا الموقف، وكأنه واحد ممن حضروه أو شاركوا فيه(٢).

وللقارئ أن يلحظ الفرق بين أول الحوار وآخره فى هذا المشهد، فالبداية تشبه التحرش والمناوشة، وفى الكلمات ما يشبه التثاقل والبطء ، وفى الأسلوب طول وامتداد من طرفى الحوار.

ففرعون يقول : ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) ﴾.

---

(١) سورة الشعراء : الآيات ١٨ : ٣٧ .

(٢) انظر : القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه : ١٣٢.

وموسى يرد عليه : ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) ﴾.

انتهى المشهد الأول بطلب «موسى» أن يرسل «فرعون» معه بنى إسرائيل، ولكن «فرعون» يمسك عن الرد على هذا الطلب الواضح، ويحول دفة الحوار إلى قضية أخرى تلك هى قضية تربية «موسى» فى قصره حين كان وليداً، ونشأته فى سنواته الأولى بين يدى «فرعون» ويعرّض بموسى، بأنه لم يحدثه عن رب العالمين – الذى يتحدث عنه اليوم – فى سنوات عمره الأولى، وبأنه لم يحفظ جميل «فرعون» عليه حين رباه ونشأه فى بيته، بل أنكر هذا الجميل حين فعل فعلته الشنيعة التى لا يناسبها الكلمات المكشوفة، فقتل واحداً من شيعته، وكأنه يقول لموسى : أفعلت هذه الفعلة الشنيعة وأنت كافر برب العالمين الذى تدعونا إليه اليوم؟

لقد حسب «فرعون» أنه جابه «موسى» بكل ما من شأنه أن يسكته ويرده عن دعوته، وخاصة حكاية قتل القبطى، التى يمكن أن يقتل «موسى» قصاصاً فيها، فتهديده كان من وراء الكلمات.

ولكن «موسى» يفند دعاوى «فرعون» ويرد اتهاماته واحداً بعد الآخر فى تناسق لفظى يبلغ بأسلوب الحوار القصصى إلى ذروة الإعجاز، فالذى يتأمل ردود «موسى» يجد أنه رد على القضايا الثلاث التى أثارها «فرعون»، ولكنه رد القضية الثالثة أولا، وثنّى بالرد على أوسطها وأخر الرد على الأولى[1] ، وبيان ذلك :

إن قول موسى ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) ﴾. تقع بإزاء قول فرعون ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ... ﴾. كأنه يريد أن يقول : ما كانت تربيتى فى بيتك وليداً إلا من جراء استعبادك لبنى إسرائيل وقتلك أبناءهم« مما اضطر أمى أن تلقينى فى التابوت، فتقذف بالتابوت فى الماء، فتلتقطونى، فأربى فى بيتك لا فى بيت أبوىّ، فهل هذا هو ما تمنه علىّ ؟! وهل هذا فضلك العظيم»؟[2] .

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ٥ صـ ٢٥٩١ ما يوحى بهذا المعنى وإن لم يكن مصرحاً به.

(٢) فرعون فى القرآن ، أبو الأعلى المودودى ، ط المختار الإسلامى للطبع والنشر ص ٩٩.

ويقع قول موسى : (فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين) بإزاء قول فرعون : (ولبثت فينا من عمرك سنين) فكلام فرعون – كما قلت – فيه تعريض بموسى، وأنه لم يتحدث فى سنوات نشأته الأولى عن رب العالمين، فرد موسى بأنه لم يكن أوتى الرسالة حتى يحدثهم عنها ويبلغهم بها . وينهض التعبير القرآنى بأداء المعنى أحسن مايكون ، فموسى يقول (وجعلنى من المرسلين) ولم يقل : مرسلا، لأنه ليس بدعاً من الرسل، وإنما هو واحد منهم، وقد أرسلوا جميعاً بعد سن الشباب، ويقع قول (موسى) : (فعلتها إذا وأنا من الضالين) فى مقابلة قول «فرعون» : (وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين) يريد «فرعون» أن يلصق به تهمة الكفر بهذا الإله الذى يدعو إليه اليوم، فرد «موسى» هذه التهمة بأنه حين قتل القبطى لم يكن كافراً، وإنما فعلها عن جهل وغفلة .

وبعد هذا الحوار الطويل نسبياً، يشتد الصراع ، فتجئ الكلمات قوية متقطعة، وتخرج من أفواه المتحاورين كأنها السهام .

ففرعون يسأل عن صميم دعوة «موسى»:(قال فرعون ومارب العالمين) فيجيب "موسى" بالصفة المشتملة على ربوبيته للكون كله(قال :رب السموات والأرض ومابينهما إن كنتم موقنين) إنه يريد أن يهدم أهم دعاوى فرعون التى ادعاها لنفسه، وهى دعوى الإلهية إذ قال : (أنا ربكم الأعلى)، "وموسى" يقول له : كلا إن الملك الذى تفخر به لايساوى ذرة فى ملكوت رب السموات والأرض .

فالتفت عن «موسى» وإن القارئ ليرى التفاتته عنه إلى من حوله من الملأ قائلا : (قال لمن حوله ألا تستمعون) .

هو يستغرب دعوة «موسى» ويريد أن يشرك معه الملأ فى الاستغراب، ولكن «موسى» فاجأه بقوله : (قال ربكم ورب أبائكم الأولين) .

وفى هذا مساس بفرعون نفسه ، فرب العالمين ربه هو نفسه، فهو ليس إلها كما يدعى ، وهو رب الآباء أيضا، فهم جميعاً، ومنهم فرعون عبيد له .

فالتفت «فرعون» إلى بنى إسرائيل يريد أن يحرضهم على رسولهم (قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) .

أراد فرعون أن يخرج بالحوار عن حد المعقول ، وأن ينسرب من الجد والاتزان إلى

الصياح واللغط حيث تختلط الأصوات، ويضيع صوت الحق، فعدل "موسى" بالحوار إلى طريق التحدى، وهنا تتطور الأحداث فى المشهد تطوراً مهما حتى تبلغ غايتها فى المواجهة، كما أراد لها «موسى» وقد أعد أسلحته، ولكنه لايلقى بها فجأة ودون مقدمات : (قال : رب المشرق والمغرب ومابينهما إن كنتم تعقلون) وفى ذلك نوع من التحدى لفرعون، فإن المشرق والمغرب والشروق والغروب منظران مألوفان فهل يستطيع فرعون أن يدعى تصريفهما على هذا النسق العجيب إذا كان لايستطيع ذلك فليعلم أن الذى يصرفهما إنما هو رب العالمين الذى جئت من عنده .

وهنا يضرب الانفعال فرعون فيريد أن ينهى الحوار ، ويهدد موسى بأن مصيره سيكون السجن إن ظل متمسكاً يدعواه . (قال لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين) .

ويمسك "موسى" بزمام الحوار، فإذا كنت يافرعون قد عجزت عن ادعاء شيء يثبت إلهيتك المزعومة وربوبيتك المدعاة فسأى أنا بشئ يثبت صدق دعوتى ورسالتى :

(قال أولو جئتك بشئ مبين)

(قال فأت به إن كنت من الصادقين) : إن كنت من الصادقين فى أنك رسول وأن عندك شيئا مبيناً .

(فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين) (ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين)

والتعبير هنا يدل على أن العصا تحولت إلى ثعبان تدب فيه الحياة، وأن يده حين نزعها كانت بيضاء فعلاً، يدل على هذا بقوله (فإذا هى)" فلم يكن الأمر تخييلا كما هى الحال فى السحر الذى لايغير طبائع الأشياء ، إنما يخيل للحواس يغير الحقيقة"(١) .

أحس فرعون ضخامة هذه المعجزة فأراد أن يغطى على وقعتها المزلزل فى نفسه وفى نفوس القوم فحاول أن يغريهم بموسى .

(قال للملاء حوله إن هذا لساحر عليم، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحر فماذا تأمرون) فماذا تأمرون به؟ . لأول مرة على امتداد هذا الحوار يريد فرعون أن يشاور الملأ، بل ذهب إلى ما هو أبعد من المشاورة، إنه يوحى إليهم أنهم أصحاب الأمر، وبماذا

---

(١) فى ظلال القرآن جـ٥ صـ٢٥٩٣ .

يأمرون بعد أن لقنهم التهمة التى ألصقها بموسى (إن هذا لساحر عليم)؟ وبماذا يأمرون؟! بعد أن زور فى المهمة التى جاء بها هذا النبى، لاشك أنهم سيرون رأيه وينزلون عليه .

إن هذا الاستفهام يوحى بل يصور الظلال النفسية الكئيبة لدى فرعون، لقد أراد أن يبدو هادئاً مستقراً ولكن التعبير فضحه وعراه، فضحه حين كشف عن الذعر الذى بداخله، وعراه من الهدوء الذى ادعاه، فمتى كان أمثال فرعون يتلقون الأوامر من رعيتهم وهم له يسجدون ؟! .

ويبدو أن حيلته انطلت على قومه لسذاجتهم التى قد تكون متعمدة فاستجابوا لظاهر كلامه وتبرعوا بإسداء النصح .

(قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين . يأتوك بكل سحار عليم) .

لقد بدأ المشهد بطيئا متثاقلا وكان فى أسلوبه طول وامتداد ، فلما جاشت النفوس بالانفعالات، وحمى الصراع صارت الحركة سريعة متلاحقة، و فى هذا تصوير صادق للانفعالات المتولدة فى الحوار، ولذا خرجت الكلمات كأنها السهام تنطلق من أقواسها بلا توقف أو انحراف(١) .

إنتهى المشهد الثانى بنصيحة الملأ أن يرجئ فرعون المواجهة مع "موسى" حتى يجمع كل سحار عليم، ويأتى المشهد الثالث ليبين عملية جمع السحرة .

﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) ﴾ (٢) .

بيد أن عملية الجمع لم تكن للسحرة فقط وإنما حدث مايشبه التعبئة العامة فالسحرة (جمعوا) بهذا اللفظ الموحى، وكأنهم أشياء فاقدة الحس والإدراك والشعور بل فاقدة العقل نفسه، والجماهير أيضا اجتمعوا بفعل التحميس والإهاجة التى تعرضوا لها، اجتمعوا ليترقبوا فوز السحرة وغلبتهم على موسى .

ويلى هذا المشهد مشهد قصير آخر يظهر فيه فرعون كأنه القائد الذى اجتمع

---

(١) انظر : القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه صـ ٤٣١ .

(٢) سورة الشعراء الآيات ٣٨ : ٤٠

بجنوده لإلهاب حماسهم قبل أن يدخلوا المعركة ، فهم يطلبون منه الأجر، إن كانت لهم الغلبة، فيوافق على ذلك ، ويمنيهم بما هو أكثر من الأجر، يعدهم بتقريبهم إليه والدخول فى حاشيته .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ (١) .

ونلحظ أن المشهدين السابقين قد خصصا لمعسكر فرعون دون أن ترد كلمة واحدة عن موسى وأخيه، وهذا يعطى انطباعاً بأن فرعون وملأه قد أخذوا الأمر مأخذ الجد البالغ ، وأنهم حشدوا كل مايستطيعون من قوة، حتى إذا وقعت الهزيمة بهم فى المشهد الثانى وقع انقلاب مفاجئ للقارئ يوازى الانقلاب الذى حدث للسحرة ، وهب أن القارئ يقرأ القصة للمرة الأولى فلابد أن يقع له هذا الانقلاب ، وحتى إذا كان يقرؤها وهو يعرف أحداثها وتفصيلاتها فهو – لاشك – سيقف أمام هذا التحول الذى وقع فى الأحداث بعد أن عرف قوة المعسكر الذى حاقت به الهزيمة .

ثم يأتى المشهد الخامس، مشهد المباراة الكبرى بما فيها من أحداث وتحولات خطيرة .

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) ﴾ (٢) .

ينتهى المشهد الرابع فى مكان مابعيداً عن عين "موسى" ويبدأ هذا المشهد الخامس فى مكان آخر . وإذ بالأسلوب يعبر عن هذا التغير المكانى، ويعبر عن دخول "موسى"

---

(١) سورة الشعراء ٤١ : ٤٢

(٢) الشعراء ٤٣ : ٥١

فى قلب المشهد الجديد، يعبر عن ذلك كله بكلمات ثلاث : (قال لهم موسى) وقد عكست كلمات موسى ظل الطمأنينة والهدوء الذى فى نفسه، فلم يزد على أن قال لهم (ألقوا ما أنتم ملقون) فمهما كان ماتلقون فلن يؤثر فى نفسى .

ومما يؤكد هذا الشعور بالهدوء أن السياق اكتفى بقوله تعالى : فألقوا حبالهم وعصيهم) ولم يشر إلى خوف "موسى" ليبقى ظل الطمأنينة والثبات . ولينتهى سريعاً إلى نتيجة المباراة .

ويبرز الأسلوب القرآنى الحدث مصوراً ،فعصا موسى تلقف ، واللقف هو الحركة السريعة للأكل، فإن مايحدث من العصا إنما هو حقيقى لاتخييلى ، والسحرة يعلمون ذلك جيداً : لأنهم أعلم الناس بحقيقة السحر ومايحدث فيه من تخييل إلى المشاهدين، أما ماصنعه موسى فليس سحراً ولاشيئا يشبه السحر، إن عصاه ابتعلت ماصنعوا فعلاً، وبذلك يمهد السياق للتحول الكبير فى قلوب السحرة وفى نفوسهم، ويصور الأسلوب أيضاً سرعة السحرة فى التحول من الكفر إلى الإيمان ، فقد أُلقوا إلقاءً دون إرادة منهم ودون تفكير، وتحركت ألسنتهم بكلمة الحق ناصعة واضحة وعطف هذا الفعل بالفاء دون غيرها (فألقوا) .

وأسقط فى يد فرعون فلم يجد بداً من أن يتهم هؤلاء السحرة بالولاء لموسى كبيرهم الذى علمهم السحر، «وهى تهمة عجيبة لاتفسير لها إلا أن بعض هؤلاء السحرة – وهم من الكهنة – كانوا يتولون تربية موسى فى قصر فرعون أيام أن تبناه، فار تكن فرعون إلى هذه الصلة البعيدة، وقلب الأمر، فبدلاً من أن يقول : إنه لتلميذكم قال : إنه لكبيركم ليزيد الأمر ضخامة فى أعين الجماهير»(١) .

وأخذ «فرعون» يهددهم ويتوعدهم بالعذاب والقتل والتصليب فى جذوع النخل، ولكنهم لايكترثون به ولابعذابه، إن الذى يشغلهم هو الغفران الذى يرجونه من الله رب العالمين .

وينتهى هذا المشهد دون أن يفصل القرآن كيف وقع القتل على السحرة ودون أن يصور منظر التصليب الذى كان ، ليحتفظ المشهد بجلاله وعمقه : جلال الإيمان الصحيح

---

(١) فى ظلال القرآن الكريم جـ٥ صـ٢٥٩٧

وعمقه فى نفوس المؤمنين .

ويأتى المشهد السادس بشقيه ، يرى القارئ فى أحد شقيه «موسى» عليه السلام- يخرج ببنى إسرائيل من مصر ليلاً بعد أن أوحى الله إليه بالخروج، لأن فرعون سيتبعهم، ويرى فى الشق الثانى «فرعون» مغيظا مهتاجاً يرسل رسله فى مدن مملكته يجمع الجنود ويحشد القوى .﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) ﴾ (١) .

وبين هذا المشهد والذى يليه ثلاث جمل وصفية وهى قوله تعالى عن قوم فرعون: فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) (٢) .

لقد خرجوا من مصر يقفون أثر "موسى" وقومه، فكان خروجهم هذا هو الأخير، وكان إخراجا لهم من كل ماهم فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم، فلم يعودوا بعدها لهذا النعيم. لذلك ذكر هذا الخروج تعجيلاً بالجزاء الذى وقع على الظلم والبغى .

ولعل ذكر هذا الخروج يجعل القارئ فى شوق إلى معرفة النهاية، إن كان لايعرفها فالوصف ليس دخيلاً على القصة، ولكنه استخدم ليحمل العبرة منها، كما استخد م فنياً فى تشويق القارئ ليتطلع إلى النهاية التى أعقبت هذا الخروج أو الإخراج كما عبر القرآن، وبعد هذا الوصف يأتى المشهد الأخير .

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨) ﴾(٣) .

---

(١) الشعراء : ٥٢ : ٥٧ .

(٢) الشعراء : ٥٧ : ٥٩ .

(٣) الشعراء : ٦٠ : ٦٨ .

وعلى عادة القرآن فى التصوير بالألفاظ ترسم الآية الأولى صورة متحركة لجيشين متواليين يقطعان العباب، ويثيران الغبار، ولم يذكر الأسلوب أن موسى خرج ببنى إسرائيل بعد أن تلقى وحى ربه ، ولكن القارئ يعرف ذلك من قوله تعالى «فأتبعوهم» فموسى وبنو إسرائيل فى المقدمة ، وفرعون وجيشه المحشود وراءهم، وقد أو شكوا على اللحاق بهم فى الصباح . وكما صور الأسلوب الحركة صور النفوس أيضا؛ إن موسى وقومه أصبحوا أمام البحر، وفرعون من خلفهم فلاهم يستطيعون أن يخوضوا لجة البحر، وليس معهم من السلاح مايمكنهم من قتال الجيش الذى وراءهم ، فقالوا :«إنا لمدركون» وهو تعبير يحمل من الهم والفزع أكثر مما يحمله أصحاب «موسى» ويقدر مايحمل القوم من خوف بقدر ما يحمل «موسى» من ثقة بربه ويقين من النجاة، وإن كان لايدرى كيف تكون، فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر، ولايتمهل السياق ليقول إنه ضرب البحر بعصاه لأنه مفهوم ومعروف، ولكن ما النتيجة ؟ (فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم)، وخرج بنو إسرائيل من الشاطئ الآخر، وهلك فرعون ومن معه غرقاً .

إن بناء هذه القصة على المشاهد أدى إلى تعاظم دور الحوار فيها، من حيث نهوضه بتطوير الحدث والانتقال به من نقطة إلى أخرى، ومن حيث اضطلاعه بتصوير الشخصيات المشتركة فيه وبيان انفعالاتها حيث تنفعل، وهيئاتها حين يطرأ على حركتها أدنى التفاتة، وقد ظهر كيف أن الكلمة الواحدة قد تحمل دلالة لغوية مغايرة تماماً لدلالتها الأصلية .

كما أدى بناء القصة على المشاهد إلى الاستغناء عن كثير من التفصيلات التى يطرحها السياق القرآنى، وإلى طى الأحداث التى يستطيع القارئ أن يتمثلها بسهولة وذلك فى الفجوات التى يتركها السياق بين المشاهد ، ويدل عليها أحياناً من طرف خفى .

إن هذه الفجوات التى يتركها السياق بين المشاهد توشك أن تكون أصلا من أصول البناء الفنى للقصة القرآنية، وعلى الباحث أن يتأمل بعض الأمثلة الأخرى ليعلم أن لهذه الفجوات دوراً فى إحياء المشاهد وتحقيق الحضور لها، وشد القارئ عن طريق التشويق إلى متابعة القصة والسير معها حتى نهايتها .

إن الفجوة بين المشهد والمشهد كما يطوى فيها كثير من الأحداث التى يستطيع

القارئ أن يتخيلها، يطوى فيها عنصر الزمن مهما امتد، ويطوى فيها المكان مهما كانت رحابته واتساعه، ومن العجب حقاً أن بعض هذه الفجوات تحقق الانتقال من عالم إلى عالم مختلف عنه تماماً، من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، على بعد ما بين العالمين زمناً ومكاناً حسب مقاييسنا البشرية .

جاء فى سورة «يس»:

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾

﴿ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ وَمَا لِىَ لَا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ . إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ .(١)

جاءت هذه الكلمات على لسان رجل جاء يحاج أصحاب القرية ويدافع عن رسل الله إلى أهلها، وقد سلك معهم كل طرق الحجاج والإقناع عسى أن يجد منهم آذانا صاغية، وكانت آخر كلماته فى مواجهة أصحاب القرية : (إنى ءامنت بربكم فاسمعون) ولكن القوم قتلوه(٢) لينتهى المشهد الذى فى عالم الشهادة،ويبدأ مشهد آخر فى عالم الغيب،وقد جاء فيه على لسان الرجل :

(قيل ادخل الجنة قال يليت قومي يعلمون . بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) وليس فى السياق مايدل على القتل الذى لحق بالرجل ، ولكن الأسلوب يؤكد هذا الحادث الذى وقع وأضمره السياق، فالمشهد الجديد يبدأ بقول لايعرف القارئ مصدره : أهو رب العزة – سبحانه – أم ملائكة الرحمة ؟ أيًّما كان القائل فالمهم هو مقول القول : (ادخل الجنة) ولايعقل الأمر بدخول الجنة إلا بعد أن ينتقل الإنسان إلى عالم الآخرة، وقد نقلت

---

(١) سورة يس من الآية ٢٠ : ٢٧ .

(٢) انظر : تفسير القرطبى جـ١ صـ ٥٤٦٣ .

و : ابن كثير:جـ٣ صـ٥٦٨

و : الكشاف:جـ٤ صـ١٠

و : بدائع الإضمار القصصى فى القرآن الكريم،ص:١٨٩ ، ١٩٠ .

القصة القارئ إليه فى لحظة، لتطوى أبعاد الزمان والمكان فى هذه الفجوة على هذا النحوالعجيب .

وإضمار الحدث هنا لم يأت لغرض الاختصار فى عرض الأحداث فقط، وإنما جاء لتحقيق الغرض الدينى من القصة، فإن التصلب فى الدفاع عن دين الله، والثبات على كلمة الحق خير لصاحبه مهما أو ذى وعذب ، بل إن القتل فى سبيل ذلك يعقبه مباشرة دخول المقتول فى نعيم الله – سبحانه وتعالى .

إن الحذف وعمل الفجوات بين المشاهد لايحدث إلا إذا كانت الأحداث المحذوفة مما يستطيع القارئ تخيلها ، أو إذا كان تتابع المشاهد بما بينها من حذف يحقق حضور العرض لدى المتلقى قارئاً كان أو سامعاً، أما إذا كان هذا الحضور سيتحقق دون حذف ودون فجوات بين المشاهد فإن القصة القرآنية تحافظ على الأحداث وتذكرها فى مكانها اللائق بها . جاء فى قصة أصحاب الجنة :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) ﴾ (١)

إنها جنة من جنان الدنيا لاجنة الآخرة، وأصحابها يبيتون فى شأنها أمراً، وهو ألا يتركوا للفقراء من ثمرها نصيبا، واستقر رأيهم أن يقطعوا ثمرها فى الصباح الباكر، دون أن يستعينوا بالله على تنفيذ مشيئتهم .

---

(١) سورة القلم : ١٧ : ٣٢ .

هذا هو الجزء الأول من الحدث، أما الجزء الثاني فها هو ذا يقع أمام عيني القارئ دون أن يراه هؤلاء الرجال أصحاب الجنة ، لقد طاف على هذه الجنة طائف فاقتلعها من جذورها، وهذا هوالحدث الذى ذكر فى القصة فأضفى عليها جوا من السخرية بهؤلاء الرجال الذين أرادوا حرمان المساكين فسخر منهم المساكين وسخر منهم الناس أجمعون.

وتبلغ السخرية مداها حين تصور القصة أصحاب الجنة فى خديعهم يتنادون متخافتين خشية أن يدخل المساكين عليهم جنتهم وهم يقطعون ثمرها .

وتزداد السخرية أكثر وأكثر حين يفاجأ أصحاب الجنة بما حدث ، لقد حسبوا أنهم ضلوا الطريق إلى جنتهم، ولكنهم سرعان ماعرفوا خطأهم وتأكدوا أنهم حرموا رزقها بسبب نيتهم المبيتة للفقراء والمساكين.وتختتم القصة بالدعاء إلى الله أن يبدلهم خيراً من جنتهم بعد أن تابوا إليه .

فهل كان من الممكن أن يتحقق جو السخرية والتهكم الذى شاع فى القصة لو حذف هذا الحدث ؟

هذا عن المشاهد فى القصة القرآنية، أما عن الأحداث فإن القصة تسبق أحياناً بتمهيد لأحداثها يكون كالمقدمة لهذه الأحداث، وتختلف هذه المقدمة من قصة إلى أخرى طولاً وقصراً، وتختلف أيضا فى مضمونها .

وقد تحتوى المقدمة عملاً معجزاً يجذب الانتباه إلى القصة،ويشد القارئ إلى متابعتها كقوله تعالى :﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) ﴾(١)

ومن ذلك مقدمة قصة سليمان:﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) ﴾(٢)

وقد يكون هذا الشئ العجيب مهما ولكنه يأتى فى مقدمة القصة ليثير الانتباه،كما فى قوله تعالى فى بداية قصة أهل الكهف: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) ﴾(٣)

---

(١) سبأ : الآية : ١٠ .

(٢) النمل : الآية : ١٦ .

(٣) الكهف : الآية : ١٣ .

وكانت مقدمة هذه القصة طويلة إلى حد ما، وفيها ملخص مجمل للأحداث ، وفى هذه المقدمة إشارة إلى بعض الأحداث الضخمة التى تناولتها القصة بالتفصيل بعد ذلك .

ومن المقدمات الطويلة أيضا مقدمة قصة "موسى" فى سورة القصص ، التى جاءت محملة بعاقبة القصة وكشفت عن نتيجتها النهائية : **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)**(١) ولكن علم القارئ بخاتمه القصة وبما فيهامن المقدمة لم يفقده الحماس لمتابعة الأحداث، ولم يفتر شوقه إلى معرفة السبيل الموصلة إلى هذه النتيجة (٢).

وقد يكون التمهيد لأحداث القصة مقدمة تحمل نوعاً من الرمز الفنى،يسير مع القصة فى طولها ليكون مفتاحها الذى تنبنى عليه حبكتها كلها ، وهذه ذروة الفن والحرفة القصصية، ومن هذا القبيل ماجاء فى سورة يوسف «أحسن القصص» فى صورة رؤيا يوسف – عليه السلام – الذى رأى (أحد عشر كوكبا والشمس والقمر له ساجدين)، فكانت رؤياه هذه مفتاح القصة، بأن كانت سبباً فى البلاء الذى أصابه من حسد إخوته من جهة، وكانت إرهاصا بنبوته وآية عليها بالرؤيا الصادقة، والقدرة على تعبير الرؤى(٣)

والتمهيد فى قصتى "موسى" "ويوسف" السابقتين يحمل ملامح البيئة التى تجرى فيها الأحداث،فموسى – عليه السلام – ولد فى قوم مستضعفين هم بنو إسرائيل، وقد سلط عليهم فرعون بجبروته وطغيانه، فكان يقتل رجالهم ويستحيى نساءهم، وصرحت مقدمة القصة بنوع الصراع فيها، وبالنتيجة التى تحمل تغيير الأوضاع فى هذه البيئة على نحوماسبق .

وإذا كانت البيئة فى التمهيد السابق بيئة عامة تشمل طبقات المجتمع فإن التمهيد *فى قصة «يوسف» يحمل ملامح البيئة الخاصة التى يعيش فيها "يوسف" فى بيت أبيه* ، وهذه الملامح تتمثل فى حقد إخوته عليه لمكانته من نفس أبيه، وأن هؤلاء الأخوة يمكن أن

---

(١) القصص : الآيتان ٥، ٦ .

(٢) انظر الحديث عن التفصيل والإجمال، المبحث الأول من الباب الثانى من هذا البحث .

(٣) انظر : بدائع الإضمار القصصى فى القرآن الكريم صـ ١٠٢، ١٠٣ .

يكيدوا له، وقد صدقت حوادث القصة ماوشت به المقدمة فكانت مؤامرة الإخوة على أخيهم سبباً فى تطور أحداث القصة على النحو المعروف، وهو بذلك يكون تمهيداً فنياً للأحداث العامة للقصة، وهناك تمهيد فنى للحدث الجزئى فى أثناء القصة، فأحياناً تأتى جملة سرد أو حوار ربما لايلتفت إليها القارئ إذا مربها، ثم يسترسل مع أحداث القصة ، حتى إذا ما وقع حدثٌ مَاكَرَّ راجعاً إلى هذه الجملة التى مر بها آنفا ليكتشف ما تحمل من إرهاص بالحدث .

يقول تعالى عن مراودة امراة العزيز ليوسف: ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) ﴾(١)

وفى هذه الآية قاعدة قصصية يقدمها القرآن فى روعة فنية أخاذة (وقدت قميصه من دبر)، إنك إذا قرأت هذه الجملة دون أن تكون عارفاً بقية القصة لما ألقيت إليها أدنى اهتمام، إنها كلمة ألقيت ، وكأنها ألقيت عن غير عمد، هذا هو التمهيد الفنى للحدث فى أروع صوره، ثم أرأيت إلى المفاجأة الواقفة عند الباب، زوجة تراود رجلاً عن نفسه، ثم تفاجأ بزوجها عند باب الغرفة المغلقة، إنها مفاجأة آخذة لاتكاد تفيق منها حتى تشدك مفاجأة أخرى أقسى وأنكى : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) ﴾ إذا فقد ألقت التهمة جميعها على "يوسف" فى سرعة خاطفة ، فلم يقل القرآن فكرت ماذا تفعل، أو حاولت فى أمرها وأمر ذلك الرجل معها، لم يقل شيئا من هذا، وإنما صك النفوس بالتهمة فى مفاجأة فنية مذهلة ، وتمضى القصة بعد ذلك فى فتية بارعة :

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) ﴾(٢)

أرأيت محاكمة الدليل فيها قاطع كهذا .. ثم أرأيت إلى الكلمة التى ألقيت إلقاء وكأنها غير متعمدة ماذا أصبحت الآن : إنها براءة يوسف مما وجه إليه من اتهام (٣).

(١) يوسف الآية : ٢٥

(٢) يوسف الآيات : ٢٦ : ٢٨

(٣) انظر:السرد القصصى فى القرآن الكريم : أ . ثروت أباظة صـ ٢٦ : ٢٨ .

إن القرآن الكريم هو الصدق المطلق ، الصدق الذى لاتشوبه شائبة أو شبهة، والقصص القرآنى ليس أحداثاً مؤلفة، إنما هو حقائق مروية فى أسلوب بيانى معجز رائع، وتبدو روعته وإعجازه حين يصور النفس البشرية ومايلم بها من أحداث، إن الأسلوب القرآنى ليتسرب إلى أعماق النفس لتنضح الكلمات بمكنونها وتستخرج المشاعر الدفينة من مكامنها، فإذا صاغ القرآن قصة هذه النفس الإنسانية صارت القصة كاللوحة المجسمة وقد عرضت للمشاهدين، فيرى كل منهم فيها صورة نفسه هو لو قدر له أن يتعرض للموقف الذى مر به صاحب اللوحة المرسومة .

إن من الممكن أن يتحول الإنسان من الرضا إلى السخط، ومن الحب إلى البغض لكلمة يسمعها، أو لحدث يقع له، فالتحول فى الإنسان طبيعة من الطبائع المقررة، ولكن الذى لايتحول فى الإنسان، أو هو يتحول ولكن بصعوبة بالغة جدا، هو العقيدة التى يعتقدها والدين الذى يعتنقه ، ولكى يحدث تحول فى هذا المجال لابد أن يحدث للإنسان حدث تتزلزل له نفسه وتهتز من جذورها، وقد يحدث هذا التحول سريعاً جداً، وذلك تبعاً لضخامة الحدث،وشدة تأثره به،وعنف الصدمة التى يسببها؛ وذلك كإيمان السحرة فى قصة «موسى» عليه السلام – حين رأوا معجزته الكبرى فعرفوا صدقها، وتيقنوا أنها ليست سحراً كالذى يتعاطونه، ولكن المعجزات لاتحدث كثيراً فى دنيا البشر، وإذا حدثت فإنها لاتكون بضخامة المعجزة التى أيد الله بها "موسى" .

إن صدق القرآن فى الحديث عن النفس البشرية وتحولها من دين إلى دين يتضح جلياً من خلال هذا الموقف القصصى الذى حكاه عن ملكة سبأ مع نبى الله "سليمان" – عليه السلام – ويتضح أيضا كيف كان بطء المرأة فى التحول عن دينها، وكيف مهد القرآن لهذا الحدث الضخم بأحداث جزئية مدهشة وعجيبة .

كان "سليمان" يدعو إلى دين الله وعبادته وحده لاشريك له، وأخبره الهدهد أن هناك أمرأة تعبد هى وقومها الشمس من دون الله، فأرسل إليها للدخول فى دينه،فاحتالت على ذلك بأن أرسلت إليه بهدية، ولكن "سليمان" ردها، ثم علم بمجيئها إليه ، فأراد أن يقنعها بالدخول فى دينه، فأجرى أمامها بعض الأحداث الغريبة فماذا صنع ؟

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ

الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) ﴾(١)

إن أقوى وسائل الإقناع الإقناع بالصورة ، أى الإقناع بالحدث، إن غرض سليمان من الإتيان بعرشها قبل أن يرتد إليه طرفه لم يكن الإطمئنان إلى أنه يملك هذه الوسائل التى لم تتهيأ لإنسان من قبل أو من بعد، ولكن الغرض أن يستطيع إقناع تلك الملكة التى تسجد هى وقومها للشمس أن تسجد لله رب العالمين .

هذا الحدث التمهيدى هو بعض ما أعد ه "سليمان" ليثير دهشة الملكة، فأدخل على العرش بعض التعديلات : (قال نكروا لها عرشها ننظر أتهدى أم تكون من الذين لايهتدون فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كفرين) .

وهنا يبدو الصدق القرآنى المطلق والعرض الفنى المعجز« فالقرآن لم يقل إنها حين رأت آمنت من فورها، فالنفس الإنسانية لاتترك دينها عند الوهلة الأولى، وإلا فهى ليست نفساً إنسانية، أو هى لم تكن مقتنعة بما كانت تؤمن به، ولو لم تكن مقتنعة لتركت هذا الذى تعتبره دون حاجة إلى الصورة أو الحدث، لابد للنفس التى كانت مؤمنة بشئ أن تتروى وتمعن النظر وتتئد حتى تطمئن إلى هذا الدين الجديد الذى تنوى أن تعتنقه»(٢) .
كان مجئ العرش هو الحدث الأول فى التمهيد للحدث الضخم، أعنى إيمان الملكة وتحولها عن دينها، وهناك حدث ثان يوضح للملكة مدى اتساع مملكة سليمان ومدى سيطرته على أعضائها وماذا يصنعون له :

﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤) ﴾(٣)

---

(١) سورة النمل : الآيات من ٣٨ : ٤٠ .

(٢) السرد القصصى فى القرآن الكريم، ص : ٨٤، ٨٥ .

(٣) النمل : الآية ٤٤ .

«لعل الملكة قد كبر عليها أن تحسب هذه القوارير لجة من ماء، فهى تكشف عن ساقيها خشية أن يمس الماء ثيابها فحين عرفت أنها إنما تمشى على قوارير من زجاج آمنت؛ لأن الذى يصنع هذا لايستطيع أن يتقنه إلا أن يكون الله قد سخر له مالم يسخره لغيره من قوى لاحدود لها فآمنت» (١).

وهكذا يكون التمهيد للحدث وخاصة حين يتعلق بالنفس الإنسانية التى تألف ماتعتاد عليه وتتمسك به، وتأبى أن تتزحزح عنه، أماصك الأسماع بالأحداث الضخمة دون تمهيد لها فهذا ليس موجوداً إلا فى القصص البشرى المتهافت .

إن مجئ عرش بلقيس بهذه السرعة الخاطفة حدث ضخم ولكن القرآن لم يقف عنده إلا بوصفه دليلاً على ماآتاه الله – سبحانه – لنبيه "سليمان" – عليه السلام – وبوصفه تمهيداً لحدث أضخم منه وهو إيمان الملكة، لقد وقع الحدث نفسه لقاص بشرى هوالأستاذ "توفيق الحكيم" فسود فيه عدداً لابأس به من الصفحات وزور أحداثه بعض التزوير على ماسيتضح فى الباب الثالث إن شاء الله .

إن القرآن لايطيل الوقوف عند الأحداث القصصية الضخمة إلا بقدرما يخدم الغرض الدينى فى القصة أولا، وبقدر مايبين الإعجاز الفنى فيها ثانيا، فالقصة القرآنية لاتعمد إلى الإثارة غير المجدية فى تصوير الأحداث مهما كانت ضخامتها وغرابتها ومن الأمثلة الواضحة على ذلك :

أولا : حادثة انفلاق البحر لموسى – عليه السلام – وردت هذه الحادثة فى أكثر من موضع فى القرآن الكريم، ومنها :

قوله : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) ﴾(٢)

وقوله :﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ (٦٦) ﴾(٣)

---

(١) السرد القصصى فى القرآن الكريم صـ ٨٢ : ٨٦ .

(٢) الدخان : الآيات : ٢٢ : ٢٤ .

(٣) الشعراء : الآيات : ٦٣ : ٦٦ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) ﴾(١)

وقوله تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾(٢)

إن هذا الحدث فى الحقيقة مكون من حدثين: أولهما : خروج "موسى" ومعه بنو إسرائيل من مصر ليلاً هرباً من "فرعون"، وبالمعايير البشرية كان هذا الحدث بما يستتبعه من اتصال خبره بعلم فرعون وحكومته، وجمعه لجنوده ومحاولة اللحاق ببنى إسرائيل، ومنعهم من تنفيذ خطتهم ، وإعادتهم لسلطانه، والانتقام منهم ، كان هذا الحدث جديراً بأن يحتل من حكاية أنباء "موسى" وتطوراتها الصدارة، وأن يكون هو قمة الأزمة فى القصة ، حيث يحبس السامعون أو القارئون أنفاسهم ، وتتنبه إلى أقصى الغاية حواسهم، وهم يتابعون صفوف بنى إسرائيل الفقراء المهزولين الضعفاء، ومن خلفهم مواشيهم وأطفالهم، وهم جميعاً ينتزعون أقدامهم من الأرض انتزاعاً، والجميع يسودهم الخوف والقلق مشفقين من المصير الذى يتهددهم .

والحق أن التأمل فى هذا الموقف يبعث فى نفس الإنسان من الخوف والقلق والتطلع والإشفاق ماتبعثه أكثر القصص القائمة على الإثارة والمفاجأة، والقبض على خناق القارئ والمشاهد بعنف، حتى لايجد الفرصة لالتقاط نفسه(٣) .

والحدث الثانى : حدث مكمل للأول ، «ويبلغ الحدثان معاً مبلغاً لم يعهده القارئ فى تحريك الفضول وإلهاب التطلع، إذ يأتى فى خلف الصورة ملك مصر، وحوله قواده وجنوده ومعهم أسلحتهم على اختلاف ألوانها وأشكالها، ثم يبلغ الهاربون مشارف البحر، فتتعثر خطاهم، ويحسون أنهم مدركون، ولكن نبيهم يقول لهم فى ثقة واطمئنان: (كلا إن

---

(١) طه : الآيتان : ٧٧ : ٧٨ .

(٢) يونس : الآية : ٩٠ .

(٣) انظر : القصة القرآنية ، ص : ١٥٣ .

معى ربى سيهدين)، ثم يأتى الأمر الإلهى فى هذه اللحظة الحرجة[١] : ﴿ **اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم** ﴾ .

هذه محاولة لتلخيص الحدث الكبير، وهى محاولة خالية من التصوير، ومما هو قريب من التصوير ، فليرجع القارئ إلى النصوص القرآنية التى صورت هذا الحدث، ليعلم أن أقل هذه النصوص ألفاظاً قد أحاطت بالحدث على نحو معجز .

فإذا استبعدنا من آيات سورة الدخان هذه الآية ﴿ **فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون** ﴾ لكان مايتصل بصميم الواقعة مباشرة : (فأسرَ بعبادى ليلا إنكم متبعون واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون) وهى ألفاظ قليلة لكنها تحتوى على كل عناصر هذه الواقعة الفسيحة المديدة المترامية الأطراف .

الهرب من مصر والخروج ببنى إسرائيل ليلا .

ملاحقة "فرعون" وجنوده لبنى إسرائيل الفارين .

جعل البحر فى حالة يستحيل معها لفرعون وجنوده إدراك موسى وقومه .

وصول" فرعون" ومن معه إلى البحر . ثم غرقهم فيه .

ومؤدى هذا أنه لم يبق من هذه الواقعة الممعنة فى الغرابة والضخامة شئ أفلت من هذه الألفاظ القليلة[٢] .

وهذه العناصر تجمعها آيات سورتى الشعراء وطه مع اختلاف فى الألفاظ يحمل زيادات فى المعانى،إلا أنها تشترك فى بيان مصير فرعون وقومه .

أما آية سورة «يونس» فتفيد القارئ أمرين : تفيد أن "موسى" ومعه بنو إسرائيل قد قطعوا البحر فعلا : «وجوزنا ببنى إسرائيل البحر»، كما تفيد لأول مرة أن "فرعون" نفسه كان من المغرقين، وهو المعنى الذى جاء عاماً قبل ذلك : «إنهم جند مغرقون» وأنه عرف بطلان ماكان يملكه من سلطان، وزيف ما كان يتمتع به من سؤدد، وأنه حاول الإيمان بإله "موسى" فلم ينفعه إيمانه .

ثم ، لم كان الإيجاز والاقتضاب فى سرد هذا الحدث رغم ضخامته وغرابته ؟ لعل

(١) القصة القرآنية ، أ . فتحى رضوان صـ١٥٤ ، ١٥٥ .

(٢) انظر : القصة القرآنية صـ ١٥٦ .

الغرض الدينى من القصة هوالدافع إلى ذلك، فالقرآن - ومنه القصص - إنما جاء لتثبيت العقيدة فى النفوس ، وتحويل المشركين عما كان يعبد أباؤهم من الأصنام والحجارة التى ألفوا عبادتها أزمانا متطاولة، ولو أن حديث الخوارق والمعجزات وحده كان مجدياً فى تحقيق الهدف الذى جاء من أجله القرآن لأطال الوقوف عند هذه المعجزات التى أيد الله بها "موسى" ، كيف وهى لم ينتفع بها أهلها الذين وقعت لهم؟ فما هى إلا أيام قليلة بعد أن نجاهم اللهمن "فرعون" حتى أعلنوا التمرد على "موسى" وعلى من أرسله، والعجيب حقاً أن القرآن الكريم يوضح هذا التمرد فيحكيه معطوفاً على حديث المعجزة نفسه : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) ﴾ (١) ولكن المعجزة فى نفسها ليست نهاية المطاف .

إن حدث هرب بنى إسرائيل وانفلاق البحر لموسى حدث ضخم حقاً وجدير بأن يفسح له مكان مناسب لضخامته مع تلوين عناصره وإبراز غرائبه لو أن الغاية من إيراده وإيراد مقدماته ونتائجه هو التاريخ فى ذاته، أو الإثارة والتشويق والإيقاع ، ولكن كل مايدخل فى نطاق السرد والقصص فى القرآن موضوع فى خدمة تثبيت العقيدة التى نزل بها القرآن الكريم، فلا غرابة إذاً أن يكون الفن والتاريخ فى خدمة الغاية الدينية(٢) .

لقد ذاعت القصة فى العصر الحاضر، وأصبحت تحتل المرتبة الأولى بين الفنون القولية فى زعم كثير من الدراسين، وبلغ الاحتفاء بها - إبداعاً ونقداً - حداً لم تبلغه من قبل، وتعددت أشكالها وأسماؤها؛ فهناك: الرواية، والقصة، والقصة القصيرة والأقصوصة(٣) .

---

(١) سورة الأعراف:الآية : ١٣٨.

(٢) انظر : القصة القرآنية صـ١٥٨، والسرد القصصى فى القرآن الكريم صـ٧٠ .

(٣) للفرق بين هذه الأشكال القصصية ينظر : فن القصة د: محمد يوسف نجم صـ٩، وفن كتابة القصة،حسين القبانى، ط المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر صـ٨ .

و : دراسات فى نقد الرواية ، د. طه وادى ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩م ص٧١ .

و : النقد الأدبى أصوله ومناهجه أ : سيد قطب . ط دار الشروق ، الطبعة الرابعة ١٩٨٠ صـ ٧١ .

و : اتجاهات القصة المصرية القصيرة د: سيد حامد النساج . ط دار المعارف ١٩٧٨ صـ٩٠

وفى القصة القصيرة – أكثر أنواع القصة شيوعاً – يشترط النقاد عدة شروط؛ من أبرزها :

أولا وحدة الزمان؛ فالمفروض فى القصة القصيرة «أنها حادثة صغيرة على جانب كبير من الأهمية بحيث تلفت نظر الكاتب، وتجعله يسجل هذه الحادثة.فهى إذاً لمحة من الحياة يمسك بها الكاتب ، ويمنعها أن تسير مع تيار الزمن العادى، فهو يثبتها ويعمقها، ويضع لها الإطار الفنى فتقف ولاتصبح نقطة عادية من تيار الزمن السائر الرتيب»(١) .

ثانيا . أن يتكون الحدث فيها من ثلاث مراحل .

أ – البداية ، أو مرحلة التعرف .

ب – الوسط وفيها تتطور الأحداث إلى ذروتها .

جـ – النهاية : أو لحظة التنوير ، وهى النقطة التى تتجمع فيها وتنتهى إليها خيوط الحدث كلها، فيكتسب الحدث معناه الذى يريد الكاتب الإبانة عنه(٢) .

ثالثا : يجب أن لاتكون كثيرة الأشخاص، فالقصة القصيرة لاتسمح لشخص يظهر فيها إلا إذا كان مهما غاية الأهمية بالنسبة إلى الحدث (٣) .

رابعاً : إن نسيج القصة من لغة ووصف وحوار وسرد يجب أن يقوم على خدمة الحدث، فيسهم فى تصويره وتطويره (٤).

تلك هى أهم الشروط التى وضعت للقصة القصيرة .

فلنقرأ معاً هذه المعجزة الإلهية فى هذه القصة القصيرة :

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا

---

(١) السرد القصصى فى القرآن الكريم صـ ٥١

(٢) فن القصة القصيرة صـ ٢٣، ٩٣ .

(٣) انظر:السرد القصصى فى القرآن الكريم صـ٥٢

(٤) النقد الأدبى أصوله ومناهجه صـ ٧٩ : ٨٠

و : فن القصة القصيرة صـ ١١٠

كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ(١٠٧) ﴾(١)

فى أقل من سبعين كلمة اكتملت قصة معجزة :

من ناحية الزمن لحظة ، أب يهم أن يقتل ابنه ويتله للجبين، فيوحى إليه ربه قد صدقت الرؤيا فينقذ الابن.ولاعبرة(٢) هنا بالزمن الطويل الممتدبين وقوع البشارة بإسماعيل وبلوغه مع أبيه مبلغ السعى، لأنه خارج عن إطار الحدث الذى صورته القصة بل ساعد هذا الزمن الطويل على تعميق لحظة الحدث .

من ناحية الموضوع واحد لم يتغير، أب يقول لابنه إنه أوحى إليه أن يقتله، فيقول الابن فى روعة الإيمان وعظمته وأمنه المطمئن : افعل ماتؤمر به، لم تحد القصة عن موضعها قيد أنملة .

من ناحية الأشخاص اثنان لا ثالث لهما، وليس أقل من الاثنين إلا الواحد، وما أحسب أن الواحد يستطيع وحده أن يصنع قصة .

من ناحية البداية والقمة والنهاية .. البداية: (رب هب لى من الصالحين) . القمة (أفعل ماتؤمر)(وتله للجبين)النهاية : (وفديناه)البداية أروع ما تكون البداية؛ فالقصة تبدأ منذ إسماعيل، دعاء يتوجه به إبراهيم – عليه السلام– إلى ربه؛ والقمة أروع ماتكون القمة؛ ، أب يقتل ابنه امتثالاً لأمر الله، وابن يرحب أن يقتل فى سبيل الله، والنهاية أروع ماتكون النهاية، لقد وضع الله نبيه وابنه فى بلاء عظيم يمتحن صبرهما حتى إذا أبدياه واضحاً جلياً عفاً، وأعاد الابن إلى أبيه والحياة إلى الابن ، فكلاهما معاً فى فرح مقيم لاشك أنه الإعجاز(٣) .

ومما اشترط النقاد فى القصة أن يكون الحدث فيها متكاملاً، والحدث المتكامل يتحقق حين يصور الكاتب شخصياته وهى تعمل عملاً له معنى، وهذا المعنى ينشأ من

---

(١) الصافات:الآيات:٩٩ : ١٠٧

(٢) كثير من المفسرين على أن إسماعيل كان ابن ثلاث عشرة سنوات يوم تعرض لحادثة الذبح،انظر:القرطبى جـ٨ صـ٥٥٤٣ .

و : الكشاف جـ٤ صـ٥٣

(٣) انظر: السرد القصصي فى القرآن الكريم،صـ٥٣ : ٥٤ .

الحدث نفسه فهو جزء لايتجزأ منه .

والمعنى بالنسبة إلى كاتب القصة ركن من أركان الحدث وجزء لاينفصل عنه، ولذلك فإن الفعل والفاعل، أو الحوادث والشخصيات يجب أن تقوم على خدمة المعنى من أول القصة إلى آخرها، فإن لم تفعل ذلك كان المعنى دخيلاً على الحدث، وكانت القصة بالتالى مختلة البناء (١).

ومعنى ذلك أنه من المحظور – فى قانون القصة البشرية – أن يأتى المعنى منفصلاً عن القصة ، وإذا حدث ذلك فإنها تبعد عن الفن، وتدخل فى باب الموعظة. المباشرة، وهنا وقفة – لابد منها – مع المعنى فى القصص القرآنى، لا لمحاكمته إلى قواعد القصة الفنية، ولا لقياسه عليها ،ولكن ليعرف القارئ كيف تحمل القصة القرآنية معناها، وكيف تلقى به إلى المتلقى .

إن النظرة المتعمقة فى قصص القرآن تؤكد أن المعنى القصصى يأتى من خلال الأحداث التى تسردها القصة، وينبع من تصرفات الشخصيات فيها، ويتطور ويتضح مع كل حدث يقع، ومع كل تصرف لأيٍّ من الشخصيات على نحو يعجز عنه كتاب القصة الفنية إلا إذا استقوا قواعدهم من القرآن نفسه .

ومن خير ما يمثل ذلك قصة داود التى صورها القرآن الكريم على هذا النحو :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥) يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ

---

(١) انظر:فن القصة القصيرة صـ ٥٨ : ٥٩ .

النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) ﴾ (١).

فلينظر القارئ إلى قوله تعالى : ﴿ وهل أتك نبؤ الخصم إذ تسوروا المحراب . إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لاتخف ﴾ لقد أقام القرآن فى هذه الكلمات المعدودة عالماً فسيحاً، ينتقل فيه القارئ من معنى إلى معنى، ويستقبل منه أمواجاً متتابعة من المشاعر الإنسانية المتضاربة المتناقضة، ومع رحابة هذه المعانى يجد القارئ إشارة من طرف خفى إلى معنى مقصود ومحدد، وهو أن شيئاً ما قد كان من "داود"، وأن هذا الشئ لاينبغى أن يكون من نبى .

وآيات القصة لاتشير إلى هذا الشئ الذى حدث من داود ، لأنه لايتعلق به لذاته غرض معين، وإنما المتعلق فى صفة هذا الأمر، وأنه بصفته الكريهة تلك لايصح أن يكون من نبى، كما أن فى الإضراب عن ذكره رعاية لمقام النبوة ، وحفاظاً لمشاعر هذا النبى .

وهذا الشئ الخفى هو ما تود القصة أن تشير إلى معناه، منذ البداية ، والأحداث ومدلولات الألفاظ هى التى تنهض بهذه الإشارة، فالخصمان يقتحمان على" داود" مجلسه فى يوم لايجلس فيه للحكم بين المتخاصمين، وإنما يقتحمان عليه محرابه، ويأتيانه من السور لا من الباب ، ونتيجة لهذا الحدث المفاجئ الذى جاء على غير المعتاد، وبلا استئذان يفزع داود، ولكن الخصمين يبادران إلى اطمئنانه:(لاتخف .. خصمان بغى بعضنا على بعض) .

ووراء هذا المعنى الظاهر للأحداث معنى خفى آخر مستور ، فحدث التسور المفاجئ المفزع يدل على أن اختلا لاًحدث فى مملكة "داود" المنظمة، وأن هذا الاختلال، كان من جهته هو ، ولذلك فقد أخذ نصيبه من نتائجه، وأصبحت رعيته لايدخلون عليه من بابه، بل يتخطون الحراس ويصلون إليه من السور، فلقد انقلبت الأوضاع واختلت أسس النظام، وفى فزع" داود" منهما ما يوحى بهذا المعنى – أيضا–حيث يفزع القاضى من المتقاضين.

وشئ آخر يؤكد هذا المعنى المتسرب فى أحداث القصة الضارب فى حناياها، إذ متى رأى الناس الخصوم ينصحون القاضى أن يحكم بالعدل؟ فما جلس القاضى فى

---

(١) ص الآيات ٢١ : ٢٦ .

مجلسه إلا ليحقق هذه الغاية، ولكن فى هذا الكلام تلميحاً إلى أن ميزان العدالة قد اهتز من قبل هذا الموقف هزة شاع أمرها فى الناس وذاع، حتى عرفه هذا الخصمان اللذان لم يعرف داود لهما وجهاً من قبل(١) .

لقد طرح أحد الخصمين – وهو المدعى – قضية على القاضى، وكان صاحب حق جليّ فبادر القاضى إلى الحكم له دون أن يسمع رد المدعى عليه، وقد يكون الحق فى جانبه، وقد يكون لديه من الأدلة مايثبت حقه فى القضية .

وفى التسرع بالنطق بالحكم إشارة واضحة إلى المعنى السابق ، وهو وقوع الخلل فى مملكة داود، وأن هذا الخلل جاء من قبله هو، وهذا هوالمعنى الذى تضافرت القصة بأحداثها وشخصياتها على إظهاره وتوضيحه، وفى التعقيب على القصة مايزيد هذا المعنى وضوحاً وتجلية : (يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَتَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) وفى إصلاح هذا الخلل إرساء لقيمة العدل فى الملك وفى الحكم بين الناس على حد سواء .

وإخراج القصة على هذا النحو من التعريض لا التصريح دعا "الزمخشرى" إلى الاستفهام عن علة ذلك ، وأجاب : "لكونها أبلغ فى التوبيخ ، من قبل أن التأمل إذا أداه إلى الشعور بالمعرض به كان أوقع فى نفسه، وأشد تمكنا من قلبه، وأعظم أثراً فيه. وأجلب لاحتشامه وحيائه، وأدعى إلى التنبيه على الخطأ فيه من أن يبادره به صريحاً ، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة .

وخرجت القصة على وجه التحاكم إلى داود ليحكم بما حكم به من قوله (لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه) حتى يكون محجوجاً بحكمه ومعترفاً على نفسه" (٢)

هذا مثال حى للمعنى فى القصة القرآنية حين يجئ ملتحما ببنائها الفنى، فالأحداث تحمله منذ بدايتها، والشخوص بأفعالها وحوارها تساعد على إظهاره وتوضيحه ثم نزيده النهاية وضوحاً وإظهاراً .

إن الطاقة التعبيرية للألفاظ القرآنية، ومنها القصص، أعظم من أن يضاهيها واحد

---

(١) انظر:القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه،ص:١٥٩ : ١٦٠ .

(٢) الكشاف:جـ٤ ص:٨١ : ٨٢ .

من البشر فى كتاباته مهما أوتى من القدرة البيانية الخلابة ، ولذلك فإن الطاقة التأويلية للأساليب القرآنية أعظم من أن يحيط بها واحد أو مجموعة من الناس مهما كانت ثقافتهم، ، وهذا هو الذى يفسر عطاء القرآن المتجدد على مر العصور والأزمان، ومنزل القرآن (جل فى علاه) يعلم ذلك، ويعلم أن الناس متفاوتون فى الفهم والإدراك، فإذا استطاع بعضهم أو أقلهم أن يكشف عن بعض هذه الطاقة التعبيرية فإن جلهم لايستطيع ذلك، فأراد الله أن يؤتى كلا نصيبه مما يحمل القرآن من معان ، ولعل هذا – والله أعلم – هو السر فى أن القصة القرآنية تحمل فى أثنائها أحيانا وفى نهاياتها غالباً المعنى المراد فيها بألفاظ صريحة الدلالة واضحة فى أداء المعنى الذى يحمل العظة والعبرة منها .

وما يجئ من آيات لكشف العبرة وإبراز المضمون ليس من أحداث القصة، وليس من الواقع الذى تنقله، وإنما هى إضافات جاء بها القرآن بعد أن أنهى القصة وأوقف سيرالأحداث عند الغاية المرسومة لها .

فقصة داود السابقة تنتهى عند قوله تعالى : ﴿ وظن داود أنما فتنه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفىٰ وحسن مآب ﴾ .

ويجئ التعقيب الذى يوضح معنى القصة ويكشف مغزاها على هذا النحو:

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ (٢٩) ﴾(١)

وهذا التعقيب يحمل الحقائق المضمرة فى أثناء القصة ، والتى تنكشف لبعض الناس ولاتنكشف لكثير منهم، فكان إبرازها على تلك الصورة فى أعقاب القصة مما

---

(١) سورة ص الآيات ٢٦ : ٢٩ .

اقتضته حكمة الحكيم العليم حرصاً على تمام الفائدة مما فى القصة من عبر وعظات ، ورحمة بمن قصرت أفهامهم عن أن تدرك شيئا وراء ظاهر القصة، أو أدركت شيئا وغابت عنها أشياء (١).

وقد يأتى المعنى من القصة فى أثنائها كما جاء فى أثناء عرض قصة مريم : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) ﴾ (٢)

والذى يتأمل هذه الآية يجد أنها أضافت إلى أحداث القصة حدثاً جديداً ، فالقصة أخبرت قبل ذلك أن كفالة مريم كانت من نصيب زكريا ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ (٣) ولكن الآية المذكورة تفيد أن كفالة مريم كانت محل خلاف وخصومة بينهم .

وقد يأتى المغزى فى بداية القصة، كما جاء قبل عرض قصة آدم : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) ﴾ (٤)

«إن الناقد المحترف قد يرى أن القصة القرآنية بعيدة عن قواعد القصة العادية ، لأن الموعظة فيها تقترن بالعرض، وهذا الناقد إن فعل يكون مجانباً للصواب مجافياً للنظرة المتعمقة، فالقصة التعليمية أصبحت الآن مذهباً فنيا معروفاً، والقصص القرآنى قصص من نوع خاص، فهو ليس فناً خالصاً يقدمه صاحبه لايعنيه فيه الجانب الخلقى، إنما قصص القرآن قصص أنزله الله – سبحانه وتعالى – ليكون مثالاً للناس، وهو لابد أن يكون المثل الرفيع فى الخلق والإيمان»(٥) .

إن القصة فى القرآن ترد مقيدة بغرض دينى، وترد أساساً للدعوة لهذا الغرض

---

(١) انظر: القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه صـ ١٦٢ : ١٦٣ .

(٢) آل عمران : الآية ٤٤.

(٣) آل عمران: من الآية ٣٧.

(٤) ص: الآيات ٦٧ : ٧١

(٥) السرد القصصى فى القرآن الكريم صـ ٥ : ٦

الديني، «ولقد كان من المفروض – طبقاً لهذا التقييد – أن تجئ القصص خالية من القيمة الفنية ونحن نعرف الآن أنه يستحيل على كاتب من البشر أن يوظف فنه للدعوة لشئ ويستطيع أن ينتج فناً راقيا فى الوقت نفسه .

يثير الدهشة العميقة أن ينكسر هذا القانون فى قصص القرآن ، فإذا نحن أمام قصة تدعو مباشرة إلى شئ وهى فى الوقت نفسه عمل معجز .

يستحيل على بشر مهما أوتى من عبقرية أن يقدم أدباً ودعاية فى وقت واحد، يستحيل أن يقدم فنا معجزاً ودعوة مباشرة فى الوقت نفسه، غير أن قصص القرآن تفعل هذا كله بشكل ناعم لاتحس فيه بالجهد، وإنما يدهشك أن يكون غير ماهو كائن ولعل هذه أول إشارة لافتة لإعجاز القرآن وكونه من عند الله»(١) .

إن القصة القرآنية قد تشارك القصة البشرية فى القاعدة أو الأساس الفنى الذى تبنى عليه، ولكن البعد بينهما فى تطبيق هذا الأساس الفنى شاسع جداً كالبعد ما بين الأسلوب القرآنى والأسلوب البشرى .

إن القصة البشرية تشترط فى أحداثها مايسمى بعنصر تطوير الأحداث عبر مراحل القصة ، وهذا التطوير هو الذى يبعث فى القصة القوة والحركة والنشاط، وهو العصا السحرية التى تحرك الشخصيات على صفحات القصة، وتسوق الحوادث الواحدة تلو الأخرى حتى تؤدى إلى النتيجة المريحة المقنعة، حتى ليقال : إن الحدث هو تصوير الشخصية وهى تعمل(٢) ، وبالتعرف إلى الأشخاص يمكن التعرف إلى الدوافع التى أدت إلى وقوع الحدث بالكيفية التى وقع بها .

إن كل قصص القرآن – باستثناء الحلقات المكررة السريعة من القصص المكرر والقصص القصيرة جداً التى لاتتعدد أحداثها – تحقق هذا الأساس الفنى على نحو مبهر بل معجز، فتطوير الأحداث وترابطها وتسلسلها بادٍ بوضوح فى هذا القصص الذى وصفت، ويزداد الأمر وضوحاً وإعجازاً كلما طالت القصة أو الحلقة من القصة، لأن الطول يؤدى بلا شك إلى زيادة الحوادث المعروضة ، ومن ذلك قصة يوسف – عليه

---

(١) أنبياء الله . أحمد بهجت صـ ٢١ .

(٢) انظر : فن القصة د: محمد يوسف نجم صـ٣١ .

و : فن القصة القصيرة د : رشاد رشدى صـ٣٥ .

السلام- والحلقات الطويلة من قصة "موسى"، والحلقات الطويلة من قصة "نوح" "وإبراهيم" ، وقصة "يحيى" "وزكريا" "ومريم"، وقصة ميلاد "عيسى" فى كثير من المواضع التى وردت فيها هذه القصص .

وقد اخترت قصة موسى – عليه السلام – فى سورة القصص لبيان سمات العرض القرآنى للأحداث، وبيان طرائقه فى تطويرها وتسلسلها والربط بينها، واختيار هذه القصة بذاتها كان لجملة أسباب :

١ – أنها الموضع الوحيد الذى ذكرت فيه قصة موسى من أولى حلقاتها ، حلقة ميلاده .

٢ – أن فيها زيادة لم ترد فى غير هذا الموضع – أيضا – كمرحلة فتوته وماوقع فيها من قتل القبطى، وتآمر فرعون وملأه عليه، وهربه إلى مدين وزواجه فيها .

٣ – أن القصة مسبوقة بما يرسم الجو الذى تدور فيه الأحداث، ويوضح الظروف التى تجرى فيها القصة، ويكشف عن الغاية المخبوءة وراء الأحداث التى سيقت القصة من أجلها .

قسمت القصة – فى هذا الموضع – إلى ثلاث حلقات : (١)

الأولى : حلقة مولد "موسى" – عليه السلام – وما أحاط بهذا المولد من ظروف قاسية فى ظاهرها، وماصاحبه من رعاية الله وعنايته .

الحلقة الثانية : حلقة شبابه وفتوته، وما آتاه الله من الحكم والعلم، وما وقع فيها من قتل القبطى، وتآمر فرعون وملأه عليه، وهربه من مصر إلى أرض مدين، وزواجه فيها وقضاء سنوات العمل لدى شعيب .

الحلقة الثالثة : حلقة النداء والتكليف بالرسالة ، ثم مواجهة فرعون وملأه وتكذيبهم لموسى وهارون ، والعاقبة الأخيرة – الغرق – وهى مختصرة سريعة .

وقسمت الحلقات إلى مشاهد تزيد وتنقص حسب ما يستدعيه السياق ، وطول الحلقة ، فالحلقتان الأولى والثانية طويلتان لأنهما جديدتان فى القصة، ولم تذكرا فى أى موضع آخر على كثرة تكرار قصة موسى .

سبقت القصة بمقدمة تحمل – فيما تحمل – عاقبة القصة ومغزاها، أو بمعنى أدق

---

(١) انظر: فى ظلال القرآن جـ٥ صـ٢٦٧٦ .

تكشف عن نهاية الأحداث قبل أن تبدأ : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) ﴾(١) وإذا كان القارئ يتابع قصة ما؛ فلكى يعرف نهاية أحداثها، والأمر هنا على غير المتوقع؛ فالقرآن وضع القارئ أمام النهاية، أو وضع النهاية أمام القارئ،وفى ذلك نوع من التشويق للقارئ يجذبه إلى متابعة القصة والسير مع أحداثها،حتى يعرف كيف وصلت إلى هذه النهاية التى انقلبت فيها الأوضاع، فصار المستضعفون أئمة، وورثة لمثل هذا النعيم الذى تركته هذه الفئة القوية المتسلطة .

وفى القصة الفنية "يعتمد كثير من الكتاب على المفاجأة فى نهاية القصة ويعتمدون فى تشويق القارئ على أسلوب القصة البوليسية التى تحتفظ بالمفاجأة إلى النهاية ، ولكن هذه الطريقة قد عفا عليها الزمن حتى إن بعض القصاص يبد ءون قصصهم بما انتهت إليه ، مبرهنين أن قصصهم يمكن أن تغرى قراءها بالمتابعة بالرغم من أن نهايتها معروفة منذ البداية، ويكون الدافع الرئيسى للقارئ هو اكتشاف كيف تطورت الأمور حتى وصلت إلى تلك النهاية ؟ نهاية الأحداث وإن ذكرت فى البداية"(٢) .

وبعد أن كشفت قصة موسى عن نهايتها فى مقدمتها تعود فتؤكد هذه النهاية فى أول آياتها :﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) ﴾(٣)

إن القارئ يعرف قصة موسى، ويعرف أنه صار نبياً، وهذه حقيقة توضع أمامه منذ البداية، ولكن هذه المعرفة لاتفقده تطلعه إلى مواصلة القراءة واستعادة الأحداث . ويأتى هذا التطلع من هذا الأمر الغريب الذى أوحى إلى أم موسى، فقد جرت العادة على أن أمن الطفل وسلامته لايتحققان إلا إذا كان أمام عينى أمه، وأن اطمئنانها عليه لايتحقق

---

(١) القصص الآيتان ٥ ، ٦ .

(٢) القصة القصيرة نظرياً وتطبيقياً، يوسف الشارونى، سلسلة كتاب الهلال العدد : (٢١٦) صـ ٧١ و : النقد الأدبى الحديث صـ ٥٥٧ .

(٣) القصص الآية ٧ .

إلا إذا كان بين يديها، ولكن الأمر هنا على غير العادة، فشفار الجزار ستناله إن اكتشف بين أحضان أمه، وفى فمه ثديها، وهذا مبعث الخوف، وتبديد الخوف يتحقق بتنفيذ هذا الأمر الغريب (فألقيه فى اليم، ولاتخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين).

ولايكاد القارئ يستوعب هذا الحدث الغريب، حيث الأم تلقى بوليدها فى اليم، حتى يفاجأ بحدث أغرب منه (فالتقطه آل فرعون)، وهل كانت الأم تخاف عليه إلا من فرعون وآله؟ نعم، ولكن الذى ساق الوليد إلى فرعون إنما هى يد القدرة الإلهية، فى هذا التحدى السافر المكشوف، وهى تكشف عن مقصدها مكشوفاً أيضا : (ليكون لهم عدوا وحزنا) عدواً يتحداهم، وحزناً يدخل الهم على قلوبهم .

ولكن القصة لاترجع إلى أم موسى قبل أن تطمئن القارئ إلى مصير الطفل بعد أن وصل إلى بيت عدوه، والقارئ يعلم أن مصيره سيكون القتل ، وأنه لاحيله له فى دفع هذا المصير عن نفسه، فكيف ينجو من هذا المصير المحتوم ؟

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩) ﴾(١)

وهنا يتطور الحدث ويتقدم إلى الأمام، ليس بالتلفيق والمصادفة، ولكن بما يتمشى مع منطق العقل، ويتفق وطبائع الأمور، وإن كانت يد القدرة الإلهية قادرة على أن تخلق من الأسباب مايجبه هذا الفرعون ويمنعه من الوصول إلى موسى، والقصة- فى عرضها لهذا الحدث - صبغته بصبغة إنسانية خالصة،فمن الطبعى أن تشفق امرأة فرعون على هذا الطفل الضعيف المسكين الذى أوشك أن يموت غرقاً، خاصة إذا صح قول بعض المفسرين بأنها كانت لاتلد(٢)، أو لم يكن لها ابن من فرعون(٣) لقد هان فرعون على الله أن يحمى منه الطفل الضعيف بغير هذا الستار الشفيف(٤)، حب امرأته للطفل .

وينتهى هذا المشهد بعد أن اطمأن القارئ على موسى وعرف ما كان من شأنه، وتعود القصة إلى أمه بعد أن نفذت وحى الله لها، وألقت طفلها إلى الماء، يصورها

(١) سورة القصص الآية ٩ .

(٢) تفسير القرطبى جـ٧ صـ ٤٩٦٩ .

(٣) ابن كثير جـ٣ صـ٣٨١ .

(٤) فى ظلال القرآن جـ٥ صـ٢٦٧٩ .

الأسلوب القرآنى على هذا النحو : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) ﴾(١)

يقولون إن الحدث المتكامل هو تصوير الشخصية وهى تعمل عملا له معنى(٢)، فماذا ينتظر من أم ألقت وليدها فى اليم بيدها؟ ليس أدل على حالتها النفسية من هذا التصوير المعجز، ففؤادها أصبح فارغاً لاعقل فيه ولا وعى ولاقدرة على نظر أو تصريف ، فهى كادت تذيع أمرها في الناس، وكادت تهتف : أنا ألقيت ابنى فى اليم .

«وإذا كانت القصة قد قدمت شيئاً غريباً لم يعهده المجتمع من ناحية الوقائع والأحداث التى تجرى حولها القصة فإنها - مع ذلك - لم تغفل عن تقديم ردود الفعل النفسية الطبعية التى يعرفها المجتمع، والقارئ حيث يطالع هذا اللون من القصص يريد أن يعرف أمراً غريبا أو واقعة عجيبة على مألوف عادته، ثم يسمك به التشوق أن يعرف كيف تصرف الشخص الذى واجه هذه الواقعة العجيبة، ومن هنا نستطيع أن ننفذ إلى قاعدة قصصية تغيب عن كثيرين»(٣) .

وكان من تصرفات الأم أنها لم تكف عن البحث والمحاولة،فأرسلت ابنتها فى أثر الصبى لكى تعرف خبره، وتقف على مصيره، وأين مقره ومرساه إن كان حيا؟ ونفذت البنت أمر أمها فإذا بها تبصره بين يدى خدم فرعون يبحثون له عن ثدى يرضعه ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) ﴾ (٤)

ويبدو تطوير الحدث وتسلسله المنطقى،فلو أن الوليد قبل ما عرض عليه من أثداء النساء لظل فى بيت فرعون، ولكنه رفض كل الأثداء التى عرضت عليه، فكانت الفرصة

(١) سورة القصص الآية ١٠ .

(٢) فن القصة القصيرة صـ ٣٥، ٥٨ .

(٣) السرد القصصى فى القرآن الكريم صـ٥٨ ، ٥٩ .

(٤) سورة القصص الآيات ١١ : ١٣ .

مناسبة لأخته التى تتابعه لكيى تشير عليهم بما فيه صلاح حال الصبى، وفيه راحتهم أيضا، ومن هنا كان رجوع الطفل إلى أمه منطقياً، ومما يستدعيه تطور الحدث .

هذه هى المرحلة الأولى من القصة ، وكان عمر موسى فيها لايتعدى الشهور الأولى، وفى المرحلة الثانية من القصة تبدأ الأحداث وموسى فى مرحلةالشباب والفتوة،وقد أضربت القصة عن هذه المساحة الزمنية العريضة من حياة موسى بما فيها من أحداث النشأة وبواكير مرحلة الشباب، وفى"هذه الانتقالة السريعة الوامضة تنتقل القصة من مدة زمنية إلى مدة أخرى ، وكأنها نقلة من قصة إلى أخرى ، وقد اهتدت القصة الفنية الحديثة إلى ذلك مؤخراً"(١).

تبدأ المرحلة الثانية بحدث مفاجئ يقع من موسى – عليه السلام – وكان لهذا الحدث تأثيره المباشر على بقية الأحداث بعد ذلك طوال هذه المرحلة؛ إنه حدث قتل موسى لأحد أقباط مصر، وهذا هو سياق الحدث :

﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) ﴾(٢)

ويبدأ السياق بتعبير له دلالته (ودخل المدينة) فمن أى مكان جاء فدخلها ؟ هل جاء من قصر فرعون ؟ أو كان قد اعتزل القصر والمدينة كلها ثم جاء ودخلها على حين غفلة من أهلها .

وعلى أيه حال فقد دخل المدينة فرأى رجلين يقتتلان، وكان أحدهما إسرائيلياً من شيعة موسى، والآخر قبطيا من المصريين، فاستغاث الإسرائيلى بموسى مستنجداً به على عدوهما القبطى فضربه موسى ضربة كان فيها هلاكه .

---

(١) السرد القصصى فى القرآن الكريم صـ٢٤ .

(٢) سورة القصص الآيات ١٥ : ١٧ .

وتنعكس آثار هذا الحادث على موسى؛ فقد تنبه لساعته أن أخطأ وأن هذا الخطأ كان بمساعدة الشيطان، فتوجه إلى ربه يطلب المغفرة، وأحس أن الله غفر له بالطمأنينة تسرى بين جوانحه، فتوجه إلى ربه بالشكر وعاهده أنه لن يكون بعد اليوم ظهيراً للمجرمين .

هذه هى الآثار الفورية للحدث وانعكاساتها على موسى، فأما الآثار المتراخية فتظهر فى هيئة موسى الذى أصبح فى المدينة خائفاً يترقب، خائفاً من افتضاح أمره، يترقب الأذى، ولفظ يترقب يصور هيئة القلق الذى يتلفت ويتوجس ويتوقع الشر فى كل لحظة، والتعبير يجسم هيئة الخوف والقلق بهذا اللفظ، كما أنه يضخمها بكلمتى « فى المدينة» فالمدينة عادة موضع الأمن والطمأنينة، فإذا كان خائفاً يترقب فى المدينة، فأعظم الخوف ما كان فى مأمن ومستقر(١) .

وبينما هو على هذه الحال وتلك الهيئة إذ هو يطلع فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه، ولكن صورة قتيل الأمس لاتزال تتخايل لموسى، وتذكر ندمه واستغفاره وعهده الذى قطعه مع ربه، أحس ذلك كله فأبدى امتعاضه من هذا الذى يستصرخه، ووصفه بأنه غوى مبين، لأن لايكف عن العراك والتشاجر مع القبط، واستشاط موسى غيظاً من القبطى – أيضا – فاندفع يريد أن يبطش به، فقال : ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس(٢) .

ويبدو أن الرجل القبطى أنهى إلى ملأ فرعون أن موسى هو القاتل ولكن السياق لم يذكر ذلك بل يفاجئ القارئ بمشهد جديد : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) ﴾(٣)

ولعل القارئ لاحظ أن شخصيات أم موسى وأخته وامرأة فرعون قد توارت عن

---

(١) فى ظلال القرآن جـ٥ صـ ٢٦٨٣ .

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير صـ ٣٠٤ .

و : فى ظلال القرآن جـ٥ صـ٢٦٨٤ .

ومعظم العلماء والمفسرين على أن قائل هذا هو الإسرائيلى، إذ ظن أن موسى يريد أن يبطش به هو ، ولكن الرأى الآخر له وجاهته .

(٣) سورة القصص الآية ٢٠ .

محيط الأحداث، لأن دورها انتهى، ولم يعد لأى منهن أى أثر فى الأحداث، والآن تبرز إلى محيط الأحداث شخصية جديدة لايدرى صاحبها وإنما هو رجل أى رجل ، وليس ضرورياً أن يعلم المتلقى من هو،وإنما المهم أن ظهوره قد حول مجريات القصة وعدل فى أحداثها ، بالنسبة إلى الشخصية الأساسية موسى – عليه السلام – وذلك مع أن ظهوره كان وامضاً سريعاً .

إن حادثة مقتل القبطى على يد موسى لم تكن حادثة قتل عادية من عشرات الحوادث التى تحدث فى المجتمع كل يوم، ولكنها تتصل بأس النظام الطبقى الذى قام عليه المجتمع المصرى آنذاك ، ولذلك استحقت اهتمام فرعون نفسه، ومعه حاشيته والملأ من قومه، ولخطورة هذه الحادثة ولأهميتها فى سير القصة وقف عندها السياق القرآنى طويلاً .

وقد تسببت هذه الحادثة فى تقوية جانب فرعون فى صراعه مع موسى وتسببت فى إضعاف جانب موسى، ولذلك كان خائفاً يترقب، ولكن القصة – بإعجاز بنائها الفنى – لاتدع هذا الموقف دون أن تحقق فيه نوعاً من التعادلية ولو كان يسيراً؛ إذ إن عجز أحد طرفى الصراع فى القصة عن المقاومة يؤذن بانتهاء أحداثها وبلوغ نهايتها، خاصة إذا كان هذا العجز من نصيب القوة الخيرة فى الصراع ، لأن الجانب الأقوى لن يدع غريمه دون أن يسلبه كل قدرة على المقاومة بل إنه دون شك سيقضى عليه قضاء مبرماً .

وكان هذا التعادل بين طرفى الصراع ناشئا من ظهور هذا الرجل النكرة الذى حذر موسى ائتمار الملأ به، ونصحه بالخروج، وبذلك حافظت القصة على بقاء طرفيها، لتتأخر المواجهة ويتأخر الصراع إلى حين﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) ﴾(١) ويتبعه السياق خارجاً من المدينة خائفاً يترقب وحيداً فريداً غير مزود إلا بالإيمان بالله وهو حسبه ، فقط يحدد السياق وجهته ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) ﴾(٢)

وفى لمحة سريعة يطوى السياق القرآنى الزمن،كما يطوى المكان على رحابته

---

(١) سورة القصص:الآية:٢١ .

(٢) سورة القصص:الآية:٢٢ .

واتساعه ليضع القارئ في مكان جديد ويواجهه بأحداث جديدة، بل قصة جديدة :

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) ﴾(١)

إن الأحداث هنا تأتي متلاحقة سريعة في جمل قصيرة أيضا سرد سريع فيه إبانة ووضوح، وجمل حوار خاطفة ولكنها مصورة، فموسى ورد ماء مدين، وسقى واستراح، وجاءته إحداهما تبلغه دعوة أبيها قدم عليه وقص عليه قصته ، وأمنه الرجل، كل ذلك في آيات قليلة ونقلات سريعة متلاحقة تلهث وراءها الأنفاس في متعة رائعة، ولعلك لاحظت كلمة «على استحياء» إنها الإعجاز، لقد وقع موسى من نفس الفتاة موقعاً حسنا، ولكن القرآن لايذكر ذلك، وإنما يشير إليه هذه الإشارة المعجزة، فالاستحياء هنا من نفسها، إذ تحس أنه وقع من نفسها، وهي تستحي من هذه المشاعر التي تخالجها، والكلمة في الوقت نفسه تمهيد مغر لما سيقع بعد ذلك من أحداث(٢) .

إن القصص القرآني يحكي وقائع تاريخية ويروى أحداثاً خرجت إلى الوجود في زمن سحيق ، ومنزل القرآن-سبحانه - يعرض علينا الوقائع والأحداث أحسن عرض بأبهى لفظ وأحسن أسلوب، وهو- سبحانه - قادر على أن يخضع أعناق عباده ويقسرهم على مايريد، وقادر أن يغير طبائع الأشياء ويسلبها خواصها كما سلب النار خاصية الإحراق في قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام- : ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾(٣) فما بال قصة موسى تسير على هذا النحو؟ إذ تتوارى مظاهر القدرة الإلهية وتدفع بالأحداث إلى الظهور حدثاً إثر حدث ، حقاً إن مشيئة الله لاتتخلف لحظة ، وقد رته لاتنفك برهة من زمن عن رقاب المخلوقات جميعاً، وقد مر-في بداية هذا الموضع من القصة كيف وقعت بعض الأمور الدالة على قدرة الله ومشيئته، فهـا هو

---

(١) سورة القصص : ٢٣ : ٢٥

(٢) السرد القصصي في القرآن الكريم . صـ ٦١ ، ٦٢ .

(٣) سورة الأنبياء الآية ٦٩

الأمر بالقاء موسى فى اليم، وها هو ذا موسى يصل إلى أيدى أعدائه، ثم يعود سالما لأمه، فقدرة الله لاتحتاج الى دليل، ولكن معظم أحداث هذه القصة تجرى على نسق آخر غير نسق القدرة المهيمنة ، وتصطبغ بصبغة أخرى هى الصبغة الإنسانية، فمثلا علم موسى بمؤامرة فرعون ضده عن طريق إحدى شخصيات القصة ولم يخبر بوحى من عند الله – سبحانه – وكان هذا الإخبار سبباً فى نجاته من المؤامرة والقتل وكان سقيه للفتاتين سبباً فى أن يجد ملجأ وملاذاً له فى أرض مدين .

ثم ها هى ذى القصة تضرب بجذورها فى عالم الإنسانية : ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ (٢٦) ﴾(١)

وهنا وقفة لابد منها ليعلم كتاب القصة الفنية كيف يقنعون قراءهم بالأحداث التى يوردونها فى قصصهم، وكيف يأتى هذا الإقناع من الحدث نفسه حين يأتى متساوقاً مع الحال النفسية التى تتلبس بها الشخصية الفاعلة للحدث .

إن موسى سقى للفتاتين دون أجر، ثم استدعاه والدهما بعد أن أخبر تاه بأمره، ثم جاء فقص عليه، فأمنه، ولعله أطعمه وسقاه فاطمأن، وعزم على المقام فى هذه المنطقة الآمنة، فما موقف الرجل وابنتيه فى هذه الحال ؟ أيتركون موسى يمضى فى سبيله ليستأجره إنسان آخربرغم أنهم أحوج ما يكونون إليه ؟ أم يستبقونه عندهم إن ذلك سيكون داعياً إلى إطلاق ألسنة الناس بالباطل، والأجير يمكن أن يترك مستأجره عند أول هفوة تقع منه، لعل ذلك كله دار فى خلد الفتاتين، وفى خلد أبيهما أيضا، فلابد من البحث عن سبب يجعل مقام هذا الشاب، الغريب فى بيت هذا الشيخ مقاماً مشروعاً، إنه الزواج ولاشئ غيره، وإذا كان الأمر كذلك فممن يأتى العرض؟ أمن موسى؟ كيف وهو غريب فريد فقير لا يملك نقيراً ولا قطميراً؟ وربما غلب على ظنه أنهلو عرض نفسه لرفض ، بقى الوالد وابنتاه، أما الوالد فإنه لايدرى كيف يقع هذا العرض فى نفس الفتى، وهل يميل إلى أى الفتاتين إن كان ذلك، أو أن أيا من الفتاتين تميل إليه ؟ وبقى الفتاتان ولابد لإحداهما أن تجلى هذا الموقف المتشابك الخيوط، لاضرورة للتصريح، فالتصريح لايناسب المرأة فى هذا الأمر بالذات ، ولكن لها أن تعرض بما تريد دون أن تجبر على ماينافى فطرتها

---

(١) سورة القصص الآية ٢٦ .

وطبعها، وقد كان، فأرسلت إحداهما الكلام كالسهم النافذ (قالت إحداهما يأبت استئجره) وهذا يكفى ليعلم الأب أن ابنته راغبة فى الفتى ثم هـ تلقى بقضيتها وتفصح عن رغبتها فى ألفاظ قليلة، فالموقف لايحتاج إلى أكثر من التلميح ، ويكفى من الأدلة ماينهض على صلاح هذا الفتى للاستئجار فهو قوى أمين، والقوة والأمانة إذا اجتمعتا فى رجل واحد فلاشك أن كل فتاة ستهفو إليه .

وينمو الحدث فى هذا الوقت على يد والد الفتاتين، فإذا به يستجيب لرغبة ابنته، ويجمع فى عرضه على موسى بين غايتين : استئجاره وزواجه من إحدى ابنتيه :﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) ﴾(١)

إن هذا الأسلوب لا يحمل الأحداث فقط ولكنه يحمل مشاعر صانعى الأحداث أيضا، إن الزواج والاستئجار حدثان صغيران جداً بالنسبة إلى الكلمات الكثيرة التى جاءت على لسان الرجل، وإنما القصد إلى بيان الألفة التى حدثت بين موسى والرجل، ولذلك أسهب الرجل فى كلامه، فهو يريد أن يستبقيه أطول مدة ممكنة، وهو يطمئنه إلى أنه لن يشق عليه، يعده أن يكون معه من الصالحين ، ويستعين على ذلك بمشيئة الله – سبحانه – وكان من الممكن أن تسكت القصة عن رد موسى وتأتى بما يفيد موافقته، وهى قد أتت به فعلاً فى قوله (فلما قضى موسى الأجل)، ولكن رد موسى هنا له مغزاه، لأن العقد بينهما عقد نكاح وهو يستدعى موافقة الطرفين، فإنه لو سكت لظن أنه غير راغب فى الزواج، وقد قدم والد الفتاتين أمر الزواج وأخر الاستئجار، فهو يغرى موسى بالبقاء، ويجعل من وجوده فى بيته أمراً مشروعاً، وثمة شئ آخر وهو أن صوت موسى كان غير مسموع بالمرة فى مساحة طويلة من القصة، فآخر عهد للقارئ به حين قال : (رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير)، والآن آن له أن يتحدث وأن يبدى موافقته الصريحة .

ويفيد الحوار السابق أمراً آخر حين يكشف عن نوع العلاقة، ونوع المعاملة التى

---

(١) سورة القصص الآيتان ٢٧ ، ٢٨ .

سادت بين موسى وحميه فى هذه السنوات العشر التى اختتمت بها المرحلة الثانية من القصة، وبدأت بعدها المرحلة الثالثة بقوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢) ﴾ (١)

انتهت المرحلة الثانية من القصة وكانت يغلب عليها الطابع الإنسانى، أما فى هذه المرحلة الجديدة فتأخذ القصة اتجاهاً آخر، وتصطبغ بصبغة أخرى، فالاتجاه يميل إلى ذكر الأحداث الغريبة التى لايستطيع البشر أن يستوعبوها لغرابتها، وصعوبة إدراكها أو حتى تخيلها، فبينما موسى يسير بأهله إذ هو يرى ناراً فيستأنس برؤيتها ، لأنها فى العادة تدل على وجود قوم آخرين، فهل استأنس بالنار لأنه كان قد ضل الطريق ؟ لعل ذلك كان أو لأنه وزوجته كانا يعانيان برد الصحراء(٢)؟ لعله أيضا كان ، إن طريقة العرض القرآنى ترغم على التفكير فيما وراء الألفاظ حتى يندمج المرء مع القصة القرآنية ويعيش فيها بنبضه وإحساسه وتفكيره كله، وتلك هى قمة الإعجاز فى العرض القصصى.

ثم يأتى هذا التحديد الدقيق للمكان لينبئ أن حدثاً جليلاً سيحدث ، وأن أمرا لم تعرف الأرض مثله سيهزها هزا، فإن الذات الإلهية تخاطب إنساناً :(إنى أنا الله رب العالمين)ثم يعقب الخطاب أمر بإلقاء العصا، ذلك الشئ المألوف فى يد موسى، فإذا بها حية تهتز كالجان، وإذا كان القارئ لم يستوعب هذا الحدث الغريب المفاجئ، فإن موسى نفسه حين رأى ذلك ولى مدبراً ولم يرجع ليعرف مابها(٣) .

وإذا كان للقارئ أن يعجب لما يرى من أحداث عجيبة فله أن يعجب أيضا لهذا

---

(١) سورة القصص:الآيات:٢٩ : ٣٢ .

(٢) التفسير الكبير،للفخر الرازى،المجلد الثانى عشر:جـ٢٤ صـ١٨٣، ١٨٤، ٢٤٥ .

(٣) انظر:السرد القصصى فى القرآن الكريم صـ ٦٣ ، ٦٤ .

التعاقب بين الأمن والخوف فى نفس موسى: فى لحظة يخاف، وفى لحظة تالية ينتفى الخوف ويسود الأمن، وقد خاف قبل ذلك وأمن ، ولعل هذا التعاقب بين الأمن والخوف فى نفس موسى يكشف عن الصراع الذى يعاينه سواء أكان صراعاً ضد الظروف المحيطة به، أم كان بينه وبين غيره من الشخصيات فى القصة أم كان صراعاً داخلياً، ولست أعنى بالصراع الداخلى هنا أن هناك تنازعاً بين عقل موسى وهواه وإنما أعنى هذا الاضطراب الذى يحسه نتيجة لتعاقب الشدائد والأهوال والأحداث المفاجئة .

ماكاد موسى يهدأ ويطمئن من تحول العصا ثعباناً حتى وقع له حدث غريب آخر، إذ أمر أن يدخل يده فى فتحة ثوبه فنفذ الأمر،ثم أخرجها فإذا هى بيضاء لامعة من غير مرض، فيخاف موسى – عليه السلام – فيؤمر أن يضم يده إلى صدره ليذهب خوفه وليطمئن. وكان هذان الحدثان الغريبان اللذان سببا الخوف لموسى مقدمة لأمر عظيم سيتلقاه موسى، ذلك هو أمر الرسالة : (فذاك برهنان من ربك إلى فرعون وملأه إنهم كانوا قوم فسقين) ، وهنا يتذكر القارئ بداية القصة أو بمعنى أدق يتذكر وعد الله إلى أم موسى يوم كان صبياً صغيراً : (إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) وقد صرح السياق بأن موسى سيكون رسولاً فلما جاءت لحظة الإرسال حذف السياق ما يشير إليه وكأن التصريح به فى البداية أغنى عن إعادة ذكره، وإنما اكتفى بتحديد المرسل إليه وهم فرعون وملؤه وفى ذلك تناسق فنى بل إعجاز فى البناء القصصى .

إن آخر عهد للقارئ بما حدث بين موسى وقوم فرعون هو مقتل ذلك القبطى على يد موسى، وخروجه من مصر إلى مدين، وقد قفز هذا الحادث إلى ذهن موسى حين سمع الأمر الإلهى بالذهاب إلى فرعون، فعاوده الخوف مرة أخرى، وهو خوف له مايبرره، فإن فرعون ربما يتلقفه فيقتله بذلك القبطى الذى قتله قديماً، فتضيع الرسالة التى يحمل أمانتها، وهناك خوف آخر ، إنه الخوف من التكذيب الذى قد ينشأ عن تقصير موسى فى الإبانة أمام فرعون، ولذا طلب من ربه أن يعضده بأخيه هارون لأنه أفصح لساناًمنه، وأقدر على الدفاع عن الدعوة : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤) ﴾ (١)

---

(١) سورة القصص:الآيتان:٣٣، ٤٣ .

إن الحديث عن آيتي العصا واليد البيضاء وضع القصة في إطار الحوادث الغيبية التي تستعصي على الفهم الإنساني ، وأدخلها في محيط القدرة الالهية المهيمنة ، وكأن موسى – عليه السلام– خشي – بعد أن تلقى أمر ربه بالذهاب إلى فرعون – أن تعود الأحداث الى محيطها الإنساني الذي دارت فيه القصة في حلقتها الثانية، ولكن الله – سبحانه – طمأنه إلى أنه لن يواجه فرعون منفرداً، ولن يواجهه بمعزل عن القوة الإلهية، فالقدرة ستتجلى على مسرح الحوادث، وتؤدي دورها مكشوفاً بلا ستار من قوى الأرض، لتكون الغلبة بغير الأسباب التي تعارف عليها الناس ، فأجاب الله دعاءه، وشد عضده بأخيه، وزاد على هذه الإجابة البشرى بأنه لن يذهب هو وأخوه إلى فرعون مجردين، وإنما سيذهبان إليه مزودين بسلطان لايقف له في الأرض سلطان، وزيادة في البشرى طمأنه الله إلى أن الغلبة ستكون له ولأخيه في صراعهما المقبل مع فرعون وملأه . (١)

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥) ﴾(٢)

بهذه الآية ينتهي مشهد موسى – عليه السلام–في سيناء ويأتي بعده اختصار سريع للمحاورات التي دارت بين موسى وفرعون، ثم نهاية القصة التي تذكر مجملة أيضا:

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ (٤١)

(١) انظر : في ظلال القرآن " جـ٥ صـ٣٩٦٢ .

(٢) سورة القصص:الآية:٥٣

وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) ﴾(١)

قلت : إن ماورد فى هذه الآيات اختصار سريع للأحداث والمحاورات بين موسى وفرعون ، ويبدو ذلك من الآية الأولى التى تقفز إلى الحديث عن الآيات التى أبداها موسى لفرعون، وهى العصا واليد، ولذلك جاء رد فرعون وملأه عليه بقولهم : ما هذا إلا سحر مفترى، وهم لم يتهموا موسى بأنه ساحر إلا بعد أن قطع شوطاً غير قصير فى جداله مع فرعون ويوضح ذلك سياق هذا الموضع فى سورتى : طه(٢) والشعراء(٣) وقد جاء الاتهام بالسحر على لسان فرعون وملأه جميعاً ولذا عبر السياق بـ (قالوا) فى حين أن هذا الاتهام جاء على لسان فرعون وحده فى سورتى طه والشعراء ، وجاء على لسان الملأ وحدهم فى سورة الأعراف (٤) (قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لسحر عليم) فكأن السياق هنا جمع قول فرعون وقول الملأ، مما يدل على أن فى القصة هنا تكثيفاً للمحاورات على غرار ما جاءت عليه قصة نوح – عليه السلام – فى سورة هود (٥)

ويوضح هذا التكثيف – أيضا – العطف بالواو فى قوله تعالى : (وقال موسى ربى أعلم بمن جاءا الهدى..) وقوله :(وقال فرعون يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى ..) هذا العطف بالواو يوضح أن بين هذه الأقوال فاصلاً زمنياً ، وأن ما قاله كل طرف من الطرفين كان فى مجالس عديدة، وهذا التهكم من فرعون : (فأوقد لى يهمن على الطين فاجعل لى صرحاً لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكذبين) هذا التهكم لم يرد إلا فى مرحلة متأخرة من محاورات موسى وفرعون على ماهو واضح من سياق قصة الرجل المؤمن من آل فرعون فى سورة غافر(٦).

وفى ختام هذه الحلقة من القصة يرد الحدث الذى يضع النهاية المنتظرة لهذا العتو والتكبر من فرعون وملأه : ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ

---

(١) سورة القصص:الآيات: ٣٦، ٤٢ .

(٢) سورة طه:الآيتان: ٥٦، ٥٧.

(٣) سورة الشعراء:الآيات:٣٣ ، ٣٤.

(٤) سورة الأعراف:الآية:١٠٩ .

(٥) سورة هود:الآيات: ٢٥، ٣١

(٦) سوة غافر:الآيات: ٢٣، ٤٥ .

عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) ﴾(١)

ونلحظ على هذه النهاية بعض الأمور :-

أولا : الإيجاز الدال المصور، الدال:على السرعة فى وقوع الحدث،(أخذٌ فنبذٌ)هكذا فى سرعة خاطفة، المصور:لهؤلاء المأخوذين المقذوفين فى اليم، وكأنهم حصاة تقذف أو حجر يرمى .

ثانيا : هذا اللفظ المشترك بين حدث البداية وحدث النهاية، لفظ اليم، إنه ليس لفظاً فقط، وإنما هو عامل حاسم فى أحداث القصة؛فبينما هو فى البداية عامل مساعد على تطور الأحداث ونموها يوم كان اليم مأمناً وملاذاً لموسى وأمه الخائفة، إذ هو فى النهاية سبب الهلاك للقوة الباغية العادية، وشتان ما بين موسى وفرعون وجنوده، لقد وضع موسى فى اليم وهو طفل صغير لاحول له ولاقوة فخرج منه سليماً معافى ، وقذف فرعون وجنوده فيه فلم يخرجوا منه، وإنما ابتلعهم رغم قوتهم وجبروتهم.

ثالثاً : هناك لفظ مشترك آخر بين مقدمة القصة ونهايتها، إنه لفظ (أئمة)، ففى المقدمة ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴾ وفى النهاية جاء عن فرعون وقومه ﴿ وجعلنهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيمة لاينصرون ﴾ لقد شاءت إرادة الله أن يجعل لبنى إسرائيل الإمامة فى الدنيا فكانت، وجعل لفرعون وقومه نصيباً من الإمامة أيضا، ولكنها إمامة من نوع آخر، إنها إمامتهم للمجرمين فى الآخرة إذ يدعونهم إلى النار ولايكتفون بأن يكونوا منهم.

رابعاً : هذا التداخل بين مشاهد النهاية ، وهو تداخل بين مشاهد متباعدة زمناً ومكاناً، وليست مشاهد عادية من القصة تجمعها وحدتا الزمان والمكان،وهذا التداخل واضح فى قوله تعالى : (فأخذنه وجنوده فنبذنهم فى اليم .. وجعلنهم أئمة يدعون

---

(١) سورة القصص الآيات ٤٠ : ٤٢ .

إلى النار)، فالمشهد الأول فى الدنيا وهو مشهد الغرق، والمشهد الثانى يعبر الحياة الدنيا ويجتازها فى لمح البصر، ويصور فرعون وجنوده فى هذا المنظر العجيب حيث يدعون إلى النار ويقودون إليها الأتباع والأنصار (١)

وهذا التداخل – فى صياغته المعجزة – يحمل معنى النهاية بل يحمل معنى الأحداث كلها مغلقاً بهذا الغلاف الشفيف، إن معنى القدرة الإلهية الكائنة وراء هذه النقلة العجيبة للأحداث من عالم إلى عالم، القدرة الإلهية القادرة على إلحاق الهزيمة بالطرف الباغى فى الدنيا فى المشهد الأول، والقادرة أيضا على إلحاق الهزيمة به فى الآخرة فى المشهد الثانى.

وهناك معنى آخر واضح تحمله التعقيبات التى تلت القصة ، ويدور هذا المعنى حول دلالة إيراد هذه الأحداث المتصلة على صدق دعوى الوحى لرسول الله – صلى الله عليه وسلم –: (وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشهدين – ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وماكنت ثاوياً فى أهل مدين تتلو عليهم وءايتنا ولكنا كنا مرسلين وماكنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون) (٢)

فى قصة موسى السابقة يجد القارئ أن الأسس الثلاثة الرئيسة التى تعتمد عليها القصة فى بنائها الفنى وهى الحدث، والشخصية، والحوار والسرد، يجدها متوفرة فيها بمعنى أن العنصر السائد فى القصة هو مجموع هذه الأسس الثلاثة، وقد يطغى الحدث فى بعض أجزائها ويحتل مكان الصدارة، وتسود الشخصية فى أجزاء أخرى وقد يسود الأسلوب أحياناً، مع بقاء التوازن بينها جمعياً على مدار القصة .

وفى القصص الأدبى الحديث قد تسود الحادثة وتصبح هى العنصر السائد فى القصة وهو ما يعرف بقصة الأحداث، فالكاتب يعتمد فى قصته اعتماداً كلياً على حركة الأحداث(٣)، ولذا كان هذا النوع من القصص أقل من غيره فى المرتبة الفنية ، وكانت منزلته الأدبية أقل كثيراً من أجناس القصة الحديثة الأخرى(٤) ، تلك هى القصة

---

(١) انظر : فى ظلال القرآن جـ٥ صـ٢٦٩٥ .

(٢) سورة القصص الآيات ٤٣ : ٤٦ .

(٣) فن القصة د: محمد يوسف نجم صـ ٣٢ .

(٤) النقد الأدبى الحديث صـ٥٣٠ .

البوليسية، التى تضع للتسلية وإزجاء الوقت ثم لاشيء بعد هذا، فلاهى تحمل فى طياتها معنى آخر، ولا هى تهدف إلى فكرة أو هدف، ولكنها – فى الوقت نفسه – أمتع أنواع القصص، لأنها تعتمد فى بنائها على الغموض، إذ تبدأ بحدث معين يدعو إلى الدهشة والانبهار ، ثم تمضى بقارئها، وهو يضع التفسيرات لهذا الحدث وينشئها فى ذهنه، وتتغير هذه التفسيرات مع كل منعطف للسرد، ولايزال القارئ بين إمتاع بما وصل إليه ظنه وانصراف عنه، حتى تنتهى القصة إلى تفسير قد يكون بعيداً كل البعد عما أنشأه هو نفسه(١) .

ومعنى هذا أن القصة الأدبية تأبى أن تجمع بين المتعة الكاملة والهدف النبيل فى وقت واحد إذ أقصى ماتطمح إليه القصة البوليسية الممتعة أن تحظى بقدر ضئيل جداً من التحليل النفسى لايقاس بنظيره فى قصة الفكرة أو القصة ذات الرسالة كما يسمونها(٢).

وهناك أمر آخر فى القصة الأدبية وهو مايعرف (بالتصميم) ويعنى به تلفيق الحوادث وجمعها بعضها إلى بعض مع وجود علاقة بينها، ومنه مايعرف بالتصميم البسيط، والتصميم المركب بمعنى أن يكون تصميم القصة الطويلة، مكوناً من قصة واحدة، أو أن يكون مكوناً من قصتين أو أكثر، ويقتضى التصميم المركب أن تكون الأجزاء مترابطة ، ويفقد جودته إذا كانت القصة الطويلة مكونة من قصتين أو أكثر ليستا متداخلتين تداخلاً صحيحاً (٣).

وإعجاز القرآن يتبدى فى أن قصة واحدة جمعت ذلك كله فى طياتها، قدم القرآن قصة الحدث ذات البناء الفنى المحكم الذى يعتمد على الحدث وحده معروضاً – فى سرد شائق أخاذ معجز، وفى الوقت نفسه تجعل القصة من هذا السرد قصة ذات هدف بل أهداف .

والأعجب من ذلك أن القصة نفسها جمعت بين أصول القصة القصيرة وأصول القصة الطويلة فى وقت معاً، إنها قصة موسى مع العبد الصالح، فلنقرأها :

---

(١) السرد القصصى فى القرآن الكريم صـ ٧٠، ٧١ .

(٢) النقد الأدبى الحديث صـ٥٣٠ .

(٣) النقد الأدبى : أحمد أمين ط: مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الرابعة ١٩٧٢ صـ١٢١ .

﴿ وإذْ قَالَ مُوسَىٰ لفتٰه لاَ أَبْرَحُ حتىَ أَبْلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ۝ فلمَا بَلَغا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حوتَهُمَا فاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فى البَحْرِ سَرَبًا ۝ فلمَّا جاوَزَا قَالَ لِفَتٰهُ ءَاتِنَا غَداءَنَا لَقَدْ لقِينَا مِنْ سَفرِنَا هذَا نَصَبًا ۝ قَالَ أَرءَيْتَ إذْ أَوَيْنَا إلى الصَّخْرَةِ فإنى نَسِيتُ الحوتَ وَمَا أَنْسٰنِيهُ إلاَّ الشَّيْطٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُ واتَّخَذَ سبيلَهُ فى البَحْرِ عَجَبًا ۝ قالَ ذٰلِكَ ماكُنَّا نَبْغِ فارْتَدَّا علَى ءاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبادِنَا ءاتَيْنٰهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنٰهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ۝ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِى صَبْرًا ۝ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَالَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ۝ قَالَ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللّٰهُ صَابِرًا وَلاَ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ۝ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِى فَلاَ تَسْئَلْنِى عَنْ شَىْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِى السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ۝ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝ قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴾

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلٰمًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ۝ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّى عُذْرًا ﴾

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۝ قَالَ هٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَالَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝ وَأَمَّا الْغُلٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۝ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكٰوةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۝ وَأَمَّا

الْجِدَارُ .فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَافَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَالَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (١) .

إن الآيات الخمس الأولى تعد تمهيداً لأحداث القصة، بل لأحداث القصص الثلاث والتمهيد في نفسه يكاد يكون قصة و حده يجتمع فيها شخصيتان فقط، موسى وخادمه، وكانا في سفر سبب لهما النصب والتعب، وحدثت لهما بعض الحوادث العجيبه، وما إن ينتهي التمهيد وتبدأ الأحداث الأساسية للقصة حتى يفاجأ القارئ بأول خصيصة من خصائص القصة الطويلة، لقد اختفت شخصية فتى موسى، وظهرت شخصية جديدة، فالشخصيات في الرواية يظهرون شيئاً فشيئاً في تتابع، إنه العبد الصالح، وقد يبدو أنه لن يكون له أثر فعال في القصة، ولكن ماهي إلا أن تنتقل إلى الآية التالية حتى تدرك أنه قد أخذ مكان البطولة جميعاً ويدور بينه وبين موسى الذى أصبح تابعاً له حوار تظهر فيه شروط المتبوع حين يمليها على التابع الراغب في مصاحبته .

وفي إملاء هذه الشروط تشويق جذاب يشد القارئ إلى الأحداث قبل أن يبدأ العرض ، فما ظنناه حين تبدأ الأحداث وتتلاحق في سرعة وغرابة ؟! لن تستطيع معى صبراً، ثم لاتسألني حتى أخبرك، إذا فالعبد الصالح يعلم أنهما سيلاقيان في مسيرتهما هذه عجباً، وأن موسى سيرى أشياء يذهل لها، وأنه سيسأل .

ثم تبدأ الأحداث بانطلاق موسى والعبد الصالح وركوبهما سفينة تحمل جماعة من الناس، وإذبا لعبد الصالح يمديده فيخلع بعض ألواحها فيحدث بهاخرقاً، فأنكر عليه موسى فعلته واتهمه بأنه أتى أمراً منكراً، حين أراد أن يغرق السفينة بأهلها،

وينبه العبد الصالح موسى إلى ما اشترط عليه قبل صحبته له، فيعتذر له موسى متعللاً بأنه نسى ما بينهمامن شرط وعهد على عدم السؤال . وبهذا تنتهي القصة الأولى ويبقى تفسير هذا الحدث الغريب مجهولاً عند موسى .

ثم ينطلقان فيقع حادث غريب آخر على مرأى من موسى ، حين لقيهما غلام صغير فقتله العبد الصالح دون ذنب جناه فهولم يسئ إليهما ولم يعرض لهما بشئ، وأنكر عليه

---

١) سورة الكهف ، الآيات ٦٥ : ٨٢

موسى الأمر أيضا قال أقتلت نفسا زكيه بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً .

ويذكره العبد الصالح مره ثانية بما بينهما من شرط وبما قاله له فى بداية الصحبة ، ولكن موسى يحسم الأمر بينهما فيحل العبد الصالح من صحبته إن سأله عن شئ بعد ذلك . وهنا تنتهى القصة الثانية وقد ازداد موسى عجبا .

وينطلقان مرة ثالثة وقد أصابهما الجوع، فطلبا الطعام من أهل قرية من القرى التى مرا بها فرفضوا إطعامهما، ويرى العبد الصالح بيتاً من بيوت القرية يوشك أن يتساقط فيمديده إلى جدره فيقيمها، فيعجب موسى لهذا الموقف المتناقص من العبد الصالح، إنهما لم يلقيا من أهل القرية غير الجفاء والمنع، ثم يقوم العبد الصالح بإصلاح أحد بيوتها دون أجر، ففاضت مشاعر موسى فأنكر هذا الفعل الذى لم يقع فى موقعه حسب ظنه، قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً فنحن أحوج ما نكون إلى الأجر. وهذه كانت الفاصلة بينهما – على ماشرط موسى على نفسه – ففارقه العبد الصالح بعد أن أخبره بأسرار هذه الأحداث العجيبة التى رآها فأنكرها .

وفى كشف أسرار الأحداث تكمن الأهداف التعليمية من القصة، وهى ليست أهدافاً خاصة بموسى وحده، وإنما هى تعليم لكل من يقرأ القصة، فالسفينة لمساكين يعملون فى البحر فأراد أن يعيبها حتى لايستولى عليها ملك ظالم كان يتربص بأصحاب السفن فيأخذها منهم غصباً، فكأن فى عيبها سلامة لها، وضمانا لأصحابها المساكين، لاشك أن هذا السبب لم يكن ليخطر على بال موسى، ولا على بال أحد أبداً وهذا هو الهدف الأول.

والغلام المقتول كان أبواه مؤمنين. وكان العبد الصالح يخشى أن يرهقهما طغياناً وكفراً، فخلصهما منه لكى يهب الله لهما خيراً منه وأقرب رحما، وهذا هو المعنى الرفيع الذى يتخفى وراء هذه القصة، ولاشك أن الأبوين حسبا هذا القتل كارثة حلت بهما، لأنهما لايطلعان على الغيب ، فوراء هذا الحدث العجيب : أنه رب كارثة حاقت بإنسان ما، فإذا اطلع على الغيب رآها نعمة أحسن الله – سبحانه – تقدير هاله .

فما شأن الجدار إذا ؟ إنه لغلامين يتيمين فى المدينة، وكان تحته كنز لهما، وكان أبوهما صالحاً، فأراد الله – سبحانه – أن يحفظ لهما الكنز حتى يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من الله بهما(١) .

(١) انظر : السرد القصصى فى القرآن الكريم . صـ ٧٣ : ٧٦ .

و : القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه . صـ ١٧٣ : ١٧٦ .

ثم إن العبد الصالح يخبر موسى بأن مافعله ليس بأمره هو وإنما كان أداة لتنفيذ مشيئة الله – سبحانه – وذلك لكي يستل ما عساه أن يكون فى نفس موسى من غضب لهذه الأحداث التى لم يطق السكوت عليها .

إن العنصر السائد هنا هو عنصر الحدث، وعليه يقوم التشويق فى القصة ، من البداية حتى النهاية، فالأحداث متلاحقة وغريبة،بل عجيبة إلى درجة أن موسى الذى كان فى قلبها أنكرها، والقارئ منكر لها أيضا، ولا يجد لها تعليلاً قريباً ولابعيدا ، ولكنه يهدأ وتستقر نفسه حين يصل إلى النهاية التى يكشف فيها العبد الصالح عن أسرار هذه الأحداث التى تسبب الدهشة.وقمة التشويق تكون حين تحتفظ القصة بالمفاجأة إلى النهاية على نحو ما ورد فى هذه القصة .

ولم يمنع سيطرة عنطر الحدث على القصة من أن تجمع فى طياتها هذه الأهداف النبيلة التى عرفناها . فكل قصة من القصص الثلاث لها هدف مقصود ولكنهاجميعاً تتضافر على إبراز هدف عام ينتظم القصة الطويلة كلها .

يقول النقاد : إن العلم هو عماد القوى المتصارعة فى القصة التى تعتمد على الحدث وحده [١] فهل يستطيع كاتب من البشر أن يجعل العلم محور التصارع فى قصة كما هى الحال فى هذه القصة القرآنية ؟ إن موسى هنا لايرى من الأشياء إلا ما على السطح، أو ماوراء السطح بقليل، أما أعماق الأشياء، وأما صميمها فليس له إليه سبيل مهما بلغ علمه ، ومهما كانت معارفه، إن له حدوداً لايتجاوزها وله مجالات لايخرج عنها، وفى هذه الحدود يعمل، وفى هذه المجالات يتحرك، حسب تقديره وتفكيره ، أما العبد الصالح فإنه يرى من الأشياء ما غاص فى الأعماق ، فيجاوز سطح الحدث إلى قلبه وعمقه فيرى مالا يراه غيره ومن ثم فحدوده أرحب وأوسع لأن علمه وافر ، ومعارفه لاحدود لاتساعها .

وهذا الاختلاف فى العلم بين القوتين جعل الأحداث تسير فى اتجاهين مختلفين تمام الاختلاف، اتجاه يسير فيه الظاهر فى مستوى الحياة التى يحكمها منطق الناس، وتحتمله مدركاتهم، وتناله عقولهم، واتجاه آخر على مستوى عال بعيد عن مألوف الحياة،

---

(١) النقد الأدبى الحديث صـ ٥٢٩ .

وخارج عن نطاق الإدراك الذى يتعاملون بمقتضاه، إنه على أعماق بعيدة لم تصل إليها رؤية الناس بعد(١) .

إن هذه الرؤية الثانية العميقة ماهى إلا رؤية القدر أتاها الله – سبحانه – لمن اصطفاهم من خلقه فجعلهم كأنهم أصحابها وماهم – فى الحقيقة – إلا أداة لتبليغها إلى الناس، والعبد الصالح هنا هو الأداة المختارة لتبليغ رسالة القدرة إلى البشرية كلها فالله يقول عنه : (وعلمنه من لدنا علما) وموسى يقول له : (هل اتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا) فموسى يعترف له بفضله، ومع ذلك لايصبر على التعلم منه لأنه لايدرى قدر الله فى هذه الأحداث وما أحسن قول القائل (٢) :

(ألا من يرينى غايتى قبل مذهبى ومن أين والغايات بعد المذاهب ؟!

فلو علم موسى – عليه السلام – الغاية من الأحداث لقص علينا من هذه الأعاجيب الكثير ، ولذا صح عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما» (٣).

ويبدو هذا المزج العجيب بين القصص الثلاث التى عرضتها القصة القرآنية، فكل واحدة منها جزء أساس من بناء القصة الطويلة لايمكن أن تفصل عنها، ولاتصلح إحداها إلا بالأخرى ، فإذا أراد النقاد والقصاص أن يتعلموا كيف يكون «التصميم» والمزج بين القصص المتعددة فى الرواية فليتعلموه من هذه القصة المعجزة .

بقى فى هذه القصة أمران فى غاية اللطف والدقة. لايتصلان بالبناء الفنى للحدث، ولكن يتصل أولهما بالأسلوب التعبيرى، ويمثل الآخر نوعاً من الإسقاط فى القصة القرآنية .

الأمر الأول : خاص بأسلوب التعبير فى نهاية القصة، فنسمع العبد الصالح – حين يفسر الأحداث الثلاثة – ينسب الفعل الأول إلى نفسه حين أسنده إلى ضميره خاصة فقال (فأردت أن أعيبها) وذلك من باب الأدب مع الله ، لأن المراد هنا عيب، فتأدب ثم نسب العيب إلى نفسه، وأسند الفعلين فى الحدث الثانى إلى ضمير الجماعة أو المعظم

---

(١) القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه صـ ١٧٣، ١٧٦، ١٧٧ .

(٢) البيت لابن الرومى ، ديوانه جـ١، صـ١٢٨، تحقيق :د. حسين نصار، ط:١٩٧٦،القاهرة، دار الكتب المصرية.

(٣) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، جـ : ٨ صـ ٢٦٢

نفسه (فأردنا أن يبدلهما ربهما) (فخشينا أن يرهقهما) والظاهر أنه يجرى مجرى مايقوله خواص الملوك حين يقولون : أمرنا بكذا ودبرنا كذا ، وإنما يعنون : أمر الملك ، ودبر الملك، ولذا أسند الفعل فى الثالثة إلى رب العزة – سبحانه – فقال : (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما) لأن الفعل هنا خير محض لاشبهة فيه ، وهذا من الدقة التى لايجدها المرء إلا فى القرآن الكريم (١).

الأمر الثانى : خاص بالإسقاط فى الحدث فى القصة القرآنية، والإسقاط هنا لايعود على حدث من أحداث هذه القصة هنا، وإنما يعود من أحداث القصة الثلاثة على ثلاثة أحداث فى قصة أخرى، هى قصة موسى فى سورة القصص، روى القرطبى فى تفسيره قال : «وقيل فى تفسير هذه الآيات التى وقعت لموسى مع الخضر : إنها حجة على موسى ، وعجبا له، وذلك أنه لما أنكر أمر خرق السفينة نودى : ياموسى أين كان تدبيرك هذا وأنت فى التابوت (مطروحاً) فى اليم ! فلما أنكر أمر قتل الغلام قيل له : أين إنكارك هذا من وكزك القبطى وقضائك عليه ! فلما أنكر إقامة الجدار نودى : أين هذا من رفعك حجر البئر لبنات شعيب دون أجر !» (٢).

إن هذا الإسقاط بين الأحداث الثلاثة قد أفاد أمرين :

أولهما : تأكيد المعنى العام المراد من القصة كلها ، وهو التفاوت فى العلم بين إنسان وآخر، وأن الإنسان الأقل علماً قديرى مايدهشه ويفزعه، فماذ يكون سلوكه؟ إن القصة تريد أن تقول إن المسارعة إلى إنكار الأمور الغريبة أمر غير محمود، فلابد من التروى والتأنى ، فهذا موسى أغفله التسرع فى إنكار الأمور عما وقع له وما وقع منه من أحداث كالتى ينكرها تماما .

الأمر الثانى : إن الانصراف إلى دراسة المعانى الجزئية فى آى القرآن الكريم وسورة نفعه قليل إذا قيس بمنهج الدراسة حين تتناول القرآن كله بوصفه نصاً واحداً مرتبطاً بعضه ببعض، لقد توجه جهد الأستاذ سيد قطب إلى دراسة السورة القرآنية بوصفها موضوعاً واحداً يجمع بين أجزائها، فهل مثل هذه اللفتة من قصص موسى تريد أن توجهنا إلى تخطى مرحلة وحدة السورة أيضا بعد أن تخطى علماؤنا المحدثون مرحلة

(١) انظر:الكشاف ، جـ : ٢ صـ ٧٤١ .

(٢) تفسير القرطبى جـ٦ صـ ٤٠٧٢ .

المعانى الجزئية؟ لعل ذلك يكون من مقاصد هذه اللفتة من قصة موسى ، ولعل لها مقاصد أخرى غفلت عنها .

وأخيراً فلعلنا لاحظنا فى القصة أمراً فى غاية الأهمية ، وهو علاقة الشخصية بالحدث فى القصة القرآنية، وتتخلص هذه العلاقة هنا فى أن الشخصية تقفز إلى قلب الحدث مادام دورها مؤثراً وفعالاً فى إدارته وتطويره كما حدث لشخصية العبد الصالح .

كما أن القصة القرآنية تذكر السخصية مادامت فى بؤرة الأحداث فإذا انتهى دورها لم تذكرها، كما حدث مع شخصية فتى موسى الذى ذكر فى بداية القصة ثم تلاشى دوره تماماً فأهملته القصة ولم تعد تذكره ثم ركاب السفينة والغلام . الذى قتل ، ظهروا جميعاً ظهوراً خاطفاً ثم لم تعد القصة إلى أى منهم بعد ذلك .

وفى سورة القصص(١)، ذكرت القصة زوجة موسى لما قضى الأجل وسار بأهله .. فلما انتهى دورها لم يردلها ذكر بعد ذلك، وفى قصة آدم تلمح القصة إلى زوجه ، لأنها عنصر رئيس فى الحدث وذلك فى أكثر من موضع فى القرآن الكريم، ثم لاتهتم القصة بذكرها كما اهتمت بذكر آدم – عليه السلام – – وكذلك الشأن فى القصص القرآنى كله، وتفصيل ذلك وغيره مما يتعلق بالشخصيات فى القصة القرآنية هو موضوع المبحث القادم.

---

(١) القصص الآية : ٢٩ .

المبحث الثانى

الشخوص والنماذج البشرية

الشخوص عنصر أصيل من عناصر القصة وأساس لابد منه، فهم الذين يفعلون الأحداث ويتلقونها ويتفاعلون معها ، وهم الذين يتخاطبون فيما بينهم ويتحاورون ، وكما أن القصة "لا يمكن أن تخلو خلواً تاماً من عنصر الحدث لا يمكن أن تخلو – أيضاً– من عنصر الشخصية"(١) . وقد تكون الشخصية في القصة حيواناً أو طيراً أو جماداً، وهذه الثلاثة الأخيرة خارجة عن نطاق الشخوص الإنسانية التي أولاها الكتاب والنقاد المحدثون عنايتهم البالغة .

وبلغ من عنايتهم بها أن كثيراً من النقاد المحدثين يميلون إلى عد الشخصية أهم عنصر من عناصر الفن القصصي ، وذلك نظراً للاهتمام الكبير الذي يوليه الكتاب المعاصرون لها ، ونظراً لوجود مدارس متعددة في شرحها ورسمها وتصويرها وبيان أهميتها (٢).

والنقد الحديث يميز بين نوعين من الشخصيات القصصية :

أولاً : الشخصية الإنسانية . ويقصد بها (الأفراد) رجالاً أو نساءً ، وهذه لابد أن تكون لها مشخصاتها الدقيقة ، وخصائصها المميزة، وقسماتها الفارقة، وبذلك تختلف وتتميز عن غيرها من الشخصيات الأخرى .

ثانياً : النموذج البشري ويعرف بأنه "تجسيم مثالي لسجية من السجايا، أو لنقيصة من النقائص أو بطبقة أو مجموعة خاصة من الناس ، وهو يحوي جميع صفاتها وخصائصها الأساسية"(٣).

فالنموذج قد يكون فرداً ولكن الكاتب يركز على صفة بعينها من الصفات الموجودة فيه ، فيسلط عليها الأضواء ، ويستقصي في ضرب الأمثلة التي توضحها وتبرزها فيعطيه بذلك صفة النموذج . وقد يكون النموذج طبقة خاصة من الناس تجمعهم صفات معينة يوضحها الكاتب ويبرزها .

ولا يكون للنموذج – فرداً أو جماعة – قيمة فنية إلا إذا استطاع الكاتب أن يجعل

---

(١) الأدب وفنونه ، د: عز الدين إسماعيل ، ط : دار الفكر العربي ، الطبعة الثانية ١٩٥٨ م ص : ١٦٨ .
و : النقد الأدبي : أحمد أمين ، ص ١١٧ .

(٢) انظر النقد التطبيقي التحليلي ، د: عدنان خالد عبد الله ، ط : دار الشئون الثقافية بغداد، الطبعة الأولى ١٩٨٦ م ، ص ٦٦ .

(٣) فن القصة ، د : محمد يوسف نجم ، ص ١٠٥ .

منه مثالاً نابضاً بالحياة، ووسيلته إلى ذلك التصوير الفنى الجيد الذى يجعل النموذج أكثر إقناعاً وأعمق من نظائره فى الطبيعة (١).

والنقد الحديث يميز بين نوعين من القصة :

أولهما : قصة الحوادث، وفيها تنصب عناية القاص إلى الأحداث وتكون الشخوص مسخرة لتعقيد الحوادث وتوليدها .

ثانيهما : قصة الشخصيات ، وفيها يبرز عنصر الشخصية ويتوارى عنصر الحدث، ولا يتوجه إليه الاهتمام إلا بالقدر الذى يجعله يلقى الضوء على عقل الشخصية ونفسيتها (٢). ومن هذا النوع نشأت قصص التحليل النفسى التى يتوجه كتابها إلى دراسة النفس الإنسانية وتحليلها ، وشغل هذا اللون كثيراً من الكتاب فى القرن العشرين (٣)، وفى رحاب قصص التحليل النفسى ولدت أحدث طرائق العرض القصصى ، تلك التى عرفت باسم "تيار الوعى" أو "المونولوج الداخلى"(٤).

★★★

فى نهاية الفصل السابق أشرت إلى أن فى القرآن الكريم ما يسمى بقصة الحدث، وأن قصة موسى مع العبد الصالح تمثل هذا النوع أصدق تمثيل ، وإن كانت تفترق عن قصة الحدث التى تعارف عليها النقاد والقصاص فى أمر مهم غاية الأهمية ، وهو أنها ذات مغزى تعليمى واضح، فقد جمعت بين الفائدة والمتعة ، وهما ضدان لا يجتمعان فى قصة الحدث التى يكتبها القصاص .

أما قصة الشخصية أو القصة النفسية أو التحليلية فليس هناك ما يؤكد وجودها فى القصص القرآنى فليس فى القرآن قصة ممحضة للتحليل النفسى من أولها إلى آخرها بالمعنى الذى تعارف عليه النقاد ، وذلك ربما يرجع إلى عدة أمور :

---

(١) انظر : النماذج الإنسانية فى الدراسات الأدبية المقارنة ، د: محمد غنيمى هلال، ط : دار نهضة مصر ، ١٩٥٧ م ص : ٥ .

و : الأدب المقارن ، للمؤلف نفسه ، ص ٢٩٣ .

و : الأدب المقارن ، د: حسن جاد حسن ، ط : دار الطباعة المحمدية ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٥م ، ص : ١٨٣ .

(٢) انظر فن القصة ، د: محمد يوسف نجم ، ص : ١٤٣ ، وما بعدها .

و : بناء الرواية ، تأليف : إدوين موير ، ترجمة : إبراهيم الصيرفى ، ط : دار الجيل للطباعة نشر : المؤسسة المصرية العامه للتأليف والأنباء والنشر ، ص : ٤ وما بعدها .

(٣) انظر النقد الأدبى الحديث ، ص : ٥٢٦ ، ٥٢٧ .

(٤) انظر فن القصة ، ص : ٧٨ : ٨٢ .

أولاً : أن قصة التحليل النفسي تكاد تكون خالية من الحركة ،وأن الصراع فيها يكون خافتاً أو منطوياً في داخل الإنسان ، والقرآن كتاب توجيه يعنيه أن يتعامل مع الظاهر المعلن ، صراع الإنسان في مواجهة الإنسان ، وصراع الحق في مواجهة الباطل ، ويؤثره على الصراع الخافت المتوارى .

ثانياً : أن قصة التحليل النفسي تتبع الطريقة التحليلية في رسم الشخصيات وهذه ليست الطريقة المفضلة في القصص القرآني ، وإنما يفضل القصص القرآني الطريقة التمثيلية في رسم الشخصيات .

ثالثاً : أن القصة القرآنية تريد أن تؤكد قيمة معينة من قيم الحق والخير ، ولا يتسنى ذلك إلا من خلال اعتماد القصة على الصراع الخارجي، الذى يكون له نتيجة ملموسة مشاهدة ، تبرز القيمة المرادة وتؤكدها ؛ وليس معنى ذلك أن القصص القرآني خال من التحليل النفسي تماماً، بل العكس هو الصحيح ، ففي كثير من قصص القرآن نجد إشارات مصورة أصدق تصوير للنفس البشرية ، غاية الأمر أنها – كما قلت – إشارات ولفتات معجلة وليست وقفات طويلة مسهبة .

ومن خير هذه اللفتات ما جاء في قصة صاحب الجنتين من قوله تعالى :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾(١).

إنها قصة الرجل الذى يملك الوفر من المال والكثير من الولد، فيدفعه ملكه إلى الغرور والزهو والتعالى على من لا يملك ، وقد مهد القرآن لذلك كله بالوصف المسهب للجنتين ، وما فيهما من ألوان الثمار والزروع ، حتى إذا عرض علينا دخيلة نفسه وخباياها كان لهذا الوصف انعكاساته الموضحة لهذا العرض، وحتى إذا دخل جنته بهذه الأحاسيس والمشاعر المفضوحة رأيناها أوضح ما تكون في هذا الموقف الذى

---

(١) الكهف : الآيات ٣٢ : ٣٦ .

يوازى القرآن فيه بين كم الملك ، ونوعه ومشاعر المالك وأحاسيسه المنبعثة من حيازته لهذا الملك العريض، ومما يدلنا على ذلك قول القرآن على لسان الرجل وهو يحاور صاحبا له : (أنا أكثر منك مالاً وأعز نفرا) .

"ويبدو أنه قال قولته هذه وهما فى الطريق إلى الجنتين ، أو وهما على الباب"(١). إذ جاء بعده : (ودخل جنته وهو ظالم لنفسه) .إن الوصف بالظلم للنفس كلمة جامعة لكثير من خصال الشر، فهو يقصد به فخره وتعاليه على صاحبه ، كما يقصد به أموراً أخرى توضحها أقواله الآتية بعد، ولكن قبل النظر فى هذه الأمور ينبغى النظر فى الأسلوب القرآنى المعجز الذى يوضح عاقبة الرجل عن طريق إيحاء الألفاظ قبل أن يوضحها مفصلة فى نهاية القصة .

إن الأسلوب القرآنى أفرد الجنة بعد التثنية "وهو لا يقصد الجنتين ولا واحدة منهما ، وإنما القصد إلى القول بأنه "دخل ماهو جنته التى ماله جنة غيرها، يعنى أنه لا نصيب له فى الجنة التى وعد المؤمنون ، فما ملكه فى الدنيا جنته لا غير"(٢). وفى مثل هذه الإيحاءات اللفظية تتجلى روعة القرآن ، كما تتجلى روعته وعظمته أيضاً فى أنه فضح الرجل صاحب الجنتين وكشف ما بنفسه فى كلمتين اثنين (ظالم لنفسه)؛ إذ إن الوصف ـ كما قلت جامع لكثير من خصال الشر، وكأن ما بعده من مقولات الرجل يأتى بيانا لهذا الشر الذى فى نفسه، وهى مقولات تؤكد أن الشر يغرى بالشر وأن الغرور يدفع إلى الحماقة والسخف، ثم يسلم ذلك كله صاحبه إلى الكفر، وكانت أولى بوادر الشر فى نفس الرجل أنه حين دخل جنته وهو ظالم لنفسه قال :

(ما أظن أن تبيد هذه أبداً)

يقول هذا وكأنه رأى شيئاً يخلد فى هذه الحياة !! إنه لم ير شيئاً من هذا القبيل ، ولكن نفسه التواقة إلى النعم هى التى تهفو إلى الخلود فى ظلال جنته الوارفة، وكانت هذه أول رمية من رميات الطيش القاتلة ، وقد أصابت صاحبها قبل أن تصيب أى شئ آخر، أصابته فى الصميم من بصيرته فعمى عمى مطبقا ، فرمى تلك الرمية الأخرى التى أصابت مقاتله : (وما أظن الساعة قائمة)

إنه لم يعد يرى سوى جنتيه، وكان من أمانيه أن تخلد هاتان الجنتان ويخلد هو

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن الكريم ، ص ٥٥ .

(٢) الكشاف جـ ٢ ، ص : ٧٢١ .

بخلودهما ، ولذلك فهو يستبعد قيام الساعة ، ويدفع عن خياله كل تصور يطوف به عنها .

ويبدو أن صاحبه كان يذكره الساعة والجزاء ، كما أن الواقع يؤكد له أن ليس هناك خلود لأحد فى هذه الدنيا، فهاهى ذى الأحداث التى تدور من حوله لا تترك له لحظة يهنأ فيها بهذا الأمل الخادع الكاذب ، ولكنه ـ مع ذلك ـ مازالت عنده فى كنانة الطيش سهام وسهام فليرم منها ما يصيد له طائر شؤم جديد عسى أن يجيئه بهذا الأمل الكاذب : (ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلباً) !

فإذا فرض وكان بعث وكانت قيامة فهو واجد عند ربه بدل جنتيه جنات (١).

إن الصراع فى هذا الجزء من القصة صراع نفسى محض ، صراع بين عقل الرجل وهواه، وقد كشف القرآن عنه بأسلوب معجز، وذلك بأن أظهر الرجل وقد ألغى عقله واتبع هواه وإلا ما نطق بهذا الكفر الصراح، وتدرج الأسلوب معه فى مشاعره وخواطره ، فسجل تفاخره وزهوه بالمال والولد ، ثم أضاف إلى ذلك استبعاده بيدودة جنته ، ورغبته فى الخلود، ثم أورد كلمة الكفر التى نطق بها لسانه حين استبعد قيام الساعة ، وأخيراً سجل عليه قسمه الذى يؤكد ثقته فى أنه سينال أضعاف ماهو فيه من سعادة إن كان هناك بعث وكانت هناك قيامة .

لقد سيطر الصراع النفسى على هذا الجزء من القصة ، ولكن القصة القرآنية تؤثر الصراع الخارجى على الصراع الداخلى لما فيه من حركة متماوجة ، ولأنه يكون معلنا ، وله نتيجة ملموسة عن طريقها تؤكد القصة قيمة من قيم الحق وتبرزها؛ ولذلك: تأخذ القصة بعداً آخر حين تظهر شخصية صاحب الرجل الذى يملك الجنتين فيحاوره ويجادله ويفند ما جاء على لسانه من مقولات الطيش والكفر ، وكان مما جاء على لسانه قوله تعالى :

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لَكِنَّا۠ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا ﴾ (٢)

إن ظهور شخصية صاحبه هذا ومحاورته معه أخرج الصراع من نفس صاحب الجنتين وجلعه صراعاً خارجياً ملموساً ، صراعاً بين قوتين إحداهما كافرة جامدة

(١) انظر :القصص القرآنى فى منطوقهومفهومه ، ص : ٢١٢ .
(٢) الكهف ، الآيات : ٣٧ : ٣٩ .

والثانية مؤمنة راشدة، وقد نما هذا الصراع بينهما حتى وصل إلى درجة التحدى حين قال الرجل الذى يمثل القوة المؤمنة :

﴿ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾ (١)

ولو ظل الصراع حبيسا فى نفس الرجل ما وصلت القصة إلى هذه المرحلة الفاصلة فى أحداثها ، وما كانت هذه النتيجة الملموسة التى جاءت استجابة لتحدى الرجل المؤمن :

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ (٢)

وأخيراً فإن القصة تريد أن تؤكد بعض القيم :

منها :"أن الإنسان قد ينهزم ويغلب هواه على عقله ، ولكن لابد للحق أن ينتصر على الباطل، حتى يكون فى ذلك عبرة لمن يعتبر .

ومنها :أن الإنسان الغاوى الضال لابد أن يقوم له من مجتمعه أناس عقلاء راشدون يأمرونه بالمعروف وينصحونه بالخير حتى وإن لم يستطيعوا الدفاع عن هذا الخير بوسائل مادية ملموسة .

ومنها:أن فى كل إنسان شعلة متقدة من الحق والخير ، قد تعصف بها عواصف الشر الكامنه فى نفسه ، ولكنها تظل – مع هذا– تومض ومضات من النور حتى وهى غارقة فى سحب الظلام الكثيفة (٣).

ولى مع هذه القيمة وقفة فى صفحات قادمة إن شاء الله :

هذه إحدى اللقطات الكاشفة المصورة للنفس البشرية أصدق تصوير ، والقارئ للقرآن يجد كثيراً منها فى القصص وغير القصص ، ولكنها – على كثرتها – سريعة خاطفة .

لقد حاول كثير من النقاد أن يفصلوا فصلاً تاماً بين ما يسمى قصة الحدث وما يسمى قصة الشخصية ، وحاولوا – أيضاً – أن يصنفوا القصص على هذا الأساس ، وأن يصنفوا الكتاب كذلك ، ولكن الملحوظ أن الفصل بين هذين النوعين من الناحية

(١، ٢) الكهف : الآيات : ٤٠ : ٤٢ .

(٣) انظر القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه ، ص : ٢١٤ .

النظرية أكثر سهولة من الناحية العملية[١] والقرآن الكريم لا يعترف بهذا الفصل بين عنصرى القصة : الحدث والشخصية ، فكل منهما أساس لابد منه وعنصر لا غنى عنه ، ومنهج القصة القرآنية يقوم أساساً على المزج والمزاوجة بين العنصرين حتى فى أكثر قصصه اعتماداً على الأحداث الغريبة المشوقة ؛أعنى: قصة "موسى" والعبد الصالح التى سبق أن قلت عنها : إنها تمثل قصة الحدث فى القرآن الكريم ، صحيح ،أن فيها تغليبا لعنصر الحوادث ولكن كل حدث فيها يضيف إلى الشخصيتين الأساسيتين فى القصة أو إلى إحداهما ما يؤكد صفة من صفاتها .

وفى القصص الذى تبرز فيه الشخصية الإنسانية بروزا واضحاً وترتسم صفاتها وملامحها نجد الحدث يسير مع الشخصية فى خطين متوازيين ، فلا تطغى الشخصية على الحدث ، ولا يطغى الحدث على الشخصية ، حتى وإن ظهر أن لأحدهما بروزاً على الآخر فى موقف من المواقف ، والمعجب حقا أن التصوير لكل من الحدث والشخصية يبلغ الغاية من الإعجاز فى القصة القرآنية الواحدة .

ولكى تتضح هذه الخصيصة بجلاء نقرأ قصة بقرة بنى إسرائيل :﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢)

---

(١) انظر : فن كتابة القصة ، حسين القبانى ، ص : ١٣٤ ومابعدها .
و : فن القصة ، د: محمد يوسف نجم ، ص ١٤ ، ١٤٣ .
و : بناء الرواية ، إدوين موير ، ص : ١١ ومابعدها .
(٢) البقرة : الآيات : ٦٧ : ٧٣ .

يذكر العلماء والمفسرون فى مناسبة هذه القصة أن رجلا من بنى إسرائيل قد قتل على يد بعض أقربائه طمعاً فى إرثه ، و قد طمعوا فى ديته أيضاً فحاولوا أن يلصقوا التهمة بغيرهم ، فألقوا جثته فى حى بعيد عنهم ، ثم ذهبوا إلى موسى – عليه السلام – لكى يعرف لهم القاتل، ويحكم لهم بالدية ، فأمرهم أن يذبحوا بقرة ، ولكنهم خافوا أن ينكشف أمرهم فماطلوا فى تنفيذ أمر الله – سبحانه – وأظهروا عنتهم لموسى (١).

تبدأ أحداث هذه القصة من نهايتها(٢) خروجاً على منهج القصص القرآنى الذى جرى على ترتيب أحداث قصصه وفقا لترتيب حدوثها زمنياً ، والخروج على النسق القرآنى هناله دلالته التى سنعرفها بعد إن شاء الله .

تبدأ القصة بأمر غريب وحدث عجيب هو أمر الله – تعالى – لبنى إسرائيل أن يذبحوا بقرة والغرابة هنا ليست نابعة من الأمر فى ذاته، ولكن من شدة المفارقة بين ما يطلبونه من "موسى" ، وهو معرفة القاتل وما يأمرهم به من ذبح البقرة ؛ إذ ما العلاقة بين معرفة القاتل وذبح البقرة! إنها مفارقة لم تتسع لها عقولهم ، لأنهم قوم لم يكونوا من الناس وليسوا على طبيعة الناس ، إنهم قوم متعنتون ديدنهم الشقاق والإرهاق لأنبيائهم ، ولذا كان هذا الطلب – لغرابته لديهم – وسيلة لكشف نفوسهم المطبوعة على الشقاق والجهل والسفة ؛ إذ سرعان ما اتهموا "موسى" بأنه يستهزئ بهم ، وهو اتهام يحمل جهلهم هم ويكشف عن قصر نظرهم ، فإذا كان فى اختيار البقرة بالذات وجه من العجب والاستغراب فهو الامتهان لعقولهم ، والجدع لأنوفهم ، وما البقرة إلا شئ من الأشياء شأنها شأن عصا "موسى" التى كانت قطعة من الخشب ، ولكنها حين أمدتها قدرة الله أتت فى يدى "موسى" بكثير من المعجزات (٣).

وهكذا – مع أول آية فى القصة – يمتزج الحدث بالشخصية ، ويكون لكل منهما

---

(١) انظر تفسير الطبرى : جـ١ ، ص : ٣٣٧ .

و : تفسير ابن كثير : جـ١ ، ص ١٠٨ .

(٢) معظم المفسرين على هذا الرأى ، وعللوا له تعليلات مقنعة . انظر مثلا التفسير الكبير للفخر الرازى : جـ١ ، ص ٣٧٢ .

و : تفسير القرطبى : جـ١ ، ص ٣٨٧ .

و : نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور ، لبرهان الدين البقاعى ، ط مجلس دائرة المعارف العثمانيه ، والهند ، الطبعة الأولى ١٩٦٩م ، جـ١ ، ص : ٤٦٧ ، ٤٧٤ .

و : تفسير المنار ، جـ١ ، ص : ٢٨٧ .

(٣) انظر : القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه، ص : ٨٨ : ٩١ .

دوره وأهميته فى بناء القصة ، وفى النهوض بإبراز العنصر الآخر الموازى له فى البناء القصصى ، فالحدث هنا هو المختبر الذى يكشف عن معدن شخصيات هؤلاء الإسرائيليين ويقد مهم فى صورتهم الحقيقية التى لا لبس فيها ولا تزوير ، وشخصية بنى إسرائيل معروضة هنا عرضاً واقعياً صادقاً من خلال تفاعلهم مع الحدث، وقصور أفهامهم عن استيعابه .

ثم إن القصة لا تقف عن هذا الحد، بل تقدمهم وقد استبد بهم العمى حتى لم يعودوا يرون هذه البقرة التى أمروا بذبحها إلا أن تكون بقرة غير عادية ،اعتقاداً منهم أن أية بقرة عادية لا تستطيع أن تتحمل معجزة من المعجزات (١) ، فلجوا فى عنادهم وإعناتهم لموسى ، ولكنه كان يتحمل عنادهم ويصبر على لجاجهم – على غير عادته – عليه السلام – معهم ، إذ كثيراً ما كان يضجر منهم ويعنفهم كما هو واضح من سيرته معهم فى القرآن الكريم .

كانوا كلما فتحوا بابا للعناد واللجاج سار معهم فيه ، إمعاناً فى الهزء بهم ، ورغبة فى زيادة المشقة على أنفسهم لأنهم هم الذين طلبوها وسعوا إليها .

ويبدو أنهم كانوا فى مرية من إله "موسى" ولهذا فهم لا يتورعون عن القول : (ادع لنا ربك) وكأنه ربه هو وحده لا ربهم هم أيضاً ، وكأنهم ما زالوا يبحثون عن أرباب منذ أن عبر بهم البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا ياموسى اجعل لنا إلهاكما لهم آلهة .

لقد سألوا "موسى" عن البقرة وأوصافها ثلاث مرات ، وفى كل مرة كان يعين لهم بعض صفاتها حتى عثروا عليها فأخذوها بمال كثير، ولو أنهم قصدوا أية بقرة من أول الأمر لأجزأتهم ، ولكنه العناد الذى انطوت عليه نفوسهم والذى أرادت القصة أن توضحه وتكشف عنه فى هذا الجزء منها .

وكما بدأت القصة بحدث غريب ختمت بحدث غريب أيضاً ، إنه حدث إحياء هذا القتيل الذى كان من أجله ذبح البقرة ، لقد أمروا أن يضربوا القتيل ببعض هذه البقرة التى ذبحوها ففعلوا فقام وأخبر عن قاتله من هو .

ومن الملحوظ أن ختام القصة قد خلا من أى حديث عن بنى إسرائيل ، فلم يجرلهم ذكر، وكأن دورهم انتهى عند ذبح البقرة ، ولم يصف القرآن تأثير حدث إحياء

---

(١) انظر : التفسير الوسيط للقرآن الكريم، د: محمد سيد طنطاوى ، مطبعة السعادة ١٣٩٧هـ – ١٩٧٧م، المجلد الأول جـ ١، ص : ١١٥ ، ١١٦.

القتيل عليهم ، حتى لكأنهم غابوا عنه ولم يشهدوه ، فهل وراء ذلك سر ؟ لعل القرآن الكريم أراد أن يجعل من قضية إحياء الموتى قضية عامه تخص البشر أجمعين، ولا تخص بنى إسرائيل وحدهم ، وأراد أن يجعل العبرة منها عبرة دائمة متصلة عبر الأزمان ، ولذا أهملت القصة ذكر بنى إسرائيل فى ختامها، لذلك يمكن أن نفهم الخطاب فى قوله تعالى :(كذلك يحيى الله الموتى ويريكم ءايته لعلكم تعقلون) خطابا عاماً لكل منكر للبعث ، بل لكل إنسان على تعدد الأمم وتعاقب الأزمان .

أما وقع هذا الحدث على هؤلاء القوم المتعنتين غلاظ القلوب فيمكن أن يفهم من الآية التالية للقصة وهى قوله تعالى مخاطباً إياهم (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ... الخ) يمكن أن نفهم أن إحياء القتيل شدهم ولوى أعناقهم ورقق قلوبهم مدة من الوقت ، ثم عادت قلوبهم إلى القسوة والغلظة ، وبذلك لا تغيب الشخصية عن مواكبة الحدث فى القصة وإن ظن غيابها .

أما لماذا التقديم والتأخير فى أحداث القصة ، فلعله يرجع إلى أمرين :

أولهما : أن ذلك جعل القصة قصتين ، وفى كل منهما جناية من الجنايات التى وجدت من بنى إسرائيل فأراد الله – سبحانه – أن يقرعهم على كل جناية كانت منهم . ولو ترك التقديم والتأخير لكانتا قصة واحدة (١).

ثانيهما : تعدد المفاجأة فى أول القصة وآخرها ، فى أولها لأن أمر موسى بذبح البقرة لم يسبقة ما يمهد له ، فالمفاجأة بهذا الأمر والجدال الذى وقع فيه يثير النفوس ويشوقها إلى معرفة السبب (٢)، وفى آخرها لأن المفاجأة حين تأتى مصحوبة بالعبرة من القصة تكون أوقع فى النفس وأشد تأثيراً (٣) .

إن القصة القرآنية حين تمزج بين الحدث والشخصية على هذا النحو تريد أن تصنع منهجاً معتدلاً يقوم على أساس التوازى بين الأسس الفنية للقصة ، وبذلك تقدم للكتاب منهجاً قويماً فى الكتابة يقوم على التعادل بين العناصر ، التعادل الذى يلغى التطرف والانحياز إلى الحدث وحده أو إلى الشخصية وحدها .

---

(١) انظر الكشاف : جـ١ ، ص ١٥٤ . والتفسير الوسيط للقرآن الكريم، المجلد الأول ، جـ١ ، ص ٢١٦ ، ٢١٧ .
(٢) انظر تفسير المنار : جـ١ ، ص ٢٨٧ .
(٣) انظر بدائع الإضمار القصصى فى القرآن الكريم ؛ ص : ١٠٦ .

وهذا المنهج القائم على التعادل والتوازى بين الشخصية والحدث لو أراده واحد من الكتاب أو بمعنى أصح لو أراد أن يقسر نفسه عليه ما استطاعه وما انقاد له أيضاً .

وذلك أن القصة القرآنية تخضع لمنهج آخر لا يخضع له البشر فى كتاباتهم ؛ تخضع لمنهج القرآن ولغرض القرآن ؛ فهى هداية ونصح وتوجيه وتربية للنفوس وترتب على ذلك أن الشخصية فى القصة القرآنية ليست مرادة لذاتها، مهما كان مركزها التاريخى ، وإنما المراد من القصة أن نعرض الشخصية بوصفها نموذجاً يتحرك فى الحياة الخيرة أو الشريرة ، وفى صراعها مع الخير والشر وفى تجاوبها أو تعاندها مع الأخيار والأشرار .

وكذلك الحدث ليس مراداً لذاته ، وإنما هو معرض للإنسان (النموذج) ولذا يعرض الحدث فى القصة القرآنية بالقدر الذى يطلع المتلقى على معدن هذا الإنسان ، ويريه مواطن القوة والضعف فيه ، وينفذ بهذا المتلقى إلى منازع الإحسان والإساءة فى كيان هذا الإنسان .

فالشخصية والحدث فى القصة القرآنية كل منهما وسيلة لغاية محددة واضحة: الشخصية شاهد من شواهد الإنسانية فى مختلف حالاتها . والحدث معرض يجلى الشخصية أو النموذج الإنسانى الذى تقدمه القصة (١).

أما القصة الأدبية الفنية فإنها تهدف إلى الفن ولا شئ غير الفن ، وكاتبها ليس له من هم إلا أن يخلد اسمه فى سجل الفنانين المشهورين ، ولذا فهو لا يخضع لمنهج آخر غير منهج الفن الطليق ، ومن الكتاب من تستهويه المتعة والإثارة فيسعى إلى جذب انتباه القراء عن طريق الأحداث المثيرة التى تبعث الفضول لدى الجمهور ، ويبالغ فى رسم العقدة والحبكة ويحرص على تحقيق المفاجأة المذهلة ، ويقيس نجاحه أو إخفاقه بقدر ما ينجذب إليه القراء أو ينصرفون عنه، وعند هؤلاء الحدث غاية فى ذاته لأنه هو الذى يحقق لهم الشهرة والنجاح ، وكتاب آخرون يميلون إلى جانب الشخصية فيدرسونها، ويشرحون عواطفها وانفعالاتها، ويسودون كثيراً من الصفحات بدعوى التحليل النفسى واستبطان الذات ، والحق أن لمحة واحدة من لمحات القرآن الكريم خير من عشرات

---

(١) انظر أهم الملامح الفنية للقصة القرآنية بحث ألقاه الدكتور إبراهيم عوضين فى ندوة الأدب الإسلامى بكلية الآداب جامعة عين شمس ، ص : ٤ .

الصفحات التي سودها هؤلاء تحت هذه الدعوى الزائفة .

إن هذا الكلام لا ينبغي أن يفهم على أنه عيب للقصة الفنية وإهدار لقيمتها . وإنما هو محاولة لفهم منهج القصة القرآنية والتعليل لهذا المنهج ، والتعليل – أيضاً– لمنهج القصة الفنية .

ليس من شك في أن ما جاء به القصص القرآني من شخوص وأحداث هو الحق المطلق والصدق المصفى الذي لا يتلبس به تمويه ، أو يدخل عليه لون من ألوان الخداع والتخييل ، وآية ذلك أن القصص القرآني استخدم طريقة الحكاية في عرضه للأحداث ، وهي طريقة تؤذن المتلقي بأنه إنما يسمع أخباراً قد ذهب أشخاصها في التاريخ وانتهى دورهم في الحياة ، وأنهم – في هذا العرض – إنما هم في بعث جديد ، أو أن المتلقي في رحلة زمنية عبر القرون الماضية إليهم .

ولعل طريقة الرواية هذه – بوصفها طريقة فنية للعرض القصصي – قد أفادت أمرين :

أولهما : أن مشاعر المتلقي وأحاسيسه تقوم على مقام واحد وهو أنه إنما يسمع أخباراً ، وأن هذه الأخبار تجئ من جهة عالية عالمة بما تحوى الأزمنه والأمكنة من أحداث وأشخاص ، فما يسمع ويشاهد إنما هو صادر عن أشخاص حقيقيين، يتحدثون عن أنفسهم وينطقون بأسمائهم .

ثانيهما : أن أقوال هؤلاء شخوص الحقيقيين وحكاية أفعالهم وحركاتهم تنقل وتصور كما حدثت فعلاً دون زيادة أو نقص ودون تزوير ، لأن الطعن – في طريقة الرواية – إنما يأتي من جهة الراوى ، وهذا ما لا يمكن أن يأتي من جهة القرآن وأخباره التي يحدث بها (١).

وبالنظر في القصة الفنية نجد أن الكتاب يقرون لأنفسهم ويقر لهم النقاد بمبدأ الحرية الفنية ، تلك الحرية التي تبيح للكاتب أن يتصرف في شخصيات قصصه، حتى وإن كانت قصصا تاريخية تحكي عن أشخاص حقيقيين معروفين، فيغير ويبدل في هؤلاء الأشخاص ، وينسب إليهم مالم يقولوه ومالم يفعلوه، وبهذا لا تكون الشخصيات صورة حقيقية تعكس الواقع ، بل يبعد بها الفن والخيال عن الواقع بقدر ما يهدف الفن إلى

---

(١) انظر : القصص القرآني في منظومه ومفهومه ص : ٨٠ : ٨٢ .

تصوير المعانى الإنسانية ، وبهذا التحوير فى الشخصية – فى القصة الفنية – تختلف الشخصية فى القصة عنها فى الحياة ، لأن الفن والحياة شيئان متباينان ، والوجود فى أحدهما يختلف عن الوجود فى الآخر (١).

ومعنى ذلك أن الكاتب له أن ينحرف بالشخصية التاريخية ، أو بالشخصية التى لاحظها فى الواقع ، ويزور فى تصرفاتها طبقا لما يمليه عليه خياله ، والكتاب والنقاد يعدون ذلك حقا من حقوق الكاتب لأنه فنى مبدع .

وهذا الفرق يعد واحداً من أهم الفروق بين القصة القرآنية والقصة الفنية ؛ فالصدق فى إيراد الشخصية وفى تصويرها هو سمة القصة القرآنية والتلفيق والتزوير هو سمة القصة الفنية ويتجلى صدق القرآن الكريم فى تصوير الشخصية فى أمور :

أولاً :

أن القصة القرآنية لا تدع الشخوص يغدون ويروحون على مسرح الحوادث دون أن تعلل سلوكهم ، بل على العكس فإن سلوك الشخوص معلل فى دوافعه ونتائجه، وخاصة عندما يكون الحدث المتعلق بهذا السلوك حدثا مهما فى تطور القصة والوصول بها إلى النهاية المرسومة ، وهذا التعليل مقصود به الإقناع بالحدث ، والاقتناع به أيضاً.

فى قصة يوسف – عليه السلام – ألقى الإخوة أخاهم فى غيابة الجب لكى يتخلصوا منه ولكى يخلو لهم وجه أبيهم ، ثم جاءت سيارة فأرسلو واردهم فاستخرج الغلام من البئر ، هى قافلة تجارية إذاً غرضهم التجارة والربح فلا لهم أن يبيعوا هذا الغلام ، ولكن لماذا يبيعونه بثمن بخس ؟ ولماذا لم يبالغوا فى ثمنه ؟ القصة تعلل ذلك بكلمات قلائل . ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾(٢).إنهم زاهدون فيه لأنهم لا يعرفون قيمته ، ولو كان هؤلاء السيارة يعرفون قيمة "يوسف" وما سيصير إليه أمره لما اكتملت القصة ، لو كانوا يعرفون قيمة "يوسف" عند أبيه لرجعوا به إليه ، وما اكتملت القصة ،وإنما هم فيه زاهدون .

---

(١) انظر : فن القصة، د: محمد يوسف نجم ، ص : ٩٠ : ٩٣ .

و : النقد الأدبى الحديث ، ص : ٥٧٣ .

و : القصة من خلال تجاربى الذاتية ، عبد الحميد جودة السحار ، ط ، دار مصر للطباعة ص : ٦٥ : ٨٠ .

(٢) من الآية : ٢٠ سورة يوسف .

وفي الآية لمحة قصصية أخرى وهي تتعلق بالنكرات المسرحية ، "فهؤلاء الأشخاص الذين التقطوا يوسف وباعوه نكرات قصصية أو مسرحية ، ولذلك لم تهتم القصة بهم، فلم تقل : من هم ، وماذا كانوا يفعلون ، ولماذا ذهبوا إلى مصر ، لأن ذلك كله لايهم القصة في شئ ، إن شخصياتهم لا تؤثر في الحدث ذاته ، ولكنهم أداة للحدث فحسب"(١).

ولعلنا لا حظنا أن التعليل للسلوك في الآية السابقة كان عن طريق السرد، وقد يكون التعليل عن طريق الحوار بين الشخصيات ، فالشخصية قد تنطق ببعض الجمل الحوارية التي تعلل ما آثرته من أحداث تبدو غريبة في نظر الشخصيات الأخرى ، ومن ذلك قول امرأة فرعون حين آثرت بقاء "موسى" في بيتها : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾(٢)ومن ذلك أيضا قول عزيز مصر :﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾(٣).

فامرأة "فرعون" مالت إلى استبقاء هذا الطفل الرضيع– موسى عليه السلام–، وأرادات استنقاذه من شفار القصابين، الذين سلطهم زوجها على صبيان بني إسرائيل ، خشية أن يخرج منهم من يكون زوال ملكه على يديه، وماكان لها أن تنجح في محاولتها استبقاء الصبي دون أن تضرب على هذا الوتر الحساس في نفسها وفي نفس زوجها على حد سواء؛ إنها قريرة العين مسرورة بهذا الصبي، وهي ترجو أن يكون قرة عين لزوجها أيضا، فإن لم يسر به الزوج ولم يأبه لسرور زوجته، فعسى أن ينتفع بهذا الصبي حين يشب ويكبر، وعسى أن يتبناه، ويتخذه ولداً يرث ملكه من بعده، فلا يخرج الملك من بيته .

ونلاحظ أن امراة فرعون نوعت في أسلوبها ، ففصلت وأفردت الضمير في (قرت عين لي ولك) ثم جمعت الضمير وتركت التفصيل في (لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً)؛ لأن حصول السرور بالطفل لا يكون إلا لها ولزوجها ، وقدمت نفسها على زوجها

---

(١) السرد القصصي في القرآن الكريم ، ص : ٢٣ .
(٢) القصص : من الآية : ٩ .
(٣) يوسف : من الآية : ٢١ .

بما يدل على تدللها عليه ، وحرصه على مصلحتها ، وأن فى إبقاء الصبى إرضاءً لها ، أما جمع الضمير فى نهيها إياهم عن قتله فلكى يشمل النهى زوجها وغيره من المأمورين بقتل الصبيان، وكذلك الرجاء فى النفع يعم المرأة وزوجها، والمملكة كلها إن شب هذا الصبى وصار ملكا عليهم لأن مخايل العظمة والأبهة بادية عليه (١).

بهذا الأسلوب المنظم وبهذه الحجج المقنعة استطاعت امرأة فرعون أن تستبقى الصبى وأن تنقذه من القتل ، فى وقت كان زوجها يغرق من رؤية الصبيان ويغتم لسماع أنباء ولادتهم فى بنى إسرائيل ، ولو كان "فرعون" يعلم أن فى بقاء هذا الصبى بالذات شقاءه وزوال ملكه لما استجاب لرغبة زوجته ، ولما وجدت حججها لديه آذنا صاغية ، ولكن القصة تريد أن تعطى للقارئ ملمحا من ملامح الغرابة فى إيراد الحدث ، وأن تعطية أيضاً قسطاً وافراً من السخرية بهذا الفرعون العاتى .

أما ما جاء على لسان عزيز مصر حين اشترى يوسف عليه السلام – وهو غلام صغير فيختلف عما جاء على لسان أمرأة فرعون ، وذلك ناشئ من الفرق بين الموقفين ، فموسى مطلوب للقتل وهو بين يدى طالبه لا يملك حولاً ولا قوة لصغره ، ويوسف غلام يقف على أعتاب مرحلة الشباب وقد جاء من قاع جب مظلم ، وربما كان يخشى الهلاك فيه ، فكان وصوله إلى بيت الذى اشتراه مأمنة له خاصة إذا سمع هذا الأمر بإكرام المثوى ، ولذلك مازاد العزيز على أن قال لزوجه (عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا) فهو ليس فى حاجة إلى أكثر من ذلك؛ فالسرور بيوسف موجود فى نفسه وفى نفس امرأته .

ثانياً :

ومن مظاهر صدق القرآن فى تصوير الشخصية أن القصة القرآنية تعلق – أحياناً كثيرة – على سلوك الشخصيات بما يحث عليه إن كان هذا السلوك خيراً ، وبما ينفر منه إن كان شراً ، وأحياناً تظهر القصة الطابع العام للشخصية إن كانت خيرة أو شريرة .

نقرأ مثلا قوله تعالى :﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾(٢).

وقوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾(٣).

---

(١) انظر روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى ، لشهاب الدين محمود الألوسى ، ط : دار إحياء التراث العربى ، لبنان ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨٥م ، جـ٢٠ ، ص ٤٨ .

(٢) هود : الآية : ٧٥ .

(٣) ص : الآية : ٣٠ .

وقد ينتظم التعليق على السلوك مجموعة من الشخصيات كما جاء فى سورة مريم إذ أثنى الله سبحانه على "إبراهيم" "وإسحاق" "ويعقوب" "وموسى" "وهارون" – عليهم "السلام"، –ثم ذكر إسماعيل وإدريس فقال .﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾(١).

وهذه الأوصاف متوافقة مع الطابع العام لشخصيات هؤلاء الأنبياء، كما أنها أوصاف نابعة من سلوكهم الوارد فى القصص القرآنى .

ومن الشخصيات الشريرة التى رصدت القصة القرآنية سلوكها وعلقت عليه شخصية إبليس التى عرضت فى القرآن الكريم معارض متعددة ، وفى كل معرض منها تبرز القصة أهم صفاته وهى صفة التكبر والاستعلاء والإباء ، والتركيز على هذه الأوصاف المشينة فى شخصية إبليس يجعل منها شخصية شريرة منفرة يأنف ذوو الفطرة الصحيحة من التشبه بها .

كذلك هناك شخصيات بشرية كثيرة شريرة فضحها القصص القرآنى ورغم أن التعليق على هذه الشخصيات يأتى موجزاً غالباً نراه جامعاً لكثير من أبعاد هذه الشخصيات مبينا طابعها العام الذى يطبعها ويتحكم فى سلوكها وأفعالها .

ومن ذلك التعليق على شخصية فرعون بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾(٢).

وقوله تعالى عن "فرعون" أيضاً : ﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾(٣).

وقوله تعالى عن قوم "فرعون" : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾(٤).

---

(١) مريم : الآيات : ٥٤ : ٥٧ .
(٢) يونس : من الآية : ٨٣ .
(٣) القصص : من الآية : ٤.
(٤) الزخرف : الآية : ٥٤ .

وقوله تعالى عن قوم لوط الذين أصيبوا بفساد الفطرة : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾(١).

وفى القصص القرآني بعض التعليقات على السلوك المجرد من النسبة إلى الخير أو الشر ، ولكن السلوك الخير والشر ير هو الذى كان محور الاهتمام فى القصة القرآنية

والملحوظ فى القصص القرآنى أن الشخصيات الخيرة التى تمثل جانب الإيمان القوى والثقة المطمئنة قد يعتر يها بعض الضعف الذى يعترى البشر جميعاً ، وهذا الضعف يعبر عنه القرآن ويقف عنده ليبرز ويوضحه لأن ذلك من تمام الصدق فى رسم الشخصية وتصويرها ، وأوضح ما يمثل ذلك إبراز القرآن بعض الهنات اليسيرة التى وقعت من بعض الأنبياء – عليهم السلام – ومنهم "إبراهيم" الذى طلب من ربه – سبحانه – أن يريه كيف يحيى الموتى لكى يزداد قلبه اطمئنانا إلى قدرة الله ، "ويوسف" حين همت به امرأة العزيز فهم بها ثم صرف الله عنه السوء والفحشاء ، "وموسى" حين وكز المصرى فقتله ثم تاب وعاهد ربه على ألا يعود لمثلها .

وكذلك الشخصيات الشريرة يصورها القرآن مغرقة فى الإثم والضلال ، وربما ينطق بعضها كلمة الكفر ، ثم يعتر يها لحظات تفيق فيها وتتذكر أن لها ربا وإلاها ، فتلجأ إليه وتتوب ويسيطر عليها الندم ، يسجل القرآن هذه اللحظات ويبرزها ، لأن ذلك من طبيعة النفس البشرية التى يعنى القرآن بتصويرها تصويراً صادقاً أمينا ، ومن أوضح ما يمثل ذلك صاحب الجنتين – الذى كان لى من قصته شاهد فيما مضى – إذ تكبر واستعلى واغتر بما يملك ، فلما وقع ما يحذره ودمرت جنتاه أفاق وتذكر ربه وندم على كفره وعناده فقال : ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾(٢).

ومن ذلك أيضا ما سجله القرآن عن "فرعون" حين أدركه الغرق وأيقن من النهاية المفزعة التى ما كانت تخطر له على بال ، حين ذلك عرف أن "موسى" – عليه السلام – على حق وأن ألهه هو الحق ، فاعترف بإله موسى وبنى إسرائيل، وأعلن إيمانه، وتلك هى ومضة الخير التى اهتم القرآن بتسجيلها واضحة ، بل قل إنها صحوة الفطرة الإيمانية نفضت ماران عليها من شرور فى نفس هذا الرجل الباغى، وليس ذلك بالأمر

---

(١) الحجر : الآية : ٧٢ .

(٢) الكهف : من الآية : ٤٢ .

الغريب على الإنسان لأنه هكذا خلقه الله – سبحانه وتعالى – مركبا من الخير والشر .

ومعنى هذا المنهج الذى اتبعه القرآن فى رسم الشخصيات وتصويرها أن القصة القرآنية لا تقر للرومانسيين والواقعيين بما أتوا به فالكاتب الرومانسى ينظر إلى شخصياته نظرة إعجاب وتقدير، حتى إن إعجابه بالشخصية ينسيه أحيانا واجبه الفنى نحوها فينسى أنها شخصية إنسان يصيب ويخطئ ويأتى أفعال الخير والشر على سواء

والكاتب الواقعى ينظر إلى شخصياته نظرة سخط واحتقار، فيدفعه ذلك إلى ظلمها بإغراقها فى مستنقع الشر دائماً، وينسى هو الآخر أنه أمام إنسان يأتى الخير كما يأتى الشر(١).

ويعلل الرومانسيون تعاطفهم مع الشخصيات بأن ذلك يؤدى إلى إثارة الرحمة بالبائسين ، والاعتداد بحرية الفرد وحقوقه أمام نظم المجتمع التى تدفع المجرمين إلى الانزلاق إلى جرائمهم .

كما يعلل كتاب الواقعية قسوتهم على شخصياتهم وتصويرهم فى مستنقع الشر بأن ذلك ليس إغراء بالشر ، وإنما دعوة إلى علاجه ، لأن علاج الشر لا يكون إلا بعد معرفة جوانب النفس الشريرة (٢).

ومهما قيل فى تعليل منهج هذين المذهبين الأدبيين فإن منهج القصة القرآنية يبقى هو المنهج القويم الأولى بالاتباع ، لأنه يتفق وطبيعة الإنسان الذى يتجاور فيه الخير والشر .

ثالثاً :

ومن مظاهر صدق القرآن الكريم فى تصوير الشخصية التبرير المقبول للتحول الحاد فى سلوك الشخصيات لكى يكون مقنعا فنياً ، وهذه إحدى القواعد المهمة التى سبق القرآن إلى إرسائها وتأكيدها،فالقصة القرآنية تسير مع الشخصية متجاوزة الأحداث واحداً تلو الآخر، والشخصية مقتنعه بنمط فكرى أو عقدى معين ، ثم يحدث انقلاب فى فكر أو عقيدة هذه الشخصية ، يجعل صاحبها يتحول من النقيض إلى النقيض . هنا تهتم القصة القرآنية بتسجيل هذا التحول ، وتهتم أيضاً بتسجيل الدافع الذى كان وراءه حتى لا يكون إيراد الحوادث من قبيل اللغو ، وحتى يكون سلوك

---

(١) انظر : فن القصة ، د محمد يوسف نجم ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

(٢) انظر : النقد الأدبى الحديث ، د: محمد غنيمى هلال ، ص ٥١٩ : ٥٢٤ .

الشخصيات فى تحولها الحاد معللاً تعليلاً فنيا مقنعاً .

والحدث هو الركيزة الأساسية للقصة القرآنية للإقناع بهذا التحول ، كما نرى فى تحول سحرة "فرعون" من الكفر إلى الإيمان بإله "موسى" ، هذا التحول الحاد يعتمد على حدث كبير هو انتصار "موسى" عليهم جميعاً ، ولقف عصاه وحدها ما ألقوا من حبال وعصى كثيرة ، ومن ثم تيقنهم أن ما جاء به "موسى" ليس سحراً كالذى يتعاطونه هم ويخيلون به إلى الناس .

والحدث أيضاً هو الوسيلة للإقناع بتحول ملكة سبأ إلى الإيمان والدخول فى دين "سليمان" – عليه السلام – ويتمثل الحدث فى مجئ عرشها من اليمن إلى قصر "سليمان" ببلاد الشام فى لحظات ، كما يتمثل فى الصرح الممرد من قوارير الذى انبهرت به ملكة سبأ حتى حسبته لجة من ماء .

إن جل النقاد – إن لم يكن كلهم – يؤكدون هذه القاعدة القصصية ومع ذلك نجد كثيراً من الكتاب يأتى بما يشبه الهذر أو اللغو فى بناء الشخصيات وتصويرها دون مراعاة للبعد النفسى الذى يحكم هذه القاعدة القصصية ، وهناك أعمال قصصية تقدم شخوصا فضفاضة تنتقل من أقصى حدود الشر إلى أقصى حدود الخير بسبب جملة واحدة أو حديث عابر ، وهذا التحول السحرى العجيب للشخصية يعد عيباً خطيراً من العيوب التى تعترى الأعمال القصصية (١).

ومن الخير للكاتب أن يعتمد على الحدث بوصفه مسوغا للتحول فى سلوك الشخصيات ، متأسيا فى ذلك بالقصة القرآنية ، لأن الحدث أقرب وسيلة للإقناع بالتحول، خاصة إذا نجح الكاتب فى اختراع حدث ضخم مساو للتحول الذى يصيب الشخصية ومع التمهيد لذلك كله فى أثناء القصة ، أما الاعتماد على الموعظة بين الشخصيات وجعلها مسوغا للتحولات الكبرى فذلك ما يقف منه قارئ القصة موقف الرافض إن لم يكن موقف الساخر .

★★★

إن مما اهتم به نقاد القصة وأكدوه ما يسمى بالأبعاد الثلاثة للشخصية ، ويعنون بها : البعد الخارجى أو الشكلى ، والبعد الداخلى أو النفسى ، والبعد الاجتماعى، ،

---

(١) انظر :النقد التطبيقى التحليلى ، ص : ٧٤ ، ٧٥ .
و : فن كتابة القصة ، حسين القبانى ، ص : ٧٥ : ٧٧ .

ويرون أن إخفاق الكاتب فى إبراز أى من هذه الأبعاد يعد عيبا فى قصته (١).

وقد يغلب الكاتب واحداً منها على الآخرين ، ويرجع ذلك إلى طبيعة المذهب الأدبى الذى يسير عليه ، «فالمذهب التقليدى يولى البعد النفسى عنايته واهتمامه ، والمذهب الواقعى النقدى يولى الأهمية الكبرى للبعد الاجتماعى ، أما المذهب الطبعى فيركز على البعد الشكلى الجسدى وإذا اهتمت هذه المذاهب بالأبعاد الأخرى للشخصيات فإن هذا الاهتمام يأتى فى المرتبة الثانية» (٢).

والناظر فى القصة القرآنية يجد ثراء واسعاً فى استخدام هذه الأبعاد الثلاثة، لا من حيث الاهتمام الفائق بها ، ولكن من حيث التنوع فى استخدامها ، ومن حيث طريقة الاستخدام ، وما ترمى إليه القصة من وراء استغلال اللقطات الكاشفة عن البعد المقصود تجليته .

فالبعد الخارجى – مثلا – تهمله القصة القرآنية أحياناً إهمالاً يكاد يكون تاماً ، ولنقرأ هذه القصة :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾(٣).

فلا نجد أثراً للبعد الخارجى لأى من شخوصها ، رغم تنوعها بين إنسان وحيوان وطير ، فليس هناك ذكر لأسماء الأناسين، ولا بيان لأشكالهم وأحجامهم ، وليس هناك أيضاً ذكر للفيلة من حيث عددها وقوتها ، وكذلك الطير لم يذكر نوعها ولا أشكالها ولا ألوانها ، كل ما ذكر عنها أنها كانت أبابيل؛ أى جماعات تأتى من اتجاهات متعددة، ويمكن أن نعتد فى القصة بهذه الشخصية الجمادية وهى الحجارة التى أمطرت بها الطير أصحاب الفيل فدمرتهم ، ومع ذلك تبقى مجهولة الحجم والشكل والعدد .

وإهمال التعريف بشخصيات هذه القصة وجلاء بعدها الخارجى الشكلى لا يقدح

---

(١) انظر : النقد الأدبى الحديث ، ص : ٦٢٤ : ٦٢٦ .
و : دراسات فى نقد الرواية ، د : طه وادى ، ص ٢٨ ، ٢٩ .
(٢) الأدب وفنونه ، د: محمد مندور ، ص : ١٠٠ ، ١٠١ .
و انظر : النقد الأدبى الحديث ص : ٦٢٤ .
(٣) سورة الفيل .

فيها ، لأن القارئ ليس فى حاجة ماسة إلى معرفة المزيد عنها ، إذ من اللغو أن ينصرف القارئ بالأسماء والأوصاف التى لا قيمة لها عن هذا الحدث العجيب الذى وقع ، وعاينه كثيرون من أهل مكة الذين نزل فيهم القرآن ، فالاهتمام بالحدث هنا – لغرابته وقوة تأثيره – هو الذى حدا بالقصة إلى الإضراب عن التعريف بالشخصيات رغم تنوعها ، ونقرأ هذه القصة :

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١).

فنرى القرآن أهمل البعد الخارجى للشخصية إهمالا يكاد يكون تاماً؛ فاسم الموصول (الذى) عرف القارئ أن صاحب الشخصية هنا رجل لا امرأة ، أما اسمه ، وشكله ، وسنه فليس فى القصة ما يشير إلى شئ من ذلك ، ولو أن هذه القصة وقعت لقاص بشرى لكتب فيها رواية مطوله ، ولأسهب فى ذكر الأوصاف والأشكال الخارجية ، للرجل ، وللحمار ، وللمكان ، والطعام والشراب ، وغير ذلك مما يرضى خيال الإنسان ويشبع نهمه إلى معرفة كل غريب وعجيب .

ولكن الواضح أن شيئاً من ذلك كله لا يعنى به القرآن لا فى قليل ولا فى كثير ، لأنه ليس كتاب أدب وتسلية ، إنما هو كتاب دين وعقيدة ، ولذا كان الحدث هنا هو الأهم ، لا الشخصية ، لأنه هو المؤكد للعقيدة الباعث على الاهتداء إلى الدين .

وأحياناً تعطى القصة القرآنية البعد الشكلى قدراً من الاهتمام فتذكر الاسم وتذكر بعض الصفات الشكلية الخارجية ، وذلك حين يكون الهدف من القصة هو التأثير بالشخصية لا بالحدث ، ومن ذلك كثير من قصص الأنبياء المذكورين فى القرآن ومنهم : "نوح" "وإبراهيم" "ويوسف" "وموسى" ، فهؤلاء وغيرهم مذكورون بأسمائهم فى القرآن ، وذكر لكل واحد منهم عدة صفات تطبع شخصيته بطابع خاص يميزه من غيره من

---

(١) البقرة : الآية ٢٥٩ .

الأنبياء،(١). وتذكر هذه الصفات بصورة مباشرة أحياناً وتغلف أحياناً في أسلوب بديع معجز ، وذلك لأن المراد هو إعطاء القدوة بشخصيات هؤلاء الأنبياء .

وغالبا ما يكون للشكل الخارجي الذى تبرزه القصة دور مؤثر في سير الأحداث وتصاعدها ، أو يكون له دلالة معينة في موقف من مواقف القصة، والقرآن يأتى من ذلك بالعجب العجاب .

إن القارئ يسير مع قصة "يوسف" من أولها ، ويمر معه بمحنة المراودة ، ويسمع لوم النسوة لامرأة العزيز لأنها راودت غلامها عن نفسه، والقارئ حتى هذه اللحظة لم يقرأ كلمة واحدة عن جمال يوسف وحسنه ثم يقرأ هذه الآية .

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾(٢).

فيسمع فيها حكاية الجمال وقصة الحسن ويرى تأثيره دون أن يقرأ وصفا للجمال والحسن ؛ إنها صورة مرئية متحركة أخاذة تحمل الدليل الذى لا يستطيع أى كلام أن يصفه ، لقد ذهلت النسوة عن أنفسهن فأعملن السكاكين فى تقطيع أيديهن بدلا من تقطيع الفاكهة . إن الآية لم تصف الجمال لأنه فوق الوصف وفوق الكلام ، ولكنها جعلتنا نحس أثره النفسى فى قلوب النسوة ، ونرى أثره المادى فى أيديهن، ونسمع دليل براءة يوسف حين شهدن له بطهارة الملائكة .

ولعل النسوة قد خرجن من هذا اللقاء وقد التمسن العذر لامرأة العزيز ، ولعل هذا ما سعت إليه وخططت له؛ أن تقدم العذر لنفسها أمام نساء المدينة ، وأن تسوغ ما حدث منها مع فتاها .

ومن الواضح أن هذا الوصف الشكلى الذى أثبتته القصة كان له دور فعال قبل المراودة وفى أثنائها ، وكان له دور فيما يأتى من أحداث؛ ولذا أعلنت المرأة فى تبجح واستهتار غريبين :

﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾(٣).

(١) انظر : التصوير الفنى فى القرآن ، ص : ١٩٩ : ٢١٥ .
(٢) يوسف : الآية : ٣١ .
(٣) يوسف : الآية : ٣٢ .

بل أثبتت القصة أن النسوة قد حاولن استماله "يوسف" إليهن أيضاً؛إذ جاء قوله تعالى على لسان الملك يخاطبهن :

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ﴾(١).

فالحديث عن جمال "يوسف" إذاً كان له دور مؤثر فى الأحداث ولذا اهتمت القصة بإبرازه على هذا النحو .

ومن المواقف التى كان للشكل الخارجى دلالة فنية – أو على الاصح كان له أثر – فى البناء الفنى للقصة ما جاء فى بعض حلقات قصة "موسى"، إذ من المعروف أنه كان فى لسانه بعض العجمة فى الكلام(٢). ، فكان لا يفصح أحياناً إفصاحاً كاملاً ، ولذا دعا ربه أن يحل عقدة لسانه فقال ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾(٣). وفى موقف آخر أعلن خشيته أن يحبس لسانه أمام فرعون :﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴾ (٤). وفى موقف ثالث دعا :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾(٥).

وفى هذه المواقف الثلاثة إشارة إلى هذا المظهر الخارجى لموسى – عليه السلام – ومن الواضح أن هذه العجمة فى لسان "موسى" كان لها تأثير فى نفسه ، ولذا حرص على الاستعانة بأخيه "هارون" ، وفى ذلك بيان للارتباط بين البعد الخارجى والبعد النفسى فى شخصية "موسى" ، وهذا يؤكد أن الارتباط بين الأبعاد الثلاثة ليس من اختراع النقاد والكتاب المحدثين ، بل إن القرآن قد سبق إلى تأكيد ذلك فى قصصه.

والذى أريد أن أوضحه هنا أن أثر العجمة وعدم الإفصاح فى نفس "موسى" كان هو المحور الذى بنيت عليه إحدى حلقات قصته فنياً وذلك فى قوله تعالى فى سورة

---

(١) يوسف : من الآية : ٥١ .

(٢) انظر : تفسير القرطبى ، جـ٦ ، ص ٤٢٣٢ .

و : الكشاف للزمخشرى ، جـ٣ ، ص ٦١ .

(٣) طه : الآيتان : ٢٧ ، ٢٨ .

(٤) الشعراء : الآيتان : ١٢ ، ١٣ .

(٥) القصص : الآيتان : ٣٣ ، ٣٤ .

الزخرف:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (٥٠) وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ (١).

إن الملحوظ أن ما ورد من حديث على لسان "موسى" هنا لايزيد على أربع كلمات : (إنى رسول رب العلمين) وبقية الآيات موزعة بين السرد القصصى وحكاية ما جاء على لسان "فرعون" وقومه من سخرية بموسى ، وافتخار بما يملك "فرعون" من أنهار تفيض عليه بالخيرات فى أرض مصر الخصبة .

ثم تختم الآيات بهذه الغميزة التى أراد بها "فرعون" أن يحط من شأن "موسى" ، هذا الرجل الذى يدعى أنه رسول من رب العالمين، وكأنه يريد أن يقول لموسى : لو كنت رسولا حقا لأعطاك ربك فصاحة فى اللسان وإبانة فى النطق حتى نفهم عنك ما جئت تبلغنا به .

ولعل هناك علاقة بين اقتصاد "موسى" – عليه السلام – فى الكلام وانطلاق "فرعون" فى السخرية به وتعييره بعدم الإبانه فى النطق ، إذ يبدو أن اتشتداد "فرعون" وحدته ناتجة عن سكوت موسى ، وكأنه وجد الفرصة مهيأة لكى يحقق الغلبة لنفسه فى غياب "هارون" – على ما يبدو من ظاهر الموقف – وإلا لا نبرى فى الدفاع عن أخيه فى هذا الموقف الذى لم ينطق فيه "موسى" إلا بأربع كلمات فقط .

ولعل هذه المفارقة تزداد وضوحاً إذا راجع القارئ الحلقات التى ورد فيها ذكر "هارون" فى سور طه والشعراء والقصص ، ففيها محاورات طويلة بين "موسى" "وفرعون" ، أسهب فيها "موسى" وأفصح عما فى نفسه ، فلم يدع لخصمه أن يستغل مظهره الشكلى وعجمة لسانه لتعييره وإهانته .

---

(١) الزخرف : الآيات : ٤٦ : ٥٢ .

والبعد الاجتماعي للشخصيات له حظ أيضا في استخدامات القصة القرآنية ، غير أنها لا تعطيه اهتماماً زائداً شأنه شأن البعدين الشكلي والنفسي ، وذلك لأن الهدف من القصة القرآنية ليس الفن في المقام الأول ، وإنما الفن فيها مسخر لهدف أسمى هو الهدف الديني .

القصة القرآنية تعطى إشاراتٍ سريعة إلى المركز الاجتماعي للشخصية وغالبا ما يكون ذلك في بداية القصة ، أو عندما يأتي ذكر الشخصية لأول مرة إذا كان لها دور بارز في الأحداث ، ثم تدع الشخصية بعد ذلك تتفاعل مع الأحداث انطلاقاً من هذا المركز الاجتماعي المشار إليه .

ففي قصص الأنبياء غالبا ما يشار في بداية القصة إلى أن صاحب القصة والشخصية الأولى فيها نبي كقوله تعالى :وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ (١).

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢).

وقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾(٣).

ويلحظ أن القصص التي تبدأ بالإشارة إلى جانب النبوة في حياة النبي غالبا ما تركز على جانب الدعوة ، ومحاولة إبلاغ الرسالة ، والتدافع الذي يحدث بين النبي وقومه، كما هو واضح في قصص الأنبياء في سور : الأعراف ، وهود ، والشعراء .

فإذا لم يكن جانب الدعوة وإبلاغ الرسالة هو الأهم في حياة النبي أهملت القصة مايشير إليه، وركزت على جانب آخر من حياة النبي على ماهو واضح في قصة "داود" "وسليمان" – عليهما السلام – فهي تبدأ في سورة النمل على هذا النحو :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ

(١) الصافات : الآيتان : ١٣٩ ، ١٤٠ .
(٢) نوح : الآية : ١ .
(٣) النمل : الآية : ٤٥ .

الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (١).

وهذه البداية تتفق مع ما ركزت عليه القصة فى حياة "سليمان" وهو جانب الملك ، وهو جانب عريض ممتد فى حياة هذا النبى .

وهذا المنهج نفسه هو الغالب مع شخصيات غير الأنبياء فى القرآن؛ إذ تأتى اللمحة السريعة كاشفة عن البعد الشكلى أو الاجتماعى للشخصية ، ويكون السلوك متساوقاً مع المركز الاجتماعى الذى ألمحت إليه القصة .

فهؤلاء أصحاب الكهف : فتية آمنوا بربهم إنها لمحة سريعة ولكنها كافية تماماً للإقناع بكل ما حدث من هؤلاء الفتية ، إذ التعبير بالفتوة والإيمان يعطى صورة واضحة عن إصرار الفتى المؤمن على بلوغ غايته مهما لاقى فى سبيلها من صعاب ، فالشباب داع للتحمل، والإيمان داع ودافع إلى الصبر .

وفى قصة "موسى" والعبد الصالح جاء قوله تعالى :

﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾(٢).

ثم تأتى أحداث القصة ومفاجآتها متفقة تماماً مع هذا اللمحات التى كشفت عن شخصية العبد الصالح .

ثم نقرأ هذه اللمحة الكاشفة عن شخصية قارون :

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾(٣).

إنه رجل من قوم "موسى" – عليه السلام – ولكنه شق عليهم ببغيه وظلمه وتسلطه، وهو ثرى بالغ الثراء ، ثم هو فرح بذلك كله ، ولذلك فالقصة تظهره وهو يتصرف تصرف الأثرياء المختالين بأموالهم، وبما أعطاهم الله من نعم كادوا يفتنون بها كثيراًمن ضعاف

---

(١) النمل : الآيات : ١٥ : ١٧ .

(٢) الكهف : الآية : ٦٥ .

(٣) القصص : الآية : ٧٦ .

النفوس.

إن كثيراً من نقاد القصة يؤكدون أن الجانب الاجتماعي له آثاره وانعكاساته على الجانب النفسي للشخصية ، وعلى سلوكها في أثناء القصة ، ويقاس نجاح القصة في بناء الشخصيات بقدر ما يحدثه الكاتب من تواؤم واتساق بين أبعادها(١) . فهل يجد النقاد خيراً من هذه الأمثله القرآنية التي تؤكد سبق القرآن الكريم إلى إرساء ما نادوا به في هذا المجال ؟

إن القصة القرآنية قد تستخدم البعد الاجتماعي للشخصية في إحداث نوع من المفاجأة القصصية ، وذلك حين تقدم الشخصية من خلال تفاعلها مع الأحداث ، ودون أن تشير – لا من قريب ولا من بعيد – إلى مركزها الاجتماعي ، ثم تكشف للقارئ ما أخفته عنه فتحدث لديه نوعاً من المفاجأة قد تصل إلى حد الصدمة .

ومن خير ما يمثل ذلك مايراه القارئ من أسلوب معجز في تقديم شخصية امرأة العزيز في قصة "يوسف" – عليه السلام – فالقارئ يسير مع "يوسف" حتى يطمئن على مقامه في بيت سيده في مصر ، وذلك من خلال أمر الرجل لامرأته أن تكرم مثواه ، وأن تلحظه بعين الرعاية والكرم ، وإن لم يعرف القارئ شخصية السيد ولا شخصية امرأته ومن يكونان ، وما وضعهما الاجتماعي في مصر ! لأن القصة أضربت عن ذكر ذلك كله ، فلم تذكر منه شيئاً .

ثم تمر السنون ويبلغ "يوسف" مبلغ الرجال ، ويفاجأ القارئ بهذا الحادث الخطير ، فالمرأة – التي لا نعرفها حتى الآن – تراود فتاها وربيبها عن نفسه وتدعوه إلى الفحشاء ، ولكنه أبى أن يخون سيده الذي أكرمه ، وينجلي الموقف عن حضور الزوج وشهادة الشاهد أمامه ببراءة "يوسف" وإدانة المرأة ، ثم يلتفت الزوج إلى "يوسف" آمراً إياه أن ينسى ما حدث، وألا يجرى له ذكراً على لسانه، ويلتفت إلى امرأته آمراً إياها أن تتوب وتستغفر .

إلى هنا وشخصية الزوجة وشخصية زوجها الخنوع شخصيتان مجردتان لا يعرفهما القارى ، وإن كان يتعجب من الزوجة لإباحيتها واستهتارها ، ويتعجب أكثر من هذا الزوج لاستسلامه المخزى أمام جموح زوجته ثم يقرأ القارئ هذه الآية التي تحمل

---

(١) انظر : فن كتابة القصة ، حسين القباني ، ص : ٧٨ ، ٧٩ .
و : القصة القصيرة نظريا وتطبيقيا ، يوسف الشاروني ، ص : ٦٨ .

المفاجأة :

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾(١).

والمفاجأة التى تحملها الآية هى الكشف عن وجه هذه المرأة وعن مكانتها الاجتماعية فى المجتمع ، فلماذا الكشف عن وجهها الآن ؟ ولماذا لم يكشف عنها فيما مضى ؟

إن الله – سبحانه – أعلم بمراده ، ولكن ظاهر القصة يوحى بأن الأحداث السابقة كانت تجرى على المستوى المألوف فى حياة الناس عامتهم وخاصتهم على السواء؛ بمعنى أن أى رجل فى مصر كان من الممكن أن يشترى "يوسف" ، وأن أية امرأة كان من الممكن ، أو من غير المستحيل ، أن تراوده عن نفسه ، سواء أكانت امرأة من خاصة الناس أم من عامتهم ، زوجة لملك أو وزير أم زوجة خباز أو راع أو غير ذلك ، إنها امرأة بغض النظر عن وضعها فى المجتمع الذى تعيش فيه ، ولذا لم تهتم القصة ببيان وضعها الاجتماعى .

أما حين يقع الحدث من امرأة من علية القوم وخاصتهم فحينئذ يكون له ذكر ، ويكون له شأن يستحق الكشف عن أثره فى المجتمع وفى نفوس أفراده ؛ لأن الأمر يختلف بالنسبة إلى من يتعلق به الحدث من حيث وضعه فى المجتمع ، ورياسته للناس ، وهذه المرأة زوجة كبير وزراء مصر ، أى الرجل الثانى بعد الملك ، ولذا تسرب الخبر من القصر إلى الشارع والبيوت ، لأن الناس – عادة – يهتمون بأخبار السادة والرؤساء مهما كانت صغيرة أو تافهة ، ومن هنا كان من الأولى للقصة أن تكشف عن وجه المرأة التى أثارت اهتمام الناس بأخبارها ، وشغلتهم بالحديث عنها ، وأن تعلن هذا مع الإعلان عن الفضيحة العامة التى نشأت عن انتشار الخبر فى المدينة (٢).

ومن العجيب أن الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله قد استخدم هذه الوسيلة الفنية فى إحدى قصصه ، وهى التى قدم فيها شخصية "سلمان الفارسى "(٣). الصحابى الجليل ، إذ ظل الكاتب يقدمه ببضعة ألقاب ، فكان يقول : الفتى ، أو الشاب ، أو

---

(١) يوسف : الآية : ٣٠ .

(٢) انظر : القصص القرآنى فى منطوقهومفهومه ، ص : ٤٣٦ .

و : فى ظلال القرآن جـ٤ ، ص ١٩٨٣ .

(٣) الباحث عن الحقيقة ، محمد عبد الحليم عبد الله ، ط : دار مصر للطباعة .

الفارسي، وجعل أباه يناديه ب (ياأنا)[١]. دلالة على حبه الشديد له ، ولما سئل سلمان عن اسمه قال : اسمي ابن الدهقان [٢].، ولم يفصح الكاتب عن اسم بطل قصته إلا بعد أن أوشكت القصة على الانتهاء [٣].، وقد أجاد الكاتب اختيار التوقيت الذى أعلن فيه عن اسم سلمان ، إذ جلعه ينطق به أمام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وبعد أن طاف بلاداً كثيرة فى عمورية والشام إلى أن استقر به المقام فى المدينة المنورة ، فكأن "سلمان" وجد اسمه يوم وجد الحقيقة التى كان يبحث عنها ، يوم وجد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فهل اهتدى الكاتب إلى هذه الطريقة المشوقة فى تقديم شخصية "سلمان" بفطرته أو أنه تأثر بأسلوب القرآن الكريم فى تقديم شخصية امرأة العزيز ؟

ومن الشخصيات التى برزت بوضوح فى القصص القرآنى شخصيات النساء وذلك تأكيداً بأن للمرأة مكانتها ووظيفتها فى الحياة مع الرجل ، صحيح أن التكوين العضوى يختلف فى كل منهما عن الآخر ، ولكن هذا الاختلاف يطبع كلا منهما باستعدادات خاصة تؤهله لوظائف خاصة لا يقدر عليها الآخر ، ولكنهما معا هما الإنسان ، كل منهما ذهب بأحد شطريه، فهما متفقان ومختلفان فى وقت واحد .

ومن خلال هذه النظرة القرآنية تتضح صورة المرأة فى القصص القرآنى فمن حيث اتفاقها مع الرجل فى أنها إنسان مثله تحتل مكان الإنسان فى القصة ، ومن حيث اختلافها العضوى عن الرجل وما يترتب عليه من اختلاف الإمكانات والاستعدادات والعواطف تحتل مكان الأنثى وفى كل من الموقفين تطبعها القصة بما يناسبها ، وتنسب إليها من الأحداث ما يلائم طبيعتها ، ولهذا فإن القارئ يشهدها فى كل نشاط بشرى تحتمله إنسانيتها وأنوثتها فى مجال الحدث القصصى فى القرآن [٤].

ففى مجال إنسانية المرأة نجد القرآن يساوى بينها وبين الرجل أحياناً وذلك حين يظهرها بمظهر الإنسان المؤهل لتلقى الوحى من السماء ، كما هو الشأن بالنسبة إلى "مريم" وأم "موسى" .

وهى تظهر أيضاً فى صورة الإنسان العاقل الرشيد ، صاحب العقل ، الذى يزن الأمور ويتدبرها ، ويختار أقومها وأجداها وأنفعها له، صادراً فى ذلك كله عن إرادة قوية لا ترهب ولا تخاف بطش الباطشين .

---

(١) السابق : ص : ٩ .

(٢) السابق : ص : ٣٢ .

(٣) السابق : ص : ١١٨ .

(٤) انظر : القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه ، ص : ١٠٥ .

وخير ما يمثل هذه الصورة الإنسانية العاقلة للمرأة : امرأة "فرعون"، فقد كانت الدولة كلها تدور فى فلك زوجها ، تأتمر بأمره وتنتهى بنهيه ، وهى لم تشذ عن هذا الفلك الدائر ، فلما عرفت صحة الدعوة التى جاء بها "موسى" ، وآمنت بما جاء به من الهدى ، انسلخت عن زوجها ، وخلعت ربقة الطاعة له من عنقها ، دون خوف من وعيده وبطشه ، وقد استحقت – لذلك – أن تكون مضرب المثل فى القرآن ، ليس لبنات جنسها فحسب ولكن لكل إنسان عاقل ذى إرادة متحررة . يجرى على سلطان الضلال ويدخل فى دين الله ، يقول تعالى

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾(١)

إن المتأمل فى موقف امرأة فرعون يجدها توازى تماماً الرجل المؤمن الذى خرج على سلطان فرعون ، رغم أنه من قومه، إذ وقف يدافع عن "موسى" ضد ظلم "فرعون" وآله ، وهو المذكور فى قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾(٢)

ولعل إيمان امرأة "فرعون" كان أقوى من إيمان الرجل ، لأنها لم تكتم إيمانها على العكس منه ، ولعل موقفها يكون أكثر تأثيرا وأشد وقعاً فى الرعية من موقف الرجل ، لأنها زوجة خرجت على سلطان زوجها وهى أول المستفيدين منه ، وإن مجاهرتها بالخروج لمما يضعف زوجها ويزلزل أركان ملكه ؛ لذلك كان عنف "فرعون" معها شديداً ، فقد قتلها بعد أن أنزل بها أشد العذاب على مايروى المفسرون (٣).

وهناك وجه آخر للمرأة الحرة ذات الإرادة ، إنها الزوجة حين تعمل عقلها ، وتختار بإرادتها ، فتجمح كالأتان الوحشى ، متخلية عن زوجها حتى ولو كان نبيا مرسلاً ، يقول تعالى :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ

---

(١) التحريم : الآية : ١١ .

(٢) غافر : من الآية ٢٨ .

(٣) انظر : تفسير القرطبى جـ١٠ ، ص ٦٦٨٢

الدَّاخِلِينَ ﴾(١)

ومع بعد الشقة بينهما وبين امرأة فرعون فإن كلا منهن تمثل وجه المرأة العاقلة ذات الإرادة المستقلة عن زوجها وعن الناس أجمعين .

ونلحظ أن القرآن لم يعرف أياً من هؤلاء النسوة باسمها ، لتبقى كل منهن علم جنس للمرأة المساوية للرجل في العقل وفي الاختيار ، بحيث إذا شاءت أن تهتدى كانت من المهتدين ، وإذا شاءت أن تضل كانت من الضالين (٢).

وفى القصص القرآني مايزيد صورة المرأة الإنسان وضوحاً؛ إنها المرأة الملكة التى تحكم الرجال فيخضعون لها ، ويأتمرون بأمرها ، لأنها تحتل مكان الحكم والقيادة ، وهى تقيم حكمها على العقل ، وحسن التدبير ، وعلى الشورى أيضاً ، تلك هى ملكة سبأ التى عرض القرآن قصتها مع "سليمان" – عليه السلام – عرضاً مثيراً .

إنها تتصرف فى هدوء ورباطة جأش كما يتصرف أقوى الملوك من الرجال ، وهى تتكلم كلام الخبراء المحنكين الذين يعرفون ويلات الحرب، وما تخلفه من دمار وتخريب ، ولذلك فهى لم تفزع حين جاءها خطاب "سليمان" يأمرها بالخضوع والإسلام له، ولم تغلبها نوازع المرأة التى كثيراً ما تسيطر على النساء فى مثل هذه المواقف الشديدة ، بل جمعت رجال بلاطها وحاشيتها لتشركهم فى البحث عن مخرج لهذه الأزمة التى تكاد تعصف بمملكتها ، وعلى عادة العسكريين أبدى قوادها استعدادهم للنزال ، وتأهبهم للمعركة الوشيكة ، وما عليها سوى أن تصدر الأمر إليهم فتتحرك الجيوش وتبدأ المعركة، ولكنها لم تخدع لاستعراض القوة من قوادها ، لأنها – بحنكتها – أدركت أن من يقتحم مملكتها بمثل هذا الأمر الحاسم لابد أنه يملك من القوة فوق ما تملك هى وقوادها المتحمسون (٣).

إن الواقعية الصادقة للقصة القرآنية تأبى أن تصور المرأة كالرجل تماماً بتمام ، فالصدق يحتم أن يكون هناك خيط ولو رفيع جداً يفصل بين المرأة والرجل حتى فى أشد المواقف تماثلاً وتوافقاً بينهما ، ولذا لجأت الملكة إلى تجريب الحيلة مع "سليمان" – عليه السلام – قبل أن تذعن لأمره ، فأرسلت إليه بهدية ، فإن قبلها فقد فتحت بذلك

---

(١) التحريم : الآية : ١٠ .

(٢) انظر : القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه : ص : ١٠٦ .

(٣) انظر : المرجع السابق، ص : ١١١، ١١٢ .

بابا بينهما للمفاوضات ، وإن ردها علمت أن أمره جد لا هزل فيه ولا رجوع عنه، وهو ما انتهى إليه الأمر إذ جاءت الملكة إلى "سليمان" معلنة ولاءها وإسلامها معه لله رب العالمين ، ولكنه ولاء وإسلام نابع من سلطان العقل ، وقوة الإرادة السليمة .

وفى القصص القرآنى وجه آخر للمرأة مختلف تماماً عن الوجه الذى رأينا، إنه وجه المرأة الأنثى ، بكل ما فيها من عواطف وانفعالات تتميز بها الأنثى من الرجل ، وجه تتضح فيه غرائز الأنثى وما تستتبعه هذه الغرائز من تصرفات ومن سلوك لا يكون إلا من المرأة ، إن من أهم ما تتميز به الأنثى هو الشوق الصارخ إلى إشباع عاطفة الأمومة فى نفسها ، فإن ولدت المرأة مارست عاطفتها فى قوة وانفعال، وإن لم تلد سعت إلى تعويض نفسها عما فقدته فى قوة وانفعال أيضاً، وهذه وتلك صورها لنا القصص القرآنى .

ومن العجيب حقا أن صورة المرأتين قد ارتسمت فى قصة واحدة ومارست كل منهما عاطفتها فى صبى واحد هو "موسى" – عليه السلام – حين كان طفلا رضيعاً ، فأمه التى ولدته ألقته فى اليم تنفيذاً لأمر ربها ، فلما بعد عن عينيها طارت شعاعاً من أجله ، وتحركت عاطفتها نحوه ، فلما تلقته امرأة فرعون سرت به سروراً عظيماً، ودفعها سرورها إلى دفع أذى زوجها عنه حين أمر بقتله، وكانت رغبتها فى إشباع عاطفة الأمومة هى السلاح الذى دفع الله به الأذى عن هذا الصبى الصغير ، ولعل حب امرأة فرعون لموسى ورغبتها فى اتخاذه ولداً يقويان ماذهب إليه بعض المفسرين بأنها لم تلد من فرعون (١).

وتتضح صورة المرأة بصفتها أنثى تتوق إلى الأمومة فى قصة "إبراهيم" – عليه السلام – إذ جاءته الملائكة – فى طريقهم إلى إهلاك قوم لوط – فقدم إليهم طعاماً فلم يقربوه فأوجس منهم خيفة ، ثم كان هذا الموقف وهذا الحوار بين زوجة "ساره" وبين الملائكة :

وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ

---

(١) انظر :تفسير ابن كثير : جـ٣ ، ص ٣٨١ .

أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾(١)

كانت "سارة" واقفة لقضاء مصالحها ، أو لأجل خدمة ضيوف زوجها وكانت تسمع ما بينهم وبين زوجها من حوار فضحكت سروراً وابتهاجاً بسبب زوال الخوف عن إبراهيم ، أو بسبب علمها بأن الضيوف ملائكة أرسلهم الله – تعالى – لإهلاك قوم لوط ، فبشرتها الملائكة بمولودها "إسحاق"، كما بشرتها بأن "إسحاق" سيكون من نسله "يعقوب" ، فهى بشارة مضاعفة ، إذ إنها تحمل فى طياتها أنها ستعيش حتى ترى حفيدها.

وقد أخذتها الدهشة لهذه البشارة العجيبة ، فنطقت بما ظاهره الدعاء على نفسها إذ قالت (ياويلتى) ولكن المراد هنا التعجب من وقوع البشارة بأنها ستكون أما بعد عشرات السنين التى قضتها فى انتظار هذا الأمر المحبب إلى نفسها ، فياللعجب أألد وأنا أمرأة عجوز قد بلغت سن اليأس من الحمل من زمن طويل ، وهذا زوجى إبراهيم شيخاً كبيراً متقدما فى السن ، إن هذا الذى بشر تمونى به لشئ عجيب فى مجرى العادة عند النساء» (٢).

وقبل أن تطمع المرأة فى إشباع عاطفة الأمومة لديها فإنها تتطلع إلى الرجل ، لأنه شطر الوجود الإنسانى، وباجتماعه إليها تستطيع أن تلد الحياة وتحقق أمومتها .

والقصص القرآنى يصور تطلع المرأة إلى الرجل بطريقة مشروعة فيرينا المرأة (الأنثى) تستجيب لطبيعتها فى طلب الزوج ، وفتح منافذ وصوله إليها ، فى تلطف ومداراة ، دون أن يخدش حياؤها ، أو يجرح كبرياؤها وذلك ما كان من ابنة "شعيب" مع موسى – عليهما السلام :–

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾(٣).

فالفتاة جاءت إلى "موسى" تمشى على خفر واستحياء ، إنها إنما جاءت إليه فى

---

(١) هود : الآيات : ٧١ : ٧٣ .

(٢) القصة فى القرآن الكريم ، د: محمد السيد طنطاوى ، ط : دار المعارف ، ١٩٩٣ م سلسلة : اقرأ (٥٧٩) ص : ٥٦ ، ٥٧ .

(٣) القصص : الآية : ٢٥ .

صورة أنثى تهتف بالرجل : أنها المرأة (الزوجة) الصالحة له، إن كان له فى الزواج أرب.

وليس للقارئ أن يمر على قوله تعالى (تمشى على استحياء) دون أن يلحظ مافيه من روعة الإعجاز المبين ؛ "لقد تجسد الحياء فصار بساطاً ممدوداً تمشى عليه ، إنها لا تمشى على الأرض التى تمشى عليها النساء ، ولكنها تمشى على حياء ، تكاد تتعثر فيه قدماها ويضطرب له كيانها .

فإذا انتهت به إلى أبيها لم تشأ أن تترك الأمور تجرى فى مجاريها، بل أرادت أن يكون لها دور فى هذا الموقف ، وأن تعلن رأيها فى تلطف .

وتفتح لأبيها مداخل الحديث إلى ما يوثق الصلة بينه وبين "موسى" ، ويقيمه قريبا منها"(١). ، ولعلها المعنيه بقوله تعالى (٢):

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾(٣)

وكما فى النساء من تتدثر بالحياء – الذى هو أخص خصائص المرأة – فيهن أيضاً الأنثى التى يستبد بها الحب ويغلبها الهوى ، فتندفع إلى الرجل فى غير جياء وتميل إليه فى غير احتشام ، لا بوصفه زوجاً يسكن إليها وتسكن إليه ، ولكن بوصفه رجلا يشبع غرائزها فقط ، وهى فى هذه الحال تندفع بكل عاطفتها نحو الرجل ، وتستخدم كل ما أوتيت من دهاء وحيلة .

والقصة القرآنية تصور هذه اللحظة العاصفة فى حياة المرأة من خلال موقف امرأة العزيز مع "يوسف" – عليه السلام – وهو موقف كثيراً ما يقع فى الحياة ، ولكن أسلوب القصة القرآنية يجاوز هذا الموقف سريعاً ويتعداه إلى غيره ، لأن القرآن لا يحفل بتصوير لحظات الضعف البشرى ولا يتوسع فى عرضها بحجة أنه يرينا الواقع ، بعكس الكتاب من البشر، الذين يتخذون من العواطف الجامحة ، محافل مثيرة يفتنون فى عرضها فى قصصهم ومسرحياتهم ، ويعدون ذلك بطولات ، ليروجوا بضاعتهم لدى الجماهير العريضة من الشباب الذين يبحثون عن التسلية .

---

(١) القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه ، ص : ١١٠ .

(٢) انظر : الكشاف ، للزمخشرى جـ٣ ، ص : ٤٠٣ .

و : ابن كثير جـ٣ ، ص ٣٨٥ .

و : روح المعانى ، للألوسى جـ١١ ، ص ٦٥ .

(٣) القصص : الآية : ٢٦ .

لقد أسرع القرآن فى عرضه للحظة الضعف ، ليسلط الأضواء على لحظة الإفاقة من سكرة الهوى ، ولأنه لم يرد أن يجعل من ذلك معرضاً للجمال والإغراء حتى لا يحصر أشواق الإنسان فى تلك اللحظة العابرة ، لأن للإنسان من الأشواق العليا ما يتصل بصميم الكون والحياة (١).

وذلك فرق واضح جداً بين قصص القرآن وغيره من القصص والمسرحيات التى "يبرر كاتبوها الانحراف ، ويعتذرون عنه للساقطين والساقطات ، وقد أثرت هذه الكتابات تأثيراً سيئاً على عقول النشء فجعلتهم يستهترون وينحرفون؛ ولاشك أن من أهم أسباب ضياع الجيل الحاضر عقلبنه الضعيفة التى انتهت بها إليه هذه التجارة الرخيصة فى الحكايات الغرامية المثيرة والمبتذلة» (٢).

ويعلل أحد المثقفين انصراف العرب والمسلمين الأوائل عن المسرح اليونانى والأوربى بقوله " والمسلمون لا يستبيحون استعراض النساء على خشبة المسرح أو غيره ، والمرأة هى نصف الناس ، ولا يتصور أهل المسرح مسرحاً من دونها، وجسدها عورة إلا لمحارمها، والمسرحيون لايتصورون مسرحاً للمحارم !وقوام المسرح المأساة والملهاة ، وكل منهما يقوم على الخيال الذى لا يتسع له الواقع، والعرب "عمليون" وواقعيون بطبعهم ، وخيال شعرائهم من عصر المعلقات إلى عهد "المتنبى" "والبحترى" لا مصدر لصوره إلا الواقع نفسه ... والمنهج العلمى الإسلامى منهج موضوعى يقوم على الواقع ... وإن انقضاء ثلاثة عشر قرنا على المسلمين دون الاقتراب من المسرح دلالة على واقعيتهم وموضوعية فكرهم ، وليس على قصورهم أو قصور خيالهم عنه".

"والقصص فى القرآن تأريخ لحقائق واقعة يعلم الله بها الناس، والقصص لفظ قرآنى يشير إلى الأثر بمفهوم الاهتداء، بالاتباع والتتبع لمعالم الطريق الصحيح ، طريق الحق ، الذى نعرفه بالقصص الحق" (٣).

ومعنى ذلك أن العرب والمسلمين الذين تربوا على القصص القرآنى الحق يجب عليهم أن يرفضوا هذا العبث الخلقى الذى جاءهم من أوربة، كما رفضه أسلافهم

---

(١) انظر : سيكلوجية القصة فى القرآن ، ص ٤٠٩ .

(٢) قصص القرآن فى مواجهة أدب الرواية والمسرح ، أحمد موسى سالم ، ط : دار الجيل ، بيروت ١٩٧٨ م ، ص : ٣٤٧ ، ٣٤٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص : ٣٤٨ ، والكلام للمستشار عبد الحليم الجندى من حديث مع مؤلف الكتاب .

القدامى وأن يعودوا إلى القرآن بكل مافيه من صدق فى تصوير الواقع الإنسانى .

ومن أهم ما يميز القصة القرآنية فى عرضها لشخصيات النساء أنها لا تهتم بذكر المرأة إلا إذا كان لها دور فى الأحداث ، أو بمعنى أصح إذا كانت الأحداث تستدعى وجودها ، وتستوجب مشاركتها ، فإذا لم يكن لها دور يستدعيه الموقف ويوجبه الحدث فلا يجرى لها ذكر ، ولا يكون لها مكان فى القصة ، وكم من قصة قرآنية خلت من شخصية المرأة وكانت تجرى على مستوى قصة "يوسف" – مثلا – فى الإثارة والتشويق والروعة .

أما غير القصص القرآنى فهيهات أن يستغنى عن وجود المرأة ، وإن حدث كان باهتا شاحباً يمل القارئ منه ولا يصبر على قراءته، ولذلك يستجلب الكتاب المرأة ويصطنعون لها أدواراً بغرض الإثارة والتشويق لجذب القارئ ولضمان عدم انصرافه عن القراءة .

★★★

وفى القصص القرآنى شخصيات كثيرة غير بشرية ، منها ما ينتمى إلى عالم الغيب ، ومنها ما ينتمى إلى عالم الحضور والشهادة ، ويشتركان معا فى أن بعض هذه الشخصيات تؤدى أدواراً إيجابية فى القصة، بمعنى أنها تسهم أحياناً فى صنع الأحداث القصصية، ويصدر عنها حوارات مع غيرها من الشخصيات .

فمن الشخصيات الغيبية الملائكة وحوارهم مع رب العزة فى قصة "آدم" فى سورة "البقرة" ، وحوارهم – أيضاً – مع "إبراهيم" – عليه السلام – وإهلاكهم قوم "لوط" .

ومنها شخصيات الجن وزعيمهم إبليس ، ودوره فى قصة "آدم" مؤثر فى كثير من أحداثها ، وقد طبع القرآن شخصيته بالتكبر والتمرد ، أما الجن فى قصة "سليمان" فهم عبيد مسخرون ، يعملون له ما يشاء .

ومن الشخصيات التى تنتمى إلى عالم الشهادة شخصيات الحيوانات والطيور والحشرات ، ومنها ما يذكر دون أن تنطق، أو يكون لها دور مؤثر فى الحدث القصصى القرآنى، كبقرة بنى "إسرائيل" ، وحمار العزير ، وكلب أهل الكهف ، وطير "إبراهيم"– عليه السلام – وغراب ابنى "آدم"، ومنها ما ينطق نطق العقلاء من البشر، ويتصرف تصرفهم ، وأبرز ما يمثل ذلك "النملة" "والهدهد" فى قصة "سليمان" .

فالنملة تحذر أخواتها الهلاك تحت أقدام "سليمان" وجيشه ، وتنصحهم أن يدخلوا مساكنهم فتبسم سليمان ضاحكا من قولها .

أما الهدهد فوقف من "سليمان" موقف المطلع الذى يعرف من أخبار الممالك الأخرى ما يجهل النبى ، ويعرف من أمر الملكة وقومها ما يعد الأمر الغريب لدى "سليمان" وذلك ما تصوره الآيات الكريمة .

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (١).

إن القارئ ليعجب أشد العجب من هذا الطائر الواعى الحصيف اليقظ لكل ما يدور من الملكة وقومها من الناحية الدينية، وهو إذ ينكر عليهم عبادتهم للشمس وسجودهم لها من دون الله يرى أن الشيطان هو الذى زين لهم هذا العمل وصدهم عن السبيل ، بل يذهب إلى أبعد من هذا؛ فيشير إلى الأسباب التى تدفع إلى عبادة الله من إخراجه الخبء ، ومن علمه بما يخفى الناس وما يعلنون ، ولا تخفى جرأته وثقته حين فاجأ "سليمان" – عليه السلام – بقوله : أحطت بما لم تحط به .

وفى هذه العبارة – التى افتتح بها الهدهد كلامه – يظهر التشويق على أحسن ما يكون؛ إذكيف يطلع الهدهد ، ذلك الطائر الصغير ، على مالم يطلع عليه نبى الله "سليمان" وهو صاحب الملك العريض الممتد ، إنها عبارة تجذب القارئ وتشده ، وخاصة حين تصدر من الهدهد ، وتجعله يرهف سمعه إلى كل كلمة ينطق بها من بعد ، ثم يفاجأ القارئ بأن الهدهد يتحدث عن عقيدة التوحيد فى أوضح مجاليها ، وعن ما يشوبها من شرك على يد هذه الملكة وقومها حين يسجدون للشمس من دون الله .

لقد أثارت شخصية الهدهد بما تحمل من وعى بمسائل العقيدة الصحيحة اهتمام أحد الباحثين، فنعى على المفسرين محاولتهم شرح ماكان من الهدهد مع «سليمان» فقال : " ولو أن هؤلاء المفسرين درسوا المسألة على أساس من الخلق الفنى للشخصيات

(١) النمل : الآيات : ٢٢ : ٢٦ .

، وأنها ما وجدت إلا لتؤدى أدوارها فى القصة لما وقعوا فى تلك الحيرة ، ولما كان دفاع واتهام ؛ وإننا نلحظ فى القصص الحديث أن بعض الأدوار الرئيسة فى القصة تسند إلى بعض الحيوانات، ولعلنا لم ننس بعد شخصية (لاسى) ذلك الكلب الذى يضطلع بالبطولة فى قصة :(لاسى يعود إلى منزله)، وهى بطولة تتجلى فيما يرتسم على وجهه من انفعالات إنسانية ، وفيما يحركة من عواطف بشرية ، ويتحرك (لاسى) فى القصة كما يتحرك الانسان النابه الممتاز ، الذى يملك رقة عواطف البشر، ودقة إحساساتهم ، ويمتاز بما يمتاز به النابهون من ذكاء . وفى الأدب القديم يكفينا كتاب (كليلة ودمنه) ففيه المثل الصالحة للدلالة على ما يقوم به الطير والحيوان من عمل ، وما ينطقان به من حكم وأمثال (١).

ومن الواضح أن الباحث يتشكك فى شخصية الهدهد ، ويستبعد أن يكون نطق بهذا الحديث الدال على الوعى والحصافة، وإلا مارد ذلك كله إلى مسألة الفن الخالص ، وأن الأمر كله لا يعدو أن يكون على أساس الخلق الفنى للشخصيات .

وفى غمرة هذا التشكيك نسى الباحث قوله تعالى فى صدر القصة :

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ (٢).

فإذا كان "سليمان" يعلم لغة الطير – كما علمه الله – "فليس فى الأمر غرابة أن يتلقى من الهدهد هذا الخبر ، كما أنه ليس من الغرابة فى شئ أن يكون الهدهد – وهو على فطرته – منكراً لما عليه القوم من ضلال وكفر" (٣).

وإلى هذا فقد شاء الباحث أن يشكك فى وصف القصص القرآنى بالحق فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ (٤). إذ يقول : لا يقصد من هذا الوصف مافى القصص من جزئيات الأحداث ، وإنما يقصد منه وصف التوجيهات الدينيه الواردة فى القصة ، أو وصف المقاصد التى من أجلها نزلت الأقاصيص والأمثال (٥).

---

(١) الفن القصصى فى القرآن الكريم ، د : محمد أحمد خلف الله ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

(٢) النمل : الآية : ١٦ .

(٣) القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه ، ص : ١١١

(٤) آل عمران : من الآية ٦٣ .

(٥) الفن القصصى فى القرآن الكريم ، ص : ٢٥٩ .

ومعنى ذلك أن الهدف والمقصد من القصة القرآنية هو الذى يوصف بالحق ، أما الوسيلة إلى تحقيق هذا الهدف والمقصد فليس من اللازم أن توصف بالحق والصدق ، والوسيلة هنا هى الشخصية والحدث على حد سواء ، ولذا فهو يصرح بقوله : إن الأحداث والأشخاص فى القصص القرآنى من المواد التى يكون بها البناء ، وهى مواد قد تكون تاريخية ، وقد تكون خيالية ، وقد تكون صوراً فى الأذهان ، أى معتقدات ومسلمات (١).

إما الموازنة بين شخصية الهدهد وشخصيات الحيوان فى الأدب الحديث فليست ذات قيمة ، لأن شخصية الكلب "لاسى" التى تحدث عنها الباحث إنما شغلت مساحة كبيرة من القصة ، وأدت هذه الأعمال عن طريق التدريب والمران ، وليس بالفطرة والطبع أو الإلهام من الله – سبحانه – كما كان من الهدهد ، وما أبعد شخصيات الحيوان فى الأدب الحديث عن النطق والإبانه، كما نطق الهدهد وأبان .

وأما ما جاء فى "كليلة ودمنة" من نطق الطير والحيوان فإنما كان ذلك على لسان المؤلف ليس غير ، وهو نوع من الرمز ربما يكون مدفوعاً إليه بفعل الظروف السياسية أو غيرها ، أو هو نوع من الخيال الذى لا ينكره صاحبه ومؤلفه(٢) ، أما نطق الهدهد فكان على سبيل الحقيقة ، وباللغة التى يعرفها أمثاله من بنى جنسه وعلمها الله – سبحانه – سليمان – عليه السلام .

★★★

سبق أن تصديت لتعريف النموذج البشرى (٣) من وجهة نظر أصحاب الدراسات الأدبية ، وعرفنا ما يشترطونه لنجاح الكاتب فى تصوير نماذجه، وضمان انتشارها وخلودها فى عالم الأدب .

وأول ما يلاحظ على النموذج البشرى المعروف فى الفن الأدبى أنه نموذج محدود ، بمعنى أنه يبدأ من شخص بعينه – غالباً – ثم ينتهى بأن يكون نموذجاً لنمط معين من الناس، فمثلاً نموذج العاشق المولّه، الهائم بمحبوبته، يمثله فى الأدب العربى القديم الشاعر المشهور ""قيس بن الملوح" وهو شخص ، ثم انتقل إلى الأدب الفارسى ، وصار

---

(١) المرجع السابق ، ص : ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

(٢) انظر : كليلة ودمنه، ترجمة عبد الله بن المقفع، ط المركز العربى للنشر بالإسكندرية دت ص ٣٦ ومابعدها .

(٣) انظر : الصفحة الأولى من هذا المبحث .

نموذجا بشريا عالميا ، فأصبح-بالإضافة إلى كونه محبا-نموذجا للصوفى المتعبد الذى يتقرب إلى الله طبقاً لفلسفته الخاصة المميزة له، وأصبح فى صوفيته ذا سمات لم تعرفه بها البيئات العربية من قبل ، ثم دخل مجال الأدب القصصى والمسرحى ، فصار ممثلاً لتيارات عامه فكرية وفلسفية (١) ،وفى كل أدب انتقل إليه هذا النموذج أضيفت إلى أبعاده أبعاد أخرى هى أبعد ما تكون عن شخصيتة الأولى التى ظهرت من قبل فى الأدب العربى، فالصفة الأولى للشخصية أضيفت إليها صفات أخرى كثيرة،فصارت نموذجاً لا يصدق على الشخصية الأساسية للنموذج فحسب، ولكن يصدق على نمط أعم وأشمل منه .

وعلى العكس من ذلك نجد أن النموذج البشرى فى القصة القرانية وفى القرآن بعامه"يبدأ شاملاً عاماً – فى الغالب – بمعنى أنه لا يبدأ من شخص ولكن يبدأ من فكرة تصدق على نمط معين من الناس ، وهذا لا ينفى وجود نماذج الأشخاص فى القصص القرآنى ، لأنها موجودة بكثرة ، ولكن نماذج الفكرة أكثر وجوداً .

والمراد بنموذج الفكرة :أن تجتمع للنموذج منذ البداية مجموعة من السمات الشخصية ، تجعله لا يقتصر على شخص معين ، بل يتعداه إلى أن يصدق على نمط من الناس، تجتمع فيهم هذه السمات ، بغض النظر عن البيئة المحلية التى ولد فيها هذا النموذج (٢).

ومما يوضح ذلك هذا النموذج الذى أفاض القصص القرآنى فى وصفه ؛ ويمثله الملأ المعارضون لدعوات أنبياء الله، ويقوم بتوضيح فكرة المحاكاه أو المتابعة التى آمن بها هؤلاء الملأ ، والمتابعة لأبائهم ، وأسلافهم الذين ورثوا عنهم عباداتهم، كما ورثوا عنهم أموالهم ، وقد دفعهم إيمانهم بمتابعة آبائهم إلى الصد عن كل جديد جاء به الأنبياء ، وقد سجل القرآن ذلك بقوله :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾(٣).

---

(١) انظر : النماذج الإنسانية فى الدراسات الأدبية المقارنة ، ص : ١٧ ، ١٨ .

(٢) انظر : النماذج الإنسانية فى القرآن الكريم ، د: أحمد محمد فارس ، ط : دار الفكر العربى بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٩ م ص : ٣٣ .

(٣) البقرة : الآية : ١٧٠ .

إن أول صفة من صفات هؤلاء هى غلبة العاطفة ، فهم يعدون اتباع ما ورثوه عن آبائهم نوعا من الوفاء لهم ، ودفعهم ذلك إلى التعنت برفض دعوة الأنبياء ، والاستنكاف عن قبول ما أنزل الله وهم يتسمون أيضاً بالجدل واللجاج .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ (١).

فهم رفضوا هذا الدين الجديد بدعوى أنهم ليسوا فى حاجة إليه . وهم يتسمون أيضاً بالحمق؛ إذ يعدون أن ترك ما كان يعبد آباؤهم وعبادة الله وحده جريرة من الأنبياء فى حقهم ؛ فيتجهون إلى كل رسول بإنكار دعوته ؛ فقال قوم عاد .

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾(٢).

وقال قوم موسى :

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣).

بل إن بعض هؤلاء المتابعين حاولوا أن يدخلو انبيهم فى ملتهم التى ورثوها بدلا من أن يدخلواهم فى دينه الجديد :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ (٤).

وهؤلاء المتابعون لا يريدون جديداً ولو كانوا على خطأ من أمرهم فهم ينسبون هذا الخطأ إلى آبائهم ، وكأن الأمر لا يعنيهم فى شئ ولا يقدح فى عقولهم التى لم يتعودوا إعمالها :

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ

---

(١) المائدة : من الآية : ١٠٤ .

(٢) الأعراف : من الآية : ٧٠ .

(٣) يونس : من الآية : ٧٨

(٤) الأعراف : الآية : ٨٨ .

بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (١).

إن أخطر ما يتسم به هذا النموذج المتابع هو إهمال العقل وتعطيله ، والسير وفق الهوى ، لأن ذلك يدعو إلى الشطط والغلو ، ولذا استحق أن يبرزه القرآن ، ويؤكد على الفكرة التى يعتنقها أقراده وهى فكرة المتابعة ، وعرض القرآن لهذا النموذج عرض موح؛(٢) لأن السباق يبين كيف تنعدم إنسانية الإنسان عندما يرفض أن يفكر ، وكيف يصبح ضعيفا مضحكاً عندما تتحول حياته إلى مجموعة من العادات الموروثة، التى لا يطرأ عليها أى تغيير ، وإن أصابها التغيير فهو تغيير إلى الأسوأ وليس إلى الأحسن ،

وتتضح شمولية هذا النموذج البشرى حين نستحضر متابعه الابن لأبيه والبنت لأمها والتلميذ لأستاذه ، وهى متابعة مشروعه مادام التابع فى طور الطفولة الحقيقية أو العلمية ، أما حين يشتد عود الابن والبنت، وينضج عقلهما، وحين يأخذ التلميذ عن أستاذه ما يؤهله لتكوين شخصيته، العملية، فلابأس أن يعمل كل واحد من هؤلاء عقله فى غير ما نفور عن المتبوع ، ودون تأب على نصيحته ، وخاصة إذا كان المتبوع مثالاً فذاً فى أبوته أو فى علمه .

ويترتب على شمولية نموذج الفكرة فى القصص القرآنى صدقة على كل من تتوافر فيه سمات النموذج فى كل زمان ومكان وفى أية بيئة ، بعكس النموذج البشرى فى الفن الأدبى ، إذ تختلف سمات النموذج من زمن إلى زمن ، ومن بيئة إلى بيئة .

والمثل الواضح جداً على هذا الاختلاف نموذج "أو ليس" (٣). الذى ابتدعه الشاعر اليونانى الشهير "هوميروس" فى"الإلياذة"، وكان يتصف بالذكاء والحكمة والشجاعة والحزم (٤). ثم جعله بطلا لملحمته الثانيه "الاوديسا" وغير فى صفاته بعض التغيير ، أو التطوير ، فوصفه بالحنكة ، وحسن التقدير ، واللباقة فى معالجة الأمور ، والقدرة على

---

(١) الأعراف : الآية : ٢٨ .

(٢) النماذج الإنسانية فى القرآن الكريم ، ص : ٥٢ ، ٥٣ .

(٣) أوليس واحد من أشهر النماذج البشرية فى الأدب اليونانى القديم ، وفى الآداب الأوربية الحديثة ، وهو فى الأصل أحد أبطال حرب طروادة التى صورها "هوميروس" فى ملحمته :"الإلياذة". انظر : نماذج بشرية ، د: محمد مندور ، ط : دار نهضة مصر ، الطبعة الرابعة ، دون تاريخ ، ص ١٥٧ .

(٤) المرجع السابق ، ص : ١٦٠ ، ١٦١ .

(٥) السابق ، ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

فهم النفوس (٥). وكان ذلك فى القرن العاشر قبل الميلاد .

وفى القرن الخامس قبل الميلاد جعله الشاعر "سوفوكليس" بطلا لمسرحية "فيلوكتت" ويصوره فيها فى صورة النموذج الخبيث ، الجبان الذى لا يقيم للمبادئ والخلق أى وزن ، ولا يتورع عن فعل أى شئ (١).

ثم دخل هذا النموذج طوراً جديداً فى أدب القرون الوسطى ، والآداب الأوربية الحديثة ، فأصبح ذا طابع خاص عند كل من تناوله من شعراء هذه الآداب مثل : "دانتى" ، الشاعر الإيطالى (ق ١٤ م) "ودى بللى" الشاعر الفرنسى (ق ١٦م) ، "والفريدتنيسون" الشاعر الإنجليزى (ق ١٩م) (٢). وذلك ما دعا الدكتور محمد مندور إلى القول :"والذى لاشك فيه هو أن "أوليس" اليونان لم يعد – كما قلنا – نموذجا بشرياً ، بل مجموعة من الرموز يأخذ منها الشعراء والكتاب ، كل ما يحلو له للعبارة عما فى نفسه من إحساس ، أو فى عقله من فكر» (٣).

---

(١) السابق ، ص ١٧٣ .
(٢) السابق ، ص ١٨١ : ١٨٣ .
(٣) السابق ، ص ١٨٦ .

المبحث الثالث

الحوار والسرد

الحوار والسرد يشكلان معا الأسلوب المستخدم فى إيراد الحوادث وتطويرها وفى رسم الشخصيات فى القصة الفنية، والأسلوب هو أول ما يقابل القارئ فى القصة ، ومن هنا تأتى أهميته ، فهو إما أن يجذب القارئ إلى المتابعة وإما أن يصرفه عنها قبل أن يدلف إلى الحوادث ويتعرف إلى الشخصيات ، وعن طريق الأسلوب "يستطيع الكاتب أن يصطنع الوسائل القصصية المتعددة التى بين يديه فيخرج منها عملا فنيا متكاملاً"(١) .

ويعنى بالحوار : ما يدور من حديث بين الشخصيات فى القصة. والمقصود بالسرد:" الطريقة التى يصف به الكاتب جزءاً من الحدث أو جانبا من جوانب الزمان أو المكان اللذين يدور فيهما ، أو يصور ملمحاً من الملامح الخارجية للشخصية (٢) .

ولكل من الحوار والسرد قيمة أو ميزة فى البناء الفنى للقصة؛ فالحوار يساعد على إبراز الفكرة وتوضيحها ، لأن كل طرف من أطراف الحوار يحاول أن يثير الجوانب التى يؤمن بها ويدافع عنها ، كما يتميز الحوار بأنه يساعد على تجسيد المواقف وإحياء المشاهد حتى يشعر القارئ بالحياة تدب فى المشهد وتتحرك، وحتى يعيش لقارئ مع الأحداث من خلال أبطالها الذين يشعر بهم وهم يتحركون أمامه كما لو كان حاضراً معهم ، يشعر بالحدث كما شعروا وينفعل به مثلما انفعلوا.

أما قيمة السرد القصصى فتتمثل فى أن الكاتب يستطيع أن يلاحق الجوانب الصغيرة الدقيقة للأحداث ، كما يتمكن – عن طريق السرد – من أن يقف موقف المرشد الذى يقود تفكير القارئين وينبهم إلى القضايا التى يريد إثارتها من خلال الموقف القصصى (٣).

" ومعيار الجودة فى كل من الحوار والسرد أمران :

الأول : القدرة على تحريك الحدث وتصعيده فى مراحله المختلفة .

الثانى : الإفصاح عن المعانى بدقة، ودون إخلال بتقصير أو إملالٍ بتطويل (٤).

---

(١) فن القصة . د: محمد يوسف نجم ، ص ١١٣ .

(٢) أنظر: دراسات فى نقد الرواية ، ص : ٤٣ ، ٤٧ .

(٣) انظر : الحوار فى القرآن ، محمد حسين فضل الله ، ط دار التعارف للمطبوعات ، بيروت الطبعة الخامسة ، ١٩٨٧ م ص : ٢١٦ .

(٤) بدائع الإضمار القصصى فى القرآن الكريم ، ص ٧٣ .

والحوار هو الوسيلة الفنية فى بناء المسرحية ، أما فى القصة فيشترك الحوار والسرد معا فى تشكيل الوسيلة الفنية للبناء القصصى ، ولذا تعد حرية كاتب القصة أوسع من حرية كاتب المسرحية ، وهذه الحرية الواسعة - التى يكفلها تعدد وسائل التعبير للكاتب القصصى - يقابلها التزام شديد يقع على عاتقه ويتمثل فى أن الكلمة فى القصة وضعت أصلا لتقرأ ، فى حين أن الكلمة فى المسرحية وضعا لتقال ، أى أن الكلمة فى القصة تؤدى ما تؤديه الكلمة مع الصورة فى المسرحية ، وفى العصر الحديث عرف العالم فن الخيالة (السينما) وهو فن أغنى وأكثر حرية من المسرح من حيث تنوع المناظر، والسرعة فى إيراد الحدث ، وتشترك الخيالة مع المسرح فى أنها تؤدى المعنى أو الفكرة من طريق الكلمة المنطوقة مع الصورة المشاهدة ، ومع ذلك يبقى للكلمة المطبوعة على صفحات القصة ميزتها ، وهى أنها عندما تصف شخصاً أو مكاناً أو حدثاً فإنها تترك للقارئ حرية تخيل هذا الشخص أو المكان أو الحدث ، وتتيح له محاوله تجسيده بحواسه المتعددة من بصر وسمع ولمس وشم بعد أن يستدعى خبراته الخاصة ويستجمع قدرته على التخيل ، ومن هنا تختلف الصورة النهائية لقراء القصة باختلاف قدرة كل منهم على التخيل والتجسيد (١).

والملحوظ أن للقرآن الكريم آفانين شتى تحكم توزيع الحوار والسرد فى القصص الوارد فيه؛ فطول القصة وقصرها ليس هو العامل الوحيد الداعى إلى بنائها على الحوار والسرد معاً أو إقامتها على السرد وحده ، فقد نجد قصة قصيرة جداً جاءت فى آية واحدة ومع ذلك يختلط فيها الحوار والسرد معاً كقوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾(٢).

---

(١) انظر : النقد الأدبى الحديث ، ص ٦٦٩ ، ٦٧١ .

و : القصة القصيرة نظريا وتطبيقيا ، يوسف الشارونى ص ١٧ .

(٢) البقرة : الآية : ٢٥٨ .

وجاء بعد هذه القصة مباشرة قصتان قصيرتان هما : قصة الذى مر على قرية ، وقصة طير إبراهيم عليه السلام [١]، وقامتا على الحوار والسرد معا رغم قصرهما إذ جاءت كل قصة منهما فى آية قرآنية واحدة .

وقد نجد قصة أطول نسبياً من القصص السابقة ومع ذلك تقوم على عنصر السرد وحده ، كقصة داود وسليمان عليهما السلام فى سورة الأنبياء[٢] ، وقصة داود أيضاً فى سورة سبأ [٣]، وكهذه القصة التى يظهر فيها إعجاز السرد القصصى القرآنى كأوضح ما يكون قال تعالى :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [٤].

إن هذه القصة تؤكد قاعدتين فى غاية الأهمّية يمكن أن يفيد منهما كتاب القصة الفنية ونقادها

الأولى : أن الأقصوصة والقصة القصيرة يمكن أن تستغنى عن عنصر الحوار وتقوم على السرد وحده بشرط أن يتمكن الكاتب من اللغة بحيث لا يضطر إلى بتر الحدث القصصى أو تشويهه ، أو الاستغناء عن بعض العناصر القصصية الضرورية ، والحق أن الصحف تطالعنا بكثير من الأقاصيص التى تعتمد على السرد القصصى وحده ، ولكن كثيراً من كتابها تنقصهم مهارة استخدام الوسيلة اللغوية الفنية ، فيأتى الحدث عندهم مجتزءاً غامضاً ، وقد تفقد الأقصوصة عند هؤلاء عنصر التشويق فيفقد القارئ اهتمامه بها ويحس أنه إنما يقرأ خبراً لا أقصوصة فنية .

---

(١) البقرة : الآيتان : ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

(٢) الأنبياء : الآيات : ٧٨ : ٨٢ .

(٣) سبأ : الآيات : ١٠ : ١٤ .

(٤) الصافات : الآيات : ١٣٩ : ١٤٨ .

الثانية : أنه لا يجوز للقاص أن يصف إلا ما يدعم الحدث الذى اختاره ليدير حوله قصته ، وذلك بأن يتخلى عن كثير من التفاصيل التى لا تفيد القارئ فى شئ، وأن يكتفى بالخطوط العريضة التى تحدد ملامح الصورة ، وعلى الأحداث بعد ذلك أن تكمل الملامح إذا كان لابد لها أن تكتمل "وهذه القاعدة الفنية واحدة من أهم القواعد القصصية التى اهتدى إليها كتاب القصة فى السنوات القريبة الماضية(١).

وقد رأينا القصص القرآنى يسبق إلى هذه القاعدة ويؤكدها ، ففى قصة "يونس" السابقة تحقيق لمبدأ الاقتصاد الفنى فى أروع صوره وبأجمل ما يمكن أن يتحقق ،وذلك بطرح التفاصيل التى لا تعنى القارئ فى شئ ، أو التى لا تفيد القصة ، أو التفاصيل التى يمكن إفادتها من خلال الأسلوب القرآنى المعجز ، ومن ذلك :

١ – أن القصة لم تذكر السبب الذى من أجله ترك يونس – عليه السلام – قريته وأبق إلى الفلك ، ولكن يمكن معرفة هذا السبب من الآية الأخيرة من القصة ﴿فآمنوا فمتعنهم إلى حين﴾ ؛ إذ إن إيمانهم بعد عودته إليهم (٢) يفيد أنهم لم يؤمنوا قبل خروجه عنهم وذهابه مغاضبا لهم كما صرحت به سورة الأنبياء(٣) ، وربما لا تكون فى حاجة إلى هذا الفهم البعيد بعض الشئ ، فالنظر إلى الفعل (أبق) يدل على نوع الخروج الذى كان من يونس – عليه السلام – وأنه خرج دون إذن من ربه – سبحانه – ودون أن يكمل إبلاغ الرسالة التى أرسل من أجلها ، ولذلك عبرت القصة عن خروجه بالإباق وهو هرب العبد من سيده ، ولا يخفى أن هذا الفعل بمدلوله قد ساعد على تحقيق الاقتصاد الفنى ، إذ إنه أغنى عن جملة من الوصف .

٢ – أن القصة لم تشر إلى ركاب الفلك من حيث عددهم ولا هيئاتهم ولم تذكر وجهتها ولا شيئاً من هذه الأمور التى لا تؤثر فى البناء القصصى ، ولا تفيد القارئ ، وإنما اكتفت بالإشارة إلى أن الفلك مشحون ، أى مملوء ، وذلك يعنى أن القرعة – حين

---

(١) السرد القصصى فى القرآن الكريم ، ص ١٠٦ .

(٢) فى الكشاف جـ٤ ص ٦٢، والقرطبى جـ٨ ص ٥٥٧٤ ما يفيد أن يونس أرسل إلى أهل نينوى بعد نجاته ، وأنهم هم الذين خرج مغاضبا لهم من قبل .

(٣) الأنبياء : الآية : ٨٧ .

خرجت على "يونس" من بين خلق كثيرين لكي يلقى به فى البحر – كانت تنبيها له إلى خطأ خروجه عن قومه بغير إذن ربه .

٣ – لم تذكر القصة وصف الحوت طولا وعرضاً ، ولكنه مستفاد أيضاً من السياق القرآني المعجز ، فهو حوت استطاع أن يبتلع رجلا بأكمله ،وهذا يغنى عن أى وصف مهما دق .

٤ – تتضح قيمة السرد القصصى القرآنى فى أن القصة تريد أن تخلص إلى الغاية من الحدث – مهما كان عظيماً وغريباً – فى لمحة سريعة وبأسلوب معجز ، فلولا أن يونس – عليه السلام – كان من الذاكرين لله المسبحين بحمده لظل فى بطن الحوت إلى يوم البعث ، فالسرعة فى السرد هنا هدفها تأصيل القيمة الدينية من القصة، وهى أن المؤمن إذا كان على صلة وثيقة بخالقة ذاكراً له كانت النجاة من الشدائد والكروب هى المكافأة الربانية له ، ولو أبطأ الأسلوب القرآنى وتوقف عند وصف ما كان من يونس وهو فى بطن الحوت ، وما انتا به من مشاعر وأحاسيس لما برزت هذه القيمة الدينية على هذا النحو المعجب .

٥ – ولا ينبغى أن نغفل عن هذه البساطة التى يتميز بها أسلوب القصة فى سرد الأحداث العظيمة وإيرادها ، فهذه شجرة اليقطين نبتت فجأة وفى سرعة ، وفى بساطة لا تصدر إلا عن رب العالمين – سبحانه – أما كيف نبتت وأين وكيف كان حجمها وشكلها فهذا لا يهم القارئ .

إن قاعدة الاقتصاد الفنى فى سرد الأحداث تنبه كتاب القصة إلى أمر فى غاية الأهمية وهو أن على الكاتب أن يدع لقرائة أموراً وأحداثا يفهمها هو بنفسه ويتخيلها ، لكى يكون قارئا مشاركاً بإيجابية فى خلق الجو وتخيل البيئة التى تدور فيها أحداث القصة(١)

***

إذا كان بعض القصص القرآنى قد بنى على عنصر السرد وحده – كما أشرت – فإن الكثرة الكاثرة من قصص القرآن تقوم على المزاوجة بين الحوار والسرد معا فى

---

(١) أنظر السرد القصصى فى القرآن الكريم ص ١٠٢ : ١٠٧

القصة الواحدة وإدراك ذلك أمر فى غاية السهولة والبسر ، غير أن الملاحظ أن كل عنصر من العنصرين يأتى فى مكانه المناسب تماماً فى القصة القرآنية ، فالحوار يأتى حين يجمل أن يكن العرض حوارياً ، والسرد يأتى حين يجمل أن يكون تقديم الحدث أو الشخصية سرداً روائياً ، ولا يجوز أن يستبدل أى من العنصرين فى مكانه بالعنصر الآخر ، وفى القصة القرآنية نجد الانتقال من السرد إلى الحوار أو العكس يكون طبعياً وسهلاً، حتى إن القارئ ربما لا يدرك هذا الانتقال إلا إذا كان واعياً يقظا وتظهر هذه الخصائص واضحة فى القصة التالية :

﴿ واذكر فى الكتب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً . قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلما زكيا قالت أنى يكون لى غلم ولم يمسسنى بشر ولم أك بغياه قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله ءاية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً ﴾ (١).

بدأت القصة سرداً روائياً تضمن بعض الأحداث المهمة ، فمريم تركت ديار أهلها وخلت بنفسها فى مكان بعيد ، وبينها وبين أهلها حجاب ، لا تراهم ولا يرونها ، فهى إذا وحيدة فريدة ، ثم هى فتاة خجول يسيطر عليها ما يسيطر على مثلها من المشاعر والاحاسيس ، وخاصة مع انفرادها واطمئنانها إلى هذا الانفراد ، وإذ هى تجد أمامها شاباً سوياً ، تام الخلق قوياً فتفزع لما ترى ، وإن كنا نحن نعلم من الأسلوب أنه روح الله جبريل – عليه السلام – فهى لا تعلم إلا أنه رجل ، وهنا يتمثل الخيال تلك الفتاة البريئة التى تربت تربية دينية صالحة، وكفلها زكريا بعد أن نذرت لله جنيناً ، إنها – لابد – قد اهتزت هزة نفسيه عنيفة .

وقد انتقل الأسلوب من السرد إلى الحوار ، وجاءت النقلة طبعية سهلة ، كأنها الطريق الحريرى الممهد، تسير فيه الكلمات طيعة مواتية ، و"مريم" هى التى ابتدأت الحوار ، وجاءت كلماتها معبرة أدق تعبير عن نفسها المذعورة من لقاء هذا الشاب الذى

---

(١) مريم : الآيات ١٦ : ٢١ .

لا تعرفه ، ولذلك أرادت أن تستثير فى نفسه التقوى، ولكنه طمأنها إلى أنه رسول من استعاذت به، جاء ليهب لها غلاماً زكيا طاهراً وهكذا يأتى الحدث المعجزة فى جملة حوار على لسان جبريل فى سهولة ويسر ، وفى صراحة وبألفاظ مكشوفة لا تحتمل التأويل .

وهذه الصراحة من "جبريل" تقابلها صراحة أيضاً من "مريم"؛ فهى والرجل فى خلوة، والغرض من مباغتته لها قد صار مكشوفاً، فما تعرف هى بعد كيف يهب لها غلاماً ، فهى ليست تفجر مع الرجال بغياً ، فهى أبعد ما تكون عن الحمل والولادة ، لأنها لا تتصل بالرجال حلالاً أو حراماً"(١) .

ولكن "جبريل" ينهى الحوار بكلمات قاطعة الدلالة على أن ما بشرها به سيكون ، وأن هذا الغلام سيأتى بطريقة غير معتادة ليكون آية دالة على قدرة الله – سبحانه – وأن أمر ميلاده مقضى لا محالة لأن الله قضى بذلك .

ومع سهولة الانتقال من السرد إلى الحوار فى الآيات السابقة نلاحظ أن الحوار على لسان "مريم" جاء معبراً عن شخصيتها أدق تعبير، وأن الحوار وحده هوالأسلوب المناسب لإبراز مشاعرها وأحاسيسها المضطربة ، ولنا أن نلحظ أيضاً أن ما جاء من حوار على لسان "جبريل" كان يتقدم بالحدث القصصى قدما مع كل جملة ينطق بها ، فى حين أن ما جاء على لسان مريم كان يساعد – فى المقام الأول – على رسم شخصيتها وإبراز عواطفها ، فالحوار واحد ولكنه ينصب على الحدث فى أحد طرفيه ، وينصب على الشخصية فى الطرف الآخر ، ومع التقدم فى الحدث والشخصية معا تتقدم القصة كلها إلى الأمام ، لتبدأ مشهداً جديداً تزاوج فيه بين الحوار والسرد على هذا النحو المعجز .

﴿ فحملته فانتبذت به مكانا قصيا فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا . فنادها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سرياً وهزى إليك بجذع النخلة تسقط عليك رطبا جنياً ، فكلى واشربى وقرى عينا فإما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيا ﴾(٢) .

بدأ هذا المشهد – أيضاً – سرداً روائياً ، ولكن الكلمة الأولى منه (فحملته) تحمل

---

(١) انظر : التصوير الفنى فى القرآن ، ص : ١٩٧ .

(٢) مريم : الآيات ٢٢ : ٢٦ .

المعجزة التى ما كان عقل "مريم" يعرف كيف تحدث، وما كان عقل القارئ – أيضاً – يعرف كيف تكون هذه الهبة التى بشر بها "جبريل" فى حواره السابق مع "مريم" ، ولكن ها هو ذا الحمل قد تم ، لا نعرف كيف لأن السياق لم يشأ أن يخبرنا ، ولكنه ترك فجوة فنية كبرى ، تركها للخيال يتخيلها كما يحلو له ، حتى تمضى أحداث القصة فى سرعة إلى مرحلة التصعيد والتأزم .

ويلاحظ على أسلوب السرد هنا السرعة فى إيراد الأحداث وتواليها ، فهذه الفاءات الثلاث (فحملته فانتبذت فأجاءها) تدل على توالى الأحداث ووقوعها دون إبطاء ، وقدتكون الفاء فى (فأجاءها) ذات دلالة فى ترجيح ما رآه بعض المفسرين من أن مدة الحمل بعيسى – عليه السلام – لم تستمر إلا ساعات معدودة ، بعدها [1] جاءها المخاض وكانت الولادة .

وينتقل الأسلوب مرة أخرى من السرد السريع إلى الحوار نقلة لطيفة لا تكاد تحس ، وذلك حين قالت "مريم" فيما يشبه النجوى :

"ياليتنى مت قبل هذا ، قولها هذا يعرض نفسيتها عرضا سافراً واضحاً ، فهى تعانى ألام الحمل والمخاض منفردة وحيدة ، فلا علم لها بشئ ولا معين لها فى شئ ، ثم هى توشك أن تواجه المجتمع بأمر لم يألفوه، أمر الفتاة التى تلد دون زوج ، وبالتالى سيواجهها المجتمع بالفضيحة، فالآلام الجسدية والنفسية التى اجتمعت على مريم هى التى دفعتها إلى تمنى الموت ، فإذا هى قالت : (ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسياً) فإننا لنكاد نرى ملامحها ، ونحس اضطرابها ،ونلمس مواقع الألم فى جسدها ونفسها .

لعل تمنى الموت كان خاطراً فى نفس "مريم" ترجم عنه لسانها فى كلمات مسموعة على الرغم منها ، بمعنى أنها لم تكن تخاطب أحداً بهذه الكلمات ، ولم تكن تريد أن تبدأ حواراً مع أحد لأنها وحيدة ، ولكن المفاجأة العظمى أن الطفل الذى ولد للحظة يناديها من تحتها ، ويمهد لها مصاعبها ، ويرشدها إلى طعامها وشرابها ، ولعلها دهشت طويلاً

---

(١) انظر :القرطبى ، جـ٦ ، ص ٤١٣١ .

والكشاف ، جـ٣ ، ص ١٢ .

وذكر ابن كثير أن الفاء تفيد تعقيب كل شئ بحسبه ، وأن مريم حملت بعيسى كما تحمل النساء . انظر : تفسير ابن كثير جـ٣ ، ص ١١٦ .

وبهتت طويلاً قبل أن تمد يدها إلى جذع النخلة تهزه ليسا قط عليها رطبا جنيا .

إنها لابد قد جربت ما أرشدها إليه الصبى لتتأكد على الأقل ، ويطمئن قلبها إلى ما تواجه به أهلها ، ولكن السياق القرآنى لم يتسع لذكر ما يفيد ذلك ؛ لأن معجزة نطق الصبى المولود للحظة تغنى عن التأكيد على ما سواها من معجزات ، ولأن الأحداث هنا تجرى على نسق غير النسق الذى اعتادت أن تجرى عليه فى أذهان البشر أو على أيديهم.

إن القرآن يقدم المعجزة فى كلمات قليلة وبطريقة سهلة يسيرة لا يصاحبها ضجيج ، لأن المعجزة حين تأتى تحمل معها ضجيجها وإثارتها ، ولكن القرآن إكتفى ببيان أن "مريم" التى كانت خائفة مذعورة تتمنى أن تموت أصبحت مطمئنة هادئة واثقة فى نفسها ، لأنها تحمل بين يديها معجزة تشهد ببراءتها حين تواجه قومها :

﴿ فأتت به قومها تحمله قالوا يمريم لقد جئت شيئاً فريا يأخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا . قال إنى عبد الله ءاتنى الكتب وجعلنى نبياً وجعلنى مباركاً أين ما كنت وأوصنى بالصلوة والزكوة مادمت حيا . وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً . والسلم على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً . ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ﴾(١).

إن دراسة القصة القرآنية فرصة عظيمة للكتاب والنقاد ليتعلموا أين يكون السرد وأين يكون الحوار. إن الكاتب – أى كاتب – يستطيع أن يصنع سرداً وحواراً ، ولكن الكاتب المتمكن وحده هو الذى يستطيع أن يضع الحوار فى مكانه اللائق به من القصة ، وهو الذى يعرف متى يخرج من السرد إلى الحوار ، لأن الدخول إلى الحوار ليس ميسوراً لكل كاتب ، فالكاتب البارع وحده هو الذى يجعل القارئ ينتقل إلى الجزء الحوارى من قصته دون أن يشعر أن هناك نقلة من السرد الروائى إلى السرد الحوارى (٢).

---

(١) مريم : ٢٧ : ٣٤ .

(٢) انظر : السرد القصصى فى القرآن الكريم ص ٩٠ .

لقد جاء المشهد الأخير من القصة تتصدره جملة سرد ، وختم أيضاً بجملة سرد ، وفيما بين الجملتين جاء الحوار ، وكل من السرد والحوار جاء فى مكانه المناسب تماماً .

جملة السرد الأولى هى قوله تعالى عن "مريم" (فأتت به قومها تحمله) وهى تفيد أن مريم جاء قومها وهى تحمل صبيها الصغير بين يديها مجاهرة به قومها غير خائفة ولا وجلى ، لأنها اطمأنت – كما قلت – إلى انتصارها عليهم فى المواجهة المنتظرة بينها وبينهم ، وفى تقديم الجار والمجرور (به) ما يوحى بأنها أتت به وحده دون ما سواه من مخاوف ووساوس كانت تنتابها من قبل ، ثم إنها هى التى أتت قومها ولم يأتها القوم فى مكانها ، فهى إذا مهيأة لمواجهتهم ، وأنها هى التى اختارت توقيت هذه المواجهة .

هذه الجملة الواحدة كافية لتهيئة الجو الجديد فى القصة ، وبعدها يبدأ الحوار ، ولن تبدأه "مريم" كما بدأته فى الموقفين السابقين، لأنها هنا مطمئنة واثقة ،وهناك كانت قلقة خائفة ، هنا هى تريد أن تتلقى الاتهامات من قومها حتى ترد عليهم بهذه المعجزة الإلهية التى تحملها بين يديها ، وفى الموقفين السابقين كانت تريد أن تدفع الأحداث بعيداً عنها لأنها فوق طاقتها وقدرتها .

هذه الجملة كافية لأن "مريم" – وقد تخلصت من الهزات النفسية – ما عليها إلا أن تأتى قومها تحمل صبيها حتى تنتقل هذه الهزات النفسية إليهم هم ،ولذلك ما إن شاهدوها حتى بدءوا حوارهم معها على الفور، وهنا ينتقل الأسلوب من السرد وإلى الحوار ، وقد انطلقت ألسنتهم بالسخرية والتهكم على "أخت هارون"، وفى تذكيرها بهذه الأخوة مافيه من مفارقة ، فهذه حادثة فى هذا البيت لا سابقة لها [1] فى زعمهم ؛ فهى تنمى إلى أبوين معروفين بحسن الخلق وطهارة الذيل .

ولكنها لم ترد على حوارهم معها بل اكتفت بالإشارة إلى الصبى ، ولكنهم أبوا أن يكلموا من كان فى المهد صبياً ،واستبعاداً منهم أن ينطق ، ولكنها كانت مطمئنه إلى تكرار المعجزة أمام القوم .

وهنا نلحظ أنهم لم يسألوا "عيسى" – عليه السلام – "وإنما تتكلم هودون أن يسألوا ، فهم إذاً قوم عقلاء لا يتصورون أن يخاطبوا هذا الطفل فى مهده، فحين تجيبهم المعجزة

---

(١) انظر : التصوير الفنى فى القرآن ، ص١٩٨ .

يصبح وقعها عليهم عنيفاً مزلزلاً ؛ فإن عقولهم الراسخة الثابته لم تكن لتقبل هذه المعجزة لو لم يروها بأعينهم " (١)

إننا نحن قراء القصة أو نظارة المشهد نرى أطرافاً ثلاثة لهذا الحوار : طرف يسأل ويطلب الإجابه ممن يملكها وهم قوم "مريم" أو بنو إسرائل، وطرف ثان يسأل فلا يجيب وهى "مريم" ، وطرف ثالث لا يتوقع منه حوار وهو الطفل فى مهده ،وإن كنا نحن المتلقين نعرف إمكانية صدور الحوار عنه لأننا جربناه من قبل ، ولولا ذلك لوثبنا على أقدامنا فزعا حين اشترك فى الحوار ، ورد اتهامات القوم عن أمه الصائمة عن الكلام ، ولذا لنا أن نتخيل مقدار الدهشة والعجب الذى أصاب القوم لنطق هذا الصبى الذى لم يمض على ولادته سوى بضع ساعات

إن كل كلمة نطق بها الصبى أمام القوم تحمل جزءاً من أصول العقيدة الصحيحة فى جوانبها المتعددة من عبادات ومعاملات واجتماعيات تحكم الناس فيما بينهم ، ثم هو يقرر حقيقتين دار حولهما جدل كبير بين الناس من بعده وخاصة بين أتباعه ، وهما : أنه عبد الله ، أى أنه خلق من خلق الله ، وليس إلهاً كما ادعى المتطرفون من أتباعه ، وأنه يجرى عليه ما يجرى على عباد الله جميعاً من ولادة وموت وبعث .

ثم تأتى جملة السرد الأخيرة من القصة مشيرة إلى "عيسى ابن مريم" بأنه قول الحق ، أى عبد الله حقا وصدقاً وليس ابن الله كما يقال عنه ، وبهذه الجملة تنفى القصة كل ما أثير من شبهات وتجاوزات حول شخصية "عيسى بن مريم" – عليهما السلام .

قلت – من قبل– : إن أهم ما يميز القصة من المسرحية أن القصة تعتمد على الحوار والسرد معا فى تحريك الحدث وتطويره ، وأن المسرحية تعتمد على الحوار وحده ، وإن هذه الاختلاف الأسلوبى جعل من كل من القصة والمسرحية فنا مختلفا عن الآخر ، فى طبيعته وربما فى هدفه المراد منه، طبيعة القصة تسمح للمؤلف أو الراوى أن يتدخل بالوصف والسرد ، ليصف حدثا أو شخصا أو منظراً من المناظر ، وطبيعة المسرحية تقتضى المؤلف أن يختفى تماماً بعد أن يضع الحوار على ألسنة شخصيات مسرحيته ليدعهم يؤدون أدوارهم على خشبة المسرح ، وكأن الأحداث التى يعرضونها حقيقية ، ولذا

(١) السرد القصصى فى القرآن الكريم، ص ٩٣ .

فالهدف من المسرحية هو استغراق المشاهد فى العمل المسرحى حتى نهايته وقطعة عن واقعه ، أما السرد وتدخل المؤلف بالوصف فى القصة فإنه ينبه المتلقى دائماً إلى الواقع ويمنعه من الاستغراق فى العالم القصصى الذى يتخيله حين يقرأ القصة (١)

إن التسليم بأن القرآن الكريم لا يبغى من اختلاف وسائل العرض القصصى انتاج قصة أو مسرحية بالمعنى الفنى المعروف لا يمنعنا من ملاحظة أن أكثر قصصه يقوم على المزاوجة بين الحوار والسرد كما رأينا فى قصة "مريم" السابقة ، وفى قصة "يوسف" وقصة "موسى" فى "القصص" ،"وطه" مما يعنى أن الاسلوب القصصى والأسلوب المسرحى المعتمد على التكثيف وتحقيق روح الحضور فى العرض يتجاوران ويتداخلان معافى القصة القرآنية الواحدة .

وقد ترد القصة القرآنية الواحدة مرة بتغليب روح الحضور فى المشهد ، وتكثيف الحوار كقصة "موسى" فى سورة "الشعراء"، ومرة بتغليب أسلوب السرد القصصى كقصة "موسى" فى "النمل" و"الزخرف" و"النازعات" .

وقد ترد قصة قرآنية بأسلوب الحوار ، وترد قصة تالية لها فى سورة واحدة بأسلوب السرد كقصتى "شعيب" و"موسى" فى سورة "هود" .

والملحوظ – أيضاً – أن القصة القرآنية حين يغلب على موضوعها الجدل والفكر وتصارع الآراء والمواقف تعتمد على الحوار أو تغلبه على الوصف والسرد وحين يغلب على موضوعها كثرة الحركة فى الزمان والمكان والشخوص فإنها تعتمد على السرد القصصى أو تغلبه على الحوار .

وإذا كانت طبيعة الموضوع لها صلة وثيقة بأسلوب العرض فى القصة القرآنية فإن اختلاف طبائع البشر من زمان إلى زمان، ومن جنس إلى جنس ، واختلاف المؤثرات الأسلوبية لديهم تبعاً لذلك ، كل ذلك له صلة وثيقة أيضاً بتنوع أساليب العرض فى القصص القرآنى ، لأن القرآن أنزل إلى الناس كافة ، أو على الأقل أنزل إلى المؤمنين بالإسلام ، وهؤلاء مختلفون فيما بينهم اختلافاً كبيراً ، وما يؤثر فى جنس منهم ربما لا

---

(١) انظر : الأدب وفنونه ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٩ .

وبدائع الاضمار القصصى فى القرآن الكريم ص : ٢٢١

و : المسرحية والقصة دراسة نقدية ، د . أحمد جاد ، ط مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣ هـ ، ص ٨٦ ، ٨٧.

يؤثر فى جنس آخر ، وأن هذا الاختلاف داعية من دواعى التكرار فى القرآن ، فجاء القصص بأساليب متباينة ليناسب كل الناس على اختلافهم (١).

★★★

يرى نقاد القصة أن الحوار القصصى له مهمتان رئيستان ، الأولى المساعدة فى تكوين الشخصية والتعبير عن آرائها ومواقفها ، وإبراز تصارع الشخصيات بعضها مع بعض على صفحات القصة . والثانية : المساعدة على تطوير الأحداث ودفعها قدماً إلى الأمام وصولاً بها إلى الذروة والحوار الذى لا يؤدى وظيفة من هاتين الوظيفتين يعد فى نظر الفن غريباً على العمل القصصى (٢).

وبالنظر فى القصص القرآنى نجد أنه قد سبق النقاد إلى إرساء هذه القاعدة الأساسية وطبقها أحسن ما يكون التطبيق ، وعلى نحو أبدع مما يمكن للكتاب أن يأتوا بمثله .

فالبنسبة إلى الوظيفة الأولى نرى أن الحوار القرآنى أسهم إسهاماً فعالاً فى رسم معالم الشخصيات الإنسانية بالتعبير عن خواطرهم وآرائهم ومواقفهم ، عن طريق الحكاية عنهم ، ونقل أقوالهم نقلا أمينا لا مبالغة فيه ولا افتعال ، فصاغ معانيها على ما يقتضيه أسلوب إعجازه لاعلى الصيغة التى صدرت فيها ، إذا كانت هذه الشخصيات من غير أهل اللسان العربى ، وهذا يعنى أن الإعجاز البيانى للأقوال المحكية إعجاز للقرآن وليس لتلك الأقوال ، فما نقله القرآن عن هؤلاء يعد ترجمة كاملة لا نقص فيها ولا زيادة ، وترجمة دقيقة لا تحريف فيها ولا اختلال، لأنها من خالق اللغات – سبحانه – صدق الله إذ يقول : ومن أصدق من الله حديثاً (٣).

وفى المبحث السابق ظهر بوضوح دور الحوار القرآنى فى تقديم الشخصيات ورسم معالمها من خلال عرض عدد من الشخصيات فى القصص القرآنى ، وأضيف هنا بعض اللمحات الكاشفة بما يزيد الأمر وضوحاً وبياناً .

---

(١) انظر : بدائع الاضمار القصصى فى القرآن الكريم، ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(٢) انظر : فن القصة، د. محمد يوسف نجم ، ص ١١٩ .

و : القصة من خلال تجاربى الشخصية ، ص ١٧ ، ١٨ .

(٣) انظر : اللآلئ الحسان فى علوم القرآن ، د. موسى شاهين لاشين ، مطبعة دار التأليف ١٩٦٨م ص ٣١٠ .

و : سيكلوجية القصة فى القرآن، ص ٤١١ .

لقد أفاض القصص القرآني في بيان معالم شخصيات بني إسرائيل ، قوم موسى – عليه السلام– وأظهر بوضوح صفات التجبر والعنف وملازمتهم للشقاق على أنبيائهم ولعل قصة البقرة التي أمروا بذبحها والحوار الذي دار بينهم وبين موسى خير ما يكشف عن شخصيتهم هذه ، وقد مر بنا من قبل .

ولكن لهم حوارات أخرى مع "موسى" تكشف عن معدنهم الخبيث، وتؤكد ما طبعوا عليه من شقاق وعناد ، ومنها هذا الحوار الذي داربينهم وبين موسى في أخريات حياته معهم ، قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ (١).

تبدو في هذا الحوار حكمة "موسى" – عليه السلام – وتلطفه مع قومه في إلقاء الأمر عليهم بدخول الأرض المقدسة، وهذه الحكمة اكتسبها "موسى" من طول مصاحبته لهؤلاء القوم، وكثرة معاناته منهم ، واختلافهم عليه ، فقد أراد أن يوطئ نفوسهم لاستقبال الأمر بقوة وعزيمة فذكرهم ببعض نعم الله عليهم ، ومنها أنهم أكثر خلق الله استقبالاً للأنبياء ، وأن الله أنقذهم من خدمة المصريين وجعلهم يملكون أمرهم ، وآتاهم من النعم مالم يؤت أحداً من أهل زمانهم ، والذي دفعه إلى هذه التوطئة ومحاولة شد عزائهم أنه يعرف خصالهم وطبائعهم من سابق عهده بهم ، وشدة عنتهم له وجرأتهم عليه .

ولماظن أنهم وعوا مقالته، وتذكروا نعم الله عليهم ألقى إليهم الأمر بدخول الأرض المقدسة ، وبين لهم أن هذا الأمر من الله – تعالى– ، وأن الله قدر عليهم أن يدخلوا هذه

---

(١) المائدة : الآيات : ٢٠ ، ٢٤ .

الأرض بالذات ، ثم حذرهم أن يعودوا سيرتهم الأولى معه في النكوص عن تنفيذ أوامر الله – سبحانه – فينقلبوا على أعقابهم ويرتدوا على أدبارهم فيصبحوا من الخاسرين .

ونلحظ أن بسط الحوارمن جانب "موسى" على هذا النحو يناسب شخصية بني إسرائيل ، الذين لا يكفي معهم إلقاء الأمر مختصراً، مجرداً مما يحض على المسارعة إلى تنفيذه ، لأنهم أبعد الناس عن سرعة الامتثال لأوامر الله ولأوامر أنبيائهم وليسوا كأصحاب محمد – صلى الله عليه وسلم – كما سنرى بعد .

ورغم هذا البسط والتفصيل من "موسى" نجد ظلمهم وفسقهم وبشاعتهم في حوارهم مع نبيهم ، فقد جاهروه بالرفض القاطع الحاسم لتنفيذ الأمر بدخول الأرض المقدسة، متعللين بشدة بأس أصحابها وقوتهم البادية في طول أجسامهم وضخامتهم ؛ وهذا يبين جبن بني إسرائيل فرقهم من الجبارين سكان الأرض المقدسة لمجرد أنهم طوال الأجسام ، فالحرب بينهم وبين هؤلاء محسومة لصالح الجبارين، ولكن بني إسرائيل يراوغون موسى – عليه السلام – إذ يبدون استعدادهم لدخول الأرض المقدسة سلماً لاحرباً ، أي أن يسلمها لهم الجبارون ، بأن يخرجوا منها ليدخلوها هم .

ومن العجيب أن حياة "موسى" مع بني إسرائيل لم تثمر الثمرة المرجوة منها في هؤلاء القوم ، إذ لم تتمخض هذه الحياة سوى عن رجلين فقط كانا يخافان الله ، ويعلمان أن وعد الله بالنصر لبني إسرائيل إذا قاتلوا الجبارين حق ، رجلان فقط من بني إسرائيل أنعم الله عليهما بالإيمان الكامل بموسى وبدعوته وبصدق وعد الله له ، أما بقية القوم فإن إيمانهم ناقص ، وقلوبهم منكرة أو متشككة في تأييد الله لنبيه ، ولذلك لم يلتفتوا إلى نصيحة الرجلين اللذين أنعم الله عليهما ، بل بلغ بهم الفسق والمجون حداً بشعاً ، دفعهم إلى أن قالوا مقالتهم الشنيعه : (إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ، ولهذه الجرأة منهم على الله ورسوله أنزل الله بهم عقوبة التيه، فظلوا في أماكنهم من الأرض جباري أربعين سنه ، يصبحون حيث أمسوا ، ويمسون حيث أصبحوا (١).

لقد كانت هذه المقالة الشنيعة من فساق بني إسرائيل عمدة الموقف بين رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وبين أصحابه يوم غزوة بدر ، إذ قفزت هذه المحاورة بكل ما فيها من شقاق وعنت إلى أذهان المسلمين الأوائل ، يوم خرج الرسول وأصحابه

(١) انظر : تفسير القرطبي ، جـ٤ ، ص ٢١٢٦ .

للاستيلاء على عير قريش بقيادة "أبى سفيان بن حرب" ففاتتهم ، وعلم رسول الله أن ليس من الحرب بد ،فاستشار أصحابه ، فجاءت مقالة المقدادين الأسود للرسول على النقيض تماماً من مقالة بنى إسرائيل لموسى ؛ إذ قال : يارسول الله امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى :(إذهب أنت وربك فقاتلا إنا هـهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنامعكما مقاتلون، فو الذى بعثك بالحق نبيا لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه(١). ، "فعنت بنى إسرائيل – كما وصفه القرآن – قفز إلى الموقف المشهود يوم بدر ، ليؤدى دوره فى تربية الرعيل الأول من المسلمين ، ولولا مالمسوه من أوصاف بنى إسرائيل التى برزت من خلال حوارهم مع موسى ما وردت القصة إلى أذهانهم"(٢).

لقد انتهى حوار موسى مع بنى إسرائيل بوصول أحداث القصة إلى ذروتها ، ثم كانت نهاية القوم بالدخول فى التيه عقوبة لهم ، وهى العقوبة التى دامت بهم بعد موت موسى وهارون – عليهما السلام – حتى أرسل الله لهم نبياً ، أذن لهم بالخروج من التيه على يديه ، فطلبوا من هذا النبى أن يعين لهم ملكا يقاتلون تحت إمرته ، ويدخلون الأرض المقدسة ، فأخبرهم بأن الله بعث لهم طالوت ملكا ، ولكنهم عادوا من جديد إلى الخلاف والشقاق والعنت لنبيهم، ولم يسلموا بأمر الله – سبحانه – ودار بينهم وبين نبيهم هذا الحوار بشأن الملك المبعوث إليهم .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾(٣).

إن القوم هم الذين طلبوا من نبيهم أن يعين لهم شخص الملك الذى سيقاتلون تحت إمرته على ماهو مفهوم من قوله تعالى فى بداية هذه القصة : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي

---

(١) البداية والنهاية ، لابن كثير و تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين ط دار الريان للتراث ط الأولى ١٩٨٨م جـ ٣ ص ٢١٦ .

(٢) بدائع الإضمار القصصى فى القرآن الكريم ، ص ١٠٩

(٣) البقرة : الآية : ٢٤٧ .

إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (١).

ورغم ذلك كان العناد والشقاق منهم ، ورغم أن النبى لم يعينه من تلقاء نفسه وإنما عينه بوحى من الله – سبحانه – نراهم يعترضون – أيضاً – ويتعجبون من اختيار أحد الفقراء ملكا عليهم رغم أن هذا الاختيار من الله – سبحانه – وهم يرون أنهم جميعا أحق بالملك ممن اختاره الله ، لأنهم – يزعمهم – يملكون مقومات الملك وهو الغنى والمال .

إنهم يعترضون على أمر الله ولا يبالون به ، ورغم أنهم – فى ذلك الوقت الذى وقعت فيه المحاورة – كانوا ينفذون عقوبة النبيه لإجتراء أسلافهم على موسى كما بينت فى المحاورة السابقة ، فهم لا ينتصحون ولا يتعلمون من دروس التاريخ ، ولذلك اضطر نبيهم إلى أن يبين لهم مقومات اختيار طالوت بالذات ملكا عليهم ، "وهو أنه على علم متين بأمور الحرب والقتال ، وأنه أوتى بسطة فى الجسم ، وذلك يضفى عليه كثيراً من المهابة والعظمة(٢).

إن القرآن الكريم لم يقل لنا إن بنى إسرائيل أهل شقاق وعنت وعناد ، ولكنه ترك كلامهم ينبئ عنهم ، ويبين مقدار ما سببوه لأنبيائهم من عنت وإرهاق ، وإن حوارهم مع أنبيائهم ناطق بأوصافهم مظهر طبيعتهم المتبجحة ، ومعدنهم الخبيث ، ومثل هذا الحوار الناطق المصور أبلغ فى الدلالة على طبيعة الشخصية من الوصف مهما دق .

إن بنى إسرائيل ظلوا على عنادهم وخلافهم على أنبيائهم الكثيرين الذين بعثوا إليهم بعد موسى ، حتى جاءهم آخر أنبيائهم ، "عيسى بن مريم" – عليه السلام – واتبعه خلق منهم وآمنوا به ، واصطفى عيسى منهم فرقة جعلهم حوارييه وخلصاءه ، فكانوا يمثلون صفوة الصفوة من بنى إسرائيل، ورغم ذلك نجد هذه الصفوة المنتقاه تنهج نهج الأسلاف القدامى ، وتسأل عيسى بعض الأشياء الغريبة التى تجعله يتأذى منهم ويشك فى إيمانهم وإخلاصهم له ، إنها قصة المائدة كما سجلها الحوار التالى :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١) إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ

---

(١) البقرة : من الآية : ٢٤٦ .

(٢) الكشاف : جـ١ ، ص ٢٩٢ .

السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾(١).

إن من العجب حقا أن يسجل الأسلوب القرآني على الحواريين شهادتهم لأنفسهم بحسن الإيمان بالله وبرسوله ، وإشهادهم على أنفسهم بالإسلام قبل أن يبدأ حوارهم مع رسول الله عيسى بن مريم، حتى إذا جاءت أولى كلمات الحوار ناضحة بالشك فى إيمانهم(٢) كانت المفارقة عجيبة والتناقض واضحاً بين ما ادعوه لأنفسهم وما توحى به كلماتهم إنهم يطلبون من عيسى بن مريم هذا الطلب الغريب بأسلوب يدل على نقص إيمانهم رغم أنهم على بعد كلمات يسيرة من شهادتهم لأنفسهم بالإيمان الحسن .

إنهم يسألون عيسى إبن مريم بقولهم :(هل يستطيع) وكأنهم فى شك من قدرة الله سبحانه !، ويقولون (ربك) وكأنه رب عيسى وحده ، لا ربهم هم أيضاً ، ثم يريدون أن تنزل المائدة عليهم هم لا على عيسى ، يتلقونها ويأكلون منها ! لذلك كله رد عيسى على طلبهم الغريب بقوله (اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) أى لا تشكوا فى قدرة اله تعالى إن كنتم حقا من المؤمنين به وبما جئت به من عنده ، فقد جاءكم من الآيات ما فيه غنى (٣).

ومن المعجب – أيضاً – فى الأسلوب القرآني المعجز مابين عجزى الآيتين الأوليين من اختلاف ؛ فالحواريون قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ، أى أنهم ادعوا لأنفسهم بالإيمان ، وأشهدوا الله أو أشهد رسولهم على أنفسهم بالإسلام ، فكأنهم حققوا الإيمان بقلوبهم كما حققوا الامتثال بحوارجهم ، وفى عجز الآية الثانية يشكك عيسى فى إيمانهم ، كما أن طلبهم المائدة بألسنتهم بهذا الأسلوب الخاطئ يتنافى مع إسلامهم وامتثالهم ، فكأن كلا من الإيمان والإسلام لم يسلم لهم .

---

(١) المائدة : الآيات : ١١١ : ١١٥ .

(٢) انظر الكشاف : جـ١ ، ص ٦٩٣ .

(٣) انظر : القرطبى : جـ٤ ، ص ٢٣٦١ : ٢٣٦٣ .

ولو أنهم وعوا ذلك ما تمادوا فى حوارهم مع رسول الله "عيسى بن مريم"، ولكنهم راحوا يعللون طلبهم المائدة بجملة أسباب ، بعد أن نهوا عن ذلك، فقالوا نريد أن نأكل منها ، وكأنهم تذكروا أسلافهم فى عهد "موسى" إذ كان يأتيهم المن والسلوى ، فيأكلون ويشربون ، دون جهد منهم ، فأرادوا أن يكونوا مثلهم ، وتطمئن قلوبنا ، إلى أن الله تعالى بعثك إلينا نبيا ، ونعلم أن قد صدقتنا بأنك رسول الله [١] ، ونكون عليها من الشاهدين لله بالوحدانية[٢] ولك بالنبوة .

إن جملة هذه الأسباب التى أبداها الحواريون تؤكد أن إيمانهم فى حاجة إلى تمحيص رغم أنهم خلصاء نبى الله عيسى وأنصاره إلى الله، وقدطلب المائدة لهم ، فوعده الله سبحانه بإنزالها مع الوعيد لمن كفر بعدها أن يعذبه عذاباً لا ينال مثله أحد من العالمين .

إن هذه المحاورات الثلاثة التى كان بنو إسرائيل طرفا فيها تبين إلى حد كبير صفات هؤلاء القوم، وتظهر بوضوح أن الطريقة التمثيلية المعتمدة على الحوار فى تقديم الشخصية هى الطريقة المفضلة فى قصص القرآن الكريم ، وهى الطريقة الغالبة فيه أيضاً .

إن الحوار حين ينهض برسم الشخصيات يساعد على بيان انفعالاتها ، وإبراز مشاعرها ، وتصوير ملامحها ، لأن الشخصية هى التى تتحدث عن نفسها ، وتقدم صورتها للقارئ واضحة لا غموض فيها ولا تشويه ، كما أن الجملة الواحدة من الحوار قدتحمل من ملامح الشخصية وانفعالاتها ما لا يحملة الوصف المسهب المطول .

أما الوظيفة الثانية للحوار وهى المساعدة فى تقديم الحدث وتطويره فتبدو بضوح فى هذه الحلقة من قصة إبراهيم – عيه السلام – بقول تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ

---

(١) السابق : جـ٤ ، ص ٢٣٦٤ .

(٢) انظر : الكشاف : جـ١ ، ص ٦٩٣ .

بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ ﴾ (١)

إن هذه المحاورة الطويلة نسبيا عبارة عن مشهد واحد، وقع فى مكان واحد باستثناء حادث الإحراق بالنار فى الآية قبل الأخيرة ، وقد حدث فى المشهد عدة تغيرات من دخول أشخاص إلى ساحة المكان وخروجهم منها ، وعودتهم إليها على ما سيتضح بعد ، وسيطر الحوار على هذا المشهد سيطرة شبه كاملة ، فالحوار هو المحرك الأساسى للأحداث باستثناء بعض الجمل السردية التى لابد منها ، والتى جاءت قصيرة جداً حتى لا تقطع تسلسل الحوار وانسيابه ، وفى مقابل هذه الجمل السردية القليلة المذكورة نجد أن السياق القرآنى قد حذف من السرد والوصف أضعاف ما ذكر حتى يحقق للمشهد روح العرض ، وحتى يؤدى الحوار دوره فى الوصول بالأحداث إلى ذروتها ، وصولاً بالقصة الى نهايتها .

تمثل المواجهة بين "إبراهيم" وقومه أساس البناء فى هذا المشهد، تمر هذه المواجهة بثلاث مراحل متعاقبة ، فى كل مرحلة تختلف قوة كل من الطرفين المتصارعين ، فمرة يحدث ما يشبه التعادل فى القوة ، ومرة يحدث ما يشبه الانقلاب فى صالح قوة الخير

---

(١) الأنبياء : الآيات : ٥١ : ٧٠ .

التى يمثلها "إبراهيم" ، ومرة ثالثة يحدث ما يشبه السيادة للقوة الأخرى ، وفى النهاية تأتى النتيجة على عكس ما تظن قوة الطيش والبغى، وفى هذه المراحل المتعاقبة للصراع كان الحوار هو العنصر السائد والمحرك الأساسى للأحداث

فى بداية المواجهة نرى نوعا من الهدوء فى تصعيد الحدث ، لأن طرفى الصراع شبه متعادلين أو متكافئين ، برغم أن "إبراهيم" – عليه السلام – كان فرداً فى مقابل جماعة كثيرة العدد ، ولكنه فرد يحمل العقل والعلم والرشد ، وهم جماعة يتصفون بالسفاهة وضعف العقول ، ولأنه يعرف موطن الضعف فيهم فإنه يجابههم بما يسفة أحلامهم ويظهر سوء اختيارهم للآلهة التى يعبدونها من أول كلمات الحوار ، فقد سمى آلهتهم بأسمائها الحقيقية وهى التماثيل ، ويسأل : ماهذه ؟ وكأنه لا يعرف ما هذه التماثيل، ولكنه نوع من الاستنكار الرائع والسخرية الهادئة المتأبية، ولذلك انطلت الحيلة على القوم فراحوا يشرحون له سبب عبادتهم لها ، وهو يتلخص فى أنهم ورثوا عبادتها عن آبائهم.

وبذلك أعطوه الفرصة لكى يبين لهم أن التقليد ومتابعة الآباء على هذا النحو إنما هو الضلال المبين، لأنهم ألغوا عقولهم وعطلوها ، كما أن آباءهم أساؤا الاختيار من قبل إذ عبدوا أصناماً لا تنفع ولا تضر، ولا تستطيع أن تدفع الأذى عن نفسها .

ورغم هذه المعانى الواضحة فى حوار "إبراهيم" نرى القوم لم يفطنوا إلى مرامية؛ ولذا سألوه فى غباء شديد : أهذا الذى جئتنا به حق وجد أم هزل ولعب ؟ ومتى كان هدم عقائد القوم التى يقدسونها ويحرصون عليها لعبا وهزلاً ! ولكنه ضعف العقول حين يصيب الرجال فيفقدهم رشدهم ، ومتى عرفوا عن "إبراهيم" الهزل فى القول والميل إلى اللعب واللهو! ولم يجب "إبراهيم" عن سؤالهم المستفز، لأن جانب الحق واضح فى كلامه ، ولكنه عرض عليهم البديل الصحيح فأرشدهم إلى أن ربهم هو رب السماوات والأرض ، وأنه من الشاهدين على ذلك الموقنين به .

إلى هنا يبدو أن "إبراهيم" قد استنفد جهده ووقته فى محاولة إقناع القوم بأن ماهم عليه باطل ، ولذا نراه يبيت فى نفسه أمراً يخفيه عن القوم، ويخبرنا به نحن نظارة المشهد ، وهو عزمة على تحطيم الأصنام ، ليثبت لهم أنها لا تستطيع أن تدفع عن نفسها

الأذى ، وقد دفعه إلى ذلك الجمود الذى أصاب الحوار معهم ، إذ لم يعد مجديا ، وإبراهيم يريد للأحداث أن تتصاعد وتنمو على أى وجه ، ويريد لها أن تنتهى إلى أية نتيجة مهما كانت .

إن الأقرب إلى القبول أن "إبراهيم" قال :(وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين) فى نفسه ، ولم يعلن بها القوم (١) ، ولكن روعة القرآن أنه لا يقول وأسر "إبراهيم" فى نفسه، أو قال "إبراهيم" فى نفسه ، وإنما انتقل السياق من الحوار المعلن إلى الحوار الذاتى ، دون أية إشارة، معتمداً على ذكاء القارئ ، الذى لا يمكن أن يتصور أن "إبراهيم" سيعلن قومه بأنه سيحطم آلهتهم ، كما أن مجريات القصة بعد ذلك تدلنا على أن القوم لم يكونوا يعلمون بما أزمع "إبراهيم" بشأن الأصنام ، ولكنهم تذكروا فقط جداله معهم بشأنها ، ولذا قالوا :"سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم"

وليس من الممكن عقلا أن يسمع القوم تهديد "إبراهيم" بالكيد لأصنامهم دون أن يحرسوها ، خشية أن ينفذ تهديده .

ومن روعة القرآن الأخاذة أن ينتقل الأسلوب من الحوار الداخلى إلى السرد الذى يحمل الحدث الأكبر والأهم فى القصة ، هكذا فجأة ودون توقع من القارئ ، الذى يفاجأ بأن "إبراهيم" قد نفذ ما بيته فى نفسه ، ومن الروعة أيضاً أن يرد هذا الحدث الكبير فى هذه الجملة القصيرة السريعة ، والروعة هنا تكمن فى أن إبراهيم قد حطم دين القوم بهذه الجملة البسيرة ، والقارئ لا يمكن أن يتصور وصفا للحدث إلا بهذه الجملة ، لأنها إن طالت فقدت قوتها وترفعها ورهبتها (٢) .

ثم ينتقل الأسلوب من السرد القصير إلى الحوار مرة أخرى ، وذلك لكى يترك الحدث للحوار يحركة ويصعد به نحو قمته فى سرعة لاشك أن السرد كان سيحد منها ، إن الأسلوب لم يقل لنا إن القوم ذهبوا إلى معبدهم أو إلى بيت الأصنام ، ورأوها محطمة ، فدهشوا لذلك ، وفكروا فيمن يكون قد فعل ذلك ، ولكنه تجاوز ذلك كله وربما ماهو أكثر

---

(١) انظر : الكشاف جـ٣ ، ص ١٢٣

و : السرد القصصى فى القرآن الكريم ، ص ٤٣ ، ٤٤ .

و : بدائع الإضمار القصصى فى القرآن الكريم ص ١٩٧ .

(٢) انظر : السرد القصصى فى القرآن الكريم ، ص : ٤٤ .

منه لكى يقفز فوراً إلى نتيجة تشاورهم وبحثهم عن الفاعل ، وقد عرفوا أنه "إبراهيم" ذلك الفتى الذى سمع يعيب آلهتهم . ومن السخرية المرة فى كلامهم أنهم مازالوا يطلقون على أصنامهم لفظ الآلهة حتى بعد أن صارت جذاذا .

ومن اليسير أن يدرك القارئ أن القوم كانوا خارج المكان حين حطم "إبراهيم" الأصنام بدليل أنهم فوجئوا بتحطيمها ، ولكن السياق حذف السرد الذى يفهم منه ذلك اطمئناناً إلى أن الحوار وحده كفيل بالدلالة على ما حذف . ومثل ذلك ما حذف من السياق بين قولهم بعضهم لبعض (قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون)

وقولهم فى خطاب إبراهيم :

(قالوا أ أنت فعلت هذا بآلهتنا يإبراهيم)

إذ من الواضح أن "إبراهيم "كان خارج المكان حين دخل القوم ، فأرسلوا من يأتيهم به، وانتظروا حتى جاءوا، ثم بادروه بقولهم هذا، وفى الحوار دلالة قوية إلى المحذوف ، سواء فى قولهم "فأتوا به" ، وفى قولهم مخاطبين إياه بعد قدومه :" أ أنت فعلت" والحذف هنا يحقق الحضور فى العرض؛ أى استقلال الحوار بالحدث وتصعيده، وأن التغير الذى طرأ على المشهد هو دخول إبراهيم (١).

لقد حرك "إبراهيم" الأحداث بتحطيمه الأصنام ، فأخذ الحوار شكلا آخر ، إذ خرج من الجمود الذى أصابه فى المرحلة الأولى من المواجهة ، إنه ترك كبير الأصنام سليماً ولم يمسه بسوء ، ليكون رجوع القوم إليه دليلاً على سفاهتهم ، ولذا أجابهم بأن كبيرهم هو الذى حطمها، فأسألوهم إن كانوا يملكون رداً على سؤالكم ، إنها سخرية تعتمد على المنطق والعقل ، لأنه يريد أن يقول لهم إنكم تعتقدون أنهم آلهة ، فهى إذا تحيا وتسمع وتعقل ، فلماذا لا يكون كبيرهم هو الذى حطمهم ، وقد فعل هذا المنطق فعله فى نفوس القوم للحظات، فرجعوا إلى أنفسهم متهمين إياها بالظلم ، يردون على اتهامهم من حطم الأصنام من قبل حين قالوا "من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظلمين" واتهامهم أنفسهم بالظلم يظهرهم وكأنهم ثابوا إلى رشدهم ، وفى هذه اللحظة حدث ما يشبه الانقلاب فى المواجهة لصالح "إبراهيم" الذى يمثل قوة الخير والرشد فى المحاورة . ولكن هذا الانقلاب لم يدم طويلاً ؛ فسرعان ما عاد القوم إلى حالة الانقلاب التى كانوا عليها من قبل

(١) انظر : بدائع الإضمار القصصى فى القرآن الكريم ، ص ١٩٩ .

والتعبير القرآني هنا مصور أبلغ تصوير (ثم نكسوا على رءوسهم) وكأنهم اعتدلوا للحظات ثم انقلبوا مرة أخرى) .

ويستغل "إبراهيم" لحظة الانقلاب هذه ليعلن تضجره وتأففه من رجوعهم إلى عبادة الأوثان ، بل من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم، ووضوح الحق وزهوق الباطل والضجر هنا ليس منصبا على القوم فقط، وإنما على أصنامهم أيضاً ، لأنها أكبر دليل على فقدان القوم لعقولهم .

وفى المرحلة الثالثة من المواجهة تميل القوة إلى جانب معسكر البطش الممثل فى قوم "إبراهيم" ، ولكن هذه المرحلة تمر سريعاً حتى تصل القصة إلى نهايتها المرجوة بأخصر لفظة وأوضح بيان .

(قالوا حرقوه وانصروا ءالهتكم إن كنتم فعلين)

(قلنا ينار كونى برداً وسلماً على إبراهيم)

والآية الأخيرة هى الآية الوحيدة فى المحاورة التى خرجت عن وحدة المكان ، لينتهى المشهد الأول الطويل الذى دارت أحداثه فى بيت الأصنام، ويبدأ مشهد جديد فى مكان بعيد اختاره القوم لإشعال النار وإحراق "إبراهيم" ، ومن الواضح أن بين المشهدين فجوة كبيرة ، إذ حذف السياق كل ما بين المشهدين كاستعداد القوم لإعداد النار وجمع الحطب لها ، ولا شك أن ذك استغرق مدة زمنية طويلة ، ويلاحظ أن الانتقال تم من نهاية المشهد الأول إلى نهاية المشهد الثانى مباشرة ، ليأتينا بما يطمئن على "إبراهيم" ، لأن طاقة الإنسان محدودة وصبره قليل ، إذ كيف يصبر الإنسان على مشاهدة كل هذه الفظائع ، دون أن يشفق على هذا الفتى من مثل هذا المصير المؤلم .

لقد ظن القوم أن هذه النهاية ستكون حاسمة ، ولكن القوة الغبية التى كان "إبراهيم" ينتصر لها أخرجته من هذه المحنة ، لتنتهى القصة بعكس ما كان يظن لها عندما تعقدت أحداثها (١) .

إن من أهم ما يلحظ على الحوار فى القصص القرآنى أن كل كلمة ، وكل جملة ترد

---

(١) انظر: بدائع الإضمار القصصى فى القرآن الكريم ، ص ٢٠٢ .

فى الحوار على لسان شخصية من الشخصيات إنما تعبر عن هذه الشخصية، وعن مشاعرها ، وذلك هو ما يعرف بذاتيه الحوار ، فما يرد على لسان الشخصية هو ترجمة أمينة وصادقة عما فى ذاته هو، وليس عن ذات أحد آخر غيرذات الناطق بالحوار .

وهناك كثير من الأدلة الصادقة التى توضح هذه الذاتية منها :

أولاً : أن الحوار الذى يرد على لسان شخصية ما يختلف عن الحوار الذى يرد على لسان الشخصية نفسها إذا تغير الطرف الآخر من طرفى الحوار ، والسبب فى ذلك أن تغير أحد طرفى الحوار يعطى للموقف القصصى أبعاداً أخرى ، تنبع من اختلاف لون الصراع ، ومدى احتدامه بين الطرفين المتحاورين، ويتضح ذلك حين نوازن بين حوار "إبراهيم" السابق مع أبيه وقومه بشأن الأصنام ، وبين حواره مع أبيه فى سورة "مريم" ومنه قوله تعالى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ (١) .

إن أوضح ما يتميز به هذا الحوار من – جانب إبراهيم – هو هذه اللهجة الحانية التى يحدث بها أباه ، الذى تربطة به لحمة النسب ، ويبدو هذا الحنان فى ألفاظ الحوار ، وفى أسلوب "إبراهيم" – عليه السلام – الذى نادى أباه أربع مرات بقوله :(يأبت) ، ثم إنه يزجى إليه النصحية مرة فى صورة استفهام (يأبت لم تعبد) ، ومرة بترغيبه فيما عند ولده من علم اختصه الله به ، ومره بنهيه عن عبادة الشيطان ، ومرة رابعة بإعلان خوفه العاطفى على أبيه أن يناله عذاب من الرحمن ، واختيار أسم الله (الرحمن) بالذات هنا يحمل شحنات قوية من الرجاء فى رحمة الله – سبحانه – حتى لا يكون فى نفس الأب أدنى ذرة من اليأس من رحمة الله .

إننا على ذكر من أسلوب "إبراهيم" فى محاورته قومه فى سورة الأنبياء والتى وقفنا

(١) مريم : الآيات : ٤١ ، ٤٥ .

معها سلفا ، ومن الواضح أن ما فيها من سخرية موجهة إلى قومه وإلى ما يعبدونه من أصنام لا نلمح أى أثراً لها هنا، فى محاورته مع أبيه . كما وصل استهزاء "إبراهيم" بآلهة قومه إلى حد أنه حطمها وجعلها جذاذا ، وفى محاورته مع أبيه لا نجد أى أثر للانفعال أو العنف ، بل على العكس تماماً ، نجد أن رحمة إبراهيم تزداد بأبيه مع عنفه معه ، وتهديده بالرجم . ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ (١) .

إن "إبراهيم" كان يمثل ذاته وشخصيته ويعبر عن مشاعره هو فى كل من الحوارين ، واختلاف الأسلوب ناشئ من إختلاف الطرف الآخر الذى يحاور "إبراهيم" – عليه السلام – فالموقف مختلف ، ولون الصراع أيضاً مختلف، الموقف فى حواره مع قومه ناشئ من الجدل حول الأصنام التى يعبدونها ، فكان على إبراهيم أن يبين لهم زيف هذه الأصنام وعدم نفعها ، بالحوار الساخر تاره وبالتحطيم تاره أخرى ، أما موقفه مع أبيه وإن كان يتصل بالعقيدة أيضاً، إلا أن لعاطفة النسب بين المتحاورين دوراً فى تخفيف حدة الصراع بينهما، ولذلك لانرى تصعيداً كما فى الحوار الآخر ، وإنما اكتفى "إبراهيم" بهجران أبيه واعتزاله ، ورضى أبوه برحيله عنه ، ذلك الرحيل المصحوب بالسلام والوعد باستغفار الابن لأبيه .

إن المقصود بالذاتية فى الحوار يتضح هنا إذا قلنا إن حوار "إبراهيم" مع أبيه لا يصح أن يوضع مكان حواره مع قومه بشأن الأصنام ، وحواره مع قومه لا يصح أن ينقل فى مكان حواره مع أبيه ، لأن لكل حوار موقفاً يناسبه ، كما أن لكل موقف حواراً يناسبة ، وكذلك لكل شخصية حوار يناسبها حالة تلبسها بموقف معين .

ثانياً : إذا كان "إبراهيم" – عليه السلام – قد اختلف حواره مع أبيه عن حواره مع قومه مع أنهم – الأب والقوم – ينتمون إلى مجتمع واحد تحكمه عادات وقيم اجتماعية وخلقية واحدة ، فإنه من باب أولى أن يختلف الحوار إذا اختلف طرفاه معاً ، فما يرد على لسان نبى من الأنبياء يختلف عما يرد على لسان غيره ، لأن لكل حوار مقوماته التى يستمدها من الشخصيات المتحاورة، ومن ظروف المجتمع الذى تعيش فيه هذه الشخصيات .

---

(١) مريم : الآيتان : ٤٦ ، ٤٧ .

ويتضح ذلك من الموازنة بين حوار "نوح" – عليه السلام – مع قومه وحوار "شعيب" – عليه السلام – مع قومه ، وجاء الحواران معا فى سورة هود .

قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾(١) .

وقال تعالى :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي

---

(١) هود : الآيات : ٢٥ : ٣٣ .

وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾(١) .

هاتان المحاورتان تعدان من أكثر المحاورات جدالا فى القصص القرآنى ، وهما أيضاً من أغنى المحاورات القرآنية فى الأخذ والرد ، والتدافع بين المتحاورين ، وبين المحاورتين بعض أوجه الاتفاق وبينهما أوجه اختلاف متعددة توضح شخصيات المتحاورين ، والفروق بينها من الناحية النفسية والناحية الاجتماعية التى يمثلها محاورو كل من النبيين ، وتنعكس هذه الفروق على أسلوب كل من طرفى المحاورتين ، "نوح" والملأ من قومه فى الأولى ، و"شعيب" وقومه فى الثانية .

إن أول ما يلحظ على المحاورتين هو اختلاف الوظيفة الاجتماعية لمحاورى كل من "نوح" و "شعيب"؛ فالمحاورون مع "نوح" هم سادة القوم، والمحاورون مع "شعيب" هم عامة قومه، ولذلك نجد أن دقة التعبير القرآنى تبرز التقارب الاجتماعى بينه وبينهم بذكر كلمة الأخوة (وإلى مدين أخاهم شعيبا)، وفى المقابل لانجد لفظ الأخوة فى مقدمة قصة "نوح" بل اكتفى الأسلوب بقوله :(ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه) وقد انعكس هذا الفارق الاجتماعى للمحاورين على أسلوب المحاورة(٢) . بما يبين أن ماينطق به السادة لا ينطق به العامة ، وما ينطق به الرؤساء لا ينطق به الدهماء من القوم ، والعكس صحيح ، فكل يعبر عن نفسه بأسلوبه هو ، الذى يكشف عن مشاعره ، ويظهر مستواه العقلى ، الذى

---

(١) هود : الآيات : ٨٤ . ٩٣ .

(٢) انظر : أسلوب المحاورة فى القرآن الكريم د. عبد الحليم حفنى ، مطبعة السنه المحمدية ، ١٩٧٧م ، ص ٨١ .

يختلف عن غيره من المستويات الاجتماعية الأخرى .

ونرى مظاهر هذا الاختلاف فى الأسلوب على مدى المحاورتين ، فى أولهما وفى وسطهما ، وفى نهايتهما .

أولاً :لأن محاورى "نوح" كانوا من السادة ، فقد سيطرت عليهم نزعة التعالى ، وركزوا فى محاورتهم على إظهار معنى التميز والمفاضلة بين الناس ، فإن أول ما بدءوا به قولهم (مانراك إلا بشرا مثلنا) ، لأن نفوسهم مرتكزة على أنه مالم تكن للشخص ميزة تميزه عن سائر القوم ، فلا يجوز له أن يسمو على الناس ، ولأنهم السادة فهم لا يسلمون لمدعى النبوة بأن يرتفع عنهم إلا لصفة خاصة ، كأن يعطى صفات الملائكة، ولا يكون بشراً مثلهم ، وكذلك كان تفكيرهم مركزاً على الفوارق الاجتماعية حينما قالوا عن أتباع "نوح" (وما نرنك اتبعك إلا الذين هم إراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل) فالوظيفة الاجتماعية هى الغميزة التى يغمزون بها أتباع "نوح" .

أما محاورو "شعيب" فلم يظهر فى أسلوبهم ميل إلى تحكيم الفوارق الاجتماعية بينهم وبين "شعيب" وأتباعه ، لأنهم جميعاً متساوون اجتماعياً ، وقد أشاروا فقط إلى ضعف "شعيب" ، وبالتالى إلى قوتهم ، على أن ضعف "شعيب" لم يكن اجتماعيا ، وإنما كان فى ناحية واحدة ، هى قلة عدد تابعيه من المؤمنين، أما من الناحية الاجتماعية فقد كان كفؤاً لمحاورية[١] ولذلك قالوا (ولولا رهطك لرجمنك) ، وهم يعنون بذلك قرابته ، كثيرى العدد[٢] ، أو الذين لا يزالون على ديننا ، فلم يختاروك علينا ، ولم يتبعوك دوننا[٣] .

ثانياً : لأن محاورى "نوح" هم السادة والقادة فقد نضح أسلوبهم بما يبين طابع سلوك هذه الطبقة ، وهو التحدى ، فقالوا لنوح متحدين : (فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين)، أما محاورو "شعيب" فقد خلا أسلوبهم من لهجة التحدى.

ثالثاً : حاول محاورو "نوح" – وهم السادة – الاعتماد على المنطق والعقل فى محاورتهم

---

(١) انظر : أسلوب المحاورة فى القرآن الكريم ، ص ٨٢ .

(٢) انظر :الحوار فى القرآن ، ص ٣٠٥ .

(٣) انظر : الكشاف ، جـ٢ ، ص ٤٢٣ .

هذا فيما يخص الاختلاف فى محاورى كل من "نوح" و"شعيب" – عليهما السلام – أما فيما يخص النبيين فهناك اختلاف بين كل منهما فى أسلوب تبليغ الدعوة، واختلاف أيضاً فى إنهاء المحاورة ، ويمكن توضيح ذلك فى نقطتين .

الأولى :أن هناك اختلافا فى أسلوب تبليغ الدعوة ، فمحاورة. نوح منصبة كلها على العقيدة ، وهى وحدانية الله ، لأنه إذا نجح فى إقناع محاوريه من السادة بذلك فإن تغيير سلوكهم سيأتى تبعاً لذلك ، ولذا لم يزد على قوله موضحاً موضوع رسالته :(ألا تعبدوا إلا الله)

أما محاورة شعيب فكانت شاملة للعقيدة والسلوك معاً ، لأنه يرى أن الموضوع كل لا يتجزأ ولعل في نوعية المحاورين أثراً فى ذلك ، فإن انحرافات السلوك ، وظهور المساوئ فى سلوك العامة ، وهم محاورو "شعيب" أوضح منها في سلوك السادة وهم محاورو "نوح" ، لأن السادة أقرب الى تجنب مساوئ السلوك ، أو على الأصح أقرب إلى إخفائها ، على الأقل للمحافظة على مظاهر السيادة ، التى يتمتعون بها ؛ وبناء على ذلك يكون أوضح مساوئ محاورى "نوح" هى العقيدة ، فصب المحاورة عليها ، أما محاورو "شعيب" فكانت مساوئهم شديدة الوضوح فى العقيدة والسلوك معا (١) .

الثانية : نجد كلا من "نوح" و "شعيب" فى بداية محاورته – يتودد إلى محاوريه – عسى أن يستميل قلوبهم إليه ، ويكسبهم إلى جانب دعوته ، واستمر هذا التودد فى أثناء المحاورة ، فكان كل نبى ينادى محاوريه (يٰقوم) حتى وهم يتحدونه ، أو يسخرون منه ، ولكن فى نهاية محاورة "نوح" نجده يتخلى عن هذا النداء، وربما كان هذا دليلا على أنه بدأ ينسلخ منهم نفسيا لإحساسه اليأس من استجابتهم وميلهم إليه

أما "شعيب" – عليه السلام – فلم يتخل عن تودده إلى قومه ، فظل يضيفهم إلى نفسه حتى الكلمات الأخيرة من محاورته معهم ، ولنا أن نلحظ أيضاً أنه يقول فى آخر كلماته معهم و(ارتقبوا إنى معكم رقيب) إن هذه المعية تفيد فى ظاهرها الصحبة ، وهى وإن لم تكن موجودة فى الواقع إلا أن إظهارها يعد عاملا من عوامل استمالتهم إلى دعوته .

---

(١) انظر : أسلوب المحاورة فى القرآن الكريم ، ص ٨٣ .

وربما كان طول المدة التى قضاها "نوح" مع قومه هو السبب فى إحساسه باليأس من استجابتهم لدعوته ، إذ لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ولعل هذه الحلقة من قصته تحكى لنا آخر ما دار بينه وبينهم من حوار ، فيكون الشعور باليأس هنا نتيجة طبعية لعنادهم واستكبارهم رغم طول لبثه فيهم، والقصة نفسها ترشدنا بعد ذلك مباشرة إلى أن قومه لن يؤمن منهم أحد غير من آمنوا ، إذ يقول تعالى ﴿ وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا قد ءامن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴾ .

إن الموازنة بين المحاورتين – على النحو السابق – تؤكد أن كل كلمة جاءت على لسان أحد المتحاورين إنما تمثله هو ، تمثل شخصيته ، وتمثل ذاته ، وتترجم عن شعوره وإحساسه ، فما جاء على لسان محاورى "نوح" لا يمكن أن يأتى على لسان محاورى "شعيب" ، والعكس صحيح . لأن لكل طرف منهما شخصياتهم المستقلة ، وذواتهم الواضحة ، والتى جاءت كلماتهم تعبيراً صادقاً عنها . وما جاء على لسان "نوح" لم يكن من الممكن أن يأتى على لسان "شعيب" فى مواجهة قومه بما فيهم من أمراض اجتماعية ، والعكس صحيح أيضاً ، وذلك هو المراد بذاتية الحوار فى القصص القرآنى .

ولعل هذه الوقفة مع ذاتية الحوار فى القصص القرآنى تدحض فرية من ادعى "أن أسلوب القرآن فى التعبير عن أفكار الأنبياء أو المرسلين أو الأقوام لا يشاكل الواقع ، وإنما يمشى على وتيرة واحدة فى القصة الواحدة ، وهو الأمر الذى يحاول أن يمضى القصص على خلافه فى هذه الأيام ، إذ نرى الحوار يمثل نفسية المتحاورين وأسلوبهما فى الحديث والمخاطبة ، وعقليتهما فى التفكير ، وفى الحركات الذهنية ، كما قد يمثل الحرف والصناعات (١) .

ويستثنى الكاتب من هذا الاتهام قصتين فقط من قصص القرآن إذ يقول :

"ومرات قليلة تلك التى نجد الحوار فيها يمثل شخصية المتحاورين ، وما فيها من قوة وجبروت ، وما لها من عظمة وكبرياء وهى تلك المحاورات التى يقصها القرآن الكريم على لسان فرعون ، أو على لسان إبليس حين يحاور كل واحد منهما شخصية الرسول

---

(١) الفن القصصى فى القرآن الكريم ، د: محمد خلف الله ، ص ٣٠٥ .

الذى قام إلى جانبه في القصة ، كشخصيات "موسى" و"آدم" – عليهما السلام – وهى مرات لا تجعلنا نطمئن إليها أكثر من اطمئناننا إلى الأمر الآخر ، وهو أن الحوار إنما يمثل أكثر من كل شئ الدعوة الإسلامية ونفسية محمد عليه الصلاة والسلام"(١) .

إن الأمثلة القرآنية لذاتية الحوار كثيرة متعددة ، ولذا فإن لى وقفة أخرى فى مبحث قادم إن شاء الله ، لنرى مدى تحقق هذه الذاتية فى حوارات القرآن الكريم ، وفى حورات القصص الفنية .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

الباب الثالث

تطبيقات

المبحث الأول :

طبيعة المشهد فى القصة القرآنية ونظيره فى الأجناس الأدبية

المبحث الثانى :

طبيعة الحوار فى المهشد القصصى فى القرآن الكريم ونظيره فى الأجناس الأدبية

المبحث الثالث :

الحوار والسرد فى القرآن الكريم والفن القصصى

المبحث الأول

طبيعة المشهد فى القصة القرآنية

ونظيره فى الأجناس الأدبية

المشهد – فى الأعمال الأدبية – هو المنظر الذى يقدم جزءاً من الحدث العام للقصة ، ويقوم على دعامة أساسية هى وحدة المكان . وهو جزء من الفصل فى المسرحية الحديثة(١).

والمقصود بطبيعة المشهد ، كيفية تقديم الحدث الجزئى ؛ والأسلوب المتبع فى هذا التقديم ، وتصميم المشاهد من حيث الطول والقصر ، تبعاً للموقف الذى ينضوى تحته المشهد ، وتبعاً للمرحلة التى يمر بها الحدث فى القصة ، والدلالة على التغييرات الحاصلة فى المشهد ، كالحديث الداخلى ، أو الحديث الجانبى بين بعض الشخصيات ، أو دخول شخص أو خروجه من ساحة المشهد .

★★★

إذا كان فن المسرح قديماً قدم اليونان فإن العصر الحديث أتى بوسائل علمية كثيرة ومتقدمه جداً ، فنحن نرى الآن فن الخيالة (السينما) ، ونشاهد من خلالها كثيراً مما يسمى بالأفلام السينمائية، ونرى أيضاً التلفاز ، ونشاهد من خلاله كثيراً مما يسمى بالمسلسلات الدرامية الحديثة ، وتتكون هذه الأفلام والمسلسلات من عدد من المشاهد يحكى كل مشهد منها جزءاً من الحدث الذى يقوم عليه هذا العمل الفنى أوذاك ، تماماً كما فى العمل القصصى أو المسرحى (٢)، والمشهد فى الأعمال الفنية الحديثة وفى المسرح يقوم على تنفيذه عشرات من العاملين فى هذه الفنون ، ويهتم هؤلاء بتصميم وتنسيق المشاهد والمناظر ، ويحرصون على أن يبدأ المشهد من نقطة معينة ، وينتهى عند نقطة معينة ، لأن ذلك يساعد على إبراز الحدث بالطريقة التى يريدونها ، والتى تضمن جذب المشاهد إلى هذا العمل الفنى المعروض (٣) .

وتتميز الخيالة والدراما الحديثة المصورة – دون المسرح – بحرية الانطلاق فى أرجاء الأماكن، فيمكنها أن تصور مشهداً على سطح الأرض، يعقبه مشهد فى قاع البحر،أو تصور مشهداً فى الجو يعقبه مشهد فى باطن الأرض ، كل ذلك فى أقل زمن

---

(١) انظر : المبحث الأول من الباب الثانى من هذا البحث
و : الأدب وفنونه ، ص : ١٠٨ ، ١٠٩ .
و : بدائع الإضمار القصصى فى القرآن الكريم : ص : ٢٠٩ .
(٢) انظر : السيناريو السينمائى الفن والتجربة – صلاح أبو سيف ، ط دار المعارف الطبعة الثانية ، ضمن سلسلة "اقرأ" العدد ٤٧٩ ، ص ١٣ .
(٣) انظر: بدائع الإضمار القصصى فى القرآن الكريم ، ص : ١٣٢ .

ممكن ، ويتابع المشاهد ذلك دون أن يبرح مكانه (١) .

كانت هذه تقدمة لابد منها قبل أن نقرأ الآيات التالية، يقول تعالى فى قصتى "إبراهيم" و"لوط" عليهما السلام :

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥) فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قال رب انصرنى على القوم المفسدين(٣٠) ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظلمين (٣١) قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغبرين(٣٢) ولما أن جاءت رسلنا لوطاسئ بهم وضاق بهم ذرعاً وقالوا لاتخف ولاتحزن إنا منجوك وأهلك إلا أمرأتك كانت من الغبرين (٣٣) إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون (٣٤) ولقد تركنا منهاءاية بينة لقوم يعقلون (٣٥) ﴾ (٢) .

ذكرت هذه الآيات طرفاً من قصة "إبراهيم" وقصة "لوط" – عليهما السلام، وجاءت القصتان معا فى مشاهد متتابعة ومتداخلة ، وهى مرتبة على وفق ترتيب الأحداث زمنياً فى القصتين ، وبعض هذه المشاهد يأتى سريعاً خاطفاً ولكنه ذو دلالة قوية ، وتأثير

---

(١) انظر : السيناريو السينمائى الفن والتجربة ، ص : ٦٥ : ٦٧ .

(٢) العنكبوت : ٢٤ : ٣٥ .

ملحوظ فى الأحداث وبعضها يأتى طويلا – نسبيا – وكل يأتى على ما يقتضيه الموقف القصصى .

فى الآيات السابقة من قصة "إبراهيم" عرفنا أنه بلغ قومه دعوة ربه ، فأمرهم بعبادة الله وحده ، كما أمرهم بالتقوى ، وبين لهم أن دعوته هذه خير لهم من عبادة الأصنام التى يعبدونها ، لأنها لا تملك لهم رزقاً ، وإنما الرزق عند الله وحده ، وطوف بهم "إبراهيم" فى كثير من مظاهر قدرة الله ، فى مشهد طويل مؤثر ، علهم يقتنعون بما يدعوهم إليه .

ثم تبدأ الآيات التى معنا بآية تستكمل مشهد "إبراهيم" مع قومه، وفى نهايته نسمع جوابهم على دعوته ، هذا الجواب الذى جاء بطريق القصر ، ما وإلا؛ لنعرف إصرارهم على التخلص منه ومن دعوته :(اقتلوه أو حرقوه) عقوبتان أصر القوم على تنفيذ إحداها . ومع نهاية الكلمة الثانية (حرقوه) ينتهى المشهد بانتهاء المحاورة بين الطرفين ، ثم نرى الأسلوب القرآنى يقفز فوق ذرا الأحداث الكبيرة الخطيرة ليصل بنا إلى نهاية مشهد جديد ، وهى نهاية متأخرة جداً ؛ فالنجاة من النار هى نهاية مشهد الإحراق ، وهو المشهد الذى أضمره السياق فلم يذكره، ولكننا فهمناه من قوله تعالى: (فأنجيه الله من النار) ، وفهمنا أيضاً أن القوم استقروا أخيراً على التحريق بالنار بعد أن كانوا مترددين بينه وبين القتل .

وليست بداية مشهد الإحراق هى كل ما حذف هنا ، بل هناك مشهد طويل جداً استغرق زمنا طويلاً حذف بأكمله ، وهو مشهد إعداد النار التى أعدها القوم لإحراق "إبراهيم" وبهذا يكون الأسلوب القرآنى قد قفز فوق أحداث كثيرة مؤثرة ، فحذف مشهداً وبعض مشهد آخر ، كل ذلك بغرض الوصول إلى هذه النهاية السعيدة جداً المتمثلة فى نجاة "إبراهيم"، فالقصة فى نهايتها، والقارئ لا يصبر على سماع وصف هذه الأحداث التى حذفت ، ولو وقفت القصة لتسرد لنا ما حدث لتميز القارئ غيظاً من الإبطاء فى الوصول إلى النهاية التى يتمناها لهذا النبى الذى اكتسب تعاطف القارئ معه بسبب هذه النصائح الكثيرة التى أسداها لقومه وهو يبلغهم دعوة ربه .

ثم يبدأ مشهد جديد نرى فيه "إبراهيم" – عليه السلام – يقف من قومه موقف الناصح مرة أخرى، وهنا نلحظ أمرين:

أولهما : أن المشهد الجديد بدأ بقوله تعالى (وقال إنما إتخذتم.....) إلى آخره، وهذه

الواو التى سبقت الفعل (قال) تفيدنا أن "إبراهيم" وهو الحليم الرشيد قد إنفرد الى نفسه بعضاً من الزمن، يدير في رأسه رأياً، أو ينتظر وحى السماء، قبل أن يواجه قومه مرة أخرى.

وثانيهما- أن الأسلوب القرآني لم يشأ أن يقطع تسلسل الأحداث ليصف لنا إصرار "إبراهيم" وعزمه على مواصلة دعوته إلى قومه، وإنما ترك مقالة "إبراهيم" تنطق بإصراره هذا، وتصرح بقوة عزمه على أداء رسالته حتى بعد أن انقطع أمله في هؤلاء القوم، ولذلك نراه يفضح نفوسهم ويكشف زيفها بكلمات واضحة وقاطعة؛ فهم لم يتخذوا هذه الأوثان معبوداً من دون الله لعلمهم أنها مستحقة للعبادة جديرة بها، وإنما اتخذوها مجاملة فيمابينهم، واستبقاء للمودة في (١) الدنيا.

ثم نرى قدرة الأسلوب على الانتقال من مشهد فى الدنيا إلى مشهد فى عالم الغيب فى الآخرة فى كلمات قليلة ، وذلك فى تصوير هؤلاء القوم المتوادين فى الدنيا فى صورة الأعداء المتخاصمين فى الآخرة ، إذ يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضا ، وليس ذلك فقط ،ولكنهم سينتقلون من مشهد العداوة والتخاصم إلى هذا المشهد الرهيب ، مشهد الاستقرار فى النار، التى أرادوا أن يحرقوا بها هذا النبى ، فنجاه الله منها ، أما هم فلا نجاة لهم لأنهم ليس لهم نصير ينجيهم ويخرجهم منها .

وبعد المشاهد السابقة من قصة "إبراهيم" يأخذ أسلوب العرض اتجاها آخر ، فيسير فى عرض قصتين اثنتين فى وقت واحد ، قصة "إبراهيم" وقصة "لوط" وتتداخل مشاهد القصتين فى العرض القرآنى ، فيأتى مشهد من هذه ومشهد من تلك ، على نحو بديع، وبأسلوب بيانى معجز يدعو أرباب الصناعات الفنية – وخاصة البصرية منها – إلى دراسته والتعلم منه، والإفادة منه فى صناعاتهم .

ومن بديع الأسلوب القرآنى أن ترتيب المشاهد يأتى على نسق لا نظير له فى عالم الفن البشرى ، ففى المشهد السابق – بين "إبراهيم" وقومه – نرى أنه قد وصل إلى حالة اليأس من إيمان هؤلاء القوم ، ولذا جبههم بمكنون صدورهم ، ورماهم بآخر سهم فى كنانته ، واليأس من إيمان القوم مؤذن بانتهاء ، دور النبى – أيا كان – ولكن دعوة "إبراهيم" لم تنته، أو لم يقدر لها أن تنتهى ، ولذلك نرى فى المشهد التالى مباشرة

---

(١) انظر : فى ظلال القرآن ، جـ٥ ، ص : ٢٧٣٢ .

بصيصا من النور يعود إلى نفس "إبراهيم" الذى أحزنه ألا يؤمن به أحد من هؤلاء القوم جميعاً ، هذا النور جاء من إيمان "لوط" عليه السلام :(فآمن له لوط) هكذا فى عرض سريع خاطف ، ولكنه إيمان له تأثيره الكبير على سير الأحداث فى القصة ، إذ إن الإيمان صدى دعوة "إبراهيم" فهى إذا لم تضع هباء ، و"لوط" وإن كان فرداً واحداً سيصير قصة وحده . قصة فيها العزاء والسلوى لإبراهيم .

وبعد هذا المشهد الخاطف يأتى مشهد "إبراهيم" فى هجرته إلى ربه – سبحانه – ولم يذكر السياق تفاصيل هذه الهجرة اكتفاء بأنها كانت هجرة إلى الله ، وقد أفاض العلماء والمفسرون فى هذه التفصيلات التى سكت عنها الأسلوب القرآنى ، فقالوا: إن "إبراهيم" خرج من أرض العراق إلى الشام ثم إلى مصر ، ثم إلى الشام مرة أخرى ، وكان معه "سارة" زوجه، و "لوط" ابن أخيه الذى أمره "إبراهيم" بالنزوح إلى قرية "سدوم" بفلسطين ، واستقر هو فى الشام (١) .

إن من الممكن أن نفهم من السياق القرآنى أن "إبراهيم" و"لوط" صارا متلازمين ، وأنهما هاجرا معاً ، فمن غير المعقول أن يفر "إبراهيم" بدينه ويترك خلفه "لوطا" الذى آمن له ، ولكننا سندرك من القصة فيما بعد أنهما تفرقا وصار كل منهما فى مكان بحيث إذا ذكر أحدهما كان ذكره فى مشهد يقع فى مكان لا يوجد فيه الآخر .

وقبل أن نقف مع هذه المشاهد ننبه إلى لطيفتين من لطائف الأسلوب القرآنى أولاهما – تتعلق بالغرض الدينى من القصة ، وتتمثل فى هذا العطاء الإلهى الذى غمر "إبراهيم" بعد خروجه مهاجراً إلى ربه ، فقد وهبه الله البنين والأحفاد الذين يحملون من بعده شرف النبوة والرسالة ، وأجزل الله له العطاء فى الدنيا والآخرة . وكأن "إبراهيم" بعد أن فقد أصله الذى خرج منه طمأنه الله أو طمأننا الأسلوب القرآنى إلى قوة الفرع الذى انبثق من "إبراهيم" وهذه لفتة جديرة بأن يقف عندها السياق ، وأن يقطع من أجلها

---

(١) انظر : تفسير القرطبى ، جـ٨ ، ص : ٥٠٥٥ .
و : تفسير ابن كثير ، جـ٣ ، ص ٤١٠ .
و : الكشاف ، جـ٣ ، ص ٤٥١ .
و : قصص الأنبياء ، عبد الوهاب النجار ، ص ١٤٦ .
و : فى ظلال القرآن ، جـ٥ ، ص ٢٧٣٣ .
ومعظم هؤلاء العلماء على أن المقصود بقوله تعالى (وقال إنى مهاجر إلى ربى) هو "إبراهيم" وبعضهم ينسبه إلى "لوط" ومنهم من يتردد فى نسبته إلى أى من النبيين . كما هو واضح فى المراجع المذكورة .

تسلسل الأحداث القصصية ، لأن الفن ليس مقدماً على الدين فى القصة القرآنية وثانيتهما – وتتعلق بالبناء الفنى للقصة – تتصل بالمفاجأة التى تقع للقارئ حين يعلم أن "لوطا" الذى كان – منذ سطرين فقط – تابعاً لإبراهيم مؤمنا به، صار هو – أيضاً – نبياً يوحى إليه ، وله قوم يدعوهم إلى الله كما كان "إبراهيم "يدعو قومه .

وأعجب من هذه المفاجأة هذا العرض السريع للأحداث فى داخل المشهد الجديد ، فلوط ليس صاحب دعوة فقط وإنما نجده يواجه كثيراً من الشدائد والمنكرات التى وجدها فى قومه . إنه ليس مشهداً جديداً فحسب بل هو قصة جديدة بكل ما تعنيه القصة من مدلولات ، فلوط غير "إبراهيم" وقومه غير قوم "إبراهيم" وخصال قومه غير خصال قوم "إبراهيم" .

وقد طال المشهد بعض الشئ ، وإن كنا نرى هذا التركيز والتكثيف فى وصف "لوط" لقومه وما فيهم من خصال مذمومة، ونراه أيضاً فى اختصار المحاورة بينه وبينهم ، إذا اقتصر السياق على إثبات جوابهم :(قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصٰدقين) ومعنى هذا أنه قد توعدهم بالعذاب إن لم يقلعوا عما هم فيه من شرور وآثام ، وهو الأمر الذى لم يذكره السياق على لسان "لوط"، وأخيراً تأتى دعوته ربه أن ينصره على قومه المفسدين .

ومن الواضح أن هذا المشهد يحكى حلقة الدعوة فى حياة "لوط" ولكنه لا يسجل كل مادار بينه وبين قومه من حوار– كما رأينا – وكما هو ثابت فى بعض المواضع الأخرى من القصة فى سور القرآن الكريم (١) .

وبعد ذلك نفاجأ بمشهد من قصة "إبراهيم" ؛وبذلك يعود السياق إلى القصة الأولى ، لتسمح هذا الحوار العجيب بين رسل الله من الملائكة "وإبراهيم" ، وقد جاءت الملائكة بحدثين فى غاية الأهمية ، أحدهما يخص "إبراهيم" وهو البشارة بالولد ، والثانى يخص "لوطا" وهو إهلاك قومه المفسدين .

---

(١) جاءت حلقة الدعوة مختصرة فى كثير من المواضع فى القرآن ، انظر السور التالية .
الأعراف ، ٨٠ : ٨٤ .
الأنبياء ، ٧٤ : ٧٥ .
النمل ، ٥٤ : ٥٨ .
القمر ، ٣٣ : ٤٠ .
وجاءت مفصلة بعض الشئ فى موضع واحد : الشعراء ، ١٦٠ : ١٧٥

وهنا نلحظ دقة الأسلوب القرآني ، الذى أخبرنا بالحدث الأول وهو البشارة بطريقة موجزة، وبأسلوب السرد ، ثم أخبرنا بالحدث الثاني – وهو الإهلاك – بطريقة مفصلة ، وبأسلوب الحوار ، وذلك لأن القارئ إنما يعيش هنا مع قصة "لوط" لا مع قصة "إبراهيم" فناسب ذلك أن يأتى حدث البشارة سرداً في غاية الإيجار، لأن السرد لا يعطى فرصة لبيان ما كان بين "إبراهيم" والملائكة من أخذ ورد ، ذلك الأمر الذى يوقف التسلسل فى الحدث الأساسى هنا، وهو الإهلاك الذى عبر عنه بأسلوب مناسب أيضاً وهو الحوار بين "إبراهيم" والملائكة، وفى عرض الحدثين – البشارة والإهلاك – بهذه الطريقة ظهر الحدث الأول وكأنه حدث ثانوى بالنسبة إلى الحدث الثانى، وفى ذلك تناسب واضح بين الأسلوب وطبيعة المشهد القصصى المبنى أساساً على أنه من قصة "لوط" .

وعلى الرغم من أن "لوطاً" غاب عن المشهد نجده حظى بالجزء الأكبر من الحدث بل من الحديث الذى دار فيه ، فالملائكة أرسلوا لإهلاك أهل قريته لأنهم ظالمون ، ولكن "إبراهيم" أخذ يجادلهم فى هذا الشأن متعللاً بأن فيهم رجلاً مؤمنا وهو "لوط" فطمأنته الملائكة أنهم لن يصيبوه بسوء، لا هو ولا أهل بيته، إلا امرأته لأنها من الذين حق عليهم الإهلاك .

لقد علمنا – نحن المتلقين – ما علمه "إبراهيم" من شأن هؤلاء الرسل وأنهم ملائكة الله ، وعلمنا – أيضاً – بما جاء وامن أجله، وهو إهلاك الظالمين، وإنجاء "لوط" ومن آمن به من أهله ، علمنا ذلك كله ، أما "لوط" وهو الشخصية الأساسية فى المشهد الجديد فلم يعلم شيئاً ، فإذا جاءته الرسل فأصابه السوء ، وضاق ذرعه عن حمايتهم من عدوان قومه عذرناه نحن لأنه لا يعلم الحقيقة ، وفى الوقت نفسه فنحن مطمئنون غاية الاطمئنان إلى أن القوم لن يصلوا إلى هؤلاء الرسل بأذى ولن يمسوهم بسوء .

ونلحظ أن نهاية المحاورة بين الملائكة "ولوط" جاءت بألفاظ تكاد تكون مماثلة لألفاظ حوارهم مع "إبراهيم"، فهم قالوا لإبراهيم :(لننجينهوأهله إلا امرأته كانت من الغٰبرين) وقالوا للوط :(إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغٰبرين) ولعل الدافع وراء تكرير العبارتين على هذا النحو هو اختلاف المشهد، واختلاف المخاطب بكل منهما، فلم يكن بدمن تكرير العبارتين هكذا ، لنعلم أن ما قالوه لإبراهيم هو بعينه ما قالوه للوط ، وبذلك يطمئن القارئ إلى صحة عزمهم على تنفيذ ما جاءوا لأجله وأن هؤلاء الرسل يفعلون ما يؤمرون به دون زيادة ولا نقصان .

وقد اختصر السياق هنا المشهد بين "لوط" والملائكة فحذف ما كان من قومه حين علموا بأن أضياقاً نزلوا على "لوط" فهرعوا إليه ، ولكن الأسلوب استعاض عن هذا المحذوف بإظهار المساءة التى أصابت "لوطا" حين جاءته الملائكة ، وتصوير ضيق ذرعه عن بسط الحماية عليهم ، ثم إن الواو فى قوله تعالى : (وقالوا لا تخف ولا تحزن) تدل على أن ثمة حذفا فى السياق ، لأن الواو لم يتقدمها معطوف عليها ، وكان من الممكن أن يجيئ الفعل مجرداً منها لولا أن المعطوف عليه محذوف من السياق .

ومن دقائق التعبير القرآني فى هذا المشهد والمشهد الذى قبله ما يظهر من تأمل قوله تعالى (ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية) وقوله تعالى (ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيئ بهم وضاق بهم ذرعا) حيث نلحظ أن الفعل فى الآية الأولى جاء واليا للأداة (لما) دون فاصل بينهما ، وأن الفعل فى الآية الثانية جاء مفصولا بينه وبين (لما) بأن ، ولابد أن يكون هناك سر وراء هذه الزيادة بل وراء هذا الفصل فى الآية الثانية ، وأنَّ (أنْ) هذه لابد أن يكون لها زيادة فى المعنى .

لقد علل "الزمخشرى" لذلك بقوله: (أن) صلة – أى زائدة – أكدت وجود الفعلين مترتبا أحدهما على الآخر فى وقتين متجاورين لافاصل بينهما ، كأنهما وجدا فى جزء واحد من الزمان ، كأنه قيل : لما أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريث خيفة عليهم من قومه"(١) .

ويذهب ابن الأثير إلى خلاف ما ذهب إليه الزمخشرى إذ يرى أنه "إذا وردت (لما) وورد الفعل بعدها بإسقاط (أن) دل ذلك على الفور ، وإذا لم تسقط لم يدلنا ذلك على أن الفعل كان على الفور ، وإنما كان فيه تراخ وإبطاء» (٢) .

ويوضح ابن الأثير رأيه بالحديث عن قوله تعالى – فى قصة موسى ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ ﴾(٣) إذ يرى أن (أن)الأولى التى جاءت بعد (لما) دليل على أن "موسى" – عليه السلام – لم تكن مسارعته إلى قتل الثانى كما كانت مسارعته إلى قتل الأول ، بل كان منه إبطاء فى بسط يده إليه ، فعبر القرآن عن ذلك بزيادة (أن) بعد (لما) (٤) .

(١) الكشاف ، جـ٣ ، ص ٤٥٣ .
(٢) المثل السائر ، جـ٣ ، ص ١٣ .
(٣) القصص ، من الآية ١٩ .
(٤) انظر : المثل السائر ، جـ٣ ، ص ١٣ .

وأرى أن ابن الأثير أقرب إلى الصواب ، خصوصاً إذا لاحظنا أن الأسلوب القرآني عبر بالفعل (أراد) ولم يقل فلما أن مديده ليبطش به مثلاً؛ إذ الفعل (أراد) بمعناه يدل على التراخي والإبطاء ، لأن الإرادة مرحلة نفسية تسبق مرحلة النزوع إلى الفعل .

كما أن ابن الأثير يزيد الأمر وضوحاً بالحديث عن قوله تعالى فى شأن إخوة يوسف :(فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه) إذ يقول :"إذا نظر فى قصة "يوسف" – عليه السلام مع أخوته منذ ألقوه فى الجب إلى أن جاء البشير إلى أبيه – عليه السلام – وجد أنه كان ثم إبطاء بعيد ، وقد اختلف المفسرون فى طول تلك المدة ، ولو لم يكن ثم مدة بعيدة وأمد متطاول لما جئ بأن بعد (لما) وقبل الفعل ، بل كانت تكون الآية ، فلما جاء البشير ألقاه على وجهه» (١) .

وإذا كنا نميل إلى رأى ابن الأثير فإن المعنى فى قصة "لوط" يقتضى أنه – عليه السلام – لم يظهر مساءته وتبرمه من وجود أضيافه فور أن لقيهم؛ لأن ذلك يتعارض مع خلق الأنبياء ، وأنه كانت هناك مدة زمنية بين الأمرين ، أقلها – فى تقديرى – ما يسمح بوصول خبر هؤلاء الأضياف إلى القوم ثم تدافعهم إلى داره ، ومجاهدته لهم دفاعاً عن ضيفه ، ومما يقوى ذلك أن الأسلوب القرآنى عطف قوله تعالى :(وضاق بهم ذرعا) على الفعل (سئ)، "ولوط" – عليه السلام – لم يضق ذرعه عن حماية أضيافه إلا بعد أن كاد القوم يغلبونه على أمره ، ويصلون إلى هؤلاء الأضياف .

أما المعنى فى قصة "إبراهيم" فهو على أن الفعل (قالوا) المسند إلى الملائكة ، وهو جواب لما ، إنما حدث بعد أن جاءت الملائكة وانتهت من بشارة "إبراهيم" فوراً ودون إبطاء بين حديثهم عن البشرى وحديثهم عن إهلاك قوم "لوط" وليس هناك فى الأسلوب ما يمنع من هذا الرأى ، بل ذلك يتفق مع ما قلت من قبل من أن حدث البشارة جاء كأنه عارض، أو حدث ثانوى اتفاقاً مع الموقف القصصى . إن البشاره هنا كأنها جزء من مجئ الملائكة أو كأنهم جاءوا متلبسين بها (بالبشرى) هكذا بالباء التى تفيد الالتحام والتلبس .

وأخر ما نود الوقوف عنده فى هذه الآيات ، بل فى قصة "لوط" عامة هو ذلك الأسلوب السامى الرفيع الذى تناول به القرآن الكريم موضوعاً من أخطر الموضوعات ،

---

(١) المرجع السابق ، جـ٣ ، ص ١٤ .

وهو ذلك الشذوذ الذى أصاب قوم "لوط" ، فجعل الواحد منهم يميل إلى قرينه من الرجال ويعزف عن صاحبته التى خلقها الله له ، إن الأسلوب القرآنى قد عبر عن شيوع هذه الفاحشة بين القوم حتى إنهم كانوا يأتونها فى أنديتهم وأماكن تجمعهم دون حرج ودون خجل ، والمرء لا يأتى من صغائر الأمور شيئاً حين يكون بين الناس ، لأنه حريص دائماً على أن يبدو فى أجمل صورة وأبهى منظر ، فما بالنا بمثل هذه الموبقات المهلكات. ومما يضاف إلى هؤلاء القوم أنهم أول من سبق إلى فعل هذه الفاحشة المشينة ، ولننظر كيف عبر القرآن عن ذلك كله :﴿ ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفٰحشة ما سبقكم بها من أحد من العٰلمين أبنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر ﴾ إنه السمو الفنى فى أبهى مجاليه .

ونفيد من ذلك أمراً فى غاية الأهمية ؛ هو أن القرآن الكريم لا يضع حاجزاً بين الكتاب وموضوعات قصصهم ، فالكاتب يستطيع أن يكتب فى أى موضوع يشاء ، وأن يقول فيه ما شاء ، وله أن يتسرب إلى نفوس قرائه بما يعن له ، بشرط أن يلتزم باللفظ الكريم السامى الذى يقع من نفس قارئه موقعاً حسناً يتفق مع جلال الفن ورفعة شأنه(١) .

وهناك شرط آخر وهو ألا يقف الكاتب مع مثل هذه الموضوعات التى تحكى عن الشذوذ الإنسانى موقف المزين لها الحافز إليها ، وألا يصور ذلك على أنه بطولة إنسانية تدعو إلى الفخر والزهو ، بدعوى أنها أشياء واقعية لها وجود فى حياة البشر .

وإذا كانت الغرائز الجنسية لها وجود واقعى فإن غير الواقعى وغير المقبول – أيضاً – أن يصورها كتاب الواقعية على أنها كل حياة الإنسان، وماهى إلا جزء فقط من حياته (٢) ، رجلاً كان أو امرأة ، وهناك من الغرائز الأخرى ما يفوقها أهميةً فى حياته . إن نظرة سريعة فى القصص البشرى توضح أن كثيراً من الكتاب اتخذوا من الغرائز الرخيصة مادة للإثارة فى قصصهم ، وذلك شئ يأباه الواقع ، كما تأباه قواعد الفن الصحيح أيضاً (٣) .

---

(١) انظر : السرد القصصى فى القرآن الكريم ، ص : ١٠٨ : ١١٠ .

(٢) انظر : فى ظلال القرآن ، جـ٤ ، ص ١٩٥٩ .

(٣) انظر : أدب نجيب محفوظ وإشكالية الصراع بين الإسلام والتغريب ، د : السيد أحمد فرج ط : دار الوفاء للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠ م ، ص ٢٦٥ وما بعدها .

إن المواقف القصصية تأبى أن تجئ المشاهد فى القصة على نسق واحد، من حيث الطول والقصر ، لأن هناك مواقف يغلب عليها التدافع بين الأطراف، نظراً لقوة الصراع ، وتعادل القوى ، وهذه المواقف تدعو إلى أن يكون المشهد طويلاً – غالباً – وهناك مواقف أخرى يكون الصراع فيها خافتاً أو متوارياً وهذه تستدعى أن تكون المشاهد قصيرة، أي بالقدر الذى يساعد الحدث على النمو والانتقال إلى مرحلة أخرى لها مواقفها الخاصة ، ولها مشاهدها المناسبة لها .

إن مواقف الجدل والمحاجة بين "موسى" و"فرعون" خير دليل على صحة ذلك، كما أن مواقف الجدل بين "إبراهيم" وقومه دليل أيضاً ، وقد وقفت من قبل مع مواقف من هاتين القصتين (١) .

وأقف الآن مع بعض المشاهد القصيرة التى تأتى استجابة للموقف القصصى يقول – تعالى – فى شأن أمرأة العزيز .

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (٢) .

هذه آية واحدة تضم عدة مشاهد قصيرة ، ولكى نقف على عدد هذه المشاهد يحسن أن نتصور الموقف الذى جرت فيه الأحداث .

تحكى هذه الآية ما كان من امرأة العزيز بعد أن ترامى إلى سمعها ما يتردد فى أرجاء المدينة، وعلى لسان النسوة من لومها وتأنيبها على مراودتها فتاها المملوك لها عن نفسه ، أو على شيوع أمر هذه المراودة وانتشارها خارج أسوار قصر العزيز . ومن الطبعى أن يكون لهذه المرأة – وهى زوج كبير الوزراء – عدد كبير من الخادمات اللاتى يقمن بخدمتها وقضاء مصالحها ، ومن الطبعى – أيضاً – أن يكون بعض هؤلاء الخادمات قريبات قربا شديداً منها ، ومنهن من تقوم بالشئون الخاصة لامرأة العزيز ، وقد تقوم إحداهن بدور كاتم السر لها ، تأتيها بأخبار النساء فى المدينة وما شابه ذلك ، فإذا بلغها ما يتردد على لسان النساء فليس ذلك غريباً إذاً .

---

(١) انظر : البحثين الأول والثالث من الباب الثانى من هذا البحث .

(٢) يوسف : ٣١ .

ولنا أن نتمثل كيف أفضت إليها أمينة السر بالخبر، وأن ذلك تم في مكان ما من القصر ، وليكن غرفتها الخاصة التي لا يدخلها إلا أقرب المقربين منها ، فهذا هو المشهد الأول مشهد السماع .

(فلما سمعت بمكرهن)

وقد تكون امرأة العزيز أرسلت المرأة التي أخبرتها بالدعوات إلى نساء المدينة في التو و اللحظة وعندئذ يكون قوله تعالى (أرسلت إليهن) استكمالاً للمشهد الأول من الآية . ويكون المشهد بأكمله هكذا :

(فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن)

وإذا كانت المرسلة بالدعوات غير من أخبرت امرأة العزيز فذلك يقتضي وجود فاصل زمني بين الإخبار والإرسال ، ويكون دخل إلى المشهد أشخاص آخرون منها شخصية المرسلة ، وربما يكون المكان قد تغير وعندئذ يكون قوله تعالى :(أرسلت إليهن) مشهداً ثانياً مستقلاً عن المشهد الأول ، لأن العبرة في الاعتداد بالمشهد هو اختلاف المكان ، ويدخل فيه – أيضاً – دخول أشخاص رئيسة إلى المشهد أو خروجها منه (١) .

ومن غير المعقول أن تكون دعوة امرأة العزيز إلى نساء الطبقة الراقية منجزة وواجبة من فورها ؛ إذ إنها لا تضمن إجابتهم جميعاً في وقت قريب جداً ، وإنما المعقول أن تكون الدعوة مؤجلة إلى حين يمكنها فيه القيام بما تدبره للنسوة ، وإعداد وليمة تليق بمكانتهن الاجتماعية . ومعنى ذلك أن ثمة زمناً غير قصير يفصل بين إرسال الدعوة وإجابتها ، وبذلك يكون قوله تعالى :(وأعتدت لهن متكأ) هو المشهد الثالث ، ومن المفهوم أن الوليمة إنما كانت في مكان مناسب كغرفة الطعام ، ومفهوم أيضاً أن إعداد المتكأ إنما تم قبل أن تأتي النساء المدعوات ، فالمشهد الثالث يرينا صورة المكان فارغاً من النسوة .

فإذا شاهدنهن في المكان ، وفي يد كل واحدة منهن سكينا عرفنا أن الموائد قد صفت ، وقدم عليها الطعام ، وبدأ النسوة يأكلن وبذلك نكون في قلب المشهد الرابع وهو قوله تعالى (وءاتت كل واحدة منهن سكينا) وفي المشهد الخامس نرى "يوسف" – عليه السلام – ومعه امرأة العزيز في مكان آخر مجاور للمكان الذي توجد فيه النسوة ، وهي

---

(١) انظر : الأدب وفنونه د. محمد مندور ، ١٠٩ .

تأمره بالخروج عليهن لكى تباغتهن بجماله وحسنه (وقالت اخرج عليهن) .

وفى المشهد السادس والأخير نرى "يوسف" وامرأة العزيز والنسوة فى غرفة الطعام ، وهن ينظرن إليه بدهش وانبهار ألهاهن عن الطعام وعن السكاكين فأخذن يقطعن أيديهن بدلا من الفاكهة ، وفى المشهد نسمع شهادة النسوة ليوسف بالحسن والجمال الذى يفوق ما عليه البشر : (فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حٰش لله ماهذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم) .

وإذا كانت هذه الآية تضم كل هذه المشاهد فليس معنى ذلك أنها استقصت الأحداث كلها ، بل العكس هو الصحيح ، فنحن نرى بين المشاهد فجوات فنية كثيرة ، أضمر السياق فيها كثيراً من الأحداث الخارجة عن نطاق المشاهد ، والتى تفهم من السياق ويدل عليها الموقف القصصى ؛ نرى هذه الفجوة بين المشهدين الأول والثانى، كما أن بين المشهدين الثانى والثالث فجوة كبيرة ، والفجوة الكبرى بين المشهدين الثالث والرابع وذلك واضح فى السطور السابقة .

ونلمس بوضوح كيف ينتقل بنا الأسلوب القرآنى من مشهد إلى مشهد فى سهولة ويسر ، ولننظر إلى هذه الأفعال المعطوفة على بعضها بالواو :(أرسلت .. وأعتدت .. وءاتت .. وقالت) وهذه الأفعال أيضاً (أكبرنه ..وقطعن .. وقلن) إنها توحى بالتلاحق بين الأفعال ، والسرعة فى وقوع الأحداث والترتيب الطبعى فيما بينها ، إن القارئ قد يمر بهذه الآية دون أن يلتفت إلى وجود هذه المشاهد القصيرة المتوالية ، وذلك بسبب هذه الأفعال الكثيرة المتعاقبة .

إن الموقف هنا لا يصور صراعاً مادياً ملموساً ، وإنما يصور الصراع العقلى النفسى الذى يدور بين النساء؛ فامرأة العزيز تأبى أن تنهزم أمام النسوة كما انهزمت من قبل أمام فتاها ، فلجأت إلى هذه الحيلة التى لا يجيدها إلا النساء، وهى تريد أن يقر لها النسوة بما فعلت بفتاها ، وكان لها ما أرادت ، ولم يكن من المناسب أن تبنى مشاهد هذا الموقف على الطول والبسط ، وأن يتخللها حوار طويل تدافع فيه المرأة عن نفسها ، وتفند دعاوى النسوة عليها ، فربما يغلبنها فى الحوار ، وينجلى الموقف عن إدانتها وتقبيح فعلتها ، وقد لجأت المرأة إلى ما يناسبها من مكر وحيلة نافذة ، فالأسلوب هنا أليق بطبيعة المرأة ، وأجود فى تصوير هذه الطبيعة ، ولا ننسى أن هذا الموقف إنما يدور فى بيئة فاسدة متحلله ، أفسد الترف والجاه أصحابها . كما ساعدت

شخصية العزيز الخانعة التى اختفت من الموقف كله على زيادة الفساد والانحلال لدى زوجه .

– إن الكاتب ثروت أباظة استوحى قصة "يوسف" – عليه السلام – وأخرجها فى ثوب عصرى ، وأخذ كثيراً من أحداث القصة القرآنية فى قصته ومنها حادث المراودة ، وما ترتب عليه من لغط بين النساء . وجعل الكاتب شخصية "زهيرة" فى مقابل امرأة العزيز ، وجعل شخصية "وجدى" فى مقابل شخصية عزيز مصر . وجعل "وجدى" عاجزاً عن إتيان زوجته "زهيرة" لكى يسوغ لها بذلك مراودة "صديق" الذي يقابل شخصية "يوسف" – عليه السلام ، وكان الزوجان قد صدما "صديق" بسيارتهما بعد أن فر من "الملاهى" حين سمع أخويه يتآمران معا على قتله ، فأخذاه وربياه حتى صار على أعتاب الجامعة ، ورغبت فيه الزوجة فراودته عن نفسه ، ولكنه أبى أن يخون من رباه وعلمه ، واقترح "صديق" أن يسهل له "وجدى" دخول السجن؛ إذ كان يعمل ضابطاً بأحد السجون فعلا . ثم علمت الزوجة أن ألسنه النساء تتناولها بالتهمة ففعلت مثلما فعلت امرأة العزيز فى القصة القرآنية .

كتب المؤلف مصوراً هذا الموقف فقال :(١) .

"تأكدت "زهيرة" أن زوجها سيكون غائبا عن البيت فى يوم الأربعاء ، فاختارت هذا اليوم لكى تدعو إلى الشاى جميع اللواتى اتهمنها بالعيون اللائمة ، أو العيون المتسائلة ، أو العيون المتلصصة .. أو بالابتسامة الخبيثة وأصرت أن تدعو اللواتى تجرأن وسألنها كيف حال صديق ؟ وكان هذا السؤال غريباً ، لأن "صديق" كان بالنسبة لصويحباتها شبحاً يسمعن عنه ولا يرينه منذ قدم إلى البيت .

دعت أو لئكن جميعاً وأعدت لهن حفلة شاى باذخة ، أكثرت فيها من الفاكهة ، واختارت التفاح بالذات ، وذهبت خصيصاً إلى من يسن السكاكين فيجعلها بالغة الحدة .. وذهبت أيضاً إلى أحد المصورين وأعطته صورة صغيرة عندها ، وطلبت إليه أن يكبرها فيجعلها بالحجم الطبيعى .

وجاءت المدعوات ، وقدمت إليهن التفاح ، وانتظرت حتى بدأن يقشرن التفاح

---

(١) رواية الغفران ، ثروت أباظة ، ط دار مصر للطباعة ، نشر مكتبة مصر ١٩٨٨ م ص ٩٣ ، ٩٤ .

وقد آثرت أن تكون الأمثله التطبيقية فى هذا المبحث وما يليه لكتاب مشهورين ، أو لكتاب معاصرين ، أما المشهورون فلأن شهرتهم دليل على تقدمهم وضلوعهم فى الفن غالبا ، وأما المعاصرون فلأن كثيراً منهم ينحو نحو المذاهب الأدبية الحديثة ، التى كان لها فضل التطور فى القصة كما يدعون .

وأزاحت الستار عن الصورة المكبرة لصديق ، فبدت الصورة وكأن صاحبها هو الماثل لا الصورة ، وارتبكت السكاكين في أيدى النسوة وقطعن أيديهم وتصايحن .. هذا ملاك .. لم نر مثل هذا الجمال .. ليس هذا من البشر – لا تلمننى إذن وأنتن قطعتن أيديكن .

وسترت الصورة ، وفهم المدعوات أنه لا معنى لبقائهن بعد ذلك .. فقد أسدل الستار على نهاية التمثيلية التى ألفتها زهيرة ».

هذا هو الموقف الذى استوحاه الكاتب ، وقد استغرق عنده ما يقرب من عشرين سطراً يسبقها صفحتان استغلها فى وصف الحديث الذى دار على ألسنه النساء عما دار بين "زهيرة" و "صديق" ، ووصف التجهيز لهذه التمثيلية التى ألفتها "زهيرة" أو على الأصح التى ألفها الكاتب .

ولنا أن نلحظ الافتعال فى سرد الحدث ؛ فالزوج سيغيب فى يوم الأربعاء ، صويحباتها يسألن عن حال صديق ، وهو شبح بالنسبة إليهن، لأنهن لم يرينه أبداً أى منذ أن التقطته هى وزوجها وهى صبى صغير إلى أن صار شابا قوياً يقف على أعتاب المرحلة الجامعية أى أكثر من عشر سنوات ، ولا أدرى كيف يكن صويحباتها ثم لايرينه أبداً ، إنها محاولة الكاتب لكى يحتفظ بمفاجأة النسوة بجمال "صديق" الباهر ، ويبلغ الافتعال قمته حين تذهب المرأة إلى أحد المصورين ليكبر لها صورة، ولم يقل الكاتب إنها صورة "صديق" حتى يفاجئنا نحن أيضاً ، وقد حدثنا من قبل كثيراً عن هذا الجمال الذى أراد أن يبهتنا – نحن القراء – بصورة صاحبه ، فلما أزاحت المرأة الستار عن صورة "صديق" ارتبكت السكاكين فى أيديهن فقطعتها ، فى مشهد مفتعل غاية الافتعال.

ولنا أن نلحظ – أيضاً – هذا الحرص على بعض التفاصيل التى ذكرها الكاتب مثل الإكثار من الفاكهة ، واختيار التفاح بالذات ، وذهابها إلى من يسن السكاكين فيجعلها بالغة الحدة ، هذه أوصاف زائدة ، والكلمة الزائدة فى القصة تعد طعنا فى ذكاء القارئ ، واتهاما له بالغباء .

لقد رأينا فى الموقف القرآنى كيف كان الأسلوب سريعاً يدلف بالقارى من مشهد إلى مشهد فى خطى واسعة تتجاوز كثيراً من التفاصيل التى تتيح للقارئ المشاركة الإيجابية فى تصور الموقف القصصى . وصدق الله إذ يقول فى قصة "يوسف" نفسها

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ (١) . ولاشك أن (الأحسنيه) هذه أحسنية فنية فى بعض نواحيها .

لقد اختلفت طبيعة المشهد عند الكاتب عنها فى القرآن الكريم، أى اختلفت طريقة تقديم الحدث ، وطريقة التعبير عنه ، برغم أنه استوحى الموقف كاملاً من القرآن ، استوحاه بكل عناصره وملابساته وذلك مع أنه واحد من أكثر الكتاب وعياً بأساليب السرد القصصى فى القرآن الكريم .

وقد استوحى الكاتب نفسه قصة "موسى" – عليه السلام – وصاغها فى أسلوب عصرى ، وحرص فى قصته على أن يتناول كثيراً من الأحداث الغريبة المشوقة التى وردت فى القصة القرآنية ، ومن ذلك قصة "موسى" والعبد الصالح التى وفقنا معها بالتفصيل فيما مضى (٢) ، كتب يقول عن "سامى" المقابل لشخصية "موسى" – عليه السلام (٣) .

وفى ليلة أخذه النعاس وهو فى هذه الحال من التهجد والمساءلة فرأى فى منامه عجبا رأى شيخاً مهيبا وجهه كله صلاح وتقوى ونور يركب البحر ولكن مركبه فيه ليس سفينة ولا هو قارب . وإنما حوت ضخم يشق به العباب ويأتمر بأمره ، ولم يكن حين يأمره يحدثه وإنما كان الحوت يدرى ما يريد سيده فيأتمر بأمره بصورة تلقائية لا يعرف الناس لها مثيلاً .

ويظل الشيخ النورانى سائراً فى البحر "وسامى" معه يصاحبه وقد اطمأنت نفسه وأصبح فى سعادة سماوية لا يحسها إلا حين يقرأ القرآن ، بينما الشيخ النورانى على حوته يشق الماء شقا عرضت له سفينة ضخمة فإذا هو يخطو خطوة فيصبح فوق السفينة، والحوت يسير بجانبها ، ولا ينظر ركاب السفينة إلى الشيخ وكأنه ما شاركهم مركبهم بل هم حتى لا يرون الحوت ولا يحسون من أمره شيئاً وإذا الشيخ النورانى يصنع صنيعاً يذهل له "سامى" ذهولا مفجعاً إن الشيخ الربانى يخرق السفية ويتلفها وحينئذ فقط يتنبه الركاب إلى ما حدث بمركبهم دون أن يروا الشيخ أو يشعروا به.

---

(١) يوسف ، من الآية ٣ .

(٢) انظر : المبحث الأول من الباب الثانى من هذا البحث .

(٣) طارق من السماء ، ثروت أباظة ، ط : دار غريب الطباعة ، ص ٥٥ ، ٥٦ .

ويصيح به سامى :

– أتخرق السفينه لتغرق أهلها .. أهذا عدل ...أيعقل أن شخصا فى عظمتك يصنع هذا الصنيع .. وينظر إليه الرجل الربانى ولا يكلمه وإن كان يبدو عليه أنه سمعه ويلح سامى فى استنكار ما رأى :

– إنك رجل نورانى .. إنك رجل ربانى ...أمعقول هذا الذى تفعله وكان الشيخ قد استقر على الحوت فنظر إلى "سامى" نظرة هادئة مطمئنة وابتسم له فكأنما أشرق عن فمه ضياء فجر ومشى به الحوت وسامى لا يدرى كيف يتسنى له أن يكون فى رفقته .

وسار الحوت إلى أرض مدينة وخرج الشيخ النورانى ومضى فى طريق بين بيوت وإذا بغلام مقبل عليه حتى إذا اقترب منه وأصبح بين يده إذا به يضربه ضربة صاعقة فيقتله

ويحيط الهول الآخذ بسامى ويتملكه الذهول وتكاد الدهشة (أن) تعقد لسانه ولكنه جاهدها حتى استطاع أن يصيح بالشيخ فى استنكار شديد :

– أتقتل نفسا زكية بغير نفس أهذا عمل يرضاه الله أهذا معقول . لقد كنت أحسبك ربانيا .

ولم ينظر إليه الشيخ وكأنه ما سمعه ، وصاح "سامى" ثانيه وثالثة ورابعة فنظر إليه الشيخ وابتسم تلك الابتسامة المشرقة بالنور وصمت "سامى"

ومضى الكاتب يورد بقية القصة على هذا النحو ، فأورد حادث الجدار الذى يريد أن ينقض ، وأقامه الشيخ النورانى ، واستنكر "سامى" عليه ذلك ، وفسر الأحداث على لسان الشيخ بمثل ما فسرها به العبد الصالح لموسى – عليه السلام – فى القصة القرآنية .

والملحوظ – هنا – أن الكاتب دفع دفعاً إلى أن يجرى هذه الأحداث مناماً لا يقظة ، حتى يستطيع أن يوردها على هذا التسلسل الغريب الذى لا يصدق . وما دام الأمر كله مناماً فليقل الكاتب ما يقول ، وفى القصة القرآنية كانت الأحداث تجرى يقظة لا مناماً وعلى سبيل الحقيقة ، وهذا هو مكمن العبرة فى القصة القرآنية ، فيد القدرة الإلهية حين تتلبس بالأحداث وتجريها فإن القارئ لايحس فيها أدنى قدر من الافتعال مهما كانت هذه الأحداث غريبة وعجيبة .

والملحوظ -أيضاً أن الكاتب حرص على التأكيد- أكثر من مرة- أن ركاب السفينة كانوا لايرون الشيخ الرباني، اعتقاداً منه أن الركاب لو رأوه لمنعوه من خرق السفينة، وبذلك لايتم الحدث الذي أراد له الكاتب أن يتم، وذلك لأن الكاتب يجري الأحداث على قدرته هو، ونسي أنها تقع مناماً لايقظة، وخيالاً لا حقيقة. وفي القصة القرآنية وقع حدث خرق السفينة دون أي التفات إلى ركابها: ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾(١) . هكذا في سرعة خاطفة، ودون أن نرى ركاب السفينة في المشهد، وحتى لو رأوه وهو يخرقها ماكان لهم أن يستطيعوا منعه، لأن الذي يدبر الحدث هو منزل القرآن- سبحانه-.

ومن أهم الأمور في القصة القرآنية ذلك العهد الذي كان بين "موسى"- عليه السلام- والعبد الصالح ﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾(٢) .، وذلك بعد أن سأله "موسى" أن يصحبه ليتعلم منه، وقد نصحه العبد الصالح بأنه لن يطيق الصبر على مايرى من أحداث غريبة . ولكن "موسى" وعده الصبر، وعدم عصيان أوامره .

فلما وقعت الأحداث أمام عينى "موسى" وجدناه ينسى عهده ويسارع إلى إنكار مايرى من العبد الصالح، مرة ومرتين وثلاثاً حتى افترقا، وكان العهد من "موسى" ثم مسارعته إلى نسيانه هو المحور الذي تدور فيه الأحداث ، والذى تبدت – من خلاله – شخصيه :"موسى" المندفعة أحياناً إلى الغضب والعنف .

وكان إغفال الكاتب لهذا الأمر الأساسى سبباً فى تذبذب العلاقة بين "سامى" والشيخ النورانى؛ إذ نرى "سامى" معجبا به وسعيداً بلقائه فى البداية ، فلما وقع الحدث الأول اتهمه بالظلم وإن كان احتفظ له بشئ من العظمة ، ولما وقع الحدث الثانى – قتل الغلام – سمعناه يقول : لقد كنت أحسبك ربانياً .

إن رحله "موسى" مع العبد الصالح كانت رحلة تعليمية فى المقام الأول ولذا وجدنا الأسلوب القرآنى يركز – فى بداية العرض – على بيان شرط الصحبة ويسهب إسهابا

---

(١) الكهف، من الآية ٧١.

(٢) الكهف: ٧٠.

واضحا في بيان ذلك على مدار خمس آيات .

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾(١)

أما الكاتب فقد حشر هذه القصة حشراً في روايته ولذلك فقدت كثيراً من مغزاها ، وأحس الكاتب ذلك فحاول أن يجعل من أحداث القصة إسقاطاً يسقطه على حياة "سامي" مع أبيه الذى كان لا يرضى عن سلوكه ، وأدار هذا الحوار بين "سامي" والشيخ بعد انتهاء ، أحداث القصة :

«– باركك الله أيها الشيخ سلام عليك .

– إلى أين ؟

– أعود .

– بل انتظر .

– إذا أمرت .

– فاجلس .

– أمرك .

– ألم تكن تسأل ربك لماذا جعلك شقيا بأبيك وأنت على ما أنت عليه من حب الله وطاعته .

– لا أعجب الآن حين أجدك تعرف هواجس نفسي .

– إن قلت نعم عرفت أنت أنني لم أصدقك القول» (٢) .

★★★

يرى الدكتور محمد غنيمي هلال أن من أحدث الاتجاهات في الفن القصصي ما ذهب إليه كتاب القصة الأمريكيون ثم الفرنسيون من التركيز على تصوير المواقف، بالاقتصار على عرض الأفعال والأحداث بعضها بعد بعض، دون شرح أو تأويل،والميل

---

(١) الكهف ، ٦٦ : ٧٠ .

(٢) طارق من السماء ، ص : ٥٨ ، ٥٩ .

إلى إضمار كثير من الأحداث المهمة ليستدل القارئ عليها في السياق، وعليه أن يبذل جهداً كبيراً في استخلاصها ، ويرى أن هؤلاء الكتاب ذهبوا هذا المذهب في الإضمار القصصي متأثرين بفن الخيالة (السينما) بعد أن أسرف هذا الفن في استخدامه (١) .

والذي نبه إليه الناقد هو ما نراه في القصص القرآني ، وقد التفت إليه في العصر الحديث المرحوم الأستاذ "سيد قطب"(٢) وسمى مواضع الإضمار (فجوات) تقع بين المشهد والمشهد ، وتبعه في ذلك الأستاذ "عبد الكريم الخطيب" في بعض دراساته القرآنية (٣) ، ولكنهما لم يتوسعا في دراسة الإضمار بوصفه ظاهرة كثيرة الدوران في القصص القرآني ، وقد أفاض في دراستها ، وتعقب كثيراً من مظاهرها وأورد كثيراً من الأمثلة لها أستاذنا الدكتور "كاظم الظواهري" وذلك في دراسته المخصصة لهذه الظاهرة القصصية (٤) .

والقرآن الكريم يأتي من هذا الباب بالعجب العجاب ، الذي تتقاصر من دونه همم أعظم الكتاب ضلوعاً في الفن القصصي ، وأكثرهم شهرة ، وقد نبهت من قبل(٥) – إلى أن هذه الظاهرة تعد أصلاً من أصول البناء الفني للقصة القرآنية وأن لها دوراً في إحياء المشاهد ، وتحقيق الحضور لها ، وشد القارئ إلى متابعة القصة والسير معها إلى نهايتها .

في قصة أهل الكهف يصور القرآن الكريم – في المشهد الأول – منظر الفتية وهم يتشاورون في أمرهم بعد أن فروا بدينهم :﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾(٦) . انتهى المشهد بهذا العزم الذي اعتزموه – الإيواء إلى الكهف – ثم تستأنف القصة أحداثها فإذا القارئ يفاجأ بأنهم قد نفذوا العزم الذي استقر عليه رأيهم وفي المشهد الثاني يراهم رأي العين وقد استقروا في الكهف والتعبير القرآني لا يدع شكا في أنه يراهم :

---

(١) انظر : النقد الأدبي الحديث ، ص : ٥٦٣ : ٥٦٦ .

(٢) وذلك في كتابيه : في ظلال القرآن ، و : التصوير الفني في القرآن .

(٣) انظر : القصص القرآني في منطوقه ومفهومه .

(٤) انظر : بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم .

(٥) انظر : المبحث الأول من الباب الثاني .

(٦) الكهف : ١٦ .

﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾(١)

ونلحظ أن الإضمار قد أصاب جزءاً من نهاية المشهد الأول وجزءاً من بداية المشهد الثانى ، كما أصاب مابين المشهدين من الأحداث ، فالمشهد الأول لم ينته عند استقرار رأيهم على الذهاب إلى الكهف ، ولكن الموقف يقتضى أنهم فكروا فى كثير من الأشياء التى يأخذونها معهم إلى الكهف ، خصوصا إذا فهمنا الفعل (أوى) بمعنى الرجوع والعودة ، فكأنهم ذهبوا إلى الكهف من قبل ، ثم استبعدوا الإقامة فيه ، ثم فكروا فى العودة إليه ، ومن ثم قال قائلهم (فأوا إلى الكهف) أى ارجعوا إليه .

وفى بداية المشهد الثانى نلحظ أنهم قد استقروا داخل الكهف ، ولم نر بداية المشهد ، أى وقت دخولهم وقبل استقرارهم ، وكيف وجدوه ، وهل أنسوا إليه جميعاً ، أو أبدى بعضهم تخوفاً من المكث فيه ، وبين المشهدين حذف السياق الأحداث التى وقعت .

والفجوة بين المشهدين تشبه ماعرف فى المسرح من إنزال الستار ، أو ما اصطلح عليه (بانقطاع الحلقة) على أحدث الطرق التى اهتدى إليها صانعو السينما فى القرن العشرين (٢).

وبعد أن استكملوا مدة نومهم التى قدرها الله لهم وبث فيهم الحياة ، وبعثوا من مرقدهم يستكمل القارئ مشهد الكهف على صورته الجديدة :

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾(٣)

---

(١) الكهف : من الآية ١٧ .
(٢) انظر : التصوير الفنى فى القرآن ، ص ١٩٠ .
(٣) الكهف : ١٩ ، ٢٠ .

إنهم استيقظوا كما هو واضح من هذا المشهد ، وفى المشهد السابق كنا نراهم داخل الكهف وبين المشهدين – فى السياق – أي واحدة من الوصف هى قوله تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾(١).

والذى يعنينا من هذا الوصف هو أنه جاء فاصلاً بين مشهدين متباعدين غاية البعد من حيث الزمان ، فنحن نعلم – من ختام القصة – أن الفتية لبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادو تسعا ، فلننظر إلى قدرة الأسلوب القرآنى على تخطى كل هذا الزمان الطويل فى هذه الألفاظ اليسيرة .

ومع أن طول الزمن الذى مكثه الفتية نياماً هولب المعجزة فى القصة، لا نرى الأسلوب القرآنى يحفل به ويقف عنده سوى هذه الإشارة الموجزة التى جاءت فى النهاية:

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾(٢).

لعل فى ذلك درساً واضحاً للكتاب لئلا يطيل أحدهم الوقوف عند الأمر الغريب أو الحدث العجيب ، فيستنفد فيه جهده وطاقته ، ويقطع بذلك تسلسل المشاهد ، وانسياب الأحداث ، ويصيب القارئ بالملل والسأم .

وعلى أية حال فإن بعد مشهد بعث الفتية من نومهم فجوة فنية كبرى أضمر فيها السياق كثيراً من الأحداث ، فالرسول الذى بعثوه إلى المدينة لم يرد له ذكر ، والقارئ لا يعرف إلا أن أمرهم قد كشف ، وعثر الناس عليهم – وهذا ما كانوا يخشونه – وللقارئ أن يتخيل ما حدث للرسول وكيف انكشف أمرهم .

﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا ﴾(٣).

وهنا فجوة أخرى ، فهم قد ماتوا فعلا والقوم خارج الكهف يتنازعون ويتشاورون فى شأنهم ، وصاروا فرقاً متعددة ، وانتهى رأى أقواهم إلى بناء مسجد عليهم .

﴿ إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾(٤).

(١) الكهف : ١٨ .
(٢) الكهف : ٢٥ .
(٣، ٤) الكهف : ٢١ .

إن مشهد الرسول حين ترك أصحابه فى الكهف وذهب إلى المدينة يعد قصة وحده ، فكيف كان شكله بعد أن نام هذه السنين التى تزيد على ثلاثمائة ، وكيف رأى طريق ذهابه إلى المدينة على بعد عهده به ، وما شكل المدينة آنذاك ، ومن ذا الذى قابله أول الأمر ، وما نوع النقود التى كانت معه ، وهل كانت مستخدمة فى ذلك اليوم ، وكيف عامله الناس ؟ كل هذه الأسئلة وغيرها أضرب السياق القرآنى عن الخوض فيها ، وسكت عن الإجابة عنها ، وقد أضمر السياق هذه الأحداث كلها فى فجوة واحدة من الفجوات التى بين المشاهد .

وقد ألحت الأسئلة السابقة على الكاتب "توفيق الحكيم" فكتب مسرحية طويلة من أربعة فصول ، ومعظم أحداثها وقعت بعد استيقاظ أهل الكهف ، أى مكان الفجوة التى تركها الأسلوب القرآنى ، كما كان يستدعى بعض الأحداث السابقة بالحوار إلى خشبة المسرح . وقد غير الكاتب كثيراً فى الأحداث ، وبدل من مضمون القصة القرآنية ، وحاد بها عن وجهتها الدينية الواضحة إلى وجهة أخرى فنية تماماً ، فجعل المسرحية تحكى قصة حب بين رجل وامرأة لا قصة مضروبة للدلالة على قدرة الله على بعث الموتى . وحدد عدد الأشخاص فى المسرحية فجعلهم ثلاثة :"مرنوش" و"مشلينا" والراعى "يمليخا: ومعهم كلب الراعى "قطمير"؛ وزور الكاتب تزويراً واضحاً فى رسم هذه الشخصيات وزور فى الهدف من خروجهم ولجوئهم إلى الكهف ، وبذلك انحرف انحرافاً كبيراً عن منهج القصة القرآنية .

وفى بداية الفصل الأول من المسرحية نقرأ الحوار التالى :(١).

---

(١) أهل الكهف ، أ/ توفيق الحكيم ، ط المطبعة النموذجية ، نشر مكتبه الآداب ١٩٨٥ م ، ص : ١٩ : ٢١ .

مـــشـلـيـنـا : (وهو أحد الرجلين) يامرنوش !

مـــرنـوش : استيقظت؟ ماذا تريد مني ؟

مـــشـلـيـنـا : أين أنت ؟ أسمع صوتك المتبرم ولا أراك .. آه ظهرى يؤلمنى !

مـــرنـوش : دعنى أنا أيضاً ضلوعى توجعنى كأنما نمت عليها عاما

مـــشـلـيـنـا : أين الراعى ؟ أين ثالثنا الراعى ؟

مـــرنـوش : أتبين شبح كلبه هنا باسطا ذراعيه .

مـــشـلـيـنـا : ألا ترى هذا الراعى يتجنب قربنا ، أين هو ؟

مـــرنـوش : لعله بباب الكهف يرقب طلوع النهار ، شأن الرعاة .

مـــشـلـيـنـا : (يتمطى) آه ظهرى يؤلمنى ! كم لبثنا يامرنوش ؟

مـــرنـوش : أف إنك تحرج صدرى بأسئلتك !

مـــشـلـيـنـا : أنا كذلك لو تعلم ضيق الصدر مثلك ، مرنوش كم لبثنا هنا ؟

مـــرنـوش : : يوما أو بعض يوم .

مـــشـلـيـنـا : من أدراك ؟

مـــرنـوش : : وهل ننام أكثر من هذا القدر ؟

مـــشـلـيـنـا : صدقت (صمت) ، (وفجأة يقول وهو نافد الصبر) أريد الخروج من هذا المكان .

مـــرنـوش : ويحك ! إلى أين ؟

مـــشـلـيـنـا : أو تريدنى على المبيت هنا ليلة أخرى ؟

مـــرنـوش : : ليلتين أو ثلاثاً حتى نأمن على حياتنا من دقيانوس.

مـــشـلـيـنـا : (صائحا متذمراً) لا أستطيع ، لا أستطيع .

مـــرنـوش : ولم أستطيع أنا ، وأنا لى امرأة وولد أعزهما وأعبدهما ؟

مـــشـلـيـنـا : أنت تستبقى حياتك من أجلهما .

:

وهكذا يمضى الكاتب فى تصويره شخصيات أهل الكهف غاضبة ساخطة غير صابرة ، وقد استيقظوا من نومهم متبرمين ساخطين ، وقد ألم بهم وجع الضلوع ، آلام الظهر ، وضاق صدر كل منهم بأخيه ، فلا يحدث أحدهم أخاه إلا وهو نافدا لصبر ، وقد دلت كلمات الحوار على ذلك دلالة واضحة من مثل (أسمع صوتك المتبرم ولا أراك – ظهرى يؤلمنى – أف إنك تحرج صدرى بأسئلتك – أنا كذلك لو تعلم ضيق الصدر مثلك) ونرى ذلك فى التوجيهات المسرحية التى كتبها المؤلف مثل (يقول وهو نافد الصبر – صائحاً متذمراً) (١) وغير ذلك كثير فى الفصل الأول من المسرحية .

ومن الواضح أن القصة القرآنية صورتهم غير ذلك تماماً ، يقول تعالى .﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) ﴾(٢)

إنهم قاموا يذكرون الله ، ولم يصبهم ملل ولا ضجر ولا ألم ، ولم يقولوا غير الحق ، وهم ينكرون ما انتهى إليه قومهم حين أشركوا بالله ، واتخذوا من دونه الأصنام آلهة فقال بعضهم لبعض :﴿ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) ﴾(٣).

إن القنوط الذى أصاب أهل الكهف فى المسرحية كان مرجعه إلى أن الكاتب جعل سبب فرارهم دنيوياًلا دينياً محضاً ، "فمشلينا" كان أخوف ما يخاف عليه ، زوجته وولداه ، ولم يكن يستبقى حياته إلا من أجلهم (٤)، ومرنوش إنما خرج لأن الملك قد عرف بحبه ابنته (٥)، ولو رد الكاتب خروجهم إلى سببه الحقيقى ، وهو الفرار بالعقيدة لما كان هناك مسوغ لهذا القنوط .

---

(١) انظر : قصص القرآن بين المفسرين والقصاص قديماً وحديثاً ، د : طه عبد الفتاح مقلد، دون تاريخ ، ص : ١٤٧ ، ١٤٨ .

و : مسرح توفيق الحكيم ، د: محمد مندور ، ط دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الطبعة الثالثة ، دون تاريخ ، ص ٤٣ ومابعدها .

(٢) الكهف ، ١٤ .

(٣) الكهف ، ١٥ .

(٤) أهل الكهف ، ص : ١٩ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٢٦ ، ٢٧ .

إن المؤلف كان مسوقا قبل كل شئ بدواعى الفن المسرحى ، وما يقتضيه من المواقف التى تحيى قصته ، ومع ذلك فقد جانبه التوفيق فى كثير من الأمور الفنية مما جعل كثيراً من النقاد يوجهون له بعض المآخذ (١). ومن هنا نعلم أن الرغبة فى الفن وحدها ربما لا تنتج فنا بريئاً من المأخذ ، ولكن نبل المقصد فى القصص القرآنى أنتج لنا فنا هو فى الذروة بين الفنون .

★★★

إننا قد نلمح مثل هذا الإضمار القصصى المتمثل فى الفجوات بين المشاهد حتى فى القصص الذى يميل إلى التحليل النفسى ، كهذا المثال من رواية "سارة" للأستاذ "العقاد" ، يقول الكاتب من حوار بين "همام" و "سارة" بطلى القصة وذلك فى محاورة هاتفية .

"قالت : إذن هل تحب أن أراك الليلة فى دار الصور المتحركة

قال : بل أحب أن نلتقى على انفراد فذلك أروح وأسلم

قالت : فأين إذن ؟

قالت : ما رأيك فى حديقة الأهرام ؟ إنها مكان قلما يغشاه أحد فى هذه الآونة ، وسنلتقى فى زاوية من الطريق ، ونستقل سيارة من هناك إلى الحديقة ، وأسمع منك ، أو أقول لك كل ما تحبين .

كان أول ما فاهت به وهى تجلس إلى جانبه فى السيارة أن قالت : لابد أنك حسبتنى مجنونة ، وقلت فى خلدك ماهذه الرعناء التى تقبل التقبيل ، ثم تخرج مغضبة ، ثم تتكلم فى التليفون ، ثم تحضر إلى الموعد طائعة فماذا حسبتنى بربك» ؟(٢)

والفجوة هنا واضحة وأثرها فى المحاورة واضح – أيضاً – وهى تستمد تأثيرها من الموقف نفسه ، فهمام ، كان على قطيعة مع "سارة" قبل هذه المحاورة ، وكانت قد

---

(١) انظر : فجر القصة المصرية مع ست دراسات أخرى عن نفس المرحلة ، ص ١١٧ : ١٣١ .

و : تطور الرواية العربية الحديثة فى مصر ١٨٧٠ م– ١٩٣٨ م د: عبد المحسن طه بدر ، ط دار المعارف ، الطبعة الثالثة ١٩٧٧ م ، ص : ٤٨٢ ، ٣٨٣ ،

و: الأدب القصصى والمسرحى فى مصر ، د : أحمد هيكل ، ط دار المعارف الطبعة الرابعة ١٩٨٣ م ، ص ٣٨٣ ، ٣٨٥ .

و : كهف الحكيم ، فتحى العشرى ، ط دار المعارف ، سلسلة "كتابك" العدد ١٢٧ ، ١٩٨٠ م ، ص ١٠ ، ٢٠ .

(٢) رواية "سارة" للأستاذ عباس محمود العقاد ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

خرجت من عنده مغضبة ، ولكنها ما لبثت أن حادثته عن طريق الهاتف ، إلى أن وصل الحوار بينهما إلى هذه النقطة التى أبدى فيها "همام" رغبته فى رؤية "سارة" فاقترح دار الصور المتحركة مكاناً للقاء، ولكنه رغب فى غيره ، واختار مكاناً آخر ، ووضع كل منهما سماعة الهاتف فى نهاية المشهد ، وكأنما أسدل الستار، ليرفع فى مكان آخر على البطلين معاً وهما يجلسان متجاورين فى السيارة ، وذلك مشهد جديد والزمن الذى بين المشهدين أيا كان مقداره تجاوزه الأسلوب فى لمحة خاطفة ، وتجاوز معه ما وقع فيه من أحداث ، ومن اللافت للنظر فى هذا الموقف أننا لا نكاد نحس انقطاع الحوار فى المشهدين ، فقد كانت آخر كلمات "همام" فى نهاية المشهد الأول : أسمع منك أو أقول لك كل ما تحبين ،ونفاجأ فى بداية المشهد الثانى بكلمات الحوار على لسان "سارة" وأن الكاتب آثر أن تتحدث هى لأنها هى التى خرجت مغضبة ، ثم بدأت الحوار بينهما ، ثم قبلت اللقاء ،وأتت إليه ، فلابد لها أن تستوضح رأية فيها .

ونلحظ – هنا – أن الإضمار أصاب أحداثا يسهل إدراكها ، وكذلك الشأن فى الإضمار الذى تقع عليه فى قصص كتابنا ، ولعل لهم العذر فى ذلك، فالقصة الفنية الحديثة مازالت فى حاجة إلى كثير من الوقت والجهد لكى تصل إلى مرحلة متقدمة ، تتلاشى فيها مظاهر القصور التعبيرية والفنية ،وأن فى القصص القرآنى خير مثال يمكن أن يحتذيه الكتاب للوصول إلى هذه المرحلة .

المبحث الثانى

طبيعة الحوار فى المشهد القصصى فى القرآن ونظيره فى الأجناس الأدبية

من المعروف أن القصة الفنية تعتمد على الحوار والسرد فى بنائها والمحاورات القصصية أمر لاغنى عنه وبخاصة فى الرواية ، لأن طولها يستدعى – بل يوجب – تنوع أسلوبها بين الوصف السردى والحوار والمحاورة فى المسرحية هى الركيزة الأساسية التى تقوم عليها ، بل هى الركيزة الأسلوبية الوحيدة ، إذا استثنينا بعض الأوصاف التى يكتبها مؤلف المسرحية للمكان ، أو للشخصيات لتكون عونا للمخرج عند ظهور المسرحية ممثلة ، وهو ما يعرف بالتوجيهات المسرحية .

والمقصود بطبيعة الحوار هو بيان سماته الفنية ، ومنها مناسبته للشخصية وللموقف القصصى ، ومنها بيان دوره فى تطوير الأحداث وتصعيدها ، ومنها :بيان قدرته على تقديم الشخصية وتصويرها تصويراً صحيحاً يتفق وصورتها الحقيقية، ولكل من هذه السمات أمثلته الموضحة .

(١)

والمحاورات القصصية فى القرآن الكريم لها شأن عجيب :«من حيث قدرتها على بيان مدى المقاومة بين أطراف الحوار ، تلك المقاومة التى لابد من توافرها لكى ينشأ الموقف الذى يجسم صراعاً بين قوى مريدة ، وأخرى مانعه قاهرة ، والمغالبة بين هذه القوى هى التى تؤدى إلى تصعيد الحدث إلى ذروة تنتهى بتغلب إحدى القوتين على الأخرى .. وعلى قدر قوة الصراع بين أطراف القصة تكون المقاومة فى المحاورة(١) "

ولكى تتضح هذه القاعدة التى تحكم بناء المحاورات فى القصص القرآنى نقف مع بعض المحاورات لنتبين صدق ما ندعى أولها بين رب العزة سبحانه والملائكة فى خلق آدم، قال تعالى :﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ(٣٣) ﴾ (٢)

(١) بدائع الإضمار القصصى فى القرآن الكريم، ص : ٧٥ ، ٧٦ .
(٢) البقرة : ٣٠ : ٣٣.

ليس فى هذه المحاورة صراع أو مقاومة بين طرفيها، ولكن غاية مايقال عنها: إنها نوع من المراجعة من الملائكة لرب العزة سبحانه وتعالى؛ لأن الملائكة هم الموصوفون بقوله سبحانه : «لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ(١) » فهم لايملكون القدرة الحافزة على المقاومة والصراع .

وإنما دفعهم إلى هذه المراجعة ماسبق إلى علمهم بأن ذرية هذا المخلوق الجديد سيكون منهم إفساد فى الأرض وسفك للدماء، وعلمهم بصفة هذه الذرية يدعو إلى الاعتقاد بأن ثمة حذفاً فى هذه المحاورة، وقد وقع هذا الحذف فى الجزئية المتصلة بالطريقة التى علمت منها الملائكة بصفة ذرية آدم (٢) ولذا بادروابقولهم : (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) وعجبهم منصب على أن الله – سبحانه – يستخلف من هذه صفته مكان من يطيعه ولا يعصيه وهم الملائكة (٣) .

إن طبيعة المحاورة هنا تعتمد أساساً على اختلاف طرفى الحوار، الخالق – سبحانه وتعالى – وهو صاحب المشيئة المطلقة ، والمخلوقون الذين لايعصون لله أمراً، ولذا جاءت المحاورة على هذه الصفة، إذ لم يتعد الطرف المقهور – وهم الملائكة – طور المراجعة إلى ماهو أشد منها، من مقاومة أو صراع، ولم يلبث هذا الطرف المقهور أن أعلن الاستسلام والخضوع حين بدت لهم مشيئة الله فى خلق آدم وتفضيلة على غيره من المخلوقات فقالوا : (سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا) .

وفى هذا القول من الملائكة تأكيد لشخصيتهم وصفتهم الملتزمة طاعة الله دائماً، ومراجعتهم للخالق – سبحانه – لاتعنى بحال خروجهم عن هذه الطاعة، بل تؤكدها، إذ سرعان ماردوا الأمر برمته إلى علم الله فور ظهور الدليل أمامهم على أفضلية هذا المخلوق الجديد.

ومن اللطائف فى بناء هذه المحاورة، أن القارئ قد ينظر فى قوله تعالى : (إنى جاعل) فلا يدرى أهذا الجعل قد كان فعلا وقت بداية المحاورة أم سيكون فيما بعد ؟ ثم يقرأ قوله تعالى : (وعلم ءادم الأسماء كلها) فيفاجأ بخطاب الله آدم – عليه السلام – وهو كان فعلا، وأن آدم أصبح خلفا مستوياً مؤهلا للخطاب ، مؤهلاً – أيضا – لتلقى

---

(١) التحريم : من الآية ٦ .

(٢)انظر : تفسير الطبرى . جـ١ ، ص ٢٠٩، ٢١٠ .

والكشاف ، جـ١ ص : ١٢٤، ١٢٥ .

(٣) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، المجلد الأول، جـ١ ص ١١٥، ١١٦ .

العلم، وفى هذا إيذان وإرهاص بقرب انتهاء المحاورة؛ لأن الحدث الذى هو موضوع المراجعة قد تم فعلاً، ولذا لم يكن من الملائكة مراجعة بعد ذلك ، بل كان منهم الخضوع والإذعان لمشيئة الله سبحانه .

ثانيهما – بين رب العزة – سبحانه – وإبليس ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) ﴾(١)

إن شخصية "إبليس" مصورة فى هذه المحاورة أوضح مايكون التصوير، وهو هنا ذو وجهين مختلفين أشد الاختلاف، وجه ينبئ بالذلة والصغار، ووجه يوحى بالتمرد والكبر والخروج على طاعة الله ، وقد أوضحت المحاورة هذين الوجهين دون أدنى تدخل من السرد الوصفى .

أما الوجه الأول فيبدو فى :

١ –وقوفه أمام ربه صاغرا حين سأله عن سبب امتناعة من السجود .

٢ – فى صدور الأمر الإلهى بالهبوط، والأمر بالخروج وتوعده بالصغار .

٣ – فى وقوفه مستعطفاً سائلاً ربه النظرة .

٣ – فى تكرار الأمر بالخروج مذءوما مدحورا .

وأما الوجه الثانى فيبدو شاخصاً أمامنا من خلال :

١ – إبائه وامتناعة عن السجود لآدم، وعصيانه أمر ربه .

٢ – ادعائه أنه خير من آدم لأنه خلق من نار، وآدم خلق من طين .

٣ – إجابة الله – سبحانه – له طلب الإنظار .

---

(١) الأعراف ، ١١ : ١٨ .

٤ – فى مبالغته فى توعد بنى آدم، والانتقام منهم، إذا يعد ألا يدع ثغرة إلا ويأتيهم منها.

ومن العجيب حقا أن يتصف إبليس بهذه الصفات المتناقضة فى آن واحد، فبينما يعلن خيريته على آدم ويقدم الدليل على هذه الخيرية، وهو اختلاف مادتى الخلق النار والطين ، إذ هو يعود فيستعطف ربه سائلاً إياه أن ينظره إلى يوم البعث، فلما أجيب إلى طلبه ، دون تحديد الموعد الذى طلبه ، عاد إلى تمرده، ولكنه لاينسى قدرة ربه فيقسم بها ليسلكن كل سبيل إلى إغواء ذرية آدم، ولاينسى قدرة ربه أيضا فيعلن أنه إذا استطاع أن يغوى الكثرة الكاثرة من هذه الذرية ويصدهم عن ذكر الله؛ فإن بعضهم لن يستجيب لغوايته، ولذا قال : (ولاتجد أكثرهم شٰكرين) ، لأن الأمر مردود إلى الله سبحانه ، ولذا صرح فى آيه آخرى : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾(١)

إن إبليس خلق من خلق الله، ولو شاء الله – سبحانه – أن يقسره على الإيمان والسجود لآدم لقسره، أو لهداه إلى السجود كما هدى الملائكة، ولكن الله – سبحانه – أعطاه حرية الاختيار ، وصان له هذه الحرية، ومن هنا يبدو والفرق بين هذه المحاورة والمحاورة السابقة بين رب العزة والملائكة بشأن خلق آدم، فالمحاورة السابقة لم يكن فيها تجاذب لأطراف الحوار؛ لأن الملائكة سرعان ما أذعنوا لمشيئة الله – سبحانه – ولكن إبليس – وقد أعطى قدرا كبيراً من الحرية – راح يلج باب الحوار ، فيما يشبه الجدل أحيانا ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾، وفيما يشبه التحدى لذرية بنى آدم أحيانا أخرى ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ الخ .

ونلاحظ، أن إبليس كان كثير الكلام بعد إجابة الله – سبحانه – طلبه فى الإنظار، أما قبل ذلك،فكان كلامه قليلا إلى حد ما ، وإن كان لايخلو من جرأة ظاهرة؛ وذلك لأن إجابة طلبه زادته جرأة، ولعل ذلك سبب التفضيل الظاهر فى قوله : ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ

---

(١) سورة : ص : آيه ٨٢ : ٨٣ .

صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ .

إن النقاد يؤكدون أن الحوار يجب أن يكون مناسباً للشخصية وللموقف القصصى، وها هو ذا القرآن الكريم يضع هذه القاعدة القصصية قبل أن يعرف النقاد حرفية الفن القصصى، وقبل أن يهتدوا إلى معايير جودة المحاورات بزمن طويل .

(٢)

أما السمة الثانية وهى دور الحوار القرآنى فى تطوير الأحداث وتصعيدها فيتضح من خلال هذه القصة :

قال تعالى عن ابنى آدم :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) ﴾(١)

ولننظر فى البناء اللغوى المحكم – بل المعجز – لهذه القصة، لنرى كيف أن الأسلوب القرآنى ضرب صفحاً عن كثير من الأمور التى لاتعلق لنابها ولا غرض يعود علينا من ذكرها، فمن هما ابنا آدم هذان؟ ، وما السبب الذى دفعهما إلى أن يقربا قرباناً ؟هذه الأمور لا مكان لها فى القصة القرآنية ؛لأنها لاتفيد شيئا سوى إشباع الفضول البشرى، والفضول البشري لاوزن له فى منهج القصة القرآنية ، وإنما مكانه فى القصص البشرى الفنى!!!.

كل ماذكرته القصة أنهما أخوان قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، وبهذا صرنا فى قلب الأحداث قبل أن نكتمل الآية الأولى من القصة!! وأعجب من

(١) المائدة ، ٢٧ : ٣١ .

هذا أننا نصير إلى ذروتها الدامية بعد أول جملة حوار ينطقهما الأخ الذى لم يتقبل منه، "قال لأقتلنك" والملحوظ «أنها الكلمة الوحيدة التى نطق بها هذا الأخ، ولكنه قالها فى إصرار عنيد، وتوكيد جازم، وكأنه يريد أن يسد أمام نفسه كل سبل العودة إلى المسالمة والموادعة التى يقتضيها واجب الأخوة، ورابطة الدم بين الأخوين !! .

وهذه الكلمة الوحيدة «تصور نفس هذا الأخ وما يعتمل فيها من اندفاع نحو الشر، وإصرار عليه، واشتهاء له ، وتجاوب معه، وهى تصور - أيضا - اختلاط الشر بهذا الإنسان وامتزاجه به ، ثم هذا الإغراء الذى يقوده إليه، وكأنه يشرف به على خير يجتنيه أو نعيم يعيش فيه»(١)، وعلى عادة الأسلوب القرآنى فى ضبط الحركات النفسية تقول القصة عن هذا الأخ الظالم : (فطوعت له نفسه قتل أخيه) حتى نفهم « أنه ليس ثمة قوى خارجية أثرت فيه حتى يقرر قتل أخيه كالشيطان مثلا، وإنما الأمر أولاً وأخيراً شر ذاتى محض، وحقد دفين فى نفسه، كما تدل هذه الكلمة على أن فى نفس هذا الأخ صراعاً نفسياً داخلياً، وإلاما كان فى حاجة إلى عملية التطويع هذه» (٢).

إن عنصر الشر هنا كان كلامه قليلا وفعله مؤثراً غاية التأثير، وإذا كانت هذه الكلمة: (لأقتلنك) تمثل إرادة الإنسان الباغى الظالم؛ فإن الكلام الكثير الذى جاء على لسان عنصر الخير، يمثل إرادة الإنسان الوادع المسالم، فهنا إرادتان متقابلتان ، إحداهما مصرة على القتل، والثانية، مصرة على ألا تدفع القتل عن نفسها، ويعلن صاحبها حيثيات حكمة بقوله : ﴿إنى أخاف الله رب العلمين﴾ .

وانتصار إرادة الظلم بقتل الأخ أخاه، إيذان بنهاية الأحداث؛ ولكنها ليست إيذاناً بنهاية القصة، فمازال فى القصة ومضة تضئ جانباً من جوانب النفس الإنسانية ، تلك الومضة هى : قول القاتل بعد أن رأى الغراب يبحث فى الأرض : ﴿**ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى فأصبح من النادمين**﴾، ولأن القرآن هو الصدق المطلق، كان من المستحسن أن يرينا تلك الومضة اللامعة فى نفس هذا الأخ، فإن كل إنسان يرتكب جرماً أو معصية لابد له أن يعود إلى نفسه، وأن يثوب إلى رشده ، فيندم على مافعل من جرم وما ارتكب من معصية، تلك هى طبيعة الإنسان العاقل السوى، الذى قد تغلبه نفسه أو يغلبه شيطانه، وهكذا كان ابن آدم .

(١) القصص القرآنى فى منطوقة ومفهومة ، ص : ٢١٩، ٢٢٠ .

(٢) بدائع الإضمار القصصى فى القرآن الكريم ، ص : ٧٩، ٨٠ .

ويلاحظ أن الحوار هنا «قد خلا من تدخل عناصر غيبية غير بشرية سواء الخالق – سبحانه – أو الملائكة أو الجن أو الشيطان، ولعل ذلك مقصود من القصة للتأكيد على استقلال الإنسان، ومسئوليته عن اختياره فيما استخلف فيه، ويمكن أن يعد الغراب بديلاً عن هذه العناصر ليشد الإنسان إلى الأرض التي خلق من ترابها وقد فعل» (١).

ومن الواضح في المحاورات السابقة أنه على قدر قوة الصراع بين أطراف القصة تكون المقاومة في الحوار، ويؤكد ذلك أمران :

أولهما – أن هناك محاورات قرآنية – وإن تكن غير قصصية – تنعدم فيها المقاومة تماماً؛ لأن المحاورة بين قوى متكافئة، ولهذا لاتلبث القضية أن تحسم بطريقة الإقرار والتسليم، وفيها نجد الحوار قصيراً جداً وحاسماً(٢)، كقوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) ﴾(٣).

وثانيهما – أن هناك محاورات قرآنية تشتد فيها المقاومة وتعنف عنفاً ظاهراً، لأن الصراع فيها بين قوى متكافئه من حيث القوة ولانعني بالقوة هنا القوة المادية فقط، ولكن القوة المعنوية لها حسابها في ميزان التحاور بين أطراف القصة، وربما كانت مقدمة على القوة المادية في حسم نتيجة المحاورة لصالح أحد طرفيها .

ومثل هذه المحاورات العنيفة نجدها تطول وتمتد حتى إن بعضها يشغل مساحة كبيرة من كتاب الله – عز وجل – ومن أوضح مايمثل هذا النوع من المحاورات ، محاورات "موسى" – عليه السلام – مع "فرعون" في غير سورة من سور القرآن الكريم ، ومحاورت "فرعون" مع الرجل المؤمن من آله ، ومحاورات "إبراهيم "– عليه السلام –مع أبيه وقومه .

وإذا بحثنا عن هاتين السمتين في القصص الفني، ومدى توفرهما، وجدنا أن كتاب القصة في أدبنا العربي مازالوا في حاجة ماسة إلى مضاعفة، الجهود، وإلى مزيد من المران والدربة، والدراسة للنماذج الرفيعة من الأدب لكي يصلوا إلى مستوى أعلى في بناء المحاورات القصصية ، ولعلهم يصلون إلى مستوى النضج الفني إذا تتلمذوا لقصص القرآن الكريم ، صحيح أن من كتابنا من يجيد بناء المحاورات – كما سنرى

(١) بدايع الإضمار القصصي في القرآن الكريم ، ص : ٨٠

(٢) السابق ، ص ٧٦

(٣) فصلت ، ١١ .

ولكن هؤلاء أيضا لاتخلو محاوراتهم من هنات وسقطات تقلل كثيراً من جمال قصصهم ومسرحياتهم ، وذلك شأن كل عمل بشرى .

ولنقف الآن مع بعض الأمثلة من قصص كتابنا لنرى طبيعة المحاورة من حيث ارتباط الصراع فيها بقوة أطرافها، ومدى المقاومة بين أطراف الصراع، ولنرى – أيضا – إلى أى حد تنجح المحاورة فى تقديم الحدث .

أولا : هذه المحاورة من قصة تتمثل فى أخوين تلميذين بالجامعة، أحدهما (فرح) يعمل – إلى جانب طلبه العلم، بالدعوة إلى الله، والثانى (مستور) انخرط فى سلك إحدى الجماعات الدينية، مما أثر على علاقتة بوالديه وأخيه، وكان يمضى معظم وقته بالمسجد منصرفا عن استذكار دروسه ، ولكن أخاه قرر أن يذهب إلى المسجد ، ليحاور أعضاء هذه الجماعة، ويسترد أخاه منهم، وبعد أن صلى العصر معهم دار بينه وبينهم الحوار التالى(١) :

« .. بحث عن أميرهم، يبدو أنه الشيخ الذى يؤمهم فى الصلاة – التفوا حوله سارع فى التعرف عليه: أخوك فى الله "فرح عبد الله مسعود" "شقيق مستور الكبير" .

– أهلاً وسهلاً قالها فى تحفظ دون أن يبتسم رمته بعين حادة يفتش عما وراءه .

– تنحنح فرح الكل فى حالة صمت، الأمير يلتهمه بنظراته شعر بغربته . موقف حرج .يريدونه أن ينصرف .اتفضل من غير مطرود. رغبة تدور فى نفوسهم لكن يجب أن يسحب معه أخاه، ادعى أنه يتأهب للخروج : «إن شاء الله سنلتقى كثيراً ، لكن يجب أن أستأذن الآن، امتحاناتى على الأبواب » .

– وفقك الله قالها كبيرهم دون أن يلح عليه فى الجلوس .

– أخيراً كشف عن هدفه « أرجوك أن تسمحوا "لمستور" بالانصراف هو الآخر، مواد الحقوق طويلة وتحتاج إلى جهد كبير»

– رد أخوه محتجا : «لا شأن لك بى» .

– انطلقت همهمات .. قال أحد الجالسين فى حده : «لايمكن أن نطلب منه الاجتهاد فى الباطل» .

– جاءه صوت آخر : كيف يمكن أن يدرس نظم الجاهلية؟ أجاب على نفسه مستحيل .

– اندفع ثالث : «أولى له أن يولى عنايته إلى الشريعة الإسلامية بدلا من القوانين

(١) من قصة قصيرة بعنوان «فرح ومستور»محمد عبد القدوس،ملحق أهرام الجمعة، بتاريخ ٦ /١١/١٩٩٣ ، ص :١.

الأروبية» .

- طاف عليهم أميرهم بنظرات أسكتتهم، التفت إلى "فرح" ، ازدادت صرامته وهو يقول «غيرتك على أخيك محمودة، لكنه اختار طريقاً آخر»
- له الحق فى اختيار طريقه بعد انتهاء دراسته» .
- رد فى هدوء محتفظا بتجهمه : «كيف يدرس شيئاً لن ينفعه فى حياته، بل يتعارض مع مبادئه»
- أجاب وقد قرر أن يتحداه : «الحقوق لاتتعارض مع تدينه، دراسة القوانين تساعده على فهم المجتمع الذى يعيش فيه ، وتؤهله للدفاع عن المظلومين» .
- تنهد الأمير مستمداً طاقة على الصبر : «إنه مجتمع جاهلى .. ولايمكن أن يدافع عن قوانين ما أنزل الله بها من سلطان ، الظلم سيختفى عندما تتغير الأوضاع، ويصبح مجتمعنا إسلاميا» .
- أفلتت أعصاب الشقيق الأكبر، قال وقد ارتفع صوته : «جاهلية .. جاهلية سمعت هذه الكلمة منذ أن جئت إلى هنا عدة مرات .. أنا أيضا داعية إسلامى، مجتمعنا ليس سيئا إلى هذه الدرجة ، فيه كذلك خير كثير .
- رد أحد الحاضرين : «وهل المنكرات المنتشرة تدل على تمسكنا بالإسلام؟ الخمور .. الميسر .. التبرج ...
- أهل مصر يحبون دينهم رغم كل ماتراه، وكل مجتمع فيه إيجابيات وسلبيات .
- تدخل الأمير وهو يعمل على إنهاء النقاش : «أخوك قرر اختيار طريق جديد منذ أن عرف حقيقة الإسلام، والمفروض أن تساعده على ذلك بدلا من أن تقف فى وجهه ياحضرة الداعية» .
- لاحظ "فرح" سخرية محدثه والابتسامات التى صاحبت ذلك على الوجوه » نظر إلى أخيه التقط حيرته بين الإشفاق على شقيقه وطاعة أميره .. شجعه ذلك على مواصلة تحديهم قال فى قوة كأنه يلقنهم درساً : «الدعوة إلى الله لاتعنى العزلة والابتعاد عن الناس والانقطاع عن الدراسة وسوء العلاقة مع الوالدين و ...
- قاطعه أحدهم مستهزئاً : «كل همك أن يكون أخوك من حملة الشهادات العليا .. "ليسانس" إنطلقت الضحكات ساخرة .
- أضاف ثان : « أنت أسير المجتمع الجاهلى الذى تعيش فيه رابطة الإسلام يجب أن

تكون فوق كل شئ، حتى فوق الأهل، "القرآن الكريم" صريح فى هذا (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم و ..الخ)

– صاح فرح مقاطعاً : «لاتلوى آيات القرآن وتفسرها على هواك ، أين (ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا) لماذ لاتتلو آيه (ولاتقل لهما أف ، ولا تنهرهما) ..

تلقى ضربة قوية على رأسه من الخلف .. توالت الضربات والصفعات عليه، أكثر من يد تبطش به، سمع من يقول : «أنت معاند مكابر لايصلح معك إلا العصى» الألم يعصف "بمستور" نفسه، يصرخ يتلوى من كل لكلمة تصيب أخاه .. انتفض محتجاً صائحاً : «حرام عليكم» وهو محتضن شقيقه .

– علت الدهشة وجوه أفراد الجماعة، جاءه صوت غليظ : «رسبت فى أول اختبار فضلت أخاك علينا، قدمت رابطة الدم على الولاء للجماعة، أكمل آخر : الابن كان يقاتل أباه من أجل الإسلام نظر "مستور" فى حدة معاتبا : ماذا فعل أخى حتى تضربوه هكذا؟، إنه مسلم مثلكم، ويحب الله ورسوله ، أخذ يسند فرح خارجين من المسجد ، بينما الأمير يقول : «اتركوه يفعل مايشاء ..لايصلح معنا» ابتسم الأخ المصاب رغم آلامه وأوجاعه، شقيقه فى أحضانه .

فى هذا المشهد القصصى الذى تجمعه وحدة المكان دارت هذه المحاورة الطويلة، وطرفا المحاورة متباينان تباينا ظاهراً فى أفكارهما، أحدهما «فرح» مؤمن بتعاليم الإسلام، دون شطط أو غلو فى فهم هذه التعاليم، أو فى محاولة تطبيقها، والطرف الآخر هم أعضاء الجماعة ، وعلى رأسهم الأمير ، وهم يبدون على النقيض من محاورهم، فهم منعزلون عن المجتمع بدعوى الجاهلية السائدة فيه، وهم يحرمون دراسة القوانين الوضعية ، ومن هنا أغروا(مستور) بترك دراسة الحقوق، وهذا هو السبب الذى جاء بالأخ الأكبر، أى أن استنقاذ أخيه وإقناعه بمواصلة دراسته هوالهدف الوحيد لفرح من محاورته أعضاء الجماعة، هذان هما طرفا المحاورة بكل مايمثلة كل منهما من أفكار وآراء ، وهذا هو الحدث الأساسى فيهما، فكيف قدم الكاتب شخصياته، وكيف قدم الحدث، وبأى أسلوب ؟ .

إن من الممكن أن تقسم المحاورة إلى ثلاثة مراحل واضحة :

الأولى : مرحلة التعرف بين فرح وأعضاء الجماعة، وتنتهى عند طلبه الإذن لأخيه «مستور» بالانصراف معه، وتعلله بما هو مطلوب منه من استذكار مواد الحقوق .

ونلحظ على الحوار فى هذه المرحلة، أنه قليل إذا ماقيس بالسرد الوصفى، وأنه غير مؤثر فى تقدم الحدث القصصى وتطويره، وأن هذا التطوير لم يحدث إلا مع العبارة الأخيرة من حوار هذه المرحلة، وهى العبارة التى طلب «فرح» بها الإذن لأخيه، وإنه لو لم يذكر كلمة (الحقوق) – وهى الكلية التى يدرس فيها أخوه – لما كان للمحاورة أثر فى بيان أفكار طرفيها فى المرحلة التالية .

وفى أول جملة حوار جاءت على لسان (فرح) وهو يتعرف إلى أمير الجماعة : «أخوك فى الله "فرح عبد الله مسعود" شقيق "مستور" الكبير» فى هذه الجملة الأولى يبدو نوع من عدم الدقة فى اختيار الكلمات ، فهذه الألفاظ لا تجرى إلا على لسان واحد من المؤمنين بمثل هذه الأفكار التى ذهب الأخ ليفندها أصلاً، ثم أليس من المعقول أن يفهم أمير الجماعة من هذه الكلمات أن محدثه واحد منهم، أو واحد مثلهم ، وإن لم يروه قبل اليوم ؟ على أنه أخ لواحد منهم، فكيف بهم يجفلون منه، ويردون على تحيته رداً مقتضباً فى تحفظ ، ودون ابتسام؟ .

إن الكاتب لو قدم لنا مايوضح سر هذا الإجفال والنفور، لكان أوفق فى إقناعنا ، خاصة أنه أسهب كثيراً فى وصف هذه الحال التى أصابت أعضاء الجماعة .

المرحلة الثانية : وفيها تحول الحوار إلى مشهد جدلى؛ إذ يدلى كل من طرفى المحاورة بآرائه ويصب أفكاره أمام الطرف الآخر، وقد يستعين كل من الطرفين بآيات من "القرآن الكريم" مستشهداً على صدق كلامه وتأكيد أفكاره .

وقد أجاد الكاتب الإمساك بخيوط الموقف القصصى فى هذه المرحلة، إذ انطلق من موقف الأخ الأصغر المؤيد لأفكار الجماعة وذلك حين رد طلب أخيه منه أن ينصرف معه قائلاً، لا شأن لك بى» وقد كانت هذه الكلمة هى الضربة التى قدحت زناد الجدل بين المتحاورين، ولذا انطلق كل واحد من أعضاء الجماعة يدلى بدلوه فى الرد على هذا الأخ، فتكلم منهم واحد ، وثان ، وثالث، إلى أن أسكتهم الأمير بنظرة من عينيه ليتكلم هو أيضا، وكانت كلمات كل منهم تلقى ضوءاً على أفكارهم وتوضح معتقداتهم، ولعل الكاتب كان موفقاً حين جعل عدداً من أعضاء الجماعة يتحدث مما يعطى انطباعاً لمحاورهم أنهم مقتنعون بما هم عليه من أفكار ، ولو جعل الأمير يتحدث وحده من بداية الأمر لربما ظن المحاور أنهم لايرون رأى أميرهم، أما وقد رآهم يتنفسون برئة أميرهم، ويتابعونه متابعة مطلقة؛ فإن للكاتب الحق فى أن يصفه بقوله : «أفلتت أعصاب الشقيق الأكبر،

قال وقد ارتفع صوته ..» فانفلات الأعصاب نتيجة طبعية لإجماع محاوريه على هذه الآراء الفاسدة من وجهة نظره .

وفى نهاية هذه المرحلة يأخذ كل من المتحاورين فى الاستشهاد بآيات من كتاب الله، وهو تحاور جدلى – كما قلت – وكانت الغلبة فيه لصالح الأخ؛ لأنه كان يفهم تعاليم الدين فهماً صحيحاً، يدل على ذلك تصحيحه للجماعة فهم النصوص التى أرادوا أن يعتسفوا فى تأويلها ، ورده عليهم بنصوص قاطعة الدلالة على صحة آرائه هو ، وبذلك تنتهى هذه المرحلة من المحاورة .

المرحلة الثالثة : وهى قصيرة نسبياً، ويغلب فيها الوصف على الحوار، كما هى الحال فى المرحلة الأولى، ومع قلة الحوار فإنه بالغ الدلالة على سلوك أعضاء الجماعة مع المعاندين لهم والخارجين عليهم ، هذا السلوك الذى يتسم بالعنف والضرب والركل ، فقد أخذوا يضربون محاورهم وأميرهم يقول : «اتركوه يفعل مايشاء لايصلح معنا لأن الولاء له مقدم على الولاء للوالدين والأخ .

إن الكاتب يعالج فى هذه المحاورة قضية بالغة التأثير فى مجتمعنا اليوم، وهى قضية التمذهب بمذهب خارج على المذاهب الفقهية الأربعة المشهورة، وهذا المذهب – كما عرضه الكاتب – فيه كثير من السلبيات، منها : الانعزالية والتقوقع داخل المساجد، بل داخل نفوس ضيقة لاتتسع حتى لمن يحاور أصحابها ويجادلهم، ومنها التعسف فى فهم بعض آيات كتاب الله، ومحاولة لى أعناق هذه النصوص فى سبيل تسخيرها لخدمة مبادئهم .

ومن هنا يمكن أن تعد هذه القصة قصة تعليمية يقدمها الكاتب كأنها صيحة تحذير لكل شاب فى مثل حال «مستور»، وهو – أيضا – يقدم من خلال هذه المحاورة نموذجاً لمن يريد أن يحاور أصحاب هذه المذاهب ، وأنه لابد أن يكون فاهماً أمور دينه فهما صحيحاً، ولذلك كان الكاتب موفقا حين جعل الأخ المحاور داعية إسلامياً، يدعو إلى الله على بصيرة، وقد نجح فى استرداد أخيه من أيدى هؤلاء الجماعة، أو كما يقول الكاتب على لسانه : يجب أن يسحب معه أخاه .

وأخيراً فإن الكاتب قد وفق إلى حد ما فى الإتيان بالألفاظ على قدر المعانى، باستثناء بعض الجمل السردية التى كان يمكن أن يقلل منها، ومن أمثلة ذلك : مبالغته

فى وصف حالة النفور التى أحسها أعضاء الجماعة من وجود هذا الأخ بينهم، وذلك فى بداية المحاورة، ومنها – أيضا– قوله عن الأخ : «أجاب وقد قرر أن يتحداه» .. الخ مع أن كلماته مع أمير الجماعة تحمل كثيراً من التحدى مما يدل على أن القصة عند كثير من كتابنا مازالت فى حاجة إلى الاقتصاد فى الوصف ، ومما يؤكد ذلك المثال التالى :

ثانيا : من محاورة بين شاب وفتاة ، التقياخلسة، يمنيان أنفسهما أمانى السعادة(١).

مبتسمة بسعادة .. قالت له الحبيبة وهما يقرقران كلمات الحب والغزل على ضفاف النهر .. فى عتمة ذلك الليل البارد .. والتى يقطعها شعاع القمر المنساب من خلال السحب الداكنة فيضفى الراحة والأمان على كل شىء : طالما كان حبنا كبيراً هكذا .. فلابد لنا أن نتزوج وسنرزق بالأبناء ، الصبيان والبنات .

– موضحة أكثر ..قالت الحبيبة ضاحكة ووجهها يتفجر تفاؤلا وسعادة الذكور سيساعدونك فى عملك ..... والبنات سيعاوننى فى عملى؟

انقبض ما بداخله ؟

إن الكاتب هنا مفتون بالأوصاف الكثيرة ، الغريبة والمتناقضة أحيانا، أما كثرة الأوصاف فنرى أن الكاتب قد فصل بين لفظ القول ومقول القول بما يعادل ثلاثة أسطر من الأوصاف، مما كاد معه القارئ ينسى إسناد فعل القول لأى من الحبيبين وكرر هذا الفصل أيضا مرة أخرى وإن كان الفاصل أقصر من سابقة .

وأما غرابة الأوصاف فيأتى من هذا الإسناد الغريب : يقرقزان كلمات الحب والغزل، وأما التناقض فى الوصف؛ فإن الكاتب جعل الحبيب يحس بانقباض ما بداخله فى نهاية المشهد، ونسى أن القمر المنساب من خلال السحب الداكنة كان يضفى الراحة والأمان على كل شئ .

إن مبدأ الاقتصاد الفنى يقضى بألا يصف الكاتب الا ما يدعم الحدث الذى يتناوله ، وقد أخل الكاتب بهذا المبدأ فى المشهد القصصى السابق، فرأيناه برص الأوصاف التى بصفها دون رابط كما هو ظاهر من النص .

ثالثا – نقرأ هذه القصة القصيرة (٢):

---

(١) من قصة بعنوان «الصمت» للكاتب محمد حسن شبرية، ملحق أهرام الجمعة بتاريخ ١٩٩٤/٩/٩م، ص : ١ .

(٢) قصة قصيرة بعنوان «عارف مين ؟ » بقلم عمر سراج ، ملحق أهرام الجمعة بتاريخ ١٩٩٣/٩/١٧م، ص : ١ ومن الواضح أن عنوانها كتب بالعامية، ومع ذلك فإن فى أسلوبها كثير من التكثيف اللغوى، وهو الذى دفعنى إلى دراستها.

– ما إن اختليا فى أحد أركان قاعة المحاضرات فى الجامعة حتى قالت له بفرحة بادية : عارف مين اتخطبت ؟ ..

– .....

ولما جلسا على شاطئ النيل إبان فترة خطوبتهما قالت له فجأة وكأنها قد تذكرت الأمر للتو : عارف مين اتجوزت ؟

– .....

بعد مرور عشر سنوات، قالت له والعرق يتصبب من على جبينها بجوار موقد الغاز : عارف مين جالها عقد بره ؟

– .....

وعندما قاربت ابنتهما سن الزواج والأسرة الصغيرة جميعها فى بلد خليجى قالت : – عارف مين رجعت مصر ؟ !

– .....

ومرت السنوات ، وتزوجت ابنتهما وأنجبت ، وبينماهما يلاعبان أحفادهما ، فى حديقة منزلهما، وقد تحدب الظهر، وتلون الشعر بلون النهار قالت له ، وهى ترقبه بتمعن:– عارف مين ما ت ؟!

هذه هى القصة برمتها، وقد سماها الكاتب : «قصة قصيرة»، ولعله قد جانبه الصواب فى هذه التسمية؛ لأن القصة من حيث الحجم تعد أقصوصة، ومن حيث الزمان الذى تدور فيه تعد رواية ، وهذا مظهر من مظاهر الاضطراب فيما يتعلق بالفن القصصى .

أغلب الظن أن الكاتب أراد أن يجرب قدرته على تلخيص أحداث كثيرة جرت فى زمان طويل ممتد، فى سطور معدودة فكانت هذه القصة على هذا النحو، ومن الطبعى أنه لم يكن ليستطيع أن يختصر هذه الأحداث الكثيرة فى هذه السطور مع احتفاظه بفكرته مبسوطة وواضحة، ولذا اضطر اضطراراً إلى اجتزاء الفكرة أو الموضوع المراد من الأحداث، فخرجت على هذا النحو الغامض، فما هى هذه الفكرة ؟ .

لقد فهمت – بعد طول نظر – أن الكاتب يحكى عن فتاة أحبت زميلاً لها فى الجامعة، وأحب أخرى هذا الشاب فجاءته حبيبته تزف إليه البشرى أن فتاته قد سميت إلى آخر، ثم سمى هو إلى هذه الحبيبة، وفى مدة الخطبة أخبرته بزواج حبيبته من رجل

آخر فتزوج هو أيضا، وعاش مع زوجته التى تحبه، وأنجبا، وظلا معا حتى قبيل نهاية العمر .

والقصة مكونة من خمسة مشاهد ينتهى كل منها بسؤال الحبيبة محبوبها عن المرأة التى خطبت ، ثم زوجت ، ثم سافرت للخارج، ثم عادت من سفرها، ثم ماتت، لاشك أن هذه الأسئلة تحمل فى ثناياها متابعة المرأة لأخبار غريمتها فى حب زوجها، منذ أن سميت إلى غيره إلى أن ماتت، وتحمل أيضا فرحة المرأة بانتصارها على هذه الغريمة بالاستحواذ على هذا الرجل دونها، وتحمل، معنى أن المرأة لاتسلو ولاتريد أن تسلو منافسة غيرها لها فى حب رجل واحد .

هذه هى الفكرة أو الموضوع الذى أراد الكاتب أن يطرحه من خلال هذه الأقصوصة، ويلاحظ أنه حذف ردود الرجل على أسئلة المرأة واكتفى بوضع بعض النقاط ، وذلك يجعل القارئ فى حيرة ، فلا يدرى هل سكوت الرجل كان ناتجا عن تعلقه بمحبوبته التى فاتته وعندئذ يكون مثله مثل زوجته التى تلفحه بهجير أسئلتها، أى أن كليهما لم يسل ولايريد أن يسلو ، أو أن سكوته كان عن استغراب لموقف زوجته التى مازالت تذكر أمره مع هذه المحبوبة بعد كل هذه السنين ،

وعلى أيه حال، فالقصة تقدم صورة واضحة لمحاولة الكتاب الاتجاه الى التركيز الشديد فى اختيار الأحداث، ومحاولتهم التكثيف اللغوى فى بناء المحاورات ، وعلى الرغم من ذلك نجد بعض الأوصاف التى يمكن الاستغناء عنها، كقوله : بعد مرور عشر سنوات، قالت له والعرق بتصبب من على جبينها بجوار موقد الغاز،؛إذ ربما لايعنينا -نحن القراء - أن تكون المرأة بجوار موقد الغاز، أو تكون مطلة من النافذة مثلاً ، إلا إذا كان الكاتب يعنى بهذا الوصف شيئاً لاندركه .

رابعاً - محاورة بين «سعيد مهران» «ورؤف علوان» (١)وكان «سعيد» لصاً يغزو مساكن الأغنياء لينهبها، صادراً فى ذلك عن فكر «رءوف» الذى كان يعهد إليه ببعض الكتب عن الاشتراكية، وكثيراً ما كان يحدثه عن العلاقة بين الفقراء والأغنياء، وأن المال يجب أن يكون شركة بينهم ،وفى إحدى غزوات «سعيد» قبض عليه، وأودع السجن، فلما خرج ذهب لمقابلة أستاذه، فوجده واحداً من الأغنياء الذين كان يتحدث عنهم، ومن عليه «رءوف» ببعض الطعام ، وورقتين ما ليتين من فئه الخمسة جنيهات، فحنق عليه «سعيد»

(١) من قصة «اللص والكلاب» أ : نجيب محفوظ ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٤م، ص : ٣٩:٤٤ .

وعزم على غزو مسكنه الفخم، وفى أثناء الغزوة أمسك به رءوف ودار بينهما الحوار التالى:-

«كان يحلم بحافظة نقود «رءوف» أو بعض التحف، وكان عليه أن يتقدم ...، ولكنه رأى ظلاماً مطبقاً كالكابوس، وفكر فى إشعال عود ثقاب للحظة واحدة، وبغتة دهمه نور ساطع من كل ناحية، نور شديد انقض عليه كلكمة قاضبة انعلق جفناه بلا إرادة، ولما فتحهما رأى «رءوف علوان» على بعد ذارعين، على بعد ذراعين فى روب طويل بدافيه عملاقاً، ويده مدسوسة فى جيبه مشدودة كأنها تقبض على سلاح، هكذا ظن ونظرة عينيه البادرة زادت قلبه المهزوم برودة، وانطباق شفتيه الناطق بالعداوة والكراهية، والصمت القاتل أثقل من سور السجن ، والسجان عبد ربه سيقول هازئاً : ما أسرع أن رجعت وانطلق صوت نحاس من وراء ظهره يتساءل :

ننادى البوليس ؟

فالتفت وراءه فرأى ثلاثة من الخدم يقفون صفا، غير أن رءوف خرج عن صمته قائلا : اذهبوا خارجا وانتظروا .

ولما فتح الباب ثم أغلق وراءهم أدرك خطفا أنه باب خشبى ذو زخارف عربية محلى الرأس بحكمة أو مثل أو آيه من الصدف، وأرجع رأسه من التفاتته ليتلقى النظرات العابسة ويسمع صوته الخشن وهو يقول :

– من الغباء أن تجرب ألا عيبك معى أنا، أنا فاهمك وحافظك عن ظهر قلب .

لم ينبس ومضى يفيق من ضربة المفاجأة ، ولكن على استسلام كاليأس، وكان داخله شعور بأنه لن يسلم إلى القبضة التى أفلت منها أمس، أو هكذا شعره .

– كنت فى أنتظارك على أتم استعداد، بل ورسمت لك طريق السير، وددت لو يخطئ ظنى، ولكن أى سوء ظن فيك يخطئ ؟! .

غض بصره لحظات، فرأى ما تحت قدمية من مشمع لامع ثم رفعهما دون أن يحاول الخروج عن صمته .

– لافائدة ، لن تنتهى من حقارتك، وسنموت حقيراً، وخيرما أفعله أن أسلمك إلى البوليس.

فاختلج جفناه وانفرجت شفتاه فى عصبية، فتساءل رءوف فى حده:

ماذا جئت تريد ؟

فغض بصره مرة أخرى .

– أنت تفصح عن عداوتك، نسبت الإحسان وتركزت في الحقد والحسد، إني أعرف أفكارك بقدر ما أعرف حركاتك .

وبصوت خافت ، وبعينين تختفيان في الأرض قال :

– رأسي داير، مازال دائراً منذ خرجت من السجن .

– كذاب ، لاتحاول خداعي، أنت تتوهم أني صرت واحداً من الأغنياء الذين كنت أحمل عليهم ، وعلى هذا الأساس أردت ، أن تعاملني .

– ليس الأمر كذلك .

– إذاً لم تسللت إلى بيتي ؟ لم تريد أن تسرقني ؟

تردد سعيد مليا ثم قال :

– لا أدري لست في حالة طبيعية، وأنت لن تصدقني !

– طبعا لأنك تعلم أنك كاذب، لم تقتنع بكلماتي الطيبة ، ثار حسدك وغرورك ، اندفعت كالجنون نفسه كما هي عادتك، ولك ماتشاء فستجد نفسك في السجن مرة أخرى.

فقال في تسليم .

– أعذرني ، مازلت أعيش بعقلية السجن وما قبله ..

– لا عذرلك، أنا أقرأ أفكارك ، قرأت كل جملة مرت بعقلك، كل جملة ، الصورة الكاملة التي تتصورني فيها، والآن أن لي أن أسلمك للبوليس فمديده كالرجاء قائلا :

– كلا ..

– كلا ؟!، ألا تستحقه ؟

– بلى ، ولكن لا ..

فنفخ غاضبا وهو يقول :

– إن رأيتك مرة أخرى فسأحسقك كحشرة ..

وهم بالتحرك في سبيل النجاة، ولكنه صاح به :

– أرجع النقود !

فجمد بصره دقيقة، ثم دس يده في جيبه فأخرج الورقتين، فتناولهما الأخر قائلا :

– لاترني وجهك مرة أخرى ..

لقد سبق هذه المحاورة محاورة أخرى بين «رءوف علوان» و «سعيد مهران»(١)، وكان «سعيد» نداً كاملا فيها لرءوف ، بل كان يسخر منه، ويستهزئ به لما وجده قد تنكر لمبادئه الاشتراكية، التى تنادى بالمساواة بين الفقراء والأغنياء، وكان «رءوف يتحمل سخريته على مضض؛ لأنه كان يحس بمسئوليته عن الأفكار التى يحملها «سعيد» فى رأسه، لأنه هو الذى سقاه هذه الأفكار يوم كان «سعيد» يخدمه وزملاء ه فى بيت الطلبة إبان مرحلة الشباب، بل كان يدافع عنه يوم ضبط متلبساً بالسرقة .

وفى هذه المحاورة التى بين أيدينا – نجد موقف كل من المتحاورين قد تغير، "فسعيد مهران" هنا لص انتهك حرمة أستاذه ، وسطا على بيته ، و «رؤف علوان» رجل من وجهاء المجتمع، صاحب منصب رفيع، وليس عليه أن يتحمل وقاحة هذا اللص إلى الأبد، مهما يكن مسئولاً عنه وعن أفكاره التى لم تعد مناسبة له، بل تخلى عنها وكفر بها بعد أن صار من الأغنياء .

ومن الطريف – حقا – أن الكاتب أنهى المحاوره الأولى بأن أعطى رءوف سعيداً عشرة جنيهات ، ثم أنهى هذه المحاورة بأن جعله يسترد هامنه، فحين أخذها سعيد – فى المحاورة الأولى أوحى ذلك بانتصاره على أستاذه، وحين ردها – فى المحاورة الثانية – كان ذلك دليلا على اندحاره أمام الأستاذ .

وقد أدار الكاتب الحوار بذكاء ملحوظ فجاء معبراً عن موقف كل من المتحاورين، ولذلك نرى أن «سعيداً» ظل صامتا أكثر من نصف المحاورة، والكاتب يستعيض عن كلامه بوصف أفكاره ومشاعره ، والتركيز على خشيته العودة إلى السجن، ثم إنه فى موقف لايمكنه الدفاع عن نفسه؛ لأنه أمام أستاذه الذى يعرفه جيداً، فهو الذى رباه على اللصوصية، ولما نطق «سعيد» أمام أستاذه نطق بكلمات لاتفيد فى الدفاع عن نفسه ، لأنه يعرف أنه عار تماماً أمام محاوره، وليس أمامه إلا أن يستعطفه ويرجو عفوه عنه .

أما «رءوف علوان» فإنه يمثل جانب القوة، وقوته مستمدة من إحسانه المزعوم إلى محاوره ، ولذا انطلق يحلل دخيلة نفسه، ويشرح أفكاره، كما لو كان يتحدث عن نفسه هو، فيقول فى البداية : إن غباءه أنساه أنه يتعامل مع أستاذه الذى يفهمه جيداً، وإنه كان ينتظره ومستعداً لاستقباله هذا الاستقبال المروع، ثم إنه يفهم جيداً حقيقة نظرة «سعيد» له، وأنه يعامله بوصفه واحداً من الأغنياء الذين كان «رءوف» يحمل عليهم فيما

(١) المرجع السابق ، ص ٣٣ : ٣٦ .

مضى .

وقد أجاد الكاتب التعبير بالحوار عن فزع «سعيد» من السجن حين هدده «رءوف» بتسليمه إلى «البوليس» ، فهو يخشى السجن الذى خرج منه منذ يوم واحد، وهو لم يخرج من السجن إلا ليقتص لنفسه ممن خانوه قبل ذلك،ومن زوجه التى طلقت منه، وتزوجت غيره فى أثناء سجنه وسطوه على أستاذه كان نوعا من القصاص جزاء تنكره له، وللمبادئ التى رباه عليها .

ويمكن أن نلمح – فى المحاورة أيضا – الدافع الذى حدا برءوف إلى العفو عن «سعيد»، رغم قسوته عليه فى حديثه معه، وأن هذا الدافع ربما يكون كامناً فى إحساسه بمسئوليته عن الحال التى آل إليها هذا اللص، وربما تكون خشيته من أن تلوكه ألسنة الناس – وهوالوجيه صاحب المنصب – لمعرفته بهذا الصعلوك .

ومما يؤخذ على هذه المحاورة أن الكاتب بدأها بالتهديد بإبلاغ «البوليس» على لسان الخدم، وكرر هذا التهديد فى أثنائها على لسان «رءوف» وكرره مرة ثالثة على لسان «رءوف» أيضا قبيل نهايتها، ولم نجد أثراً لهذا التهديد فى نفس «سعيد» إلا فى المرة الثالثة ، وظل صامتاً فى المرتين الأوليين، برغم أن الحديث عن «البوليس» والسجن كان يمثل بالنسبة إليه قمة الإحساس بالمرارة والإحباط على نحوما عرفنا من قبل .

ويمكن أن يؤخذ عليها – أيضا – انصراف الكاتب إلى وصف المكان ، كالباب الخشبى ذى الزخارف العربية .. إلى آخره، والمشمع اللامع الذى يغطى أرض البيت ، وأن الكاتب جعل هذا الوصف من خلال عينى «سعيد» وهو فى موقف نفسى حرج من هول المفاجأة التى يعانيها، ومن الطبعى أن من كان فى مثل موقفه لايلاحظ الأشياء من حوله بمثل هذه الدقة التى صورها الكاتب .

وأخيراً تبدو قسوة الكاتب على الشخصيتين واضحة فى هذه المحاورة وفى القصة عموماً، وذلك بوصفه واحداً من كتاب الواقعية الذين يحملون شخصياتهم بالمتناقضات، ويرهقونهم بالمظالم، فسعيد مهران مجرم أثيم ملئ بالحقد والكراهية، والحسد لكل الأغنياء، عازم على القصاص من المجتمع الذى يعيش فيه، حتى وإن كلفه ذلك حياته نفسها، "رءوف علوان" وصولى متنكر لكل المبادئ والمثل التى كان ينادى بها فى مرحلة الشباب، وهو يلبس لكل حال لبوسها بغض النظر عن إيمانه بما ينادى به، فالمهم عنده

أن يحافظ على ماحصله من جاه ومجد وثراء .

خامسا : وكما نجح «نجيب محفوظ» فى تقديم شخصياته بالحوار نجح الأستاذ «العقاد» أيضاً فى تقديم شخصية بطل قصته «ساره» وشخصية حبيبته فى أول لقاء بينهما وقد ذهب «همام» بطل القصة لزيارة أحد أصدقائه وكان يسكن عند إحدى الخائطات تسمى «ماريانا» فلمح امرأة اعجبته، فحدثها وكان يدعوها بالآنسة فغضبت، ثم استرضاها، وعرف منها قصة رجل مسن يبحث عن قرابته فلم يجد ، فاقترح «همام» أن ينشر .هذا الرجل إعلانا فى الصحف يبحث فيه عن وريث وسيجد كثيراً من الناس يدعون قرابته، وجعل «همام» قصة هذا الرجل تكأه لمواصلة حديثة مع «ساره» فدار بينهما الحوار التالى :(١)

- «وأنت ياسيدة . نعم أنت يا سيدة فى هذه المرة : لأية قرابه ترشحين نفسك إذا أعلن الرجل إعلانه ؟

فهزت رأسها تفكر ثم قالت : أوفرها نصيبا فى الميراث . قال : لاتكونين إلا زوجة.

قالت مامعناه : فأل الله ولا فألك، أى غرام غرامك بذكر الزواج والأزواج والزوجات؟

قال همام : لاتؤاخذينى أن ذكرت الزواج مرة أو مرتين ، فإننى لم أتزوج قط ولاخبره لى بهذا الجانب من مزعجات الدنيا .

قالت : أصحيح ؟ لقد أراحك الله فبأى جانب من مزعجات الدنيا أنت خبير ؟ .

فأسرع همام قائلا : لذلك شرح يطول .

قالت : يالك من منتقم .. على أنك تستطيع أن تطمئن كل الاطمئنان فإننى لا أكلفك عناء هذا الشرح، ولا أستطلع دخائل شأنك لست فضولية بحمد الله .

قال : وإذا كنت أنا فضوليا ؟

قال : إذن يختلف الأمر .

قال : كيف يختلف ؟

قالت : يلوح لى أنك كما وصفت نفسك ، أنت فضولى

قال : ليس مع كل الناس

---

(١) من قصة «سارة» للأستاذ عباس محمود العقاد ، ص ١٢٦ : ١٢٩ وانظر فى تحليل هذه القصة : قراءة فى الأدب العربى المعاصر، أد / فتحى محمد أبو عيسى ، محاضرات مكتوبة على الآله الكاتبة ١٩٧٩م .

قالت : تحيات وغزل ، وعما قريب : عيناك ووجنتاك وأهواك ولاأنساك إلى آخر هذا الموال المحفوظ .

قال : وبماذا عما قريب ؟ الآن! .

قالت : أنت عجول ، وأنت جرئ أيضا .

قال : إن وعدتنى أن أجنى للصبر ثمرة، فأنا أصبر من أيوب ، قوليهاكلمة واحدة وأنا لاتعجلك شيئا وأنصرف الآن .

قالت : وصاحبك الذى تسأل عنه ؟

قال : ها .. بلوح لى أننى أعجبتك، وأنك تستبقينى .

قالت : لولا أنك تمزح لقلت إنك مغرور غرورركم كلكم معشر الرجال، لاتتكلم الواحدة كلمتين مع واحد منكم حتى يحسبها مجنونة بهواه .

قال : أو يحسب أنه مجنون بهواها !

قالت : طيب والله لقد قطعنا شوطا بعيداً جداً فى نصف ساعة، ولا أدرى ماخطب ماريانا سامحها الله ؟ أين ذهبت وتركتنا ؟ ولعلك على اتفاق معها أن تهئ لنا هذا اللقاء ؟ ما فى ذلك عجب ، فهكذا تصنع الخائطات فيما يقال .

وسمعت ماريانا اسمها فعادت تهرول وتتساءل : ماذا تقولين عنى ياساره ؟ قال همام : إنهتهمك بأنك تدبرين عن عمد خلوة غرامية بين هذه الديكة وهذه الدجاج !

قالت ماريانا : أنا أعلم على الأقل أن الدجاج لاتحتاج إلى من يدبر لها الخلوة مع الديكة.

قالت الفتاة : قاتلك الله ياعجوز السوء، لماذا تتنصلين من التهمة ؟ أما كان الأولى أن تتمهلى لمحة لعلى كنت أنوى أن أشكرك على ماصنعت ؟

فطاش الفرح بهمام، وأوشك قلبه أن يفلت من نباطه، وانتشى نشوه خمسين كأساً فى رشفة واحدة ، وقال وهو يهجم على ماريانا : بل دعى لى أنا أن أشكرها، إننى أقبل وجنتيها، إننى ألثم فاها، وصنع مايقوله قبل أن تفيق ماريانا من دهشتها وفهقهتها، ومال إلى الفتاة قبل أن تدرى ماهو صانع قائلا : وأقبلك أنت أيضا إكراما لماريانا .. بهتت الفتاة وراحت تقول شيئاً لابد أن يقال : لقد آذانى شاربك الطويل ، وتم التعارف بالأسماء .

وهذا الحوار واحد من أنجح الحوارات فى الرواية، من حيث تقديمه لشخصيتى

البطل والبطلة، وهو أول لقاء بينهما إذ التقيا مصادفة ولايعرف أحدهما الآخر، وقد أعجب «همام» بحديث «سارة» فرغب في التعرف إليها وهذا هو الحدث الأساسي في المحاورة وقد نجح الكاتب في تقديمة بطريقة ميسرة .

المحاورة تبدأ إذا من الرغبة الشديدة التي استولت على «همام» في التعرف إلى «سارة» التي راقة بعض حديثها ، فجعل يستفزها حين دعاها بالآنسة، فآذاها أنه يستصغرها وأخبرته بأنها ربه بيت وأم، ثم أراد أن يسترضيها فدعاها بالسيدة، واتخذ من قصة الرجل المسن الذي يبحث عن قرابته سبيلا إلى الحديث معها .

وقد أجاد الكاتب في تصوير شخصية البطل "همام" إذ جعله لبقاً ذكياً في محاورته ، فهو يسأل المرأة عن نوع العلاقة التي ستدعيها إذا أعلن الرجل المسن إعلانه ، وهو سؤال – لابد محتاج إلى إجابة، ثم يخرج من إجابتها الغامضة إلى الحديث عن الزواج والأزواج والزوجات، وهو حديث يستهوى النساء ولايملل من الخوض فيه، وبذلك يضمن «همام» مواصلة الحوار مع المرأة وكان له ما أراد .

ومن سمات الحوار هنا أن كل كلمة فيه تحفز على الرد ، والرد في حاجة إلى تعليق،«وربما يتطلب التعليق قصة يطول شرحها – كما يقول همام – وكأن بعد هذا اللقاء لقاء آخر، يسمع فيها هذا الشرح الطويل ، وهكذا يتقدم الحدث في المحاورة ، وتقدم شخصية المرأة – أيضا – ونظرتها إلى الزواج الذي لم توفق فيه من قبل .

لقد أوشكت المحاورة أن تنتهي عندما أبدت المرأة عزوفها عن سماع شرح «همام» قصته لها متعللة بأنها ليست فضولية ، ولاتعني بأمور الآخرين، ولكن الكاتب سرعان ما استدرك الأمر، إذ جعل البطل يصف نفسه بالفضول، وأن لها أن تحكي له وليس عليها أن تسمع منه .

ثم نرى صفة من صفات هذه المرأة ، وهي الصراحة والجرأة في مخاطبة همام، وذلك في تأكيدها وصفه لنفسه، بالفضول ، وكانت صراحة المرأة داعياً لإظهار جرأة «همام» معها، إذ أخذ يلمح لها بإعجابه الذي مالبث أن تحول إلى كلمات غزل صريحة ، وهنا تزداد جرأة «سارة» حين تتهمة بالعجلة والجرأة، ويبدو أن جرأتها راقته فوعدها أن يكون أكثر صبراً من «أيوب» إذا أسمعته الكلمة التي ينتظرها منها.

استطاع الكاتب، في هذا الجزء من المحاورة – أن يصل بالحدث إلى مرحلة متقدمة، كما استطاع أن يصل بالشخصيتين معاً إلى نقطة متقدمة أيضا، لاعودة بعدها

إلى الوراء ، بدأت المحاورة وكلاهما لايعرف عن الآخر شيئاً، والآن ليس بينهما حاجز من الحواجز التى تمنع قلبيهما أن يتلاقيا ، لقد تعارفا إلى بعضهما بما يحملان من صفات ، أظهرها الجرأة والصراحة فى حديثهما معاً، وكان لدى كل منهما رغبة فى حديث صاحبه، وإن أبدت «سارة» تميز ذلك ، فربما أصابها – برغم جرأتها – شئ من طبيعة الأنثى حين تأبى الشئ وهى فيه راغبة .

ومما يؤكد ذلك أنه ذكرته بصاحبه – الذى جاء يسأل عنه – حين أبدى عزمه على الانصراف، إنها تستبقيه إذاً، وما كانت لتستبقية لولا أنه أعجبها، هكذا فهم «همام» من حديثها عن صاحبه، وقد صرح لها بما فهم، فاتهمته، بل اتهمت الرجال جمعيا بالغرور، لأنه حسبها مجنونة بهواه، لأنه تكلمت معه كلمتين، ولكن «همام» يرد على اعترافها بهواه باعترافه بالجنون فى هواها هو الآخر .

لكأن الكاتب أحس أن ما أمضاه البطلان معا من وقت يعد قصيراً جداً بالنسبة إلى ما أنجزاه من أحداث فأنطق البطلة بهذه العبارة الدالة الموحية : «طيب والله لقد قطعنا شوطاً بعيداً جداً فى نصف ساعة» وهى عبارة لها مدلولها الذكى، لأن نصف ساعة من التحاور – بين رجل وامرأة يلتقيان لأول مرة – وصل بالحدث إلى ذروته و هى الاعتراف بالتدله فى الحب، وما كان للحدث أن يصل إلى هذه المرحلة لولا مايتصف به الحبيبان من صراحة وجرأة فى محاورتهما، وهكذا يسير الحدث والشخصية معاً فى خطين متوازيين، يتقدم الحدث كلما أسفرت الشخصية عن بعض سماتها، وتتكشف الشخصية كلما تطور الحدث ونما .

ومما يبدو معه ذكاء الكاتب إنه جعل المشهد هنا بين «همام» و «سارة» وحدهما، وقد شاركتهما «ماريانا» الخائطة الفرنسية بداية المشهد، ثم انسلت خارجة(١) ، ولو قدر لها أن تبقى معهما ما تمت المحاورة على هذا النحو، لأن التحفظ فى الحديث سيكون السمة الغالبة على المتحاورين وخاصة من «سارة»، فطبيعة الموقف هى التى حددت طرفى المحاورة، وحددت ايضا اتجاه المتحاورين .

ويبدو ذكاء الكاتب – إيضا – فى هذا التغيير الذى أحدثه فى المشهد، والمتمثل فى استدعاء «ماريانا» إلى قلب المشهد ، لتكون طرفاً أساسياً من أطراف المحاورة ، ولتكون عنصراً رئيساً فى الحدث، وقد استدعاها الكاتب ببراعة ظاهرة، إذ جعلها تسمع

(١) انظر : قراءة فى الأدب العربى المعاصر ، ص : ١٧ .

إسمها على لسان «سارة» فتعود مهرولة سائلة عما تقوله «سارة» عنها .

قال همام : إنها تتهمك بأنك تديرين عن عمد خلوة غرامية بين هذه الديكة وهذه الدجاج ! قالت ماريانا : أنا أعلم على الأقل أن الدجاج لاتحتاج إلى من يدبر لها الخلوة مع الديكة .

ولننظر فى هاتين الجملتين لنرى ماأودع الكاتب فيهما من فطنته ! إنه يكنى عن خلوة «همام» بسارة بالخلوة بين الديكة والدجاج، ويقدم الديكة على الدجاج فى الجملة التى نطق بها «همام» ثم يقدم الدجاج على الديكة فى الجملة التى نطقت بها «ماريانا» والديكة والدجاج معادل موضوعى أو رمز لكل من «همام» و «سارة» والترتيب فى عبارة «همام» ترتيب طبعى، فالرجل هوالذى يطلب اللقاء أو يسعى إلى الخلوة، أما تقديم الدجاج – الرامز إلى سارة – فيفيد أن «ماريانا» تعلم من أمر «سارة» ما لايعلم «همام»، وأنها – إن شاءت – سعت إلى اللقاء هى، وإن شاءت دبرت الخلوة أيضا، ويوحى بهذا أن «ماريانا» تقول : «أنا أعلم على الأقل» فهى وحدها (على الأقل) تعلم إلى أى حد تصل جرأة «سارة» وصراحتها ، هذه الجرأة التى لاتمنعها من تدبير خلوة لو أرادت .

وإذا كان الأستاذ «العقاد» يحكى تجربته هو فى حب أمرأة بعينها(١)، فهو متأثر – فى صياغة هاتين الجملتين – بما عرفه من أخلاق حبيبته فيما يعد هذا اللقاء الأول الذى قدمه لنا فى هذه المحاورة الخصبة الممتعة .

وهكذا تشارك «ماريانا» بقوة فى المحاورة، وتحتل مكانها، فى قلب المشهد، يغطى وجه الشخصيتين، كانت كلمتها عن جرأة الدجاج مثيرة لسارة، فعنفتها على تنصلها من تهمة العمد فى تدبير الخلوة، وتمنت أن تكون تمهلت فى التنصل لعلها تستحق الشكر على ماصنعت، وهنا انزاح الستار عن وجه «سارة» فبدت ملامحه ، بل بدت ملامح نفسها من داخلها . وهنا إيضا انكشف وجه «همام» بالفعل لا بالكلام، إذ مالبث أن فاجأ «ماريانا» بقبلة دهشت لها، ثم انعطف نحو «سارة» بقبلة بهتت لها هى الأخرى، ثم جلس يتوقع مايكون منها فلم تزد على أن قالت : لقد أذانى شاربك الطويل وأخيراً تم التعارف بالأسماء .

ومن العجيب أن التعارف بالأسماء لم يتم إلا بعد أن صار كل من الحبيبين كتاباً مفتوحاً يقرأ فيه الآخر صفات محبوبه .

---

(١) انظر : قراءة فى الأدب العربى المعاصر ، ص ٤٢ ، ٤٣ .

وإذا كان الأستاذ «العقاد» يحكي تجربته الذاتية – كما يقول أستاذنا الدكتور فتحي أبو عيسى – فإنه في هذا الحوار يكشف عن صفة من أهم صفاته وهي الاعتزاز بالنفس والكبرياء، وقد بدت هذه الصفة في موضعين من المحاورة :

أولا : حين جعل «سارة» تكشف عن حبها «همام» قبل أن يصارحها هو بحبه لأن كبرياءه منعه أن يكون هو البادئ بالتصريح، إذ ربما تصده «سارة» بعد أن تعرف عنه قرب مأخذه .

ثانيا : حين جعل «سارة» تسبق إلى شكر «ماريانا» على تدبيرها الخلوة لهما، وإذا كان خاف صدود «سارة» عنه في الموضع الأول، فإنه استعاض عن تأخره في الموضع الثاني بتصوير الفرحة البالغة التي أصابت «هماما» وكأنه بهذه الفرحة التي بلغت حد الطيش يسترضيها ويعتذر بلطف عن تأخره في إظهار مشاعره التي توارت خلف كبريائه.

★★★

(٣)

كان القصص القرآني مصدر إلهام لبعض كتابنا المعاصرين يستمدون منه موضوعات قصصهم ومسرحياتهم وكان منهم من يحافظ على الخيوط الأساسية للقصة القرآنية التي استوحاها، فلا يخرج عن إطارها وكان منهم من يقدم دواعي الفن القصصي أو المسرحي على قداسة الموضوع القرآني، فيبيح لنفسه أن يغير ويبدل في جوهر القصة أحياناً بما يخرجها عن إطارها الذي رسمه "القرآن الكريم"، إما استجابة لدواعي الفن – كما قلت – وإما إشباعا للفضول البشري الذي يحس بالجوع إلى معرفة ماعمد الأسلوب القرآني إلى الاستغناء عنه في كثير من المواقف القصصية الغريبة التي قصها.

ومن المفيد هنا أن نعمد إلى محاورتين : إحداهما من القرآن الكريم، والثانية محاورة مسرحية مستوحاه من القصص القرآني ، ونضعهما متحاورتين ، لارغبة في الموازنة بينهما ، فذلك أبعد مايكون من القصد ولكن لنعرف طبيعة المحاورة فيهما؛ لأن تشابه الموقفين أو المشهدين القصصيين يجعل من اليسير التعرف إلى هذه الطبيعة فيهما، من حيث تقديم الشخصيات تقديما مناسباً صحيحاً .

أولا – قال – تعالى – في قصة «سليمان» عليه السلام :–

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) ﴾(١)

ثانياً : استوحى هذا المشهد الكاتب "توفيق الحكيم" فصور "سليمان" – عليه السلام– وسط أعوانه من الإنس والجن فكتب يقول :(٢)

«سليمان : تجول برأسى فكرة لوحققها أحدكم أعطيته كل مايتمنى ..

الجميع : مرنا نطع أيها الملك .

سليمان : أريد أن تجلس على عرشها .

الجميع : عرشها ؟

سليمان : نعم .. أيكم يأتينى الآن بعرشها قبل أن تأتى ؟

الجميع : عرشها ؟!

سليمان : نعم .. أيها الجن ؟ أيكم يستطيع ذلك ؟

(يتقدم العفريت صخر من بين صفوف الجن)

صخر : أنا أستطيع ...

سليمان : أنت يا صخر ؟

صخر : أنا آيتك به أيها الملك .

سليمان : متى ؟ متى ؟ ...

صخر : قبل أن ينقضى النهار .

سليمان : ولكنها آتيه بعد قليل .

صخر : إن المكان بعيد يا مولاى .. إنى سأحمله إليك من مملكة "سبأ "

سليمان : وردت لو أنها جلست على عرشها الآن عند قدومها .

---

(١) سورة النمل :آية ٣٨ : ٤٠ .

(٢) مسرحية : «سليمان الحكيم» توفيق الحكيم، ط دار مصر للطباعة، نشر مكتبة مصر، ص ٥٨ : ٦٣ .

(داهش الجنى يشق الطريق مسرعا إلى الصياد هامساً) .

الجنى : (هامسا) أنا آتيه به قبل أن يرتد إليه طرفه ...

الصياد : (هامسا) اسكت ...

سليمان : ماذا يقول عفريتك أيها الصياد ؟

الصياد : لاشئ يا مولاى ...

سليمان : كأنى به يتحدث عن عرش "بلقيس" ...

الصياد : أنه يمزح يامولاى ..

الجنى : أهذا وقت المزاح أيها الغبى ..

سليمان : حقا ليس هذا وقته ..فيم كان حديثك إذن ؟

الجنى : عرشها .. أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك !! .

سليمان : أأنت واثق من إمكان ذلك ؟!

الجنى : ضعنى موضع الامتحان .

سليمان : وإذا أخفقت .. أتعلم ما الجزاء ؟

الجنى : حبسى فى القمقم ، وإعدام الصياد .

الصياد : (كالمخاطب لنفسه) لاحول ولاقوة إلا بالله ! ..

سليمان : أسمعت أيها الصياد ؟

الصياد : سمعت .

سليمان : أنت كما تذكر مسئول عن تبعات فعاله .

الصياد : إذن فلابد يذهب أبداً .

الجنى : بل دعنى أيها الصياد أذهب .

الصياد : أيها الملك .. لاتدعه بربك يضيعنى .. هذا الفاجر المغرور !

الجنى : لاترتعد خوفاً أيها الأحمق، إنها فرصة طالما انتظرتها لإظهار عبقريتى

الصياد : بل هى فرصة لإظهار مصائبك التى ستحل على رأسى !

الجنى : (يلكم الصياد) تفاءل ..تفاءل .

الصياد : آه ... ليتنى لم أجد فى شبكتى قمقمك النحس ، وقنعت بالحمار النافق والزير المسكور !

الجنى : أيها الصياد الأحمق .. لاتقف عثرة فى سبيل طموحى .

الصياد : (فى عجب) متى جاء بهذا !

سليمان : صدق صاحبك الجنى إنها العبقرية .

الصياد : حمدك لك يارب السموات !

سليمان : إنه حقا لعمل عجيب !

(الصياد يفيق من ذهوله ويحس بالفخر)

هذه هى المحاورة التى استوحاها الكاتب من القصة القرآنية، وتوفيق الحكيم واحد من أبرع كتاب الفن فى أدبنا العربى الحديث ، وكان بطبيعته يميل إلى تفضيل الكتابة المسرحية ، التى تبدو فيها براعته فى إدارة الحوار(١) ، ولذا كنا ننتظر هنا حواراً خاليا من العيوب الفنية ، لكنا فوجئنا بغير ما توقعنا ، ولكن من الإنصاف أن نقول :إن معرفتنا بطبيعة الحوار فى القصة القرآنية هى التى دلتنا على معايب الحوار عند الكاتب نفسه، ولو لم تكن هذه المعانى مستوحاة من القرآن لخفيت هذه العيوب ، بل تلاشت كلية.

وأول ما يلاحظ أن ما قدمه الأسلوب القرآنى يمكن أن يندرج تحت مايسمى فى عالم الفن بالمشهد الممسرح،(٢) وهو المشهد الذى يتكون من حوار محض، أى حوار مع توجيهات مسرحية مختصرة، أو حوار مصحوب بتقرير سردى مركز للغاية وبالنظر إلى المشهد القرآنى .لانجد الأسلوب لجأ إلى التوجيهات المسرحية ، سوى مرة واحدة، هى قوله تعالى : (فلما رءاه مستقراً عنده) وهذا مايعرف فى التأليف المسرحى باختفاء روح المؤلف . وقد ساعد ذلك على إحياء المشهد القرآنى، وتقوية العرض .

وقد لجأ المؤلف الفنى إلى التوجيهات المسرحية فى المشهد إحدى وعشرين مرة، فكان يضع بين قوسين (...) مايريد إسداءه من توجيه ، هو فى المقام الأولى موجه إلى الممثل وإلى المخرج الذى يقوم بإخراج مسرحيته إن أريد إخراجها وتمثيلها .

ومن الملحوظ – أيضا – أن ماحكاه القرآن الكريم، فى ثلاث آيات فقط يحتل سته أسطر من سطور المصحف حكاه المؤلف فى ست صفحات من مسرحيته، وقد يكون

---

(١) انظر فجر القصة المصرية مع ست دراسات أخرى عن نفس المرحلة ، يحى حقى، ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية ١٩٨٧م ص ١١٧ : ١٣٤ .

و : تطوير الرواية العربية فى مصر ، ص : ٣٨١، ٣٨٣ .

(٢) انظر : مجلة فصول العدد ١١ ١٩٩٣م من مقال بعنوان : العناصر الجوهرية للمواقع السردية ، كارل فرانز ستانزل ، ترجمة : عباس التونسى ، ص ٦١ .

هذا التطويل، فى المشهد الفنى راجعاً إلى رغبة المؤلف فى إشباع غريزة الفضول البشرى، الذى لايعجبه أن تمر مثل هذه الأحداث الغريبة عليه مرور الطيف، وكانت هذه الرغبة مزلقاً خطيراً أوقع المؤلف فى تناقض واضح ، هذا التناقض يتصل بتصويره شخصية نبى الله "سليمان" – عليه السلام .

إن غرض المؤلف – من المسرحية هو إظهار القدرة الفائقة التى يمتلكها هذا الملك النبى ، ويمكن أن نعرف ذلك من خلال هذه الجمل المسرحية التى أوردها المؤلف على لسان "سليمان" فى حواره مع بلقيس :

سليمان : إنى عجزت عن نفعك ونفع نفسى : فى يدى القدرة الهائلة .. فى يدى الأعاجيب والعبقرية والمواهب .. فى يدى الكنوز، أنا الملك العظيم والنبى الحكيم .. أنا المسيطر على الجن والإنس .. والرجال والأموال .. ومع ذلك .. هل أجدى كل هذا شيئا أمام قلبك (١) .

وفى هذه المحاورة مايناقص غرض المؤلف فى إظهار قدرة «سليمان»؛ إذ يبدو «سليمان» فى بداية المحاورة – متردداً فى إصدار أمره بإحضار العرش، فهو يدير الفكرة فى رأسه أولاً، ثم إنه يغرى الحاضرين ويحفزهم على تنفيذ فكرته بأنه سيعطى من يحققها كل مايتمنى .

وجعل الكاتب جند «سليمان» يستغربون رغبته فى إحضار عرش "بلقيس" قبل أن تأتى حتى إنهم يتساءلون مرتين فى دهشة : عرشها؟! وكأنهم لايدركون مبلغ قوة «سليمان» .

وجعل الكاتب الإذن للجنى «داهش» يصدر من الصياد لا من «سليمان» نفسه ، وكأن «سليمان» لاسلطان له على «داهش» وإنما أمره بيد الصياد و «سليمان» يتبع مع الصياد أسلوب الترغيب والترهيب، فهو سيعاقب إذا أخفق الجنى، وسيثاب عن فوزه، الذى يشك فيه كثيراً، ولذا قال «سليمان» مخاطباً الجنى : «أأنت واثق من إمكان ذلك».

هذه كلها مظاهر ضعف رسم شخصية «سليمان» تتعارض مع الصورة الكلية التى أراد الكاتب رسمها من خلال المسرحية ولعل الكاتب وقع فى هذا التناقض بسبب رغبته

---

(١) مسرحية سليمان الحكيم ص : ١٤١

وانظر : مسرح توفيق الحكيم، د: محمد مندور ، ط: دار نهضة مصر لطبع والنشر، الطبعة الثالثة، دون تاريخ ،ص ٦٩: ٧٢ .

الجامحة فى نقص أطراف المشهد وإدخاله عناصر أخرى فى المحاورة لم يكن لها وجود فى المشهد القرآنى .

ولنتظر الآن فى الأسلوب القرآنى المعجز، لنرى هذا الإيجاز الذى لانظير له ولايمكن لبشر أن يضاهيه مهما أوتى من بلاغة وبيان، أورد الأسلوب القرآنى مقالة العفريت من الجن الذى عرض أن يأتى بالعرض قبل أن يقوم «سليمان» من مقامه، ثم أعقبها مباشرة بمقالة الذى عنده علم من الكتاب، وبين المقالتين فجوة فنية كبرى يستطيع القارئ أن يتمثلها وأن يملأها من خلال تصوراته عن الموقف الذى تحكيه الآيات لعل بلقيس كانت على وشك أن تأتى ، وسليمان يريد أن يفاجئها بوجود عرشها فى قصره ومن الطبعى أنه لم يقبل مقالة العفريت من الجن لأنه سيأتى بعد مجئ بلقيس، وبذلك لاتتحقق المفاجأة ، وربما استبطأ «سليمان» العفريت(١) ، فرفض ماعرضه عليه ولكن الأسلوب القرآنى لم يقل ذلك صراحة ،لأنه مفهوم من الموقف .

وبعد مقالة الذى عنده علم من الكتاب فجوة أخرى يمكن أن نفهمها – أيضا –، وأن نعرف مافيها من أحداث، وأن سليمان – عليه السلام – لم يبد اعتراضاً على ماقاله، بل أمره بتنفيذه ، ولكنها – على أيه حال – فجوة سريعة خاطفة ، لم تستغرق من الوقت إلا بمقدار مااستغرقه مجئ العرض على يدى الذى عنده علم من الكتاب .

والملحوظ – على محاورة الكاتب – أنه حاول أن يملأ هاتين الفجوتين، فأتى بهذا الحوار الطويل الذى يشبع رغبته ورغبة القراء فى معرفة التفاصيل التى ضرب الأسلوب القرانى عنها صفحاً .

والملحوظ – أخيراً أن هناك تزويراً واضحاً أحدثه الكاتب فى الحدث، إذ جعل مجئ العرض على يد العفريت، وهو مارفضه الأسلوب القرآنى لأن القرآن لايريد أن يجعل للجن قوة ولو كانوا من جن «سليمان» عليه السلام .

---

(١) انظر : تفسير القرطبى ، جـ٧ ، ص : ٤٩٢٠ ، ٤٩٢١

و : الكشاف ، جـ١ : ٣، ص ٣٦٧ .

و : التصوير الفنى فى القرآن ، ص ٢١٣ .

المبحث الثالث

الحوار والسرد فى القرآن الكريم والفن القصصى

سبق أن نبهت [١] إلى أن للقرآن الكريم طرائق شتى تحكم توزيع الحوار والسرد في القصص الوارد فيه، ولذا نجد السرد في أول القصة، وفي آخرها، وبين المشاهد. وكما نجد الحوار في مراحل الحدث المتعددة، نجده في مراحل التعرف ، والتصعيد، والعقدة والحل، وبخاصة في القصص المطول، ونبهت أيضا إلى أن السمة البارزة في أسلوب القصص القرآني هي أن السرد لا يأتي إلا حيث يجب أن يكون الأسلوب سرداً وصفياً، وكذلك الحوار لايأتي إلا حيث يفرض الموقف أن يكون الأسلوب حواراً ، فكل منهما لايغني عن الآخر في موضعه .

وتتضح هذه السمة بجلاء إذا تأملنا إحدى قصص القرآن المطولة، وفيها نركز الحديث على المواضع السردية، مع إشارات سريعة إلى بعض سمات الحوار ، وذلك لأن الحوار حظي بكثير من الدراسة في مواضع متعددة من هذا البحث

يقول تعالى في بداية قصة موسى :

﴿ **وهل أتىٰك حديث موسى إذ رءا ناراً فقال لأهله امكثوا إني ءانست ناراً لعلي ءاتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى فلما أتينها نودى يٰموسى** ﴾ [٢].

هذه هي الآيات الأولى من القصة، وفيها تتضح البداية السردية الخالصة في الآية الأولى، التي تبدأ بهذا الاستفهام الذي يلفت الأنظار ويستحوذ على اهتمام القارئ والسامع، وينبهه إلى أن أمر عجيباً سيحدث، أو سيطل من خلال هذه الآيات عن موسى، وقد تكررت هذه البداية السردية المعتمدة على أسلوب الاستفهام في مواضع أخرى من القصص القرآني، كقوله تعالى في بداية قصة "موسى" أيضا :﴿ **هل أتىٰك حديث موسى** ﴾ [٣] وقوله تعالى في قصة "داود" : ﴿ **وهل أتىٰك نبؤا الخصم إذ تسوروا المحراب** ﴾ [٤] وقوله تعالى في قصة ضيف" إبراهيم" :﴿ **هل أتىٰك حديث ضيف إبراهيم المكرمين** ﴾ [٥] وفي هذه المواضع يعقب الاستفهام حدث غريب وأمر عجيب ،

---

(١) انظر : المبحث الثالث من الباب الثاني

(٢) طه ، ٩ : ١١ .

(٣) النازعات ، ١٥ .

(٤) ص ، ٢١ ..

(٥) الذاريات ، ٢٤ .

وهذا الحدث الغريب هنا هو رؤية موسى النار، وغرابته نابعة من أن "موسى" فى وقت وفي مكان لايتوقع فيهما رؤية النار، ولذا قال : إنى آنست ناراً، وقد رجا من وراء ذلك أن ينتفع بشئ منها، أو يجد عندها من يهديه الطريق

ولاتكاد القصة تبدأ سرداً حتى تتحول إلى أسلوب الحوار، فى يسر وسهولة ولطف، وذلك فى حديث "موسى" لأهله، ثم يقطع هذا الحوار بجملة سردية تصف بداية ماحدث لموسى عندما أتى النار، وهو مفاجأته بحديث رب العزة إليه، وحواره معه .

وقد وقف البلاغيون كثيراً أمام إطالة موسى – عليه السلام – فى جواب ربه حين سأله عن العصا فقال موسى :﴿ **هى عصاى أتوكؤا عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى** ﴾ (١) وقالوا إن «موسى» أراد أن يطيل المقام مع رب العزة أنساً بلذة الحديث معه (٢)، وهذه حقيقة واضحة فى كلام «موسى» ، غير أن التعليل لذلك بالأنس بالحديث مع رب العزة وحده ربما يقطع الآية من سياقها ، ولنا أن نلحظ أن حديث «موسى» الذى وقع فى آية واحدة قد سبقه حديث أطول منه مع رب العزة جاء فى ست آيات، آخر آية منها تحمل السؤال عما فى يمين «موسى» ﴿ **وما تلك بيمينك يٰموسى** ﴾ فالله سبحانه يوحى لموسى بالرغبة فى مواصلة الحوار، بدليل هذا السؤال، ويريد أن يستل الخوف من نفسه فى هذا الموقف العجيب الذى كان مفاجأة لموسى ، ولذا جاء رد «موسى» مسهباً، ملائماً للموقف أيضاً .

ولنا أن نلحظ – أيضا – أن رد «موسى» المطول عن العصا ليس هو الموضع الوحيد الذى وقع فيه إسهاب من «موسى» ، بل هنا موضع آخر أكثر إسهاباً وأشد طولاً، فموسى بعد أن رأى من أمر العصا هذا العجب العجاب، وعرف أن ذلك بعض آيات الله ازداد رجاؤه فى كرم ربه فجاء حديثه بعد ذك أكثر طولاً من حديثه عن العصا :﴿ **قال رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى** ﴾ إلى آخر الآيات .

كما جاء حديث رب العزة إليه بعد ذلك مسهباً – أيضا – إذ أجابه إلى ما دعابه ، ثم ذكره بما امتن به عليه فى صباه المبكر، يوم ولد فى جو مشحون بالخوف والحذرمن

(١) طه، ٨١ .

(٢) انظر مثلا : الكشاف ، جـ٣ ، ص ٥٧، ٥٨ .

«فرعون» وآله، ثم ساقه الله – سبحانه – ليربى فى بيت عدوه «فرعون» ثم نجاته من الغم بعد أن قتل المصرى، وفراره إلى مدين، حتى جاء إلى هذا الموقف العظيم الذى يخاطب فيه رب العزة ويخاطبه .

ولعل المراد من ذلك كله هو اطمئنان «موسي» إلى عناية الله التى ستصحبه فى مهمته الشاقة التى كلف بها فى أثناء المحاورة، وهى ذهابه إلى «فرعون»، وهكذا يتبين أن طبيعة الموقف القصصى هى السر الأول فى بناء هذا الحوار المتصف بالإسهاب من طرفيه كليهما (١) .

الموضع السردى الثانى فى هذه القصة يأتى فى وسط حوار «موسى» مع رب العزة بشأن العصا :﴿ **قال ألقها يٰموسى . فألقٰها فإذا هى حية تسعىٰ قال خذها ولاتخف سنعيدها سيرتها الأولى** ﴾ (٢).

إن «موسى» – عليه السلام – أخبرنا بما يعرفه عن عصاه، وبين مهامها لديه من وجهة نظره هو ، تلك المهام التي تتلخص فى اتكائه عليها، وسوقه غنمه بها، بالإضافة إلى مآرب أخرى لم يبينها، ثم يتلقى أمر الله – سبحانه – بأن يلقى هذه العصا، وهو لايدرى أن وراء هذا الإلقاء أمراً عجيبا وحدثاً مبهراً يكشف عن مهمة أخرى من مهام العصا، ﴿ **فألقٰها فإذا هى حية تسعى** ﴾ هذه الجملة السردية القصيرة جاءت بين جمل حوارية متعاقبة لتؤدى دوراً عظيماً لم يكن الحوار ينهض به، والمتلقى للقصة هو المعنى بهذه الجملة السردية، لأن «موسى» قد شاهد الحدث الجليل الذى تصفه ، شاهد تحول العصا إلى حيه عظيمة تسعى على الأرض فى خفة ونشاط، فخاف وولى مدبراً، والمتلقى حين يقرأ هذا الوصف يحس مثل ما أحسه «موسى»، ويفاجأ مثل ما فوجئ، فالأسلوب القرآنى أراد أن ينقل الحدث، وينقل صورة الموقف، وما صاحبه من مشاعر التوجس والخوف، فصاغ ذلك كله فى هذه الجملة السردية، وقد أفادت الفاء الأولى سرعة الإلقاء، وأفادت الفاء الثانية سرعة تحول العصا إلى حية، وأنها ليست حية فحسب، ليست جامدة فى مكانها، ولكنها حية تسعى، فيها خصائص الحية جميعها .

---

(١) انظر : فى ظلال القرآن ، جـ٤، ص ٢٣٣٣، ٢٣٣٤ .

(٢) طه، ١٩ : ٢١ .

وفى بعض المواضع السردية من هذه القصة نجد خصيصة قرآنية لانلمح لها أثراً في القصص البشرى، وتتمثل هذه الخصيصة فى أن هناك عناصر غيبية تتدخل فى الحوار ، فتقطع ما بين المتحاورين، تأخذ الموقف منهم، لتدلى برأيها فيما يتحاورون فيه، لتقيم لأحد الطرفين حجته أو تقوم منطقه ، أو تقوى موقفه (١).

نقرأ قول الله تعالى : ﴿ **قال فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربى فى كتٰب لايضل ربى ولاينسى . الذى جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعٰمكم إن فى ذلك لأيٰت لأولى النهى . منها خلقنٰكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ، ولقد أريـنٰه ءايتنا كلها فكذب وأبى قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يٰموسى** ﴾(٢).

فنرى فى بدايتها حواراً بين «موسى» و «فرعون» وهو حوار يحمل كثيراً من الجدل والتحدى، ففرعون يسأل عن القرون الأولى ما بالها؟ ولا يكاد «موسى» يعطى الجواب الذى رآه حتى ينطق عنه الحق – سبحانه – بما يكمل الجواب على أتم صورة وأفضل بيان.(٣)

وهذا عمل لايكون فى غير القرآن ، «ولايقع في قصص غير قصص القرآن، حيث تقوم قدرة الله وتدبيره على كل شئ، وحيث لاتقع حركة، أو تكون همسة فى مواقف القصة إلا علي هذا التقدير، ومن هنا كان تقليب الأمور فيها على هذا الوجه أمراً متوقعاً، غير منكر ولامستغرب، على حين أن ذلك فى العمل الأدبى – الذى يخلى فيه الكاتب مكانه للمتحاورين – يعد تطفلا وتمحلاً لاتدعو إليه ضرورة ،، ولايحتمله الموقف، أو يتقبله الحال»(٤).

---

(١) انظر : القصص القرآنى فى منطوقه، ومفهومه ص ١٣٦ .

(٢) طه ، ٥١ : ٥٧ .

(٣) يرى القرطبى أن بداية كلام الله تعالى قوله : (فأخرجنا به أزواجا) الخ ، انظر : تفسير القرطبى، جـ٦ ، ص : ٤٢٤٦ .

ويرى صاحب الظلال أن البداية قوله تعالى : (منها خلقناكم .) الخ، انظر : فى ظلال القرآن ، جـ٤، ص ٢٣٣٩

(٤) القصص القرآنى فى منطوقهومفهومه، ص ١٣٦ ..

وفى القصة موضع آخر يبرز هذه الخصيصة ويوضحها، وذلك قوله تعالى :﴿ قالوا يٰموسىٰ إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى ، قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ، فأوجس فى نفسه خيفة موسى ، قلنا لاتخف إنك أنت الأعلى وألق ما فى يمينك تلقف ماصنعوا إنما صنعوا كيد سٰحر ولايفلح الساحر حيث أتى فألقى السحرة سجدا قالوا ءامنا برب هٰرون وموسى ﴾(١)

والحوار هنا يسير فى طريقه المقدر له، ومعه بعض الجمل السردية التى لاتخرج أسلوب القصة عن طبيعته . يفاجأ المتلقى بتدخل عنصر القدرة الإلهية القائمة خلف الأحداث والأشخاص، تتدخل لتصحح المسار وتلقى فى روع «موسى» أنه الأقوى، وأنه الأعلى، وأن ما طاف بنفسه من خوف لامكان له فى هذا الموقف الحرج .

ومن المعجب أن كلام الله تعالى إلى «موسى» ورد مسبوقا بالفعل (قلنا) الذى يدل على الحوار ، وإسناد الفعل إلى ضمير المتكلم المعظم نفسه، يدل على هذه القوة العلية، التى أدركت «موسى» فى هذا الوقت العصيب، «وقد سمع «موسى كلام ربه بأذنه أو بقلبه فواجه الموقف ثابتاً بعد أن رد إليه هذا الحديث ما غرب عن عزمه وقوته

إن القصص البشرى ليس فيه مكان لمثل هذا الأسلوب من القول ، وإذا حدث فإنه يعد شيئاً غريبا، أو خطأ وقع » (٢).

وآخر موقع سردى نقف معه فى هذه القصة قوله تعالى :

﴿ فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى قال لهم موسى ويلكم لاتفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى فتنٰزعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى قالوا إن هذان لسٰحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى فأجمعوا كيدكم ثم أئتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى ، قالوا يٰموسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى ﴾ (٣)

---

(١) طه ، ٦٥ : ٧٠ .

(٢) القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه ، ص : ١٣٧ .

(٣) طه . ٦٠ : ٦٥

إن الحوار فى هذه القصة منطلق انطلاق السهم إلى الرمية، لايقف فى سبيل تقدمه شئ، ولذا نلحظ على جمل السرد التى تعترض هذا الحوار أنها قصيرة وسريعة ، لايكاد القارئ يلحظها رغم أهميتها فى تصوير الموقف ، وإيضاح جوانب المشهد، كما نلحظ أن الوصف الذى يأتى وسط الحوار يلبس أحياناً ثوب الحوار أيضا، كما مر في الموضع السابق من قوله تعالى :

﴿ فأوجس فى نفسه خيفةً موسى ، قلنا لاتخف إنك أنت الأعلى ﴾ الخ .وكما نرى فى هذا الموضع، فإن الأسلوب القرآنى ماكاد يقطع الحوار بين «موسى» والسحرة بقوله ﴿ فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى ﴾حتى أخذ الأسلوب يحكى مقالة السحرة فيما بينهم، والتى جاءت فى صورة حوار جانبى، إذ أخذ السحرة جانباً بعيداً عن «موسى» يديرون فيه حوارهم أو نجواهم، التى لا يريدون لموسى أن يسمعها، وإن كنا نحن النظارة سمعناها، وعند ما انتهت المسارة والحوار الجانبى استغنى الأسلوب عن الوصف، وعاد إلى الحوار مرة أخرى ، ومن بديع الحرفة القصصية هنا أن الأسلوب اكتفى – فى وصف عودة السحرة إلى قلب المشهد مع «موسى – بكلمة (قالوا) التى جاء بعدها النداء (ياموسى) لنعلم أنهم قد التفتوا إليه منفذين مااتفقوا عيه سراً، وبهذا جعل السياق كلامهم يصف الحركة الواقعة فى أثناء المشهد دون حاجة إلى وصف ذلك بسرد بقطع الحوار، اللهم إلا كلمة (قالوا) وهى ضرورية فى أسلوب القصة، كما أنها تعد أقل قدر من السرد فى القص، لأنها تعدل – فقط – أسماء الأشخاص التى توضع بإزاء أقوالهم التى تحرك الحدث فى النص المسرحى (١)

وهكذا نرى الدقة البالغة التي يبنى عليها أسلوب السرد فى القصة القرآنية، ونرى – أيضا – الإعجاز فى المزاوجة بين السرد والحوار، على نحو يتضاءل أمامه ألوان التأليف البشرى، الذى لايخلو من الثرثرة والهذر حتى عند أعظم الكتاب براعة فى الكتابة القصصية .

وللوقوف على طريقة الكتاب فى استخدام السرد القصصى ، وأسلوبهم فى المزاوجة بين السرد والحوار نقف أمام مشهد قصصى من إحدى القصص الأدبية يقول

(١) لمزيد من شرح هذا الأسلوب القصصى : انظر : بدائع الإضمار القصصى فى القرآن الكريم، ص : ١٩١ ومابعدها

الكاتب[١] فى بداية مشهد جديد :

قال عيسى :

– صدر قرار بنقلى من وظيفة مدير مكتب الوزير إلى المحفوظات :

رفعت إليه أمه وجهاً نحيلاً يشبه وجهه لدرجة كبيرة وبخاصة فى هيئته المثلثة ولكنه كثير الغضون، وللشيخوخة فى عينيه وفمه ولحيته معاقل، ثم قالت :

– ليست المرة الأولى، لاتحزن، ستعود إلى ماكنت وأحسن، وربنا يصلح الحال

كانا يقعدان فى حجرة الجلوس ذات الشرفة المطلة على شارع حليم بالدقى، وكان زجاج الشرفة العريض مغلقا دفعا للبرد، وأغصان صفصافة تصعد وتهبط خلفه فى حركة وانية وامتدت وراء ذلك السحب وتكاثفت وتجهمت كالسياسة . وكانت الوازارة قد أقيلت فأقصته الوزارة الجديدة فيمن أقصت من موظفين عن الوظائف الرئيسية وبخاصة من كانت لهم علاقة بمعركة القنال، وتعد هذه الأحداث عادية أو شبه عادية عند الأم لكثرة حدوثها، وهى لاتصدمها صدمة اليأس لأنها ألفت أن يعقب المد جزر فى صالح ابنها المحبوب، ورغم شيخوختها وأميتها فهى تتابع الحياة السياسية وتدرك من أمورها مايسمح به موقف عيسى ومايؤثر فى حياته جذباً ودفعاً، هى به فخور وتؤمن بكل كلمة يقولها وتعجب بما يحقق من نجاح فاق الخيال، خيالها وخيال المرحوم والده الذى عاش ومات موظفاً صغيراً مغموراً . عيسى يشق طريقه رغم شلالات السياسة وزوابعها يغطس أحياناً حتى يظن به الغرق ولكنه يقب محرزا درجة جديدة من التفوق وهذا المسكن الجميل بالدقى أية على نجاحه وصموده ، وأثاثه متعة تبهر البصر، وفى مناسبات غير نادرة يشرفه بالزيارة باشوات ووزراء، وتتساءل المرأة وأصابعها المتحجرة تقدس الله على حبات السبحة الحجازية : أما لهذه الحال من نهاية تستقر فيها على خير ؟! وهل هى وليدة ظروف معقدة عسيرة على الفهم أو هى إصابات نافذة لأعين شريرة ؟! .

وقال عيسى فى فتور :

---

(١) السمان والشريف نجيب محفوظ ، ط: دار مصر للطباعة، نشر : مكتبة مصر، دون تاريخ ، ص : ١٧ : ٢٥ وقد حرصت على إثبات المشهد شبه كامل ليكون وجوده بين دفتى هذا البحث شاهد صدق على مانقول فى دراسته ، ولأن الاقتصار على بعضه حيف للكاتب .

– من العجيب أننا لانكاد نستقر فى الحكم عاماً حتى يقذف بنا خارجه أربعا، ونحن نحن الحكام الشرعيون ولاحكام شرعيين غيرنا فى البلد .

فقالت بإيمان وإصرار :

– المهم الصحة والعافية

فابتسم ابتسامة ساخرة مريرة ولكنه لم يشأ أن يعلن عن مرارته وعلى العكس من ذلك قال بلهجة ذات دلالة :

– المهم أن أنتهز فرصة العزلة لأعنى بشئونى الخاصة .

فاختلجت عيناها الكليلتان فى اهتمام وقالت بارتياح صاف لأول مرة .

– نعم تعجبنى، أن لك أن تتزوج، فتاتك فى الانتظار وأبوها العظيم لم يضن لموافقته

فضحك متسائلاً :

– ألم يكن الأجمل أن أتزوج وأنا متمتع بالجاه والسلطان ؟

فابتسمت عن طاقم لاح بريقه كيا سمينة منسية فى حديقة اقتلعت أشجارها وقالت:

– مركزك كبير، وهم يعلمون أنك مرشح لأعلى المناصب، وعلى بك سليمان يفهم الأمور جيداً، ثم إنه قريبك ، وكان يحب المرحوم والدك أكثر من أى» شئ فى العالم .

هذا كله حق . على بك سليمان ابن خال والده وأسرته تمثل الغصن المورق من أسرته الجرداء، غنى من سلالة غنية ومستشار خطير فضلاً عن أنه من رجال السرآء وعندما يدعم نفسه بمصاهرته سيجد فى مرفئه استقراراً إذا عصفت عواصف السياسة بقاربه .. وسلوى فتاة ممتازة حقا ... وأم سلوى امرأة ممتازة أيضاً وهى ميالة للمحافظة على ندرة ذلك فى طبقتها .. وطاب له أن يستحضر صورة سلوى بجمالها البلقانى المغرى كالكريم شانتى واعتدها منة من الله أنها ليست من بنات النوادى ولا من معتنقات فلسفة العصر .

وقال لوالدته :

– تصورى أننى لم أكن رأيتها منذ الصغر :

– هذا تقصير منك، وانهماكك فى العمل ليس بالعذر الكافى فمن كان له قريب كعلى بك

سليمان وجب عليه أن يوثق صلته به

– كنت ألقاه فى الخارج، ولم أكن أفكر فى الزواج .

وهو قد طلب يدها من والدها وليس له عن صورتها إلا فكرة غامضة غاية الغموض ولكنه وجدها آية، وسرعان ما أحبهامن كل قلبه، وتهيأ لاختيار الألفاظ المناسبة للإفصاح عن عواطفه الجديدة أمام أمه ولكن دخلت أم شلبى لتعلن عن حضور حسن ابن عمه لزيارته .. وقدم حسن على الدباغ منطلق الأسارير . ربعة متين البنيان، مربع الرأس عميق الملامح، عريض الذقن، ويمتاز بعينين صافيتين ذكيتين، وأنف حاد مدبب قبل يد أمرأة عمه وصافح عيسى بحرارة ثم جلس إلى جانبه وهو يطلب الشاى .. وسألته أم عيسى :

– كيف حالكم ؟

– بخير ، أمى بخير وأختى بخير ..

ازداد عيسى نفوراً عند ذكر الأخت لالشئ كريه فيها ولكن لكونها أخت هذا الغريم والمنافس القديم كانا متنافسين ومتلازمين وتبادلا عواطف حادة مؤلمة ... ولكنه كان يضمر له إعجاباً رغم نفوره منه لقوة شخصيته ووفرة ذكائه وقال حسن بأريحية :

– سمعت عن نقلك إلى المحفوظات ، لاتحزن أنت رجل مخلوق للشدائد . قد خلت الأم فى الحديث قائلة بحماس :

– لاداعى للحزن، هذا ماأقوله دائماً، وهؤلاء الناس لماذا يتركون الكبار وينتقمون من الأبناء ؟! .

– وتعقد عيسى بمواساة حسن فقال باعتزاز :

– نحن قوم اعتدنا السجن والضرب فما أهون عقاب اليوم .

ومضى حسن يرشف الشاى فى سعادة وهو يبتسم ويقول بلهجة تنذر بالهجوم .

– أنتم تسجنون وتضربون حقاً ولكن الآخرين يتاجرون .

وأدرك عيسى من يعنيهم بقوله «الآخرين» فتحفز لمعركة ،غادرت الأم الحجرة لتصلى المغرب وقال عيسى منذراً :

– أنت تعلم بمنزلة الآخرين فى نفسى فحذار ! .

فقال حسن بتحد باسم :

- إن كل شئ ينهار بسرعة ، ومن الخير أن ندعه ينهار، هذا القديم كله يجب أن يجتث من جذوره .

فتساءل عيسى فى حدة :

- وقضيتنا الوطنية من يبقى لها ؟

- أتظن أن هؤلاء الشيوخ المخرفين الفاسدين هم الذين سيحلونها ؟

- أنت لاتستطيع أن تراهم على حقيقتهم ..

- الحقيقة أننى أراهم على حقيقتهم ..

- أنت تردد باستمرار أقوال الصحف المعادية

فقال بثقة مثيرة للحنق

- أنا لا أومن إلا بالواقع وعلى الشباب أن يعتمد على نفسه !

فدارى عيسى حنقه قائلا

- دعوة هدم خطيرة، لولا الخونة لأوقفنا الملك عند حدوده الدستورية ولحققنا الاستقلال .

أتى حسن على القدح ، وابتسم بغية تلطيف الجو .. وترامى إليهما صوت الأم وهى تكبر، وخفف عيسى من حدته مراعاة للضيافة ولم تكن قوة لتستطيع أن تحمله على التسليم بما يقوله غريمه .. ثم سأل بفتور :

- ماذا تريدون ؟

- دماً جديداً طاهراً ..

- من أين ؟

فضحك عن أسنان لؤلؤية صارخة بالصحة والعافية وقال :

- البلد لم يمت بعد ..

فتساءل عيسى بحدة :

- دلنى على حزب يستحق الثقة غير حزبنا ؟

رماه بنظرة ساخرة دون أن ينبس علا صوت العجوز فى الخارج بسيل من الأدعية فعاد عيسى يتساءل :

– ما العمل إذن ؟

– نؤيد الشيطان إذا تطوع لإنقاذ السفينة ...

– لكن الشيطان لايتطوع لإنقاذ شئ ..

ورجعت الأم وهى تقول :

– ألا يوجد حديث آخر ؟

بدا خداها محتقنين وشبه متورمين واتخذت مجلسها السابق وهى تسأل حسن :

وأنت متى تتزوج ؟

وتذكر عيسى تقدمه الجرئ لخطبة سلوى فاشتد امتعاضه فقير لكنه جرئ وطمع ولاشك فى مالها كآخر وسيلة لانتشاله من متاعبه، أما حسن فأجاب قائلا :

– الأحداث الهامة تقع فجأة وبلا سابق إنذار .

– وأمك متى نراها ؟

– آه مسكنكم بعيد جداً عن روض الفرج ولكنها ستجئ حتماً .

ثم سأل عيسى وهو يتهيأ للقيام :

– أين تذهب هذا المساء ؟

فأجاب بتحد ولكن فى هدوء :

– إلى النادى .

فنهض حسن وهو يقول :

– أستودعك الله ... وإلى اللقاء

وكاتب هذا المشهد واحد من الكتاب الذين يجمعون بين الفائدة والمتعة(١)، أى أن الأسلوب عنده ذو وظيفتين : أولاهما، أن يكون مفيداً فى تطور البناء الدرامى فى القصة، وثانيهما – أن يكون رشيقاً جميل العبارة يمتع القارئ ويجذبه إليه . وهو «يتمتع بكثير من مزايا السرد والوصف(٢)»، كما يتمتع بالقدرة على «إتقان الحوار، وفهم مراميه النفسية، ووسائله فى استبطان النفس، وإضاءة جوانب الأحداث، والإسهام في البناء

---

(١) انظر : فن القصة ، د : محمد يوسف نجم ، ص : ١١٧ .

(٢) ثلاثية نجيب محفوظ بقلم المستشرق الأب ج . جوميه، ترجمة د: نظمى لوقا ط : دار مصر للطباعة ، نشر: مكتبة مصر، دون تاريخ، ص: ٣

القصصي، سواء مايتصل بالقضاء على رتابة السرد أو تفسير الأحداث» (١).

ومن مزايا السرد في هذا المشهد القصصي أن الكاتب يحرص على بعض التفاصيل المعبرة التي تساعد على رسم الجو الفني في المشهد، ومن ذلك تتبعه قدح الشاي الذي طلبه حسن عند قدومه مباشرة، ثم جعل الكاتب قدح الشاي مرتبطاً بحال حسن في محاورته مع عيسى، فلفتنا إليه مرة في أثناء المحاورة عند ما قال : ومضى حسن يرشف الشاي في سعادة وهو يبتسم .

ثم لفتنا إليه مرة أخرى :

أتى حسن على القدح وابتسم بغية تلطيف الجو

وقد جعل الكاتب من هذا الشئ البسيط – قدح الشاي – ميزانا يوزن به موقف المتحاورين، فإذا ارتفع القدح زادت ابتسامة «حسن» وزادت حدة «عيسى» في حواره معه وهذا يوحي أن «حسن» أهدأ أعصابا من محاوره .

ومن هذه التفاصيل المفيدة أيضا حرصه على أن تبقى الأم في المشهد رغم خروجها في أثناء المحاورة لصلاة المغرب، وذلك من خلال صوتها وهي تكبر في الصلاة.. ثم رجوعها قبيل النهاية لكي تساعد على إنهاء هذه المحاورة العنيفة بينهما

وأغلب الظن أن حرص الكاتب على مثل هذه التفاصيل الدقيقة نابع من تمرسه بكتابة فن «السيناريو» السينمائي، إذ إن هذا النوع من الكتابة الفنية يتطلب الإلمام بكثير من التفصيلات اللازمة لوصف شخص، أو مكان ، أو زمان، أو أي شئ مما يتصل بالمشهد المصور(٢) .

وقد وقفنا من قبل على طريقة الأسلوب القرآني في الدلالة على حدوث تغير في المشهد ، وذلك من خلال وصف حركة السحرة في قصة موسى وانتحائهم جانباً للنجوى فيما بينهم ثم عودتهم إلى المشهد ، وأن الأسلوب القرآني عبر عن عودتهم بقوله (قالوا) دون أي وصف سردي آخر، وهنا نلحظ وصف الكاتب لعودة الأم إلى المشهد مع ابنها

---

(١) قضايا الفن القصصي ، ص : ٣٧ .

(٢) انظر : السيناريو السينمائي الفن والتجربة ، ص ٦٥ وما بعدها ، ص ١٠٣

و : سنياريو فيلم «العزيمة» تأليف : كمال سليم ، دراسة وإعداد : محمد السيد شوشة ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥م، ص ٣٥ : ٤٥ ، ص : ٥٣ ومابعدها ،

عيسى وحسن بقوله :

ورجعت الأم وهى تقول : ... الخ فهل كان يمكن للكاتب أن يكتفى بلفظ القول للدلالة على عودة الأم تأسياً بأسلوب القرآن الكريم ؟

والإجابة على هذا السؤال تستدعى النظر فى أسلوب الحرفة القصصية فى التعبير ليظهر لنا أن القرآن الكريم لم يول المكان الذى اجتمع فيه "موسى" والسحرة للمباراة أهمية بمعنى أنه لم يصفه، وإن كان القارئ يعلم طبيعة المكان ضمنا، وأنه مكان يتسع لعدد كبير من السحرة البارعين اجتمعوا من مدائن مصر، كما يتسع لأعداد أخرى من المشاهدين حشروا إلى ساحة المكان حسب منطوق الآية الكريمة (وأن يحشر الناس ضحى)، من هذا نعلم أن المكان فى غاية الاتساع، ومن هنا لم يكن للسحرة أن يتركوا هذا المكان الواسع الرحيب لكى يتناجوا فى شأن الخلاف الذى شجر بينهم بعد أن سمعوا موعظة موسى، وإنما الجائز أنهم انتحوا جانبا من المكان بحيث لم يخرجوا من المشهد كلية بل كانوا فى جانب منه، ولذا اكتفى الأسلوب القرآنى بكلمة (قالوا) للدلالة على رجوعهم إلى موسى .

أما الكاتب فقد حدد المكان الذى يدور فيه الحوار بأنه حجرة الجلوس ولذا اضطر إلى وصف مغادرة الأم المشهد بقوله : وغادرت الأم الحجرة لتصلى المغرب، واضطر – أيضا – إلى وصف رجوعها على نحو صريح ، لأنها فى الحقيقة كانت خارج المشهد تماماً وإن كان صوتها يقتحم المكان وهى تكبر فى الصلاة .

إن هذا الاستطراد فى الحديث عن المشهدين ليس نوعاً من الموازنة بين كلام الله تعالى وكلام البشر، تعالى الله عن ذلك ، ولكن الغرض بيان أن طبيعة المشهد – مكاناً وزماناً – هى التى تملى طريقة التعبير

وعلى الرغم من تمكن الكاتب من أسلوب السرد يمكن أن يؤخذ عليه ميله إلى الوصف الطويل الذى يمكن أن يسبب الرتابة فى الأسلوب، وذلك واضح فى غير موضع من النص، وكذلك ميله إلى البسط فى وصف الملامح الخارجية للشخصية ، كما فعل مع شخصية حسن الدباغ، كما نقرأ أوصاف : الأصابع المتحجرة ... السبحة الحجازية، الجمال البلقانى .. الأسنان اللؤلؤية الصارخة بالصحة والعافية ، والسبب فى ذلك هو ولع

الكاتب بالوصف وغرامه به .

والوصف إذا ورد فى القصة بغير داع غير استعراض قد رات الكاتب ومواهبه أى جاء بلا ضرورة تستدعى وجوده فى العمل الأدبى، فإنه لايحمد للكاتب ، لأنه يعترض سبيل الحدث ويعطله عن التقدم ، وهذا مايسمى فى النقد القصصى بالرقعة الأرجوانية.(١)

ومن العجيب حقا أن فى القرآن الكريم بعض المشاهد الوصفية التى تتخلل القصص، «ولكن الوصف فيها مما يطرب الآذان، ويهز الوجدان، وتهفوله القلوب أو تقشعر من هول ماوصف، أو تأسى للحال البائسة ، ولذا فإن هذه المشاهد الوصفية تأتى محملة بأنواع شتى من المؤثرات على النفس» (٢) ومن هذه المشاهد قول الله تعالى فى شأن "موسى" مع "فرعون" :

﴿ فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون فأسر بعبادى ليلا إنكم متبعون واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون كم تركوا من جنٰت وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فكهين كذلك وأورثناها قوما ءاخرين فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴾(٣) .

ومن هنا نعلم أن مايعاب فى القصص البشرى قد يكون بعينه مظهراً من مظاهر الجمال الأسلوبى والفنى فى القصص القرآنى ، فإن النفس تقف أمام مثل هذه الأوصاف القرآنية موقف الخشوع والخضوع .

وبالنظر فى النص الأدبى يتضح لنا أن الكاتب أجاد الدخول فى المشهد إذ جعل البداية حواراً بين عيسى الدباغ وأمه، وجعل عيسى ينطق بالكلمات الأولى دون أن يعرف القارئ الطرف الآخر فى الحوار، وأولى كلمات عيسى تحمل حدثاً مهما، قد يكون له تأثير على حياته كلها فى المستقبل - وهو نقله من وظيفة مدير مكتب الوزير إلى

---

(١) انظر : فن القصة القصيرة ، ص ١١٠ .

و : بدائع الإضمار القصصى فى القرآن الكريم ، ص : ٨٨ .

(٢) المرجع السابق ص : ٨٩

(٣) الدخان : ٢٢: ٢٩ .

المحفوظات وقد فاجأنا الكاتب بهذا الحدث، إذ لم يشر إليه في المشهد السابق لهذا المشهد الذى بين أيدينا[١] ولكن الكاتب سرعان ماقطع هذا الحوار بوصف طويل ممتد، فلما عاد الأسلوب إلى الحوار كان القارئ قد أوشك أن ينسى موضوع الحوار، وهذا – فى رأيى – قلل كثيراً من التناسق فى التعبير ، وقلل من جمال المزاوجة بين السرد والحوار فى النص .

وفى الحواريين «عيسى» وابن عمه «حسن» نرى الجمود الذى أصاب الحوار، فوقف عند نقطة واحدة لم يتقدم عنها، وكان ذلك لإصرار كل من المتحاورين على رأيه فى القضية موضوع الحوار، وهى قضية التغيير فى الحكام، فبينما نرى «حسن» مصراً على وجوب هذا التغيير، وضرورة تقدم الشباب على الشيوخ فى القيادة نرى «عيسى» مصراً هو الآخر على ضرورة أن يظل حزبه فى مكان الصدارة وكل من المتحاورين يناصر رأيه ويحاول أن يوهن رأى خصمه، ولذا انتهى الحوار وكل منهما يسير فى طريق مخالف لطريق صاحبه .

والكاتب نفسه قد أحسن هذا الجمود فعلل ذلك بقوله مدافعا عن موقف «عيسى» فى حواره : «ولم تكن قوة لتستطيع أن تحمله على التسليم بما يقول غريمه» .

وهناك سمة ظاهرة فى أسلوب القصة القرآنية، وهى أنه سواء أبدئت القصة بالسرد أم بالحوار ، فإن للأسلوب القرآنى قدرة عجيبة على وضع القارئ فى قلب الأحداث منذ اللحظات الأولى، بل منذ الكلمات الأولى، ثم يسير القارئ مع الأسلوب رويداً رويداً حتى تتكشف له جميع المواقف، ويمسك بجميع الخيوط ، ودون أن يحس أدنى نوع من التلفيق أو الافتعال

ولنرجع إلى قصة «موسى» فى سورة القصص، التى بدئت بأسلوب السرد، وقصة «يوسف» ، والتى بدئت بأسلوب الحوار[٢]، ففيهما شاهد صدق على مانقول .

ثم لنقرأ بداية قصة آدم – عليه السلام :–

﴿ وإذ قلنا للملئكة اسجدوا لأدم فسجدوا إلا إبليس أبى ﴾ [٣]

---

(١) انظر : السمان والخريف ، ص : ١١ : ١٨ .

(٢) يراجع – فى مقدمتى هاتين القصتين – الحديث عن الإجمال والتفصيل، فى المبحث الأول، من الباب الأول من هذا البحث .

(٣) طه : ٦١ .

لنرى هذه البداية السردية الحوارية في آن واحد، فالأسلوب لم يكد يبدأ سرداً – في ثلاث كلمات فقط – حتى تحول إلى الحوار – في كلمتين – ثم عاد إلى السرد مرة أخرى، وذلك في آية واحدة، استغرقت أقل كم سطر من كتاب الله – تعالى – وعلى الرغم من ذلك نقرأ، بل نرى أحداثا متعددة في هذا السطر، فنرى أمر الله للملائكة بالسجود لآدم، ومعنى هذا أن آدم قد خلق، وسواه الله بيديه، وهذه قصة أخرى حذفها السياق من هذه الحلقة من القصة، ثم نرى مبادرة الملائكة بتنفيذ أمر الله، ثم نرى هذا الحدث العجيب وهو عصيان إبليس أمر ربه ، كل ذلك في هذه الكلمات المعدودة من بداية القصة، ومع المضي في القصة يعرف القارئ سمات هذا المخلوق الجديد «آدم» ويعرف أيضا علاقته بهذا المخلوق المتمرد ، إبليس .

إن هذا الأسلوب القرآني معين دفاق لكتابنا عليهم أن ينهلوا منه، ويتلقوا منه الدروس العظيمة في تعلم حرفة القص، وخاصة في بناء بدايات القصص لأن البداية إن لم تكن آسرة بأسلوبها ، أولا، وبقدرة الكاتب علي جودة العرض، ثانيا ،، فإن القارئ سينصرف عن متابعة القراءة لا محال (١).

وإذا كان أسلوب البداية مهما إلى هذا الحد فإننا نجد كثيراً من كتابنا – ومنهم كتاب مشهورون – يعتمدون على أسلوب السرد وحده في بدايات قصصهم، وأحيانا يحس القارئ أنه يقرأ مقالاً أو تقريراً عن بعض الحوادث أو الشخصيات ، وقد يطول هذا التقرير حتى يشغل بضع صفحات من بداية القصة، وبعد ذلك يبدأ الكاتب في المزاوجة بين السرد والحوار(٢) .

ومن العجيب أن يكون الاتجاه الآن إلى تقليص دور الحوار في القصة القصيرة خاصة، ليس في بداية القصة فحسب، ولكن على مدار القصة كلها، ومثل هذه القصص ربما تتخلى عن مقومات أخرى من مقومات الفن القصصي غير الحوار، فتأتي القصة على هيئة مجموعة من الخواطر تنتاب شخصاً من الشخوص، نتيجة لحدث مهم وقع له،

---

(١) انظر : فن كتابة القصة، حسين القباني، ص : ٤٥ .

(٢) انظر على سبيل المثال : الرجل والطريق، سعد مكاوي، ط الهيئة العامة للكتاب ، ضمن مطبوعات مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥م، ص :٤ ومابعدها و : سمات من الزمان، ثروت أباظة، رواية نشرت مسلسلة في ملحق جريدة الأهرام الحلقة الأولى بتاريخ : ١٩٩٥/١/٦م . ص :١

و : لاتتركوني هنا وحدي ، إحسان عبد القدوس، ط مكتبة مصر، دون تاريخ ، ص ٩ ومابعدها .

هذه الخواطر تأتى متناثرة، لاتحمل حدثاً معيناً له بداية ووسط، ونهاية، ولاتعنى بمكان ولازمان، كما تخلو من عنصر التشويق(١)، وهى المقومات التى تعتمد عليها القصة دائما .

وقد تعتمد القصة على غرابة الأحداث أو الغرابة فى تصرفات الشخصية ثم لاشئ بعد ذلك من مقومات الفن ، كالحوار ، أو السرد الفنى المقنع، أو الحدث المتكامل(٢)، ومثل هذه القصص تشبه – إلى حد كبير – ماتنشره الصحف فى صفحة الحوادث من حوادث غريبة مثيرة دون أن يكون لها من الصياغة الفنية مايجلعها ترقى إلى مستوى الفن الأدبى ..

وعلى أيه حال فإن غرابة الحدث أمر طبعى فى القصة ، بل هو أمر ضرورى وخاصة فى بداية القصة، بشرط أن يتآزر الحدث مع الأسلوب من أجل تقديم بداية قصصية مثيرة وجميلة فى آن واحد .

ولهذا نجد كثيراً من الكتاب المشهورين يلجأون إلى هذه البدايات فى قصصهم ومن هذه البدايات الجميلة حقاً قول أحد الكتاب .

«مرة أخرى يتنفس نسمة الحرية،، ولكن الجو غبار خانق وحرلا يطاق وفى انتظاره وجد بدلته الزرقاء وحذاءه المطاط، وسواهما لم يجد فى انتظاره أحداً هاهى الدنيا تعود ، وهاهو باب السجن الأصم يبتعد منطويا علي الأسرار البائسة هذه الطرقات المثقلة بالشمس، وهذه السيارات المجنونة، والعابرون والجالسون، والبيوت والدكاكين، ولا شفة تفتر عن ابتسامة .. وهو واحد خسر الكثير، حتى الأعوام الغالية خسر منها أربعة غدراً، وسيقف أمام الجميع متحدياً. آن للغضب أن ينفجر وأن يحرق، وللخونةأن ييأسوا حتى الموت، وللخيانة أن تسفر عن سحنتها الشائهة ، نبويه عليش، كيف انقلب الاسمان اسما واحداً ؟ أنتما تعملان لهذا اليوم ألف حساب، وقديما ظننتما أن باب السجن لن ينفتح، ولعلكما تترقبان فى حذر، ولن أقع فى الفخ، ولكنى سأنقض فى الوقت المناسب كالقدر ، وسناء إذا خطرت فى النفس انجاب عنها الحر والغبار والبغضاء والكدر، وسطع الحنان فيها كالنقاء غب المطر ماذا تعرف الصغيرة عن أبيها؟ لاشئ ». الخ .

---

(١) انظر مثلا: قصة (السراج) ملحق أهرام الجمعة بتاريخ ٢٨/١٠/١٩٩٤م، وهى القصة الحائزة بالجائزة الأولى لنادى القصة فى العام ذاته، وكاتبها أحمد عبد الله متولى .

(٢) انظر قصة : «الطاغية الذى قتل نفسه» د: حمدى حمودة ، ملحق أهرام الجمعة بتاريخ ٥/٥/١٩٩٥م، ص١

إن جودة هذه البداية تكمن فى أن الكاتب استطاع أن يقدم لنا صورة رجل غاضب ناقم على المجتمع عامة، وعلى بعض الناس الذين خانوه خاصة، وقد ظهر غضبه حتى علي مظاهر الطبيعة وعناصرها، وهو عازم على الانتقام ممن خانوه وأدخلوه السجن لمدة أربعة أعوام، انقطع خلالها عن ابنته (سناء) تلك النسمة التى تزيح عن نفسه الحر والبغضاء . والذى يقرأ القصة إلى نهايتها يعرف أن الكاتب قدم – في هذه البداية – ما يشبه الإجمال السريع المقتضب لأحداث القصة، فقد سار بطل القصة «سعيد مهران» فى طريق الانتقام ، وتعددت حوادث القتل على يديه ، وظل طريداً حتى نهاية القصة .

وقد يحاول بعض الكتاب أن يبدأ قصته بالحوار ، رغبة فى إثارة القارئ منذ اللحظات الأولى، وخشية أن تصرفه البداية الهادئة عن الاندماج فى الموضوع، والبداية بالحوار تجعل القارئ يعيش الأحداث منذ الكلمات الأولى كهذه البداية التى يقول كاتبها(١) :

– لابد أن نتزوج .

– تريث يا فؤاد .

– نفد صبرى .. سنة كاملة وأنا أنتظر . لم أعد قادراً على كبت مشاعرى النار تتلظى فى جو فى كلما ضممتك إلى صدرى ، والوساوس تتضخم فى رأسى وتنساب كالأبا لسة تفح فى أعماقى تغرينى بك .

بت أخشى نفسى ، أخاف أن ينتصر ضعفى ، أن يفلت منى زمام أمرى ، أن أرتكب ما أخشاه إن كبح مشاعرى الفوارة يرهقنى، يستبدبى، يزلزل كيانى ، حتى إننى أرتجف كلما وقع فى خلدى أن إرادتى قد تتقوض ، وأن الوحش المتربص فى أغوارى قد ينطلق

لو عصفت بنا رغبتنا واستسلمنا للإغراء فلن أغفر لنفسى ، سأحيا قلقا معذبا ، فأنا أريد زوجتى طاهرة الذيل حتى ليلة الزفاف.

وتلفتت سهير فى قلق ثم قالت :

– لو رفضوا زواجنا لا نهارت آمالنا ، وتحطمت سعادتنا ، وتلاشى الحلم اللذيذ

(١)المستنقع ، عبد الحميد جودة السحار، ط : مكتبة مصر ، ١٩٧٤ م ، ص : ٥ ، ٦ .

الذى نعيش فيه .

– أننا نهاب وهما، فكرة نبتت فى رأسك وجعلت تنفخين فيها يوما بعد يوم حتى صارت ماردا جباراً يفزعنا ، إننى لا أدرى لماذا يرفضون زواجنا ؟

قالت سهير فى إشفاق :

– قلت لك لن يوافقوا أبدا على أن أتزوج قبل "سوسن" .

– ألأنها أكبر منك لابد أن تتزوج أولا ، ما أحسب أن هذا يكون"

★★★

سبق أن تعرضت لهذا الادعاء الباطل الذى يزعم صاحبه أن الحوار فى القصص القرآنى لا يمثل المتحاورين ، ولا يعبر عن مشاعرهم وأفكارهم ، ولا ينطق بما تجيش به صدورهم(١) ، وأن هذا الحوار لا تبدو فيه ذاتية المتحاورين ، وإنما تبدو فيه ذاتية النبى محمد – صلى الله عليه وسلم – واستثنى صاحب هذا الادعاء الحوار بين رب العزة سبحانه وإبليس ، والحوار بين "موسى" و "فرعون" من هذا الزعم الباطل(٢) ، وقدنا قشت هذا الرأى مناقشة مدعومة بالشواهد التى تؤكد ذاتيه الحوار القرآنى، دون أن يكون من بين هذه الشواهد شاهد واحد من القصتين اللتين استثنى الباحث حواراتهما.

ونقف الآن مع شاهد آخر يؤكد ذاتية المتحاورين فى القصص القرآنى ، يقول تعالى على لسان إخوة "يوسف" – عليه السلام– :

﴿ قالوا يأبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لنصحون. أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحفظون ﴾ (٣)

إن الأسلوب القرآنى يضبط الحركات النفسية لشخصيات القصة ضبطاً محكما، ثم يحيلها إلى كلمات تنطق بمكنون الصدور وتكشف عنه، ولكى نستحضر بعض جلال التعبير فى قول إخوة "يوسف" نكر راجعين إلى الموقف الذى بيتوا فيه كيدهم لأخيهم، إنهم– بلاشك – قد قلبوا الأمر على جوانبه زمناً قبل أن يواجهوا أباهم بقولهم هذا، لقد عز عليهم أن يؤثر أبوهم يوسف وأخاه عليهم، وهم العصبة القوية التى ينتفع الأب

(١) انظر : المبحث الثالث من الباب الثانى من هذا المبحث

(٢) انظر: الفن القصصى فى القرآن الكريم ، ص : ٣٠٥ .

(٣) يوسف : ١١ ، ١٢ .

بسعيها وعملها الدؤب، ورأوا فى هذا الإيثار ظلما وغبناً لهم، وهم الرجال الأشداء، ولذا عزموا على أن يتخلصوا من هذا الأخ الصغير الذى يحول بينهم وبين وجه أبيهم، وانتهوا إلى أن يلقوه فى غيابة جب سحيق، لعل قافلة من قوافل التجارة تستخرجه وتذهب به بعيدا عن أرض "كنعان" وحين استقربهم الرأى على هذا التدبير تقدموا إلى أبيهم بهذا الطلب فى هذا الأسلوب المفضوح :

(يابانا مالك لا تأمنا على يوسف) وماله لا يأ منهم أبوهم على "يوسف" وهو أخوهم؟! ثم متى كان الأخ غير مؤتمن على أخيه ؟ إن هذا الادعاء الذى يدعونه على أبيهم ، وهذا الدفع – الذى يدفعون به ما تخيلوه من اتهام أبيهم لهم بالتهاون والتفريط فى شأن أخيهم – لهو الدليل الصارخ على الشر الذى يبيتون ، وعلى العدوان الذى يضمرون .

وهم يقولون فى تأكيد جازم:(وإنا له لناصحون) إن هذا التوكيد إنما يدفعون به اتهاما خفياً يتمثلونه فى صدر أبيهم منذ عقدوا العزم على هذه الفعلة الشنيعة، والتى أعلمنا بها الأسلوب القرآنى ، وأخفاها عن الأب لا لشئ إلا لكى تتم القصة على وجهها المراد لها، فلو علم الأب ما يدبر لابنه القريب إلى نفسه ما تركه يذهب مع إخوته ، وما تمت القصة على هذا النحو الغريب .

ثم لنسأل لم كان (غد) هو الميقات الذى جعلوه موعدا لأخذ يوسف معهم؟

إما أن يكون ذلك لأن حديثهم مع أبيهم كان فى المساء بعد انتهاء يومهم فى المرعى، وبعد أن اجتمع شملهم فى العشاء أو السمر، فهم إذا قد اختاروا هذا الوقت ليخفوا فى ظلمة الليل ما قد تبدو على وجوههم من انفعالات تكشف عما بيتوه ودبروه، خصوصاً إذا كان الأب قد أحس من كلامهم ما أوجب ألا يأمنهم عليه، كما يقول الزمخشرى (١) .

وإما أن يكون ذلك فى صبح يوم جديد، حين هموا بالخروج إلى المرعى، وهم إذا فى استخزاء من أن يطلبوا هذا الأمر منجزا، إنهم فى ضعف ظاهر ، تنوء قواهم ، بهذا الحمل الذى حملوه بين أضلعهم، وأجمعوا أمرهم عليه (٢).

---

(١) الكشاف، جـ٢ ، ص : ٤٤٨ .

(٢) انظر: القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه، ص : ١٢١، ١٢٣ .

إن قصص القرآن وحده هو الذى يضبط المشاعر والانفعالات البشرية على هذا النحو، وهو الذى يصنع الحوار الدال على هذه المشاعر والانفعالات . فى ذاتية مفرطة لا نظير لها فى القصص الفنى

ومن الغريب أن الباحث يرى أن الحوار فى القصص الفنى يمثل نفسية المتحاورين، وأسلوبهم فى الحديث والمخاطبة ، وعقليتهم فى التفكير وفى الحركات الذهنية، كما قد يمثل الحرف والصناعات(١) .

ونحن لا نسارع إلى رفض هذا الرأى رفضا مطلقا، ولكن المنطق يقتضى أن ندع الحكم فى ذلك إلى الحوار فى القصص الفنى نفسه، فإما أن يؤيد رأى الباحث وإما أن يرفضه، وإما أن نخرج برأى آخر يكون أقرب إلى الصواب ، وأدنى إلى القبول .

أولا :

نبدأ بهذا الحوار المستوحى من حوار إخوة يوسف مع أبيهم- الذى وقفنا معه سلفا - وهو من قصة بعنوان " الغفران" التى استوحاها الكاتب "ثروت أباظة" من قصة "يوسف"، وجعل الأخوين الشقيقين فى مقابل إخوة "يوسف" العشرة، و"صديق" فى مقابل شخصية "يوسف" - عليه السلام-، وهو أخ غير شقيق ، أنجبه أبوهما الثرى من أم أخرى بعد وفاة أمهما ، وكانا ينقمان منه لأن أباه يؤثره عليهما ، لأنه سيرت ثلث التركة بعد وفاة الأب ، ولذلك عزما على قتل "صديق" ولكنهما أظهرا لأبيهما غير ما يضمر ان حتى يأمن لهما ويدع أخاهما يذهب للهو معهما. يقول الكاتب (٢) :

" بدأ "عبد الغنى" ينهج نهجا جديدا نحوا أخيه "صديق" دهش له صابر بعض الدهشة ، ولكنه فرح به كل الفرح

صار "عبد الغنى" يعنى عناية فائقة بشأن "صديق".. ويذهب إلى مدرسته فى فترات متقاربة ويبلغ أباه بسعادة مقدار تفوق "صديق"، وإعجاب المدرسة به من ناظر إلى أساتذة إلى تلاميذ وشارك "عبد الودود" فى هذه العناية مشاركة غير خافية ، وظن "صابر" فى براءته "وهند" فى نقائها أن الكبيرين يرعيان أخاهما الأصغر شكراً لما هيأه لهما أبوهما من حياة زوجية مستقرة وبيت سعيد لكل منهما

وحين حاول الأب أن يتعمق الأمر.. لعلهما الآن يقتربان من الأبوة، وربما راوحت نفسيهما هذه العواطف فهزت حنايا الحب والأخوة معا نحو أخيهما الذى يكاد يكون منهما بمكان الابن أيضا.

وهكذا لم يكن غريبا أن يأتى عبد الغنى إلى أبيه :

---

(١) انظر : الفن القصصى فى القرآن الكريم، ص : ٣٠٥ .

(٢) الغفران، ص ٥٤ ، ٥٥ .

– اترك لي "صديق" أخرج به إلى الدنيا.

– أخاف عليه .

– منى ؟

– من غيرك .

– سأخرج به أنا وعبد الودود وزوجتانا.

– أين تذهبون ؟

– إلى حيث يلعب هو ونتسلى نحن .

– أين ؟

– إلى الملاهى

– الملاهى ؟

– ما لها ، أليست للأطفال ؟

– إى نعم ، لكنها ألعاب خطرة .

– ونحن معه !!؟

– الآلات لا قلب لها ..

– ولكن قلوبنا معه

– أخاف عليه .

– توكل على الله" .

هذا هو الموقف كما صوره الكاتب ، وهذا هو الحوار المقابل لحوار إخوة "يوسف" مع أبيهم ، وفى هذا الحوار جعل الكاتب أحد الأخوين "عبد الغنى" هو الذى يحاور أباه فقط، أما الأخ الثانى "عبد الودود" فلم يشترك فى الحوار ، ولو اشترك الأخوان معا فى حوار الأب لكان أكثر إقناعا للقارئ ، ولكان أسهل فى انتزاع موافقة الأب على خروج "صديق" معهما .

وفى القصة القرآنية نجد الأسلوب يظهر إجماع الإخوة على رأى واحد فى مخاطبة أبيهم : (قالوا يأبانا .. الخ) وليس معنى هذا أنهم كانوا ينشدون فى صوت واحد بهذا النداء، ولكن المعقول أنهم اختاروا من بينهم واحدا يتحدث إلى أبيهم، أما الباقون فيكفى

أن يرى الأب موافقتهم على كلام أخيهم الذى يتحدث عنهم ، ليعرف الأب إنهم يرون رأيه.

وقد أحس الكاتب شيئا من القصور فى الموقف فجعل "عبد الغنى" يحاول إقناع أبيه بإخباره أنه لن ينفرد بصديق ، وإنما سيخرج معه أخوه " عبد الودود" وزوجتا هما أيضا، فما عبر عنه الأسلوب القرآنى بلفظة : (قالوا فى بداية الحوار عبر عنه الكاتب بعبارة طويلة ، ومع ذلك فإننا لا نحس فى هذه العبارة إقناعا واضحا؛ إذ ربما يفهم الأب أن خروج هؤلاء لا يكفى لضمان سلامة الصبى الصغير "صديق" لأن "عبد الغنى" يستطيع أن ينفذ كيده لأخيه فى غفلة من الباقين .

وكلمات الحوار لا تصلح لهذا الموقف وحده بل تصلح أن تكون فى كثير من المواقف المشابهة ، فهى تصلح مثلا : فى موقف أب لا يشك فى ولاء ابنه لأخيه الصغير ، فينطق بمثل ما نطق به "صابر" هنا، وتصلح أيضا فى موقف ابن لا يضمر سوءاً لأخيه ، فينطق بمثل ما نطق به "عبد الغنى" هنا ، وتصلح كذلك فى موقف لا يشك فيه الأب فى ولده، ولا يضمر الأخ فيه شراً بأخيه .

وذلك أن عادة الآباء أن يبدوا تخوفهم على صبيانهم الصغار، حتى فى المواقف العادية التى لا يخشى فيها من السوء ، ومن عادة الإخوة الكبار أن يكونوا منطلقين فى مرحهم ولهوهم، وأن يحاولوا إقناع الآباء بضرورة خروج الصغار إلى المرح واللهو .

إن آفة كثير من القصص الحديث تتمثل فى أن الكاتب كثيراً ما يلبس الشخوص لباسه هو، فيتحدثون عى لسانه، وينطقون بما يجود به خاطره هو، وليس بما يتناسب ومستواهم الفكرى و التعبيرى ، ومن ذلك هذا المثال :

ثانيا : يقول الكاتب " محمد عبد الحليم عبد الله" فى إحدى قصصه (١) :

" ثم أمسكت الألسن وتولت الجوارح والملامح والحركات والسكنات شرح ما جاشت به النفس فى صمت طويل عميق، وأبلغ من الكلم والقوافى التى يسجع بها الشعراء ، حتى جال من حولنا هدهد ، ينقرو يفتش ، ويبحث وينقب، فسألتها مبتسما هازا رأسى : عم يبحث ؟

فقالت : يقولون إنه لا يزال يفتش عن كنوز سليمان من يومها إلى يومنا هذا .

(١) شمس الخريف ، محمد عبد الحليم عبد الله ، ط: مكتبة مصر، ص : ١٣٦ .

فقلت : نعمت المثابرة .

قالت بصوت يهد جه حياء وولهه: ولن ينقضى عمله حتى ينقضى ما بيننا ، ليتنا لم نلتق !

وأدرت كلامها فى قلبى ، فا ستعذبه القلب ، حتى انتهت هى إلى نعيق غراب على شجرة الجميز، فنظرت إلى وفى عينها تشاؤم أهل الريف، فابتسمت لها مهونا الأمر . فسألتنى :

– لماذا لا نرى بينها غراباً غير أسود ، كلها سود؟

فقلت ما جاد به خاطرى ، وإن كان قولا لا طائل تحته :

– لأنه من رهبان الطيور .

لكنها استعذبت قولى ، فقالت :

– إذن فلا تنس سأحبك مادام الغربان فى ملابس الرهبان ، والهدهد يبحث عن كنوز سليمان .

ثم التقت شفاهنا فى قبلة ".

ويتسم الأسلوب القصصى هنا ببعض الزيف والمبالغة، وعدم الملاءمة للموقف القصصى ، وعدم الملاءمة أيضاً للمشاعر النفسية للشخصيات ، فهو سرد إنشائى لا علاقة له بالموقف القصصى ، لأن الموقف هنا بين صبيين أو شابين صغيرين من أبناء الريف ، وقد صورهما الكاتب على علم بحكمة "سليمان" ، وعلاقته بالهدهد ، وملابس الرهبان ، وكنوز "سليمان" ، ويعرفان أيضا الكلم والقوافى ، ثم من قال بأن هناك ما يسمى "تشاؤم أهل الريف " ؟

وقد انتقلت عدوى (الإنشائية) من السرد إلى الحوار ، وصارت لغة السرد مثل لغة الحوار ، ولغة الصبى مثل لغة الصبية، وقد وصف الكاتب الفتاة وهى تتحدث بالحياء ، لكنه فى نهاية الحوار نسى ذلك الوصف حين جعل المحبين يلتقيان فى قبلة ، ونسى – أيضا – أن الموقف المصور كله يحدث فى حقل ريفى[١] .

ثالثا : يقول الكاتب " توفيق الحكيم" فى إحدى مسرحياته فى حوار بين الجنى

---

(١) انظر : دراسات فى نقد الرواية ، ص ٤٣ ، ٤٤ .

والصياد(١) :" الجنى : دع الحمق وأصغ إلى .. أنا الآن حر ... حر من كل القيود ... لا سيدلى ولا عمل .. فما تقول لو جعلتك ملكا على هذا الشعب ، وزوجتك من حبيبتك وهى اليوم أرملة من أرامل "سليمان" .و فتحت لك الكنوز وأتيت لك بالمجد والسلطان ...

الصياد : ؟

الجنى : لماذا تنظر إلى هكذا ؟

الصياد : آه ... لو استطعت أن أحبسك فى شبكتى هذه .....

الجنى : أيها الأبله ... هذه جعلت لتحبس فيها نفسك الصغيرة .. اذهب ....

الصياد : (يتحرك) إنى ذاهب ..

الجنى : اذهب بخيبتك ...

الصياد : (يقف) أتستطيع أن تخبرنى أيها الجنى، ما نفع كل هذه الأشياء التى تغرينى بها؟ لقد كان سليمان يملكها كلها . ألم تكن له كنوز الأرض؟ ألم يكن له السلطان والمجد ؟ ألم يتزوج نساء فوق الحصر والعد؟! ومع ذلك خر كل هذا كأن لم يكن أمام كلمة صغيرة هى "لا" ارتسمت على شفتى امرأة واحدة ! ... كلما أسرفنا فى الانخداع بملكاتنا ، جعلتنا السماء موضعا للهزء والسخرية .. هو ذا الآن سليمان ... قد قلبت كل جلاله وعبثت بكل جبروته أرضة تسعى على الأرض ، فهوى بصو لجانه المنخور.. أيها الجنى .. ماعاد شئ يبهرنى أو يغرينى.. حتى ولا الحكمة نفسها !! إن اليوم الذى يمتلئ فيه الحكيم شعورا بحكمته هو أقرب الأيام إلى ساعة انكشاف الرداء عن حمقه المضحك ! إنك تتحدث عن خيبتى .. ولكنى ما شعرت يوما بالخيبة الحقيقية إلا يوم عرفتك فعلى قدر الطموح تكون مرارة الفشل ، كلما عظمت القدرة ضخم ذل الخيبة .

الجنى : أعترف بأنى لست أفهمك . فأنا لم أعتد التفكير إلا فى الظفر والانتصار".

إن هذا الحديث الفلسفى عن قيمة الملك لا يمكن أن يجرى على لسان الصياد وأمثاله من الناس العاديين، إنما هو فكر المؤلف وفلسفته سال بهما لسان الصياد ، ونجد(٢)

(١) مسرحية "سليمان الحكيم" ص : ١٥٦ ، ١٥٨ .

(٢) انظر : تطور الرواية العربية الحديثة فى مصر ، ص ٣٨٦ ، ٣٨٧ و : الأدب القصصى والمسرحى فى مصر، ص ١٨٢ .

افتقاد الذاتية فى الحوار عند هذا الكاتب فى أكثر من موضع سواء فى المسرحيات[١] أو القصص[٢] .

وهذه الأمثلة لبعض كتابنا المشهورين ، لا تعنى بحال أن الذاتية فى الحوار ليس لها وجود فى القصص الفنى ، ولكن الملاحظة العامة أنه من النادر أن تسلم قصة أو رواية من سيطرة فكر الكاتب وأدائه على ما ينطق به الشخوص الذين يتحاورون على صفحات العمل الأدبى . هناك كتاب حققوا ذاتية الحوار فى كتاباتهم الفنية ، ومن ذلك :

أولا :

يقول الدكتور "طه وادى" فى إحدى قصصه من حوار بين بطلى القصة :

" – أستاذ فتحى ، ما فلسفتك فى الحياة ؟

– ما تقصدين يا أميرة ؟

– ليس ادعاء . بكل تواضع أنت مثل أعلى كنت أريد مشاهدته عن قرب .

– صدقينى يا أميرة، الحقيقة المرعبة التى تملأ حياتى الآن هى الوهم .

– الوهم يا أستاذ ؟

– كل شئ فى هذه الحياة وهم كبير ، لكن آمالنا الخرساء تجعلنا نستعذب الألم ، من أجل وهم أكبر .

– لا أفهمك .

– خمسة وعشرون عاما فى الكفاح السياسى والصحفى ، ولم يتحقق شئ .

– لا أصدقك .

– حتى الزوجة والأبناء لا عزاء فيهم !

– أشربت شيئا ؟

– المر" [٣].

وأول ما يبدو فى هذا الحوار من ذاتية المتحاورين وشخصيتهما هذا القلق النفسى

---

(١) انظر مثلا : مسرحية أهل الكهف ، ص ٣١ .

(٢) انظر مثلا: عصفور من الشرق ، الفصل التاسع، ص : ٩٣، والفصل التاسع عشر ص : ١٧٨، والفصل العشرون ، ص : ١٩٥ .

(٣) قصة : "الأمن البعيد" ، ط دار المعارف ، ١٩٨٤م ، ص : ٥٠ .

الذى يحسه بطل القصة ، فهو – برغم السلطة والمجد– يحس أنه لم يجن سوى الوهم الذى صار يملأ حياته ، وهو يصر على ذلك رغم أنه يسمع كلمات الإطراء من فم الشخصية المحاورة "أميرة" وفى ذلك دلالة على مدى الإحباط الذى تعرض له .

ثم هو يعلل هذا الإحباط بعلة صحيحة ، وهى أنه قضى خمسة وعشرين عاما فى الكفاح الوطنى والسياسى ، لا على المستوى الخاص، أو بمعنى آخر، لم يحقق شيئا لوطنه ولا لنفسه .

وكان تعبيره عما شربه مقتضباً وجامعاً ومعبراً عن حالة الوهم والإحباط التى يعيشها.

والكاتب يستخدم اللغة بإيجازوتركيز شديدين، فأميرة حين تنتهى من حديث فتحى تسأله مستنكرة : أشربت شيئا ؟ فيرد عليها : المر، وبدلا من أن يقول الكاتب على لسانه : شربت المر ، يحذف الفعل والفاعل ويبقى على المفعول به فقط .

كذلك نجد حديث أميرة ملائما لشخصيتها ، فهى تبدى إعجابها بأستاذها، وتحاول التقرب منه، ولذلك فهى تحاول أن تكشف ما يدور بداخله ، وذلك عن طريق ملاحقته بالأسئلة التى تجيد طرحها(١) .

ثانيا:

استطاع الأستاذ "العقاد" أن يحقق كثيرا من ذاتية الحوار فى مواضع كثيرة من رواية "سارة" ، وقد تعقب أستاذنا الجليل الدكتور فتحى أبو عيسى الحوار فى هذه الرواية فى دراسته عنها(٢) ، ونبه إلى أن الموقف القصصى هو الذى يشكل الحوار ومن ذلك :

إذا كان المقام مقام تبسط مع "سارة" شاق الكاتب أن يغلف هذا الحوار بشئ من الفكاهة اللفظية ، قصدا إلى الترويح والتسلية وتزجية الفراغ ، كما هو الحال حين رأى مع "سارة" تلك الرواية الهزلية التى تحكى أخبار صياد فاشل يستعيض من فشله فى الصيد بالمبالغة فى الوصف والحكاية ، قال لها وقد رأى الطير يتساقط من هنا وهناك إلى ما بعد إطلاق البندقية بلحظة غير قصيرة :

---

(١) انظر : دراسات فى نقد الرواية ، ص : ٤٧ ، ٤٨ .

(٢) انظر : قراء الأدب العربى المعاصر ، ص : ٣٧ ، ٣٩ .

– أليس الأحسن والأبرع أن يسقط هذا الطير مشويا على الأطباق[١] ؟

وللكاتب حوار آخر ضاحك ملائم للموقف القصصى ومعبر عن روح الفكاهة التى تحيط به ، وذلك عندما دلف "همام" بطل القصة إلى منزل "ماريانا" ليسأل عن صديقه ، والتفت إلى شيخ متهدم يعبر الفناء

فسأل الخائطة : أهذا ضيف جديد عندك يا مدام ؟

قالت : ضيف ... وعرف وقتها أن ثروته تربى على الألوف ولا وارث له ولا قريب ، ولا قريبة تلوذ به فى شيخوخته الكئيبة .

قال همام : وما حاجته إلى البحث عن وارث ؟ إن الورثة يبحثون ولا يقصرون عند اللزوم .

قالت : ألا يحتاج إلى من يعوله ويواسيه ويحف به وهو يودع دنياه ؟

قال همام : إن كنت يا ماريانا حريصة على خروجه من حجراتك فانصحى له بكتابة إعلان فى الصحف السيارة ، يقول فيه: إنه يملك كذا من الألوف ويحتاج إلى كذا من الإخوان وأولاد الأعمام وأولا والأخوال. وانظرى كيف يضيق بيتك عن الطالبيين والطاليات ممن أنسوا فى أنفسهم الوفاء بالشروط[٢] .

«وإذا كان المقام يستدعى الجد بدت فى الحوار نبرة الوقار الذى لا يلتقى مع الخفة أو المزاج، وهو الحوار المحبوك الأطراف الذى لا يدع ثغرة أمام محاوره» [٣] .

ومن ذلك محاورة همام مع صديقه أمين وهو يتعقب سارة ويراقبها وقد أفلتت منه ، يقول الكاتب [٤] :

" قال أمين : إن السيدة لم تعد بعد خروجها من دار الصور المتحركة .

– ويحك !! وإلى أين ذهبت ؟

– لا أدرى .

– كيف لا تدرى !! ألم تتبعها ؟

---

(١) سارة ، ص : ٦ .

(٢) سارة ، ص : ١٢٥ ، ١٢٦ .

(٣) قراءة فى الأدب العربى المعاصر ، ص : ٣٩ .

(٤) سارة ، ص : ٧٩ ، ٨٠ .

– لا، لأنني ما شككت في أنها خرجت لحاجة لها ثم تعود، ولا يليق أن أتبعها .

فانتفض همام وهو يغالب غيظه وسخطه وصاح به : يا أخرق ، أليس في دار الصور المتحركة ما يغني سيدة مهذبة عن الخروج إلى منعطفات الطريق" ؟

و إذا كانت شخصية همام واضحة في هذا الجزء من الحوار، وإذا كانت صرامته وحدته مناسبة للموقف ، فإن حديثه ناطق بهذا كله ، فهو حديث جاد غاية الجد معبر عما في نفسه من غيظ وسخط .

ونحن نرى شخصية أمين أيضا واضحة ، وأهم ما يميزها نوع من الغفلة أو التغافل الذي كان عليه ، فإنه على الرغم من وضوح مهمته وهي مراقبة المرأة نراه يتركها تمر من أمام عينيه دون أن يتبعها ، ظنا منه أنها خرجت لحاجة لها ثم تعود .

ولعل هذه الأمثلة عن ذاتية الحوار في القصص الفني تكون شاهد صدق على أن هذه الذاتية شئ عسير ، لا يأتيه إلا من أوتي براعة منقطعة النظير ، براعة في استخدم الأسلوب ، وفي فهم مدلولات الألفاظ ، وبراعة في استبطان نفوس الشخصيات القصصية على اختلاف مشاربها وتعدد أنماطها . ومن ثم رأينا بعض الكتاب الكبار المشهورين يقفون دون تحقيق هذه الذاتية أحيانا .

خاتمة الدراسة ونتائجها

وبـــعـــــد

فقد كانت هذه الدراسة وقفة متأنية مع القصص القرآني ، حاولت أن تكون شاملة مستقصية – ما وسعني الجهد – حتى تثمر الدراسة الثمرة المرجوة منها، وهي محاولة استخلاص الأسس والقواعد التي تحكم بناء فن القصة،لتكون بين أيدي الكتاب والنقاد، يبدعون وينقدون على هديها، وقد أسفرت هذه المحاولة عن مجموعة من الحقائق أو النتائج الكلية، يندرج تحت كل منها عدة نتائج ، أثبتها فيما يلي :

أولا –

القصة القرآنية ليست عملا فنيا حرا، وليست طليقة من القيود، وإنما هي مقيدة بغرض ديني– كما نبه إلى ذلك بعض الدراسين – ومن النتائج المترتبة على ذلك:

أ– أن الأسلوب القرآني قد يقطع تسلسل الأحداث ويستغني عن تواصل المشاهد القصصية، إذا كان في ذلك خدمة، وتجلية للغرض الديني من أحداث القصة، وغالبا ما يكون ذلك في المراحل الأولى من تطور الحدث، أما حين يصل إلى ذروته، فإن الأسلوب يوالي بين المشاهد، ويتجاوز كثيرا من الأحداث الصغيرة، وصولا إلى النهاية التي تبين العبرة من القصة.

ب– أن القصة القرآنية لا تعمد إلى الإثارة غير المجدية في تصوير الأحداث مهما كانت ضخامتها وغرابتها، فالأسلوب القرآني لا يطيل الوقوف عند الأحداث القصصية الضخمة إلا بقدر ما يخدم الغرض الديني من القصة.

جـ – يختلف أسلوب تقديم الحدث أو الشخصية في القصة القرآنية عنه في القصة الفنية، لأن الغاية الدينية هي المقدمة على ما سواها في قصص القرآن، بعكس الكتاب الذين يقدمون دواعي الفن على غيرها من القيم الأخرى.

د– القصة القرآنية لا تحفل بالتحليل النفسي للشخوص، بمعنى أنه لا يوجد في القرآن قصة ممحضة للتحليل النفسي من أولها إلى آخرها، بالمعنى الذي تعارف عليه النقاد، لأن القرآن لا يعنيه أن يقدم فنا، وإنما هو كتاب توجيه يعنيه أن يتعامل مع الظاهر المعلن في حياة الشخوص.

هـ- ليست الشخصية مرادة لذاتها، وإنما يعرضها القرآن بوصفها نموذجا يتحرك فى الحياة بخيرها وشرها، وليس الحدث مراداً لذاته، وإنما هو معرض للإنسان النموذج، لذا يعرض بالقدر الذى يطلع المتلقى على معدن هذا الإنسان.

و - أن اهتمام القصة القرآنية ببيان الأبعاد الثلاثة للشخوص يكون بالقدر الذى يبرز الغاية الدينية ويوضحها.

ز- الأسلوب القرآنى يتجاوز لحظات الضعف البشرى فى حياة الشخوص، ليصل سريعا إلى لحظة الإفاقة التى تعقب التردى، بعكس الكتاب الذين يطيلون الوقوف فى مواقف النشوة، ليصوروا الرذائل بأسلوب مبالغ فيه، وذلك بحجة الواقعية.

ح - أن قصة الحدث فى القرآن الكريم تختلف عن قصة الحدث التى تعارف عليها الكتاب والنقاد فى أنها تجمع بين الفائدة والمتعة، وهما ضدان لا يجتمعان فى قصة الحدث عند الكتاب.

ثانيا-

هناك قواعد قصصية سبق القرآن الكريم بها مبدعى فن القصة الحديثة، فهى قواعد مشتركة بين القصة القرآنية، والقصة الفنية، ولكن تطبيق القرآن لها جاء بأسلوب أقوم من تطبيق الكتاب،ومنها:

أ- سبق القرآن الكريم إلى تأكيد قاعدة:"الاقتصاد الفنى" وهى تعنى: أنه لا يجوز للقاص أن يصف إلا ما يدعم الحدث القصصى الذى اختاره ليدير حوله قصته، وذلك بأن يتخلى عن كثير من التفاصيل التى لاتفيد القارئ فى شئ، لكى يضمن الكاتب أن يكون القارئ مشاركا مشاركة إيجابية فى القصة.

ب - سبق القرآن إلى تأكيد الارتباط بين الأبعاد الثلاثة للشخصية، وأن لكل بعد منها أثرا فى البعدين الآخرين.

جـ - أن الإضمار القصصى ظاهرة تعد أصلاً من أصول البناء الفنى للقصة القرآنية، ونعنى بالإضمار: إسقاط كثير من الأحداث ، لغاية دينية أو فنية، وهذا الإضمار لم تهتد إليه القصة الفنية إلا فى العقود الأخيرة متأثرة فى ذلك بفن الخيالة.

د- قد تجمع القصة القرآنية الواحدة بين أصول القصة القصيرةوالقصة الطويلة معا، وهو ما اصطلح عليه النقاد حديثا باسم"التصميم".

هـ - سبق القرآن الكريم إلى تأكيد أن الحوار يجب أن يكون مناسبا للشخصية وللموقف القصصي، وأن تكون المقاومة في القصة على قدر قوة الصراع بين أطرافها. والبون شاسع جدا بين تطبيق القرآن لهذه القاعدة وتطبيق الكتاب.

و- أن التحول الحاد في سلوك الشخوص لابد أن يكون معللا ومقنعا فنيا، وقد سبقت القصة القرآنية إلى تأكيد ذلك، وأن الإقناع بالحدث هو أقوى وسائل الإقناع، فالتحول الكبير للشخوص لابد أن يصاحبه حدث كبير مساو له.

ثالثا -

هناك قواعد مشتركة بين القصة القرآنية والقصة الفنية، ولكن استخدام القصة القرآنية لها يختلف عن استخدام القصة الفنية ، منها:

أ- أن القصة القرآنية لا تهتم بذكر شخصية المرأة إلا إذا كان لها دور تستدعيه الأحداث، ويحتمه الموقف، فهي لا تستجلب المرأة دون دور، أو لتكون عاملا من عوامل التسلية والمتعة والتشويق كما يفعل الكتاب.

ب - أن النموذج البشرى فى القصة الفنية نموذج محدود، يبدأ من شخص معين، ثم ينتهى بأن يكون نموذجا لنمط معين من الناس، أما النموذج البشرى فى القصة القرآنية فلا يبدأ من شخص، ولكن يبدأ من فكرة تصدق على نمط معين من الناس، ولذا فهو يتصف بالشمول.

جـ - يتصف الحوار فى القصة القرآنية بالذاتية التى يحتفظ بها للمتحاورين، فهو يعبر عن ذواتهم وشخصياتهم أصدق تعبير، وهذه الذاتية- بالرغم من حرص النقاد على وجودها فى القصص الفنى- لا تكاد تتحقق فى قصة فنية كاملة.

رابعا -

وهناك أمران خاصان بالقصص القرآنى ، وهما:

أ- أن هناك عناصر غيبية تتدخل فى الحوار القرآنى، فتقطع ما بين المتحاورين، وتأخذ الموقف منهم، لتدلى برأيها فيما يتحاورون فيه، وتقيم لأحد الطرفين حجته، أو

تقويها، أو تقوّم منطقه، وهذا الأمر حين يحدث فى القصة القرآنية لا يكون غريبا، ولا مستنكرا، لأن زمام الموقف كله بيد القدرة الإلهية المهيمنة، وإذا حدث مثل ذلك فى القصص الفنى كان ذلك عيبا فى الأسلوب، وخللا يصيب الحوار، ولذا يحرص النقاد على التأكيد بأن المؤلف يجب أن يختفى تماما من صفحات القصة، ولا يظهر له أثر.

ب- تقرن القصة القرآنية بين الموعظة والعرض الفنى؛ فهى تقدم الفن والوعظ المباشر الصريح، الذى يبين الغرض الدينى منها، وفى القصة الفنية يحرص الكاتب على عدم اللجوء إلى الوعظ المباشر، بل إن ذلك - إن حدث- كان عيبا يبعد القصة عن الفن.

خامسا-

ومن النتائج العامة لهذه الدراسة:

١- أن القصة القرآنية لا تقر للكتاب بمبدأ الحرية الفنية، الذى يبيح للكاتب أن يغير ويبدل فى ملامح الشخوص التى يستقيها من الواقع، أو يضيف إلى الحدث التاريخى ماليس منه، وهو مالا يستغنى عنه الكتاب ؛ فالنقاد يكادون يجمعون على هذا المبدأ،ويرونه حقا مشروعا لكل كاتب، لأنه فنى مبدع.

٢- أن القرآن الكريم يهدم ما أتى به الواقعيون والرومانسيون فى نظرة كل منهما إلى الشخوص القصصية.

٣- أن القرآن الكريم لا يعترف بالفصل بين عنصرى القصة: الحدث والشخصية، فمنهج القصة القرآنية يقوم على المزج والمزاوجة بينهما، حتى فى أكثر قصصه اعتمادا على الأحداث الغريبة المشوقة، وبذلك تقدم للكتاب منهجا قويما يقوم على التوازى بين العناصر، هذا التعادل يلغى التطرف والانحياز إلى الحدث وحده أو إلى الشخصية وحدها.

٤- يحرص القصص القرآنى على تأكيد وحدة الحدث، وأن يكون الحدث الرئيس فى القصة ممتدا من بدايتها إلى نهايتها، له بداية ووسط ونهاية ، وذلك يشير إلى خطأ الاتجاه الجديد فى الكتابة الفنية، الذى يميل أصحابه إلى جعل القصة مجموعة من الخواطر المتناثرة، التى لا يجمعها موقف واحد، ولا يربط بينها حدث واحد.

٥- أن معظم القصص القرآني يقوم على المزاوجة بين الحوار والسرد، وبذلك يرفض المنهج القرآني ما جنح إليه كثير من كتاب القصة القصيرة حاليا من إهمال عنصر الحوار إهمالا كبيرا، لأن الاعتماد على السرد وحده يجعل القصة أشبه ما تكون بالخبر.

٦- على الكاتب الفني أن يلجأ إلى المسرحية إذا كان موضوع قصته مما يغلب عليه الجدل والحوار، وتصارع الآراء والمواقف، وأن يلجأ إلى القصة الفنية إذا كان موضوعه مما يغلب عليه كثرة الحركة في الزمان والمكان والشخوص.

٧- أن القرآن الكريم لا يضع حاجزا بين الكتاب وموضوعات قصصهم، فإن للكاتب أن يكتب في أي موضوع يشاء، بشرط أن يلتزم باللفظ السامي الكريم، الذي لا يجرح الشعور، ولا يؤذي الإحساس،وبشرط ألا يزين الرذيلة، ولا يخلع على مرتكبيها ثوب البطولة.

٨- لعل أسلوب القصص القرآني المعجز يحسم خلاف النقاد في قضية اللغة التي تكتب بها القصة، فالدعوة إلى الكتابة بالعامية بحجة المحافظة على الواقعية دعوى متهافتة، أمام منهج القصة القرآنية وأسلوبها.

وإذا كان هناك من مقترحات - عنت لي من خلال هذه الدراسة - فإني أوجزها فيما يلي :

١- أن تتواصل الدراسات حول القصص القرآني، لأنه الوعاء الثر، الذي يتحمل كثيرا من الواردين ، وأن تركز هذه الدراسات بصفة خاصة حول: دراسة القصص الفني المستوحى من القرآن الكريم دراسة فنية تطبيقية وافية، تنفي عن منهج القصة القرآنية ما شابه على أيدي بعض كتاب الفن القصصي.

٢- من المستحسن أن تزداد الجرعة التي يتلقاها طالب الأزهر عن كل من القصة والمسرحية، بوصفهما فنيين داعا في العصر الحاضر، وأن تنتقى النماذج المقدمة إليه بواسطة الأساتذة الأعلام .

وأخيرا فلعلي اهتديت إلى وضع لبنة في صرح الدراسات القرآنية الشامخ، وأرجو أن تكون هذه الدراسة إضافة إلى ما سبقها من دراسات عن القرآن لا حصرلها، فإذا كنت وفقت فالفضل من الله وحده، وإن كانت الأخرى فحسبي أنني لم أدخر جهدا كان بوسعي أن أجود به ، وحسبي - أيضا- أنني أحسنت النية، واجتهدت ، والكمال لله - سبحانه- وحده.

و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

والله- سبحانه - أعلم بالصواب

المصـــادر والمـــراجـع

أهم المصادر والمراجع

أولا – القرآن الكريم

ثانيا مصادر ومراجع

(١) اتجاهات القصة المصرية القصيرة . د: سيد حامد النساج ، دار المعارف ١٩٧٨م.

(٢) الإتقان فى علوم القرآن، للإمام السيوطى، ط – عالم المعرفة ، دت

(٣) أثر المقامة فى نشأة القصة المصرية الحديثة، د: محمد رشدى حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤م .

(٤) الأدب القصصى والمسرحى فى مصر، د: أحمد هيكل ، دار المعارف ، ط الرابعة ١٩٨٣م .

(٥) الأدب المقارن ، د: حسن جاد حسن ، دار الطباعة المحمدية، ط الثانية ١٩٧٥م .

(٦) الأدب المقارن ، د: محمد غنيمى هلال، دار نهضة مصر، ط الثالثة، دت .

(٧) أدب نجيب محفوظ وإشكالية الصراع بين الإسلام والتغريب، د : السيد أحمد فرج، دار الوفاء للطباعة والنشر، ط الأولى ١٩٩٠م

(٨) الأدب وفنونه ، د.عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربى ، ط الثانية ١٩٥٨م

(٩) الأدب وفنونه، د. محمد مندور ، دار نهضة مصر، ١٩٨٠م .

(١٠) أسباب النزول، أبو الحسن على بن أحمد النيسابورى ، مطبعة الأنوار المحمدية، ١٩٨٤م .

(١١) أسلوب المحاورة فى القرآن الكريم،د. عبد الحليم حفنى ، مطبعة السنة المحمدية ١٩٧٧م .

(١٢) الإعجاز فى دراسات السابقين، عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربى ، ط الأولى، ١٩٧٤م

(١٣) إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلانى، بهامش كتاب الإتقان فى علوم القرآن، للإمام السيوطى، عالم المعرفة دت .

(١٤) الأفق البعيد (رواية) د. طه وادى، دار المعارف ، ١٩٨٤م .

(١٥) الأمالى، لأبى على القالى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥م .

(١٦) أنبياء الله، أحمد بهجت، دار الشروق، ط الثامنة عشرة ١٩٩٠م .

(١٧) أنشودة للبساطة،مقالات فى فن القصة، يحيى حقى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م .

(١٨) أهداف كل سورة ومقاصدها فى القرآن الكريم، د. عبد الله شحاته، الهيئة، المصرية العامة للكتاب، ط الثالثة ١٩٨٦م .

(١٩) أهل الكهف، (مسرحية)، توفيق الحكيم، المطبعة النموذجية، نشر مكتبة الآداب، ١٩٨٥م .

(٢٠) أهم الملامح الفنية للقصة القرآنية، د. إبراهيم عوضين، بحث مقدم إلى ندوة الأدب الإسلامى بجامعة عين شمس ، ١٩٩٣م .

(٢١) الباحث عن الحقيقة، (رواية)،محمد عبد الحليم عبد الله، دار مصر للطباعة، القاهرة .

(٢٢) البخلاء لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ت : د. طه الحاجرى؛ دار المعارف، ط الخامسة ،١٩٩٠م

(٢٣) بدائع الإضمار القصصى فى القرآن الكريم، د. محمد كاظم الظواهرى، دار الصابونى ودار الهداية، ط الأولى، ١٩٩١م .

(٢٤) البداية والنهاية، لإسماعيل بن كثير، ت. أحمد أبو ملحم وآخر ين ، دار الريان للتراث، ط الأولى ١٩٨٨م .

(٢٥) البرهان فى توجيه متشابه القرآن ، محمود بن حمزة الكرمانى، ت. عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٦م .

و : البرهان فى توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، تحقيق وشرح وتعليق د. السيد الجميلى، هدية مجلة الأزهر فى أشهر رمضان، وشوال وذى القعدة وذى الحجة ١٣١٤هـ .

(٢٦) البرهان فى علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى، ت. محمد أبو الفضل إبراهيم ، عيسى البابى الحلبى، ط الثانية ، د.ت.

(٢٧) بناء الرواية، تأليف : إدوين موير، ترجمة : إبراهيم الصيرفى، دار الجيل للطباعة، نشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر .

(٢٨) بنت الشيطان (رواية)، محمود تيمور، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥م .

(٢٩) تاريخ الأدب العربى ، أحمد حسن الزيات، مطبعة الرسالة، ط الحادية عشرة، د.ت.

(٣٠) تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ترجمة : د. عبد الحليم النجار، دار المعارف ١٩٦١م

(٣١) تأويل مشكل القرآن ، عبد الله بن مسلم بن قتيبة، ت : السيد أحمد صقر، دار التراث، ط الثانية، ١٩٧١م

(٣٢) تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، ت : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف ، ط السادسة، ١٩٩٠م

(٣٣) التصوير الفنى فى القرآن، سيد قطب، دار الشروق ط الحادية عشرة، ١٩٨٩م

(٣٤) تطور الرواية العربية الحديثة فى مصر ١٨٧٠ – ١٩٣٨م، د. عبد المحسن طه بدر دار المعارف، ط الثالثة ١٩٧٧م .

(٣٥) تفسير القرآن العظيم،لإسماعيل بن كثير ، دار الفكر العربى، دت .

(٣٦) التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازى، دارالفكر العربى، ط الثالثة ١٩٨٥م

(٣٧) تفسير المنار، للإمام محمد عبده، والشيخ: محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢م

(٣٨) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، د. محمد سيد طنطاوى، المجلد الأول ، مطبعة السعادة، ١٣٩٧هـ – ١٩٧٧م .

(٣٩) التفسير والمفسرون، د. محمد حسين الذهبى، المطبعة الفنية، ط الرابعة ١٩٨٩م

(٤٠) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ، للرمانى، والخطابى، وعبد القاهر الجرجانى ، ت : محمد خلف الله أحمد، و د.محمد زغلول سلام، دار المعارف ، ط الرابعة ١٩٩١م

(٤١) ثلاثية نجيب محفوظ، المستشرق الأب ج جوميه، ترجمة : د. نظمى لوقا: نشر مكتبة مصر، القاهرة د ت .

(٤٢) جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، لمحمد بن جرير الطبرى، مصطفى البابى الحلبى ، ط الثالثة ، دت

(٤٣) الجامع لأحكام القرآن ، لأبى عبد الله محمدبن جرير القرطبى، دار الريان للتراث نسخة مصورة عن طبعة دار الشعب، د ت .

(٤٤) الحوار فى القرآن الكريم، محمد حسين فضل الله، دار التعارف للمطبوعات بيروت، ط الخامسة، ١٩٨٧م .

(٤٥) الحيوان، لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ت : عبد السلام هارون، طبعة – الحلبى – القاهرة ، ١٩٥٤م .

(٤٦) دراسات فى القصة والمسرح ، محمود تيمور، المطبعة النموذجية ، نشر مكتبة الآداب القاهرة، دت .

(٤٧) دراسات فى نقد الرواية، د. طه وادى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩م .

(٤٨) دراسات قرآنية، محمد قطب ، دار الشروق، السابعة ،١٩٩٣م

(٤٩) دراسة فى نظرية الدراما الإغريقية، د. محمد حمدى إبراهيم، دار الثقافة للطباعة والنشر، دت .

(٥٠) دلائل الإعجاز ، للإمام عبد القاهر الجرجانى، ت:الشيخ محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٨م .

(٥١) ديوان ابن الرومى، ت : د. حسين نصار، دار الكتب المصرية،١٩٧٦م .

(٥٢) ديوان امرئ القيس، ت : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط الخامسة

(٥٣) ديوان الحطيئة، شرح أبى سعيد السكرى، دار صادر بيروت، دت .

(٥٤) ديوان عمر بن أبى ربيعة، ط دار صادر بيروت، د ت .

(٥٥) الرجل والطريق (رواية)، سعد مكاوى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م .

(٥٦) روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى، شهاب الدين محمود الألوسى، دار إحياء التراث العربى، بيروت ، ط الرابعة ١٩٨٥م .

(٥٧) زهرة العمر، ، توفيق الحكيم، المطبعة النموذجية، نشر مكتبة الآداب ١٩٧٦م .

(٥٨) سارة (رواية)، عباس محمود العقاد ، مطبعة حجازى، القاهرة ، ١٩٣٨م.

(٥٩) السرد القصصى فى القرآن الكريم، ثروت أباظة، دار نهضة مصر، د ت .

(٦٠) سليمان الحكيم (مسرحية)، توفيق الحكيم، دار مصر للطباعة، نشر مكتبة مصر، ١٩٨٨م

(٦١) السمان والخريف (رواية)، نجيب محفوظ، دار مصر للطباعة، نشر مكتبة مصر، دت.

(٦٢) السيرة النبوية لأبى محمد عبد الملك بن هشام، ت : د. أحمد حجازى السقا،دار التراث العربى، دت .

(٦٣) سيكلوجية القصة فى القرآن ، د. التهامى نقره، الشركة التونسية، ١٩٧١م
(٦٤) السيناريو السينمائى (الفن والتجربة) ، صلاح أبو سيف، دار المعارف، سلسلة (اقرأ)، العدد (٤٧٩)، ط الثانية ،١٩٩٠م .
(٦٥) سيناريو فيلم «العزيمة» ،تأليف : كمال سليم، دراسة وإعداد : محمد السيد شوشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥م .
(٦٦) شرح ديوان الحماسة، للخطيب التبريزى ، عالم الكتب، بيروت، دت .
(٦٧) شمس الخريف (رواية)، محمد عبد الحليم عبد الله، مكتبة مصر ، دت .
(٦٨) الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها، لابن فارس ، ت : السيد أحمد صقر، عيسى البابى الحلبى ،١٩٧٧م .
(٦٩) صفوة التفاسير، محمد على الصابونى، دار الرشيد، سورية، د ت .
(٧٠) طارق من السماء (رواية)، ثروت أباظة، دار مصر للطباعة، ١٩٨٨م .
(٧١) العصر العباسى الثانى، د. شوقى ضيف، دار المعارف، ط الثالثة، ١٩٧٧م .
(٧٢) عصفور من الشرق (رواية)، توفيق الحكيم، المطبعة النموذجية ،نشر مكتبة الآداب، القاهرة، دت .
(٧٣) فتح البارى بشرح صحيح البخارى، للحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى، ت، : محمد فؤاد عبد الباقى وآخرين، دار الريان للتراث ، ط الأولى ، ١٩٨٦م
(٧٤) فجر القصة المصرية مع ست دراسات أخرى عن نفس المرحلة، يحيى حقى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط الثانية ١٩٨٧م .
(٧٥) فرعون فى القرآن ، أبو الأعلى المودودى، المختار الإسلامى للطبع والنشر، دت
(٧٦) فن القصة القصيرة، د. رشاد رشدى ، المكتب المصرى الحديث، ط الخامسة .
(٧٧) فن القصة، د. محمد يوسف نجم، دار الثقافة، بيروت ، دت .
(٧٨) الفن القصصى فى القرآن الكريم، د.محمد أحمد خلف الله، المطبعة الفنية الحديثة ١٩٧٢م .
(٧٩) فن كتابة القصة، حسين القبانى، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، دت .
(٨٠) فى ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ط الثالثة عشرة، ١٩٨٧م .

(٨١) فى المسرح المصرى المعاصر، د. محمد فتوح أحمد، نشر مكتبة الشباب، دت .
(٨٢) فى النقد التطبيقى والمقارن، د. محمد غنيمى هلال، دار نهضة مصر، دت .
(٨٣) قراءة فى الأدب العربى المعاصر، د. فتحى محمد أبو عيسى، محاضرات مطبوعة على الآلة الكاتبة ١٩٧٩م .
(٨٤) القصة العربية فى العصر الجاهلى، د. على عبد الحليم محمود. دار المعارف ، ط الثانية ١٩٧٩م .
(٨٥) القصة العربية القديمة، محمد مفيد الشوباشى، دار القلم القاهرة، ١٩٦٤م .
(٨٦) القصة فى القرآن الكريم، د. محمد سيد طنطاوى، دار المعارف، سلسلة (إقرأ) العدد (٥٧٩) ١٩٩٣م .
(٨٧) القصة القرآنية، فتحى رضوان، سلسلة كتاب الهلال، عدد أغسطس، ١٩٧٨م .
(٨٨) القصة القصيرة (دراسة ومختارات) د. الطاهر أحمد مكى، دار المعارف، ط الأولى ١٩٧٧م .
(٨٩) القصة القصيرة نظريا وتطبيقيا، يوسف الشارونى، سلسلة كتاب الهلال، العدد (٢١٦) .
(٩٠) القصة من خلال تجاربى الذاتية، عبد الحميد جودة السحار، دار مصر للطباعة، دت .
(٩١) قصص الأنبياء، إسماعيل بن كثير، دار نهر النيل، ط الأولى ١٩٨١م .
(٩٢) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مطبعة المختار الإسلامى ١٩٨٥م .
(٩٣) قصص العشاق النثرية فى العصر الأموى، د. عبد الحميد إبراهيم، دار المعارف ١٩٨٧م .
(٩٤) القصص فى أدب العرب ماضيه وحاضره، محمود تيمور، المطبعة الكمالية ١٩٥٨م .
(٩٥) قصص القرآن بين المفسرين والقصاص قديما وحديثا، د طه عبد الفتاح مقلد ،دت.
(٩٦) قصص القرآن فى مواجهة أدب الرواية والمسرح، أحمد موسى سالم، دار الجيل بيروت ١٩٧٨م .

(٩٧) القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته، د. فضل حسن عباس، دار الفرقان للطباعة والنشر والتوزيع ، الأردن، ط الثانية ١٩٩٢م .

(٩٨) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، عبد الكريم الخطيب ، دار المعرفة بيروت، دت .

(٩٩) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري دار الريان للتراث، ودار الكتاب اللبناني، ط الثالثة ١٩٨٧م .

(١٠٠) كليلة ودمنة ، تأليف بيدبا الهندي، ترجمة ،عبد الله بن المقفع، المركز العربي للنشر والتوزيع، الإسكندرية ، دت .

(١٠١) كهف الحكيم ، فتحي العشري، ط دار المعارف، سلسلة (كتابك) ١٩٨٠م .

(١٠٢) اللآلئ الحسان في علوم القرآن، د. موسى شاهين لاشين، مطبعة دار التأليف ١٩٦٨م .

(١٠٣) لاتتركوني هنا وحدي (رواية) إحسان عبد القدوس، دار مصر للطباعة نشر : مكتبة مصر، دت .

(١٠٤) لسان العرب لابن منظور الإفريقي، دار المعارف ١٩٦٠م تحقيق علي عبد الله الكبير وآخرين .

(١٠٥) اللص والكلاب (رواية) نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ضمن مطبوعات مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥م .

(١٠٦) لقيطة (رواية) محمد عبد الحليم عبد الله، دار مصر للطباعة ، ١٩٨٩م ،

(١٠٧) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، ت : د. أحمد الحوفي، ود، بدوي طبانة ، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط الثانية، دت .

(١٠٨) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، د، عبد الله الطيب، دار الفكر للطباعة والنشر بيروت، ط الثانية ، ١٩٧٠م .

(١٠٩) المستنقع (رواية) عبد الحميد جودة السحار، مكتبة مصر ١٩٧٤م ،

(١١٠) مسرح توفيق الحكيم، د. محمد مندور، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط الثالثة، دت .

(١١١) المسرحية والقصة دراسة نقدية، د. أحمد جاد، مؤسسة الرسالة، ط الثالثة، دت.
(١١٢) المشاهد فى القرآن الكريم، حامد صادق قنيبى ، مكتبة المنار، الزرقاء الأردن، ط الأولى ١٩٨٤م .
(١١٣) المصباح المنير، للفيومى، تحقيق د. عبد العظيم الشناوى، دار المعارف .
(١١٤) معجزة القرآن، الشيخ محمد متولى الشعراوى، مكتبة التراث الإسلامى، ١٩٨٨م.
(١١٥) المعجزة الكبرى، القرآن ، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربى، دت .
(١١٦) مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، دار القلم بيروت، دت .
(١١٧) منهج القصة القرآنية، محمد شديد، شركة مكتبات عكاظ، السعودية، ط الأولى ١٩٨٤م .
(١١٨) نائب عزرائيل (رواية) يوسف السباعى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ضمن مطبوعات مهرجان القراءة للجميع، ١٩٩٥م .
(١١٩) نظرات فى القرآن، محمد الغزالى، دار التوفيق النموذجية، ط السادسة ١٩٨٦م .
(١٢٠) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعى، مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، ط الأولى ١٩٦٩م .
(١٢١) النقد الأدبى، أحمد أمين، مطبعة المعرفة، ط الرابعة ١٩٧٢م .
ومكتبة النهضة المصرية ، ط الرابعة ١٩٧٢م .
(١٢٢) النقد الأدبى، أصوله ومناهجه، سيد قطب، دار الشروق، ط الرابعة، ١٩٨١م .
(١٢٣) النقد الأدبى الحديث، د. محمد غنيمى هلال، دار نهضة مصر ، ط الثالثة، دت، ودار مطابع الشعب، ط الثالثة ١٩٦٤م .
(١٢٤) النقد التطبيقى التحليلى، د. عدنان خالد عبد الله، دار الشئون الثقافية بغداد ، ط الأولى ١٩٨٦م ،.
(١٢٥) النماذج الإنسانية فى الدراسات الأدبية المقارنة، د. محمد غنيمى هلال دار نهضة مصر، ١٩٥٧م .
(١٢٦) النماذج الإنسانية فى القرآن الكريم، د. أحمد محمد فارس، دار الفكر العربى بيروت، ط الثانية ١٩٨٩م .
(١٢٧) نماذج بشرية، د. محمد مندور، دار نهضة مصر، ط الرابعة، دت .

ثالثا : مقالات علمية فى دوريات متخصصة

١- مقال بعنوان : العناصر الجوهرية للمواقع السردية ،

تأليف :

كارل فرانز ستانزل ، ترجمة : عباس التونسى .

مجلة (فصول) العدد الحادى عشر، ١٩٩٣م .

رابعا : دوريات

١ - ملحق أهرام الجمعة أعداد مختلفة بتاريخ :

- ١٩٩٣/٩/١٧م .
- ١٩٩٣/١١/٢٦م .
- ١٩٩٤/٩/٩م .
- ١٩٩٤/١٠/٢٨م .
- ١٩٩٥/١/٦م .
- ١٩٩٥/٥/٥م .

الفهـــرس

الموضـــــوع	رقم الصفحة
المقدمة	أ – ز
تمهيد:-	١– ٢٢
أ- فن القصة تاريخاوبناء	١ – ١٢
ب- القصص القرآني في دراسات السابقين	١٣ – ٢٢
الباب الأول	
دراسة القصص القرآني	٢٣ – ١٠٢
المبحث الأول: مقاصد القصص القرآني	
أ- تناسب القصص القرآني وغايات التنزيل	٢٣ – ٤٤
ب- من أسرار انتقاء الأحداث في القصة القرآنية	٤٥ – ٦٠
جـ- التكرار	٦١ – ٧٩
د- الإجمال والتفصيل	٨٠ – ١٠٢
الباب الثاني	
البناء الفني للقصة القرآنية	١٠٣ – ٢٤٣
المبحث الأول : المشاهد والمواقف والأحداث	١٠٣ – ١٦٥
المبحث الثاني: الشخوص والنماذج البشرية	١٦٦ – ٢٠٩
المبحث الثالث: الحـــــوار والســـــرد	٢١٠ – ٢٤٣
الباب الثالث	
تطبيقات	٢٤٤ – ٣٣٤
المبحث الأول : طبيعة المشهد في القصة القرآنية و نظيره في الأجناس الأدبية.	٢٤٤ – ٢٧٢
المبحث الثاني: طبيعة الحوار في المشهد القصصي في القرآن ونظيره في الأجناس الأدبية.	٢٧٣ – ٣٠٤
المبحث الثالث: الحوار والسرد في القرآن الكريم والفن القصصي	٣٠٥ – ٣٣٤
خاتمة الدراسة ونتائجها	٣٣٥ – ٣٤٠
المصادر والمراجع	٣٤١ – ٣٤٩
الفهرس	٣٥٠